

اقرأ

الدكتور حسن الأشموني

التصنيع
طريقنا إلى القوة والرخاء



التصنيع
طريقنا إلى القوة والرخاء

الدكتور حسن الأشموني

التصنيع

طريقنا إلى القوة والرخاء

اقرأ ٢٢١

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٢١ – مايو سنة ١٩٦١

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ٥ شارع ماسبيرو – القاهرة ج.ع.م

إننا نعمل دائماً لكى نبنى بالعمل الإيجابى
وبكل طاقتنا وإمكانياتنا مجتمعاً
تسوده الرفاهية والعدالة الاجتماعية .

جمال عبد الناصر

مقدمة

« أخى المواطن :

« منذ سنوات سمعت أنينك الرهيب المستمد من سخطك المرير على »

« الظلم الخانق ، وما عانيت من بؤس قاتل حين قلت فى صوت »

« يائس حزين : من سيحمل عنى عبء القضاء على الظلم الاجتماعى ، »

« فكانت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ » .

جمال عبد الناصر

ليس من شك فى أن زعم المستعمر فى الماضى أننا لا يمكن إلا أن نكون دولة زراعية ... وأن إمكانياتنا المادية والبشرية والفنية لا تستطيع أن تخلق منا بلداً صناعياً ، هذا الزعم كان مبعثه الرغبة الخبيثة فى أن نظل أبداً مرتبطين بعجلة الاستعمار ، يمتص خيراتنا ، ويستولى أولا فأولا على موادنا الخام بأبخس الأسعار وينقلها إلى بلاده ، فتدور المصانع هناك ، وتكثر الأرزاق ، ويرتفع الدخل ، وتجد الأيدى العاطلة عملاً يدر عليها الرزق ، وييسر لها العيش الكريم والرفاهية الناعمة .

أما هنا ... فليس أمام الفلاح إلا مزيد من التعب ، ومزيد من العرق ، يبذله فى استسلام يائس على الأرض الطيبة التى تحس بآلامه ، وتجزع لبؤسه . وبين الحين والحين ، يرفع كفيه إلى السماء فى دعاء صامت يهتز له كيانه ... دعاء يبعث فى نفسه شيئاً من الطمأنينه والهدوء ، لأنه يشعر أن هناك عيوناً ترقبه ، وتطلع على كل أحواله وتعلم خبايا نفسه ، وما ينطوى عليه قلبه من إحساس بالظلم والضعة ... إنها عيون الله ، التى

تحيط به من كل مكان ...

لقد وضع المستعمر نصب عينيه أن يجعل من (مصر) عزبة ، أو ضيعة ، تنتج له المواد الخام ، فحارب كل اتجاه ينبع من ضمير الشعب ليشق طريقاً فى ميدان الصناعة . وقد سانده فى ذلك ملك فاجر ركب أهواءه ، أو ركبته أهواؤه ، وحفنة من (الباشوات) والإقطاعيين ، لم يكن لها من هم إلا التفنن فى أساليب جمع المال ، دون أى اعتبار لوازع من خلق ، أو غيرة على مصلحة الوطن الذى يدينون له بالشيء الكثير .

وسياسة المستعمر هذه ، هى سياسته فى كل مكان ، فكأن هناك اتفاقاً بين المستعمرين مبعثه الأنانية ، والجشع ، والوحشية ، على محاربة الصناعة فى كل بلد ألقاه حظه التعس فى براثن الاستعمار . فالصناعة بلا شك ، تخلق طبقة جديدة من أفراد المجتمع ، تمتاز بخصائص لا يمتاز بها الزراع ، وقد كان من عوامل نهضة أوربا ظهور هذه الطبقة التى تتمتع بآفاق أوسع ، اكتسبتها من المهارات الجديدة التى حذقتها ، وتتميز بقدرة على الشراء لا تعادلها قدرة المزارعين ، وهى لا تقف فى مهنتها عند حد ، بل تتطور وتتقدم مع التطور والتقدم اللذين تقتضيهما الصناعة ، فهى مهنة حية متطورة ، ليس لها حدود ، بعكس الزراعة ، فهى مهنة الاستقرار بجانب الأرض . لذلك فإن أهم ما يميز المجتمع الزراعى عن المجتمع الصناعى فى أى بقعة من بقاع العالم ، أن المجتمع الأول تسود أفراده العقلية الساذجة التى تؤمن بالأشياء الغير الملموسة كالخرافات والتعاويذ ،

والثبات على القديم والموروث ، والتمسك بالعادات ، والعرف والتقاليد ، فهذه كلها عوامل لها اعتبارها واحترامها فى نفوس المزارعين . أما المجتمع الصناعى فإن أفراده يتميزون بالنزوع إلى الاستقلال وحرية الرأى والعمل . وليس للتقاليد فى هذا المجتمع ما لها من الثبات فى المجتمع الزراعى ، فهى متغيرة متجددة ، بسبب تقدم وسائل المواصلات ، وانتشار عوامل التثقيف والتنوير ، والتقريب بين وجهات النظر كالراديو والصحف والتعليم . ويسيطر على أفراد هذا المجتمع الطموح نحو رفع المستوى الاجتماعى ؛ فإن طبيعة المهن الصناعية تطبع الأفراد بطابع المدنية الحديثة بمظاهرها المختلفة .

وقد مارس المستعمر سياسته هذه . . سياسة محاربة الصناعة والتصنيع فى كل بلد حل فيه ، مارسها فى مصر وسورية ، ومارسها فى الهند ، وفى الكونغو ، وفى الجزائر ، وفى كل بلد آخر اكتوى بناره . وحتى الولايات المتحدة الأمريكية ، لم تنج من أضرار هذه السياسة عند ما كانت لا تزال مستعمرة إنجليزية ، تقوم إنجلترا بحمايتها والدفاع عنها ضد الفرنسيين فى كندا ، والإسبان فى شبه جزيرة فلوريدا . فقد فرضت عليها إنجلترا نظير ذلك قوانين أسمتها « قوانين الملاحة والتجارة » وبمقتضى هذه القوانين ، لم يكن من حق سكان المستعمرات أن ينقلوا بضائعهم على سفن ليست إنجليزية ، ولم يكن فى استطاعتهم أن يتعاملوا مع بلاد ليست إنجليزية إلا عن طريق إنجلترا .وأهم من ذلك أنه لم يكن من حق سكان هذه المستعمرات

أن ينشئوا صناعة تنتج إنجلترا مثلها ، حتى ولوكان ذلك من شأنه أن يحقق ضرراً لهم .

ولو نظرنا إلى توزيع الملكية الزراعية فى مصر قبل الثورة ، لرأينا عجباً . . وأدركنا أى ظلم كان يرزح تحت أعبائه الفلاح فى العهد البائد ، وأى إهدار لكرامة الإنسان ، وبعد عن العدالة الاجتماعية كانا يسودان مصر فى تلك الأيام فلم يكن عدد الذين يملكون الأراضى الزراعية فى مصر ليزيد عن المليونين والنصف ، أما بقية المصريين الذين كان يربو عددهم فى ذلك الوقت على الثمانية عشر مليوناً ، فلم يكن لهم شىء من أرض الله ! وليس هذا فقط . . فإن الإقطاع كان يتجلى فى مصر فى تلك الفترة ، بأبشع معانيه ، وبكل ما يحمله بين طياته من ظلم ، وغدر ، وجشع . . فقد كان ٠,٧٪ من الملاك يمتلكون ٣٥٪ من الأراضى الزراعية فى حين أن حوالى ٧٢٪ منهم يملكون فداناً فأقل ! ! . .

وتحت ظلال هذا الظلم الاجتماعى وجدت المبادىء الهدامة مجالاً للتغلغل والانتشار . . وسادت الفوضى السياسية ، ورأينا كيف كان يساق الفلاحون كالسوائم إلى صناديق الانتخابات لينتخبوا رجالاً فرض عليهم . . وكيف كان الحكم والسلطان محصورين فى نطاق الأقلية من الملاك . وانتشر المرض ، والجهل ، والحرمان حتى من ضروريات الحياة . . . وانفصمت عرى الثقة والتآلف بين الحاكم والمحكوم . وارتفع أنين رهيب من صدور الناس فى كل مكان . . أنين مستمد من السخط المرير

على الظلم الخانق ، والبؤس القاتل . . . وكان الناس يتساءلون في كل مكان : من سيحمل عنا عبء القضاء على الظلم الاجتماعي ؟ . . فكانت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ . . التي حققت العدالة الاجتماعية بأجلى معانيها وكما صورها الرئيس جمال عبد الناصر في قوله :

« نريد أن نعمل على ألا تخضع أي طبقة أو يخضع أي قسم من أقسام المجتمع لطبقة أخرى أو قسم آخر . نريد أن نتخلص من استغلال الإنسان واستغلال المجتمع بعضه للبعض.. استغلال الأقلية في المجتمع للأغلبية فيه . نريد أن نقرب الفوارق بين الطبقات ، وننظم اقتصادنا وفقاً لخطة موضوعة لصالح الشعب لا لصالح عدد من الأفراد . »

* * *

ولسنا نريد أن نقفل هذه المقدمة الوجيزة التي ما قصدنا بها إلا استرعاء أذهان القراء وإعدادهم لدرس سياسة التصنيع في مجتمعنا الجديد دون أن ننوه بما كان من أثر الثورة التحريرية العربية في الوحدة الشاملة ودون أن نشيد بما تبيناه من الأدواء التي رسمتها هذه الثورة في معالجة التخلف الاقتصادي في الدول العربية بالأسلوب الذي أصبح ضرورة للدول الناهضة، وهي السياسة التخطيطية الكاملة التي تهدف إلى زيادة الدخل والتي كان لها الشأن الكبير في ما أدركناه من سعة ونماء في الميدان الصناعي .

لقد شاهدنا بمزيد من الغبطة والارتياح مولد هذه الثورة

التحريرية تنبثق من الثورة الوطنية هى وشقيقتها الثانية الثورة الاجتماعية التى تهدف إلى إقامة العدل الاجتماعى وإتاحة الفرص لكل فرد فى أن يعمل وأن يشارك فى النهضة الشاملة، وفى معركة البناء بما أقامته الدولة من الأنظمة الكفيلة بحسن توزيع الثروة والدخل ، والارتفاع بمعيشة الفرد إلى مستوى لائق أفضل ، وإسعاده من الناحية المادية والروحية ... على أنه يجمل بنا أن لا نغفل أن الثورة الوطنية قد استطاعت أن تحقق الحرية والعزة والكرامة والاستقلال فسارت قدماً نحو تحقيق أهدافنا فى الرفاهة الاقتصادية . .

وإن تضافر هذه الثورات الثلاث بما لها من قوة الامتزاج والتشابه وبما يربط بعضها ببعض من وثيق الصلة والارتباط قد أدى إلى إقامة القاعدة الراسخة للنهضة الاقتصادية لتكون عوناً للاستقلال وتدعيماً لبنائه المتين .

وقد كان حرياً بنا ، أن نستقبل بالفرح والسرور، هذه الظواهر المبثوثة فى تلك الأهداف ، ولعل أبرز هذه الظواهر ، بل فى طليعتها ، تلك المهمة الجليلة التى يضطلع بها القطاع العام ، إلى جانب ما يقوم به القطاع الخاص ، للعمل على تدعيم بنيان المجتمع الاشتراكى الديمقراطى التعاونى فى دوائر الصناعة والزراعة والتجارة . ومما لا شك فيه أن دور رأس المال الخاص هو أن يسير فى إطار الخطة العامة وأن يعمل على تحقيق أهدافها متعاوناً فى ذلك مع القطاع العام .

وفى سبيل بلوغ هذه الغايات ، يحتفظ القطاع العام ،

بملكية الشركات والمصانع والمصارف التى كانت مملوكة لبريطانيين أو فرنسيين أو أجانب آخرين ؛ ولم ينعقد التمليك فى الصناعة أو الزراعة إلا لمن لا يملك حتى لا تزداد ملكية من يملك وتكون ملكيتها للشعب بجميعه . وهكذا ينفسح أمام الأفراد مجال العمل والمشاركة فى النهضة الاقتصادية مشاركة فعالة تؤكد احترام الملكية الفردية على اعتبار أن الملكية وظيفة اجتماعية دون احتكار أو استغلال ، كما تتجه العناية إلى أن يضطلع القطاع العام فى مجال الاستثمار والإنتاج بنصيب وافر تأكيداً للسياسة الاشتراكية.

وإلى جانب ما تم من هذه الأعمال ، وتمكيناً للسير بخطوات واسعة فى تنفيذ خطة التنمية الاقتصادية ومضاعفة الدخل القومى ، ومتابعة للنشاط فى هذا الميدان ، كان طبيعياً أن تحتضن الثورة النظام التعاونى فى مجموعه لما لسياسة التعاون بالنسبة للصناعة من أثر بالغ باعتباره من مسلمات النظام الاقتصادى القومى والاجتماعى وركناً أساسياً من أركان الدولة .

ومن أجل ذلك مدت الثورة يد المؤازرة وتولت بالرعاية إحدى القواعد الرئيسية لهذا النظام ، وهو التعاون الاستهلاكى ؛ فأنشأت فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٦٠ المؤسسة التعاونية الاستهلاكية لتقوم على تدعيم الاشتراكية وتعمل على تقليل التفاوت بين الدخول المختلفة بالمعادلة بينها وذلك لضمان الرخاء للشعب وتحقيق التعاون الاستهلاكى وعدالة التوزيع دعماً للديمقراطية الاقتصادية أساس الديمقراطية السياسية مما يزيد الدائرة الاقتصادية سعة ومرونة . . . . والخطة كما قال الرئيس جمال عبد الناصر : « ليست مجرد تنمية وليست مجرد

زيادة فى الإنتاج وإنما التنمية وزيادة الإنتاج يجب أن يكون هدفهما زيادة فرص العمل أمام المواطنين وتحقيق المساواة الاقتصادية وتوفير الخدمات لمجموع الشعب » .

وقد يتاح للقارئ فى عهد الثورة أن يقرأ فى التصنيع وفى التنمية الاقتصادية وفى نهضتها الجديدة بحوثاً طويلة وكتباً مطولة، لكنه مع ذلك محتاج إلى مطالعة الكتب ذات الحدود القصيرة التى تصدر فى هذه المجموعة شاملة لهذا النوع من البحوث بعبارات سهلة واضحة، ذلك أن دراسة الكتب والبحوث الطويلة لا تغنى بحال عن مطالعة هذه المجموعة العربية من نواحى الأسلوب العام، إذ الواقع أنها مجموعة من أى النواحى يأتيها القارئ تعتبر بحق أداة فعالة من أدوات الثقافة العامة سواء فى الناحية العلمية أو الناحية الفنية، فهى أداة تأتيه فى صور تستهوى الأعين وتصبى الأفئدة مطبوعة فى طبعات بحجم الجيب مما يجعل الثقافة العامة فى متناول أفقر الناس وأقلهم حظاً من التعليم .

ولقد وفق الله هذه الدار « دار المعارف للطباعة والنشر » فى خلال عمرها الذى يحفل بألوان عديدة من البحوث والنشاط إلى أن تقوم فى سبيل اشتراكية الثقافة بتقديم الكثير من الكتب والمؤلفات التى تحوى معارف مختلفة متنوعة تعمل على توجيه النشر توجيهاً سليماً .

ويجدر بنا فى هذا المقام أن نذكر أن الثورة قد حققت بهذه المجموعات العربية على مختلف صورها قومية أو ثقافية أوسياسية أو معربة ما كانت تصبو إليه نفوسنا من الحاجة إليها لتنشئة الشباب والجيل الصاعد ؛ فالدولة ، تستهدف بهذه الثورة

الفكرية ، نتاج ثورتنا الكبرى ، رفع المستوى الإنسانى وخلق الفرد القوى للسير فى الحياة الجديدة ليشق لنفسه فيها رأياً قوياً مغرماً بالاطلاع والبحث الشخصى . .

وإنّا لنحمد الله على أن وجدت هذه المجموعات العربية فى الميدان الثقافى من التأييد والإقبال ما يضمن تحقيق هذه الأغراض من بث روح القراءة والدرس فى المواطنين جميعاً ، فأتاحت للقارئ أن يصيب منها علماً جديداً ، وذهناً رشيداً ، ولا شك فى أن نجاح اليوم يكفل نجاح الغد وضمان المستقبل . . .

وإذا كان الحاضر الذى نعيش فيه قد أضاء إشراقاً بالكفاح والنضال مزداناً بما حققه هذا الجيل من انتصارات ومكاسب فإن المستقبل كما يبدو لنا ، مملوء بتباشير الزهو والازدهار ، وإذا كانت تطورات الحياة مما يدعو للتقدم والنمو ، فإن علينا أن نواصل هذا الكفاح وأن نخوض المعارك التى تحمى هذا الكسب العظيم وتصونه من العبث ، ولا يتسنى ذلك إلا بتنشئة شباب هذا الجيل وتزويده بالثقافة والتعليم لكى يصبح أهلا لمضاعفة ما تحقق للوطن من كسب وانتصار معداً لحمل رايته والسير بها فى طريق الحرية والرخاء ...

ولقد أثمرت هذه التجربة وأصبح المجتمع بمختلف أفراده ومستوياته قارئاً مهوماً من عشاق الثقافة والتعليم .

ــ والحق الذى لا ريب فيه ــ أن الثورة بهذا البرنامج الواسع وبما اتخذته من الوسائل المثمرة السريعة والتى أصبحت معها هذه المجموعات مثابة لكتّاب العروبة وملتقى لأقلامهم ومعرضاً لآرائهم فى خدمة الثقافة والتعليم ــ الحق ــ إنها قد أتاحت لطلاب الثقافة وأهلها الفرصة فى أن يبلغوا حاجتهم الفكرية المستحبة

من هذه المجموعات فى متنوع الشؤون والأعمال — وهل للثقافة والتعليم موضوع إلا الشعب ؟ وهل للشعب مرآة إلا التعليم والثقافة ؟ ذلك ما نتوقع أن يكون عليه الغد ؛ فالحاضر يمهد للمستقبل ويمتزج به ، والزمان مقياس الحركة وروح التطور ، وهذه المجموعات لا تفتأ تعمل ناشطة فى خدمة العلم والأدب والإنسانية . . .

الباب الأول

الفصل الأول

المشكلة

لعل أهم مشكلة يواجهها الإقليم الجنوبى ، ويكرس جهده لمقاومة خطرها هى مشكلة السكان .

ومشكلة تزايد السكان مشكلة عالمية ، وليس معنى هذا أن كل بلد يعانى من زيادة السكان فيه ، فإن هناك بلاداً تعانى من قلة السكان مما يترتب عليه قصور فى استغلال الموارد الطبيعية فيها . ومن الدول التى تعانى من زيادة السكان : الهند ، والصين ، واليابان ، والإقليم الجنوبى للجمهورية العربية المتحدة. ومن الدول التى تعانى من نقص سكانها : أستراليا وبعض دول أمريكا اللاتينية ، والعراق ، والسودان .

على أنه يمكن القول بصفة عامة أن المظهر الغالب من مظاهر المشكلة السكانية هو الازدياد المطرد فى عدد السكان فى العالم . فقد بلغ هذا العدد فى مطلع القرن التاسع عشر حوالى ٩١٩ مليوناً وهو الآن يقدر بحوالى ٣٠٠٠ مليون نسمة .

وازدياد السكان فى حد ذاته لا يعتبر مشكلة ، فليس من شك أن زيادة عدد سكان دولة ما يؤدى إلى احترامها فى المحيط

الدولى، وزيادة هيبتها . ويجعل فى مقدورها تكوين قوة عسكرية، واقامة اقتصادياتها على أسس متينة .

ولكن المشكلة تكمن فى ثبات موارد الثروة ومصادر الإنتاج فى الدولة أو زيادتها بشكل لا يتناسب مع الازدياد المطرد عدد السكان .

ومن هنا تبدأ المتاعب ، فقد ينخفض المستوى الصحى ، وينخفض مستوى المعيشة . بل إن من أسباب الاستعمار والحروب الرئيسية تزايد السكان فى البلاد المستعمرة ، أو الداعية إلى الحرب ، بما لا يتلاءم مع إمكانياتها الاقتصادية ، فتعمل على إيجاد مصادر أخرى غنية للثروة ، ومجالات أوسع وأكثر حيوية لأفرادها ، فتلجأ إلى الاستعمار ، أو إلى الحروب . ولعل هذا العامل فى مقدمة العوامل التى دفعت إنجلترا إلى استعمار مصر والهند وغيرهما ، ودفعت فرنسا إلى استعمار شمال إفريقيا ، والتمسك إلى حد الاستماتة بالجزائر ، ودفعت بلجيكا إلى استعمار الكونغو ، ثم محاولة الرجوع إليه حين أجبرت على تركه ، بالدسائس ، والمؤامرات والتفرقة بين أبنائه .

وتعتبر مشكلة السكان من المشكلات التى أرقت المفكرين منذ القدم وأقضت مضاجعهم . . وألحت على عقولهم ، تحاول دفعهم على إيجاد حل موفق لها . فظهرت نظريات شتى ، تحاول كل منها أن تحل المشكلة وتقى البشرية نتائجها المدمرة . ومن النظريات المشهورة فى هذا الصدد نظرية « مالتس Malthos » وهى ترى أن سكان العالم يزدادون وفقاً لمتوالية هندسية ، فى

حين أن موارد الثروة تزداد وفقاً لمتوالية حسابية . فإذا كان عدد سكان دولة ما فى سنة من السنين مليونين ، فإن هذا العدد يتضاعف كل ٢٥ سنة ، فيصبح ٤ ملايين ثم ٨ ثم ١٦ . . وهكذا . أما مصادر الثروة والإنتاج فهى تتزايد بمقدار وحدة عددية واحدة كل ٢٥ سنة أى من ١ إلى ٢ إلى ٣ إلى أربعة إلى خمسة . . إلخ . .

وفى الإقليم الجنوبى من الجمهورية العربية المتحدة أكثر من سبب يؤدى إلى اطراد الزيادة فى السكان . ومن هذه الأسباب كثرة المواليد . وكثرة المواليد فى الإقليم الجنوبى ترتبط بطبيعة الحياة فى القرى المصرية وما تتطلبه الزراعة من أيد عاملة متوفرة ، وما تكسبه كثرة أفراد الأسرة لها من هيبة وسطوة . هذا بالإضافة إلى روح « الاتكالية » التى تتجلى خاصة فى إنجاب الأطفال ، وعادة الزواج المبكر ، وتعدد الزواج بأكثر من واحدة . كل أولئك من العوامل التى أدت إلى اطراد الزيادة فى عدد السكان فى الإقليم الجنوبى حتى وصل فى آخر تعداد حوالى ٣٠ مليون نسمة . وكان تعداد المصريين فى سنة ١٨٨٢ حوالى سبعة ملايين وفى سنة ١٨٩٧ حوالى عشرة ملايين ، وفى سنة ١٩٠٧ أكثر من إحد عشر مليوناً ، وفى سنة ١٩١٧ ما يقرب من الثلاثة عشر مليوناً ، وفى سنة ١٩٢٧ أكثر من أربعة عشر مليوناً ، وفى سنة ١٩٣٧ حوالى ستة عشر مليوناً ، وبلغ فى سنة ١٩٤٧ أكثر من تسعة عشر مليون نسمة .

وكانت نتيجة هذه الزيادة المستمرة فى عدد السكان ،

مع عدم زيادة مصادر الثروة بما يتفق وهذه الزيادة ، أن انخفضت قيمة دخل الفرد الشرائية ، فبينما كانت فى سنة ١٩٣٩ عشرة جنيهات نقصت فى سنة ١٩٥٠ إلى ٩,٧ من الجنيهات . وتبع هذا الانخفاض المستمر زيادة فى معدل الوفيات فى مصر . ونقص فى متوسط عمر الفرد حتى بلغ سنة ١٩٤٧ إلى ٢٩ سنة فقط ، بينما كانت هذه النسبة فى بلاد أخرى كبريطانيا ٦٢ سنة ، والولايات المتحدة الأمريكية ٦٥ ، والسويد ٦٦ سنة .

وقد عبر الرئيس جمال عبد الناصر عن هذه الحقيقة بقوله :

« إننا نحتاج إلى جهد لنبنى أنفسنا فنحن نتزايد فى السنة حوالى ٣٥٠ ألف نسمة ، فإذا لم نعمل عملاً مضاعفاً لكى نرفع الدخل القومى بالنسبة لهذه الزيادة ، فلن يتحسن مستوى المعيشة ، ويبقى مستوانا دائماً فى ركود » .

الفصل الثانى

المجتمع الجديد

« هذى يدى فى أيديكم أيها الإخوة المواطنون ، لنعمل جميعاً فى حقل »
« الوطن ، حتى نجنى أطيب الثمار ، ونحقق أعظم الآمال » .

جمال عبد الناصر

لعل أهم هدف للمجتمع العربى الجديد هو الخروج من مرحلة الزراعة ، والتجرر من سيطرتها على الاقتصاد القومى ، والدخول فى ميدان الصناعة من أوسع أبوابه . فالحقيقة التى لا يكاد يختلف فيها اثنان أننا مهما زدنا من مساحة الرقعة المنزرعة ، ومهما استصلحنا من الأراضى البور ، فإننا لا نستطيع أن نعتمد اعتماداً كلياً على الزراعة فى بناء اقتصادياتنا ، وفى توفير سبل المعيشة للمواطنين ، والارتقاء بمستوى العيش بينهم . ذلك لأن الازدياد الخطير فى عدد السكان يكتسح أمامه كل إمكانيات الزراعة ، ويلتهم كل قدراتها ، ويسأل هل من مزيد ؟

فالزراعة وحدها لا تستطيع بحال من الأحوال أن تكون سبباً فى رفاهية هذا الشعب ، أو الارتقاء بمستوى معيشته... الهدف إذن ، هو الدخول إلى مرحلة الصناعة ، وبذل الجهد مضاعفاً لكى نثبت أقدامنا فيها ، ونعوض ما فاتنا من سنين طويلة ، قضيناها فى التطلع إلى العالم من حولنا ، وهو يحقق

النصر–فى ميدان العلم– تلو النصر ... كنا مغلوبين على أمرنا ؛ يكتم الاستعمار أنفاسنا ، ويزعزع فى نفوسنا كل ثقة فى إمكان قيام صناعة ذات بال فى بلادنا ، ويهدم كل فكرة تهدف إلى وضع حد لسيطرة الزراعة على اقتصاديات البلاد ، وإتاحة الفرصة للصناعة للمساهمة فيها . ذلك لأن هذه الثقة ، وتلك الفكرة هما الخطر الكبير الذى يهدد الاستعمار ، ويقوض دعائمه ، لا فى الجمهورية العربية المتحدة وحدها ، ولكن فى كافة أقطار العالم العربى . فإن خروج البلاد العربية من مرحلة الزراعة إلى مرحلة الصناعة معناه تحطيم الاستعمار الذى من أهم خصائصه الاحتكار ، بل إن الدعوة إلى عمليات التصنيع تعتبر ثورة حقيقية فى أقطار العرب . فإن تاريخ الاستعمار المظلم فى هذه الأقطار يبين لنا كيف عمد المستعمر إلى إبعاد الشعوب العربية عن ميادين الصناعة ، لتظل إلى الأبد حقول بترول ، ومزارع قطن ، وأسواقاً لمنتجات المصانع فى الخارج .

وهكذا كانت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ مصدراً للأسس التى يقوم عليها مجتمعنا الجديد بكل ما فيها من مبادئ الثورة الاجتماعية ، تلك المبادئ التى تعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية ، وتكافؤ الفرص ، والتى تعمل على بناء مجتمع جديد أساسه الصناعة وتحرير الاقتصاد ، وتقديم الخدمات للجميع ، وتحطيم الاستغلال والانتهازية والرجعية ... إنه المجتمع «الاشتراكى الديموقراطى التعاونى» .

ولكى تقوم البلاد باستغلال مواردها الطبيعية وتستجيب

إلى مطالب المواطنين ، ولكى تعمل على تنظيم الدخل القومى ، اتجه تشريعنا منذ الثورة إلى الأخذ بسياسة الاقتصاد الموجه ، وذلك باحترام الملكية الفردية وقيام المنافسة فى ميدان الصناعة والتجارة فى الوقت نفسه ، والدخول فى الحياة الاقتصادية على أساس مبدأ التخطيط الاقتصادى .

وللوصول إلى الأهداف الاجتماعية التى عملت الثورة منذ البداية على تحقيقها ، جاء دستورها محققاً لذلك البرنامج الواسع ، وعمل على التوفيق بين النشاط الاقتصادى العام والنشاط الاقتصادى الخاص مرتكزاً على نظام فريد فى نوعه يتميز بفلسفة أوحت بها العقيدة الجماعية ، وما كانت ترزح فيه البلاد من آلام ومشكلات ، فلا هو نظام مستمد من الفلسفة الفردية وحدها ، بل تجمعت عناصره من النظامين معاً على أساس الإيمان بالفرد وبالجماعة فى الوقت نفسه مما يقضى على الصراع بين الطبقات ، ويجمع الشعب فى وحدة واحدة تسود أفراده المساواة ، ويقوم بينهم مبدأ تكافؤ الفرص .

فالمجتمع الجديد ، لا يهدف — كما قال الرئيس جمال عبد الناصر — إلى أن تكون هناك « رأسمالية الدولة » ، بل إن رأس المال الخاص حر ما دام يعمل لمصلحة الشعب ، ويعمل للخير العام للشعب . وفى الوقت نفسه ، فإن الدولة تتدخل لا بهدف القضاء على الرأسمالية أو تصفيتها ، بل بهدف المراقبة ، لأن رأس المال الوطنى ضرورة لازمة فى هذا الوقت من أجل تطوير الإنتاج ، ومن أجل تطور الاقتصاد القومى ، مع العمل على ألا يتحكم رأس المال فى الحكم ، ولا

يسيطر عليه ، ولا يستغل الأغلبية العظمى للشعب .

لذلك كله تعرض الدستور للاقتصاد القومى فأرساه على مبادئ العدالة الاجتماعية وتنمية الإنتاج ورفع مستوى المعيشة واستعمال رأس المال فى خدمة هذا الاقتصاد . فالدول فى وقتنا الحاضر ،لا تقنع بالوقوف عند ما لها من المهام والوظائف الأساسية فى حدود اختصاصاتها التقليدية من توفير العدالة والمحافظة على الأمن والصحة العامة ، بل إن الرغبة فى دخولها الحياة الاقتصادية لتنظيم الصناعات ونواحى الإنتاج تدفعها إلى القيام علاوة على هذه المهام بمهمة الصانع أو المنتج .

فالتخطيط كما نراه فى الوقت الحاضر قد ساد جميع الدول ، وإن كان يختلف فى بلد عنه فى البلد الآخر .

والتخطيط معناه التنظيم وإجراء الحساب لكل شىء ولكل عنصر ولكل قوة إنتاجية ، وذلك لمضاعفة الدخل فى وقت محدود .

ومن الدول من يعتنق فى هذا الميدان مبدأ التخطيط الشامل الذى تكون فيه للدولة ملكية جميع مرافق الإنتاج . ومن الدول من يعمل على التخطيط الجزئى ، فتقتصر فيه مهمة الدولة على تنظيم بعض النواحى الهامة ، وتعهد للاقتصاد الفردى بالقيام بالنواحى الأخرى .

ويزداد تدخل الدولة عند ما تقوم بالمشروعات العديدة التى لا يستطيع الاقتصاد الفردى أن يقوم بها . كما يتسع التدخل فى حالات الحرب ، والأزمات ، والاحتكار وتعبئة القوى للتنمية الاقتصادية ، بينما نرى أن هذا التدخل يقل ويتضاءل فيما عدا ذلك من حالات .

التخطيط فى الجمهورية العربية المتحدة :

أنشأ المشرع فى الجمهورية العربية المتحدة هيئتين للتخطيط هما :

١ ــ المجلس الأعلى للتخطيط ، وهو يرمى إلى تحديد الأهداف الاقتصادية والاجتماعية .

٢ ــ لجنة التخطيط ، وهى تعمل على وضع وتنفيذ الخطة العامة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية .

وقد وضعت الجمهورية العربية المتحدة خطة موحدة للتنمية الاقتصادية تهدف إلى تنسيق العمل فى جميع الميادين الاقتصادية ، واستغلال الإمكانيات الموجودة فى البلاد ، وإيجاد التعاون الحقيقى بين رأس المال العام ورأس المال الخاص . والدولة تسير فى هذا الشأن على أساس التدخل بالقدر اللازم لتحرير الاقتصاد ، والمشروعات الإنتاجية والصناعية من كل نوع من أنواع السيطرة .

ويكفل التخطيط توفير الخامات والمواد والوقود والطاقة الكهربائية والمعدات ، والعمل على رفع الكفاية الإنتاجية .

ومن بين الإدارات التى تتكون منها لجنة التخطيط القومى وفقاً للتشريع ، الإدارة العامة للصناعة والطاقة الكهربية التى تختص بدراسة وتخطيط وتقويم المشروعات الصناعية المختلفة فى الصناعات الأساسية أو الكماوية أو الهندسية ، أو فى دراسة وسائل النهوض بالصناعات الحالية والنهوض بالصناعات الاستهلاكية الصغرى .

وعند ما وجد المشرع فى عهد الثورة أن قواعد القانون العام لا تتفق وحدها وإدارة المنشئات الصناعية والتجارية ، اتجه إلى فكرة الشركات المساهمة لما تحققه من النشاط والمصلحة العامة فوق أن هذا النوع من الشركات ما هو إلا وسيلة لتجميع رءوس الأموال . فالتدخل قد يكون مجرد فرض رقابة الدولة على الكيفية التى تزاول بها الشركة نشاطها ، ومدى اتفاقه مع المصلحة العامة كالشركات الخاضعة للرقابة . والأخذ بنظام الشركات المختلطة هو من الوسائل التى تكفل إحكام الرقابة ، والشركات المختلطة هى التى تملك الدولة معظم أسهمها أو جانباً كبيراً منها على الأقل ... وقد يكون التدخل على صورة الاشتراك مع أصحاب رءوس الأموال الخاصة فى رأس مال الشركة كشركات الاقتصاد المختلط .

وقد يكون التدخل أيضاً فى صورة تملك رأس المال بأجمعه ، وإدارة شئون الشركة كالشركات المؤممة . ولذلك يحكم هذا النوع من الشركات القانون الخاص والقانون العام ، ويطلق عليها اسم الشركات العامة ، وهى تسيطر فى الوقت الحاضر على أهم المرافق الاقتصادية فى الدولة ، وذلك باشتراك الهيئات العامة فيها .

وقد رأى المشرع فى عهد الثورة أن تتكفل الدولة ببعض وجوه هذا النشاط لا سيما إذا كان مرتكزاً على المصلحة العامة . فهناك من المؤسسات ما تتفق طبيعته مع المصلحة العامة فى البلاد ، كالمؤسسات المتعلقة بالدفاع الوطنى ، أو موارد الثروة

القومية كالمناجم وكمشروعات الرى الكبرى وتوليد الكهربا من مساقط المياه ، والتنقيب عن البترول ، وإزالة الأحياء المتهدمة وإعادة تعميرها ، والمواصلات .

وليس هناك ما يحول دون أن يجمع المشروع الواحد بين رأس المال العام والخاص ، وتشترك المؤسسات العامة مع الأفراد فى إدارته ، والأخذ بنظام الاقتصاد المشترك .

فالدولة قد تقوم بإدارة المشروع العام سواء عن طريق شركة مساهمة مؤممة ، أو عن طريق مؤسسة أو منظمة عامة صناعية أو تجارية تتمتع بالشخصية المعنوية .

ويتضح من كل ما سبق أن مجتمعنا الجديد ، لا يعمل على القضاء على رأس المال الخاص الذى يستهدف مصلحة الشعب ، ويعمل داخل نطاق تخطيط الدولة . ومعنى هذا أن الرأسمالية الحرة المطلقة ليست من نظم المجتمع الجديد ، بل إن الذى يقره المجتمع هو استخدام رأس المال الفردى الحر من أجل تحقيق التطور الاجتماعى الذى يحقق مصلحة الشعب .

فالدولة فى تدخلها فى الصناعة لا تهدف أبداً إلى أن تكون الرأسمالى الوحيد ، فالرأسمالية الوطنية – كما قال الرئيس جمال عبد الناصر – ضرورة لازمة لتقويم اقتصادنا ، وللتنمية ، وللوصول إلى تحقيق الاستقلال الاقتصادى .

ولكن الدولة تدخلت حتى لا تتكرر مأساة الماضى ، فهى تعتقد أنها مسئولة عن حماية الغالبية العظمى من أبناء الشعب ضد الاستغلال الاقتصادى والاجتماعى الذى يجرى فى دم بعض

من اعتادوا على السيطرة والاستغلال .

وهذا يتفق مع دور النظام الاشتراكى الديموقراطى التعاونى الذى يهدف إلى مقاومة الفردية الانتهازية المستغلة ، وتشجيع الفردية الوطنية التى تتعاون من أجل خير الشعب ومصلحته .

وقد عبر الرئيس جمال عبد الناصر عن هذا الدور بقوله :

« إن هدفنا القضاء على الاستغلال لنقيم بدلاً منه مجتمعاً تتعاون فيه الرأسمالية الوطنية مع الحكومة ومع الشعب ومع الادخار العام للشعب من أجل مصلحة الشعب ، لا من أجل استغلال الشعب . مجتمع تتعاون فيه الملكية أو الملكيات المختلفة من أجل المصلحة لا من أجل الاستغلال » .

فالمجتمع الجديد ، يحتاج إلى كل يد فيه ، ويحتاج إلى بذل الجهد مضاعفاً حتى ترسخ دعائم الاشتراكية الديموقراطية التعاونية ، وحتى يتحرر الوطن من الاستغلال ويزداد الدخل القومى .

ويأتى ذلك عن طريق العمل المستمر القائم على التضحية وإنكار الذات فى كل ميدان من ميادين الحياة . واستخدام كل العناصر الممكنة للوصول إلى الأهداف المرجوة له ، كاستخدام الرأسمالية الوطنية من أجل التنمية الاقتصادية ، واستخدام الرقعة الزراعية الموجودة من أجل رفع المستوى فيها ، ورفع محصول الفدان ، وزيادة الرقعة بتوصيل المياه إليها حسب إمكانياتنا .

وأهم من هذا كله ، يجب علينا التوجه إلى ميادين أخرى ، وفى مقدمة هذه الميادين . . . . الصناعة . .

الباب الثانى

الفصل الأول

تطور الصناعة

١ - فى أوربا :

كانت الحرفة السائدة فى أوربا فى العصور الوسطى هى الزراعة . وكانت الأغلبية العظمى من الأوربيين يشتغلون بالزراعة تحت ظل نظام الإقطاع الذى فرق بين طبقتين من الناس ، طبقة الأشراف والنبلاء والأمراء وهم الأقلية ، وكانت لهم كل المزايا ، ويتمتعون بكافة الحقوق ، ويتبوأون أرفع المناصب وهم وحدهم - بالإضافة إلى كبار رجال الدين - الذين لهم حق امتلاك الأرض وخيراتها ، فقد كانت النظرية السائدة حينذاك أن الله قد وهب الأرض بمن عليها للإمبراطور فهو ظله على الأرض يحكم الناس وفقاً للحق الإلهى فى الحكم . ويوزع الإمبراطور بعض هذه الأرض على حاشيته ، وعلى من يشاء من الأشراف والنبلاء والأمراء . . ، وهؤلاء يسيطرون على الأغلبية الساحقة من أفراد الشعب يسخرونهم للعمل فى إقطاعياتهم فيقضون حياتهم كالرقيق ، لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً . . وليست لهم أية حقوق .. يزرعون الأرض تحت ظروف أشد ما تكون قسوة نظير قدر يسير من المحصول يضمن للسيد

أو النبيل أن يظل عبيده مرتبطين دوماً بعجلته ، يتوارثهم هم والأرض التى يعملون فوقها جيلاً بعد جيل .

ولم تكن الصناعة حينذاك عملاً يتفرغ له إنسان ، فالأرض هى المصدر الوحيد للعيش ، والزراعة هى وسيلة الرزق الأولى . أما الصناعة ، فهى شىء ثانوى ، يستطيع المزارع إذا شاء ، وإذا وجد فسحة من الوقت ، أن يمارس شيئاً منها فى بيته فى حدوده الضيقة وإمكانياته المحدودة ، وذلك ليسد حاجته أولا ، إذ كانت كل أسرة تسد حاجاتها بنفسها ، وإذا بقى شىء زائد عن حاجتها بعد ذلك ، فلا مانع من تبادله مع أسرة أخرى ، أو أهل قرية أو ضيعة مجاورة .

ومرت الصناعة بعد ذلك بأدوار كثيرة حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن من تقدم وتطور وازدهار . فبعد أن تخلص المجتمع الأوربى من بعض قيود العصور الوسطى ، على الحريات وأساليب التفكير ، والملكية ، والابتكار ، ظهر دور جديد للصناعة يطلق عليه « دور الصناعة المنزلية » ويقترن هذا الدور بظهور فئة من التجار أو « الوسطاء » كانوا حلقة الاتصال بين الصناع ... وإلى ظهور هذه الفترة لم يكن لكلمة : « صانع » دلالتها المعروفة الآن ، إذ لم يكن التفرغ للصناعة موجوداً حينذاك ... كان الزارع يعمل فى حقله بالنهار ، ثم يسهر على نوله أو جلوده أو أية مادة أولية أخرى أحضرها له « الوسيط » وكلفه بصناعة شىء منها نظير أجر معين ، يساعده فى ذلك زوجته وأولاده وكل فرد فى البيت . وكان الدور الذى يقوم

به « الوسيط » هو دور « الممول » الذى يشترى المواد الخام ، و يدفعها إلى المزارع ليصنعها نظير أجر متفق عليه ، ثم يأخذها بعد ذلك ويتولى بيعها كمادة مصنعة للمستهلكين فيحقق بذلك ما يرجوه من ربح .

وبمضى الزمن وتعقد أساليب الحياة ، وتزايد حاجات الناس ، وجد « الوسطاء » أن هذه الطريقة قاصرة عن ملاحقة التزايد الكبير فى الاستهلاك ، فإن الوقت الذى يبذله الوسيط فى الانتقال إلى الزارع لإعطائه المواد الخام ، ثم عودته إليه مرة أخرى ليأخذ المصنوعات ، كل ذلك مع صعوبة المواصلات فى ذلك الحين ، وعدم تفرغ الزراع لعملهم الجديد ، ونظرتهم إليه على اعتبار أنه مجرد عمل ثانوى ، وتلكؤهم ، وعدم تقيدهم بالمواعيد ، وعدم إتقانهم لعملهم فى معظم الأحيان . هذه العوامل كلها دفعت الوسطاء إلى التفكير فى وسيلة أخرى تحقق لهم السرعة فى إنجاز العمل مع الدقة والإتقان .

وقد كان هذا الاتجاه خطوة إلى إنشاء المصانع التى تقوم أصلاً على مبدأ تفرغ العامل لعمله الجديد تفرغاً كاملاً ، وتخصصه فيه بما يحقق الدقة والمهارة ، واعتباره وسيلة الرزق الوحيدة فى حياته . فأنشأ الوسطاء بيوتاً خاصة للصناعة وراحوا يغرون الزراع بالأجور المرتفعة ، ويحاولون دفعهم بشتى الطرق إلى ترك الزراعة والتفرغ للصناعة فى البيوت المعدة خصيصاً لهذا الغرض . وأقبل الزراع إقبالا كبيراً على العمل الجديد ، وهاجر الكثيرون منهم من القرى إلى المدن إلى غير رجعة . وظهرت لأول

مرة فى التاريخ طبقة الصناع ، وظهرت معها المصانع التى تتنافس فيما بينها مما أدى إلى إنعاش الصناعات المختلفة وتقدمها ، وساعد على هذا توفر المواد الأولية عقب الكشوف الجغرافية التى توغلت إلى كثير من أقطار الشرق الأقصى كالصين والهند ، وزحفت حتى كشفت عن أمريكا التى أمدت أوربا بالكثير من المعادن المختلفة مما أدى إلى تحول معاملات الأفراد فى أوربا تدريجياً من طريقة المبادلة والمقايضة إلى استخدام النقود أساساً للبيع والشراء . وأدى هذا أيضاً إلى ظهور الشركات الكبيرة ذات رؤوس الأموال الضخمة ... وقد تعدى نشاط هذه الشركات فى القرن التاسع عشر الأسواق المحلية إلى الأسواق العالمية . ونشطت الصناعة نشاطاً عظيماً لا سيما بعد اكتشاف قوة البخار ، واستخدام الحديد والصلب فى بناء السفن والآلات والقطارات مما أدى إلى حدوث انقلاب خطير فى أساليب الصناعة ، ظهرت آثاره فى هجرة آلاف العمال من القرى إلى المدن حيث المصانع . وأصبحت طبقة العمال والصناع طبقة لها اعتباراتها ، ومشاكلها ، فصدرت التشريعات العمالية التى تحدد العلاقة بين العامل وصاحب العمل من حيث الأجور ، وساعات العمل ، والراحة ، إلخ ، وتحتفظ بحق العامل فى المكافأة أو التعويض عند ترك العمل ، أو الإصابة فى أثنائه — إلى آخر التشريعات العمالية التى سنفرد لها فصلاً فى هذا الكتاب .

٢ ــ الصناعة فى مصر :

عرف المصريون الصناعة منذ أقدم العصور ، وتفوقوا فيها . فعرف المصريون القدماء الكثير من المعادن ، والمواد الأولية ، واستخدموها فى صناعة كثير من الأدوات والآلات التى بلغت من الإتقان والروعة حداً يدل على مدى تفوقهم ، وتفهمهم لأسرار هذا الفن .

ومرت الصناعة فى مصر بعد ذلك بعهود ازدهرت فيها خاصة بعد الفتح العربى ، حيث أصبحت مركزاً للإمبراطورية الإسلامية فترة طويلة ، فى عهد الدولة الفاطمية ، والدولة الأيوبية ، وأوائل عهد المماليك . غير أن الصناعة لم تلبث أن تدهورت فى أثناء الحكم العثمانى لمصر ، حين أهمل الحكام كل ما من شأنه أن يحقق الرفاهية أو مجرد العيش الكريم للشعب ، وكان كل همهم محصوراً فى جمع المال ، وفرض الضرائب ومقاسمة الناس فى أرزاقهم . وعمد حكام هذه الفترة إلى نقل أمهر العمال والصناع من مصر إلى القسطنطينية ، فخلت البلاد من كل يد ماهرة .

وانتهت السيادة الفعلية للدولة العثمانية على مصر سنة ١٧٩٨ عند ما جاءت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت ، وإن ظلت سيادتها الإسمية حتى سنة ١٩١٤ عند ما أعلنت إنجلترا الحماية على مصر ، وزوال تبعيتها للدولة العثمانية .

وقد وضع الفرنسيون فى مصر أثناء حملتهم نواة كثير من الصناعات مثل صناعة المنسوجات والورق والبارود ودبغ الجلود ،

وآلات الهندسة ، والطب ، وذلك ليأس الفرنسيين من الاتصال ببلادهم بعد تحطيم أسطولهم فى موقعة أبى قير البحرية مما دفعهم إلى محاولة توفير كل حاجاتهم الحربية والمدنية داخل مصر . ولما كان مبعث إنشاء هذه الصناعات هو المصلحة الخاصة ، فقد اندثرت بانتهاء الحملة .

وعند ما تولى محمد على حكم مصر ، وجه الصناعة وجهة تخدم أطماعه ، وكان يعتمد فى تحقيق أطماعه فى التوسع والغزو على الجيش والأسطول ، ولذلك فقد كانت معظم الصناعات التى أنشأها خاصة بإنتاج ما يلزم الجيش والأسطول من أسلحة وذخائر وملابس . وساعده على ذلك توفر المواد الأولية فى مصر خاصة بعد زراعة القطن والنيلة والكتان ، وتربية دودة القز على أوراق شجر التوت ، ووفرة رأس المال كنتيجة لسياسة الاحتكار التى انتهجها فى الزراعة والصناعة والتجارة ووفرة الأيدى العاملة مع رخص أجورها إلى حد التسخير .

وعند ما خفض الجيش ، وقضى على الإمبراطورية المصرية بمقتضى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، تدهورت معظم هذه الصناعات ، إذ لم يعد لوجودها فى نظر محمد على ما يبرره . ثم أغلق ما تبقى من مصانع فى عهد عباس وسعيد . وأفسدت الاختلاسات ، ومظاهر الإسراف الشديد ، وفساد الحكم كل محاولات إسماعيل بعد ذلك لإقامة صناعات جديدة ، أو إحياء ما اندثر منها .

وعند ما وقعت مصر بعد ذلك فى براثن الاستعمار البريطانى كان ذلك إيذاناً بالقضاء على كل محاولة للتصنيع ، فقد كان

هدف المستعمر أن يجعل من مصر مزرعة ، تنتج له المواد الخام ، وفى مقدمتها القطن ، لترتبط به إلى الأبد وتظل دائماً سوقاً رائجة لبضاعته ، التى تقوم أصلا على ما تنتجه بلادنا من خيرات .

وفى الوقت نفسه ، شجعت سلطات الاحتلال رأس المال الأجنبى ، وفتحت له أبواب البلاد على مصراعيها ، فشهدت هذه الفترة الكثير من الشركات الأجنبية التى قامت فى مصر ، بتشجيع من المستعمر ، والتى سيطرت على أهم المرافق فى البلاد مثل شركة النور ، وشركة المياه ، وشركة الترام ، وظلت الوظائف الفنية والكبرى فى هذه الشركات وقفاً على الأجانب وحدهم ، وأبعد المصريون عن التدرب فيها ، ولم يسمح لهم بالعمل إلا فى الوظائف البسيطة التى لا تمكنهم من الوقوف على أسرار العمل .

ثم قامت الحرب العالمية الأولى ، وقطعت المواصلات بين مصر ، وبين العالم الخارجى ، وأصبح من الصعب تدفق البضائع الأجنبية لإشباع حاجة جيوش الاحتلال ، فكانت هذه أول فرصة لظهور كثير من الصناعات مثل صناعة السكر والصابون والزيوت وغزل القطن ونسجه .

ثم لم تلبث أن انفجرت ثورة ١٩١٩ منادية بالاستقلال السياسى ، والاقتصادى ، وتحرير البلاد من سطوة الاستعمار التى سيطرت على كل ناحية من نواحى الحياة فى مصر . وارتفعت أصوات الشعب منادية بحق مصر فى إقامة مؤسسات مصرية ، برؤوس أموال مصرية ، ويدور العمل فيها بأيد مصرية . وكانت هذه الأصوات هى الدعامة الأولى التى ارتكز

عليها طلعت حرب حين أنشأ بنك مصر سنة ١٩٢٠ بأسهم مصرية ، وظلت شركات البنك تنمو وتتطور حتى سدت بعض حاجات الشعب ، فكان منها شركة الغزل والنسيج ، والتأمين ، والملاحة ، والطيران ، والزيوت ، والسينما . . . .

وفى سنة ١٩٣٠ خطت مصر خطوة خطيرة نحو تدعيم الصناعات المحلية ، وحمايتها من منافسة الصناعات الأجنبية بأن وضعت التعريفة الجمركية فرفعت الضرائب على الواردات التى تنتج مصر مثيلتها حتى يكون فى ذلك حماية للاقتصاد القومى .

ولكن على الرغم من كل المحاولات الصادقة التى بذلها بعض أبناء هذه الأمة المخلصين ، لتدعيم الصناعة فى مصر ، فقد كانت هذه المحاولات ، مجرد خفقات فردية إذ لم يكن للحكومات قبل ثورة ١٩٥٢ دور إيجابى فعال فى توجيه اقتصاديات البلاد . كانت أهواء الحكام ومطامعهم ، وعدم جديتهم فى تنفيذ عمل نافع ، وتكالبهم على الحكم بشتى الطرق ، من العوامل التى لم تساعد على خلق وعى اقتصادى سليم فى نفوس الشعب ، فانصرف المواطنون إلى استثمار أموالهم فى شراء الأراضى الزراعية ، أو بناء العمارات ، أو تكديسها فى البنوك والخزائن . وكانت النتيجة أن أهملت الصناعة ، فيما عدا مشروعات فردية ضعيفة ، وظلت البلاد تعتمد أساساً على ما يستورد من الخارج ، إذ لم يكن هناك ما يدفع القائمين بأمر الحكم إلى وضع سياسة صناعية سليمة تغطى حاجات البلاد ، وتمتص الأيدى العاطلة ، وتنهض بمستوى المعيشة . فكانت الصناعة فى الماضى تقوم على أسس

ارتجالية لسد الحاجات المفاجئة ، ولم تكن هناك سياسة ثابتة تتمشى مع زيادة السكان وحاجاتهم المتطورة المتزايدة .

وعلى ذلك ، فلم تكن الصناعة عنصراً يساهم مساهمة ذات بال فى الدخل القومى ، وأدت هذه السياسة الارتجالية إلى انهيار كثير من الصناعات خصوصاً تلك التى قامت دون دراسة لبرامجها ، وتفهم عميق للسوق ، ورغباتها ، بل قامت تلبية لظروف طارئة ، كالصناعات التى قامت فى أثناء الحرب ، فهذه لم تلبث أن فقدت مقومات وجودها وبقائها بعد آن وضعت الحرب أوزارها .

الفصل الثانى

نقطة الانطلاق

انبثقت الثورة من ضمير الشعب ، وقامت معبرة عن آماله فى تحقيق حياة يتخلص فيها من الظلم الاجتماعى الذى اكتوى بناره ردحاً طويلاً من الزمن ، وتوراثه أباً عن جد ، كما يتوارث غرائزه وعاداته وتقاليده ، حتى غمض عليه فهم نقطة بدايته ، وإن بدت آثاره واضحة ملموسة يعانى منها فى صمت يائس . . بدا ذلك فى التفاوت الكبير فى مستوى المعيشة بينه وبين غيره من الأقلية التى تتمتع بالنفوذ والسلطان ، وكأن الله قد خلق الأرض ، وما عليها من خيرات لتتمتع بها هذه الأقلية وحدها دون سائر خلقه ، وبدا أيضاً فى عدم تكافؤ فرص الرزق أمام المواطنين مما لم يدع فرصة لأحد من أفراد الشعب لكى يطمئن على مستقبله أو يأمن لمصير أولاده . كان المجتمع فى تلك الفترة الحالكة يمثل قاع بحر أو محيط أحالته الرياح والأعاصير إلى مكان مظلم يهدد بالخوف والقلق ، يتربص السمك الكبير فيه الفرص لينقض على السمك الصغير ويلتهمه ويشبع بتأمله شهواته ورغباته .

فكان من الطبيعى ، وقد نبعت الثورة من وجدان الشعب ، وحمل لواءها فتية من بين صفوفه ، آمنوا بربهم ، وبوطنهم ،

وعاشوا فترات الظلم وعانوا من غدر الطغاة ، وأحسوا بمصائب قومهم ، وآلامهم ، وما يجيش فى صدورهم من آمال مكبوتة لا تجد سبيلاً إلى الظهور أو التعبير .

كان من الطبيعى أن تضع الثورة فى قمة أهدافها إرساء دعائم الوطن على أسس قوية تحقق له العزة والمهابة والاحترام ، وتضع حداً للظلم الاجتماعى بشتى مظاهره، وتردع الاستغلاليين ومصاصى الدماء ، وتوفر الطمأنينة والأمان والاستقرار لأفراد الشعب الذين طالما قاسوا من مرارة اليأس والقلق والحرمان . ولقد عملت الثورة منذ البداية على أن تحقق للشعب مستوى من العيش يليق بكرامة الإنسان ، وآمنت فيما آمنت به من وسائل النهوض بمستوى المعيشة بأن التوسع فى تصنيع البلاد من أهم الأسس التى يقوم عليها استقلال البلاد الاقتصادى ، بالإضافة إلى ما للتصنيع من دور كبير فى تحقيق التوازن بين مجالات النشاط الاقتصادى ، مما يعود بزيادة الدخل ، وتنمية الإنتاج ، ويقوى العزم على استغلال موارد البلاد ومصادر الثروة المعطلة فيها ، مثل خامات الحديد والبترول ومصادر الكهربا من مساقط المياه ، وإنشاء صناعات جديدة تطبق فيها أحدث أساليب الإنتاج .

وقد نهجت الثورة فى استغلال مصادر الثروة فى البلاد منهجاً سليماً ، يدل على بعد النظر ، والغيرة على مصلحة الوطن والمواطنين ، فلم تدع هذه الثروة الطبيعية لقمة سائغة بين يدى رأس المال الأجنبى ، وهى فى هذا قد استفادت من مآسى الاستعمار ، وسيطرته الغاشمة على الثروات الطبيعية فى الشرق

الأوسط على وجه الخصوص . فآبار البترول مثلاً التي تتدفق فى أقطار الشرق الأوسط ، يعمل الاستعمار ممثلاً فى الشركات الأجنبية التى تستغل هذه الآبار ، على استنفادها بطريقة تدعو إلى الدهشة وتكشف القناع عن نواياه الخبيثة . . فبينما تستنفد البئر فى الولايات المتحدة الأمريكية فى مدة تتراوح بين الخمسين والستين عاماً ، نجد أن الشركات الأجنبية قد رسمت خطتها على استنفاد بئر البترول فى البلاد العربية فى مدة لا تزيد على الخمسة والعشرين عاماً . ومن ناحية أخرى نجد أن سعر بترول الشرق الأوسط يقدر على أساس السعر السائد فى شرق الولايات المتحدة الأمريكية ، وهو سعر بسيط إذا قورن بسعر البترول المنتج من الجهات الأخرى ، فهذه يسعر بترولها على أساس السعر السائد فى أوربا ، وهو سعر مرتفع فى أغلب الأحوال .

هذا مثل من أمثلة سيطرة رأس المال الأجنبى على مصادر الثروة الطبيعية فى الشرق الأوسط . وقد عملت الثورة على تلافى هذا الاستغلال منذ البداية . فعملت على أن تحقق للبلاد الاستقلال الاقتصادى حتى يتحقق لوطن الخلاص من براثن الاستعمار ، وسيطرة الإقطاع والاحتكار . وذلك بتشجيع الصناعات المحلية ، وتعهدها بالرعاية وإزالة الصعوبات والعراقيل من طريقها حتى تنمو وتزدهر . وهى قد سلكت للوصول إلى هذه الغاية سياسة مدروسة أهدت إليها الدراسة العملية المنظمة ، والبحث الدقيق فى مقومات الصناعة الناجحة ، ومدى توفر

هذه المقومات فى البلاد ، وما يحتمل أن يقوم أمام الصناعات المختلفة من صعوبات ، وكيفية التغلب عليها .

تنمية الإنتاج القومى :

ولم تضع الثورة الوقت فى الكلام المعسول والخطب الرنانة ، والوعود البراقة ، بل عملت منذ البداية على تحقيق الأهداف التى قامت من أجلها ، وفى مقدمة هذه الأهداف تنمية الإنتاج القومى . فنى ٢ أكتوبر سنة ١٩٥٢ أصدرت الحكومة المرسوم بقانون رقم ٢١٣ لعام ١٩٥٢ بإنشاء المجلس الدائم لتنمية الإنتاج القومى على أن يكون هيئة مستقلة لها الشخصية الاعتبارية ويلحق برياسة مجلس الوزراء .

ويعمل هذا المجلس على وضع برامج التنمية الاقتصادية ، وتنفيذ بعض المشروعات والمساهمة فى تكوين الشركات والإشراف على المشروعات المهمة . كما أن من سلطاته إعفاء المشروعات الجديدة الخاصة بدعم الاقتصاد القومى وتنميته وإعفائها من ضريبة الأرباح لمدة سبع سنوات ، وتخفيض رسوم الوارد على خامات الصناعة والسلع الرأسمالية ، وتنظيم استثمار رأس المال الأجنبى فى الصناعات ذات الفائدة .

ويرمى مجلس الإنتاج فى سبيل التنمية الاقتصادية إلى أربعة أغراض :

أولها : التوسع الصناعى ، وفى مقدمته توفير القوة الكهربية بالقدر الكافى للزراعة والصناعة والنقل .

وثانيها : استغلال الثروة المعدنية .
وثالث هذه الأغراض: تحسين وسائل المواصلات .
ورابعها : التوسع الزراعى .

وقد أقيمت طائفة من الصناعات الأساسية كصناعة الحديد والصلب وصناعة الأسمدة وصناعة تكرير البترول . وأنشئت شركة للحديد والصلب ساهمت فيها الحكومة ومجلس الإنتاج وشركة ديماج الألمانية وبعض البنوك والشركات المحلية .

ويقدر الإنتاج السنوى بنحو ٢٣٠,٠٠٠ طن من الصلب . ويقع مصنع الشركة جنوب حلوان وينقل إليه الحديد الخام من أسوان ، وقد دلت النتائج على أن نسبة الحديد فى هذا الخام تبلغ حوالى٥٠٪ فى المتوسط ، وأن صناعة الحديد خلال الخمسين سنة القادمة تكفيها كمية الخام الموجودة .

وتدعيماً للاقتصاد القومى وجهت الثورة عناية خاصة نحو الثروة المعدنية والعمل على استغلالها ، فقام المجلس بتيسير عمليات التعدين ووضع سياسة للبحث وتحديد المناطق الغنية بالخامات المعدنية . وقد أمكن تحقيق زيادة فى إنتاج المعادن فى السنوات الأخيرة من سنة ١٩٥١ حتى الآن فى كثير من المواد الخام كالفوسفات والمنجنيز العالى والواطى ، والزئبق والزنك والرصاص والقصدير والكروم ، وغيرها من الخامات .

ومن الخدمات الصناعية التى قام بها المجلس توسيع طاقة معمل التكرير بالسويس ، وقد أصبحت محطة توليد القوة الكهربية من السد العالى قريبة الظهور . وليس من شك فى أن إنشاء

السد العالى سيساعد على تحسين الملاحة النهرية ، وقد وضع البرنامج لتنظيم الشبكة الملاحية .

ويعمل المجلس أيضاً على تحسين المرافق العامة كالتليفونات والتلغرافات والسكك الحديدية . ومن الصناعات التى يهتم بإنشائها : مصنع لإنتاج النوشادر يقوم على أساس استغلال الكهربا من خزان أسوان ، وصناعة الأدوية والعقاقير الطبية . والبطاريات الكهربية ، وإطارات السيارات ، وصناعة الجوت ، وصناعة القطن والحرير الصناعى ، وحفظ الأغذية .

المؤسسة الاقتصادية :

أنشئت بمقتضى القانون رقم ٢٠ لسنة ١٩٥٧ ، وحددت اختصاصاتها فيما يلى :

أولاً : تنمية الاقتصاد القومى عن طريق النشاط الصناعى والزراعى والتجارى .

ثانياً : استثمار الأموال فى الشركات والمؤسسات العامة .

ثالثاً : الإشراف على المؤسسات العامة وتوجيهها بما يحقق صالح الاقتصاد القومى . وتنظيم المشاركة بين الحكومة والهيئات العامة والخاصة .

وتستطيع المؤسسة الاقتصادية أن تنشئ شركات أو منشئات تنفرد بها وحدها أو يشترك معها آخرون . ولها حق زيادة الأموال المستثمرة أو إنقاصها وعقد القروض مع الحكومة والمصارف ، أو الحكومات والهيئات الأجنبية ، وإصدار السندات .

وتقوم المؤسسة بالنيابة عن الدولة فى إدارة وتنظيم بعض المشروعات والاستثمار وتولى شئون ما تملكه الحكومة من أسهم فى الشركات الخاصة .

وقد أنشأت عدداً من الشركات الجديدة أو ساهمت فيها ومعظمها من شركات التعدين والصناعة ، وهى تعمل على تدعيم حركة التصنيع وتنسيق مختلف فروع القطاع الصناعى بما يكفل التوازن فى نموها .

الصناعة وتنمية الاقتصاد :

ليس من شك فى أن تزايد عدد السكان الملحوظ فى بلادنا ، فضلا عن المطامع الأجنبية وقيود التعريفة الجمركية ، كانت كلها من العوامل التى تشكل خطراً كبيراً على كياننا الاقتصادى مما أدى إلى إضعاف الإنتاج القومى وإلى الحد من تطوره .

فالاقتصاد فى الإقليم الجنوبى كان يرتكز على الزراعة وحدها ، لخلو البلاد من سياسة صناعية محددة تؤدى إلى نمو الدخل القومى . وقد ظلت البلاد تعتمد على استيراد المنتجات الصناعية من الأسواق الخارجية بالعملات الأجنبية ، وعلى الرغم من ظهور بعض الصناعات الجديدة ، إلا أنها لم تتمكن من الصمود أمام المنافسة الأجنبية .

وكان من نتيجة ذلك ما بدا منذ سنة ١٩٤٠ إلى سنة ١٩٥٢ من العجز فى الميزان التجارى ، وما لوحظ من العجز فى ميزانية الدولة نتيجة لركود التنمية الصناعية والزيادة المستمرة فى عدد

السكان والإسراف فى المصروفات .

وقد عملت الثورة منذ قيامها على تحقيق التوازن بين الإيرادات والمصروفات . وقد كانت ميزانية الدولة سنة ١٩٥٦ — ١٩٥٧ صورة صادقة تنطق بالدلالة على زيادة الإنتاج ، بعد أن نهجت الثورة منهجاً أدى إلى التغلب على الأخطاء الجسيمة التى شابت النشاط الصناعى فى الماضى ، والتى يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ — اتجاه الكثير من الصناعات فى اتجاهات خاطئة بإغفال المقاييس الاقتصادية الأساسية كالتعرف على الميزة الصناعية للمادة الخام ، وكيفية الحصول عليها . فالقطن المصرى مثلاً لم يكن يستخدم فى المنسوجات الرفيعة مما أدى إلى تقهقر الصناعات المحلية ، وعدم صمودها أمام المنافسة التى تحمل لواءها الصناعات التى تستخدم أقطاناً أقل مرتبة من القطن المصرى الذى كان يقصر اهتمامه على المنسوجات السميكة .

٢ — قصور العقلية الصناعية وإهمالها الوسائل الفنية الصحيحة مما أدى إلى سوء الإنتاج ، وارتفاع التكاليف ، فلم يقدر النجاح للكثير من المشروعات ؛ بل إنه كان مدعاة لتخلف رؤوس الأموال فى الميدان الصناعى وعدم تحقيق الفوائد من الاستثمار الصناعى .

٣ — إهمال التدريب المهنى وانحطاط مستوى المعرفة الفنية ، فلم يكن العامل المصرى فى موقف يمكنه من مسايرة إنتاج العامل فى البلاد الأخرى .

٤ — عدم دراسة السوق ومتابعة مطالبه ، فكان تخطيط الصناعة ونموها مبنياً على الأحوال الطارئة مما أدى إلى انهيار

الصناعات ، ولدينا مثلاً صارخاً ما أصاب مصانع الغزل الصغيرة وبعض الصناعات المعدنية من التدهور فى أعقاب الحرب العالمية الثانية .

وتدل هذه العوامل دلالة قاطعة على أن الصناعات الاستخراجية والتحويلية فى سنة ١٩٥٢ لم تكن تتجاوز ما ساهمت به فى الدخل القومى إلا بنسبة ضئيلة بلغت ١٠٪ ؛ مما نلمس معه ضعف النشاط الصناعى ، مع أن البلاد كانت فى حاجة إلى مضاعفة الجهود لرفع مستوى المعيشة .

لذلك فقد رأت حكومة الثورة فى كل الخطوات التى خطتها لتصنيع البلاد وتنمية الإنتاج ، أن من الأهمية بمكان محو هذه الصعوبات التى طالما اعترضت سبيل الصناعات فى الماضى ، والعمل على تخليصها من الركود وعدم الاستقرار متمشية مع الأساسين التاليين :

١ — إمكانيات الصناعة على أساس الدراسة العلمية والبحوث الكاملة والانتفاع بهذه الإمكانيات .

٢ — توفير المواد الأولية والقوى المحركة ، والأيدى العاملة بغية استغلال موارد الثروة الطبيعية والبشرية فى البلاد .

الفصل الثالث

التقدم الصناعى منذ قيام الثورة

حققت الثورة المشروعات الكهربية الضخمة ، وأنشأت الصناعات الأساسية الضخمة كالحديد والصلب ، وأخذت تبحث عن المعادن والخامات المعدنية .

وقد أخذت الصناعة تسد حاجات البلاد ، فتم إنتاج البطاريات السائلة والجافة والزجاج الإنجليزى والمتعادل ، وإطارات السيارات ، وألواح الحديد ، وعربات البضاعة ، واليايات والفرامل وعدادات الكهربا وأفران وأسطوانات وأوعية البوتاجاز ، وأقلام الرصاص ، والمحولات الكهربية ، وأجهزة التبريد والترطيب ، وأجهزة الراديو والترانزستور والأغذية المحفوظة والجميرى المجمد ، والبلح المجفف .

ويجرى العمل بنشاط زائد فى استغلال البترول من الآبار .

وخطت الصناعة خطوات كبيرة نحو إنتاج السيارات وأجهزة التليفزيون .

واحتفلت الجمهورية العربية المتحدة أخيراً بحدث كبير فى مجال الصناعة بتدشين أول عابرة محيطات عربية صنعت بأيد عربية مما سنفرد له مكاناً فى نهاية هذا الفصل .

وكان لما أصدرته الدولة من تشريعات فى شأن التنظيم

الصناعى آثاراً طيبة فى الميدان الصناعى إذ تمكنت بفضل هذه التشريعات من بناء مشروع صناعى متكامل يشتمل على أكثر من ٢٥٠ صناعة من الصناعات التحويلية الأساسية ، وصناعات التعدين والأبحاث الجيولوجية وشئون البترول وغيرها مما يزيد فى الدخل القومى، ويهيئ العيش لأكثر من ثلاثة ملايين ونصف من المواطنين ممن امتصتهم هذه الصناعات ، ويحفظ للبلاد رصيداً من العملات الأجنبية .

وقد وضع للصناعة مشروع السنوات الخمس فى سنة ١٩٥٧ ، وأخذت الثورة فى تنفيذه فى إقليمى الجمهورية . وكانت الخطوة الأولى هى إنشاء المجلس الدائم لتنمية الإنتاج القومى لرفع قيمة الإنتاج الصناعى .

وقد كان الدخل القومى فى العشرين سنة الماضية ثابتاً لا يزيد عن ٤٠٠ مليون جنيه، لاعتماد مصر على الزراعة وحدها. وتبعاً للسياسة الصناعية الرشيدة التى أخذت الثورة على عاتقها إرساء أسسها ، فقد بلغ الدخل القومى فى سنة ١٩٥٦ نحو ١٢٩٤ مليون جنيه ، بلغ نصيب الصناعة منه ٣١٢ مليون جنيه، ووضعت الخطة ليتضاعف هذا الدخل فى عشر سنوات على مرحلتين :

١ — ففى المرحلة الأولى من يوليو ١٩٦٠ إلى يوليو ١٩٦٥ يزيد الدخل بنسبة ٤٠٪ عن مستواه فى سنة ١٩٥٩ أى بزيادة قدرها ٥٢٠ مليون جنيه .

٢ ـ وفى الخمس سنوات التالية وهى المرحلة الثانية يتضاعف دخل سنة ١٩٥٩ .

وتسير خطة مضاعفة الدخل القومى فى البلاد ، مع الزيادة التى يتعرض لها السكان فى نهاية العشر سنوات المحددة لها . وقد وضعت فى سبيل تحقيق هذه الخطة سياسة اقتصادية يتحقق معها التوازن بين الدخل و بين عدد الأفراد . فعدد السكان يزداد على مر السنين ولو ظل الدخل القومى ، وهو مجموع دخل السكان ، ثابتاً ، فإن البلاد تتعرض للوقوع فى الكوارث والأزمات الاقتصادية .

ولما كان التنظيم الصناعى الذى استنته الثورة يهدف إلى تقويم الصناعة فى البلاد على أساس نظام المجتمع الاشتراكى الديموقراطى التعاونى بغية القضاء على الاحتكار ، وسيطرة رأس المال ، فقد اتجه تشريع الثورة إلى أن تساهم الدولة فى الصناعات الجديدة ، وأن تمتلك الصناعات التى طبقت عليها قوانين التمصير ، وهى الصناعات الأساسية التى كانت مملوكة لدول أجنبية كإنجلترا وفرنسا .

ومن ناحية أخرى نجد أنه لما كان من العسير على رؤوس الأموال الخاصة أن تقوم وحدها بالصناعات الكبيرة لما تتطلبه من أموال ضخمة وضمانات لإقامتها على وجه السرعة دون نظر للربح المرتفع السريع الذى تتوخاه عادة رؤوس الأموال الخاصة ، فقد رأت حكومة الثورة أن يتدخل رأس المال العام لوقاية هذه الصناعات ، ولذلك أقامت الثورة خطة التنمية على أساس

العدالة الاجتماعية ؛ فلم تقتصر أهدافها على مضاعفة الدخل القومى فحسب ، بل إنها هدفت علاوة على ذلك إلى تحقيق التنمية الاجتماعية التى يجب أن تصحب التنمية الاقتصادية لتوخى العدالة فى توزيع الدخل الناتج منها توزيعاً عادلاً كاملاً .

حقيقة أن التصنيع عملية طويلة معقدة تحتاج إلى مدة بعيدة المدى ، والصناعات التى نجحت فى البلاد الأخرى لم تنشأ طفرة واحدة ؛ بل كان نجاحها مرهوناً بالوقت وبالنمو والتطور ؛ لذلك كان دور حكومة الثورة فى توجيه مشروعات التنمية الاقتصادية مرتكزاً على معاونة روح الابتكار الفردى بإعداد البيئة الصالحة لها . كما عنيت بالإحاطة بما قد ينتاب هذه التنمية من مخاطر نظراً إلى أن تقلبات السوق والتقلبات السياسية فى البلاد المجاورة قد تحمل فى طياتها انتعاشاً ، أو ينتابها الانتكاس ، مما قد يؤدى فى أغلب الأحيان إلى اختفاء صناعة ناجحة اختفاء كلياً . فالمشروعات الكبيرة غالباً ما تنتكس إذا قامت على فكرة بعيدة عن التكيف بالمطالب الاقتصادية الفعلية التى تتغير من وقت لآخر .

التدريب من أجل مستويات أعلى :

وقد رأت حكومة الثورة من أجل تحقيق التقدم المنشود ألا تغفل عوامل الحالة النفسية العامة التى تقوى روح الابتكار والاستثمار وأن تعنى عناية فائقة بتدريب العمال تدريباً صحيحاً . وقد شمل هذا التدريب مشروعات التنمية الصناعية فى كل

القطاعات فلم يقتصر على القطاع المدنى وحده ، بل امتد أثره إلى القطاع الحربى ، فأنشأت القوات المسلحة مراكز للتدريب المهنى للدراسة والتعليم وفق أحدث أساليب الخبرة التدريبية فى كل من القطاعين العسكرى والمدنى للوفاء باحتياجات الدفاع والتصنيع .

وقد استطاعت المصانع الحربية بفضل الجهود الصادقة أن تنتج الأسلحة الخفيفة والثقيلة ، والعربات المدرعة والطائرات ذات المحركات ، وطائرات التدريب النفاثة . وساهمت كذلك فى الإنتاج المدنى ، كصناعة محركات الديزل لاستخدامها فى الأغراض الصناعية المختلفة ، وفى محطات توليد القوى ، والنقل البرى والبحرى.

ومن الأحداث الهامة التى تسجل للعالم العربى فخراً كبيراً إنشاء الترسانة البحرية التى تعد الدعامة الكبرى لإنشاء أسطول عربى ضخم .

وقد تجلت آيات النجاح فى تدعيم الصناعة فيما بدا واضحاً من زيارة الرئيس جمال عبد الناصر للمعرض الصناعى الذى أقيم أخيراً بالقاهرة ، فقد حث سيادته المواطنين على ضرورة توفر روح الابتكار اليقظة المتحفزة للمحافظة على حياة المشروعات الصناعية ، والعمل على التوسع فيها ، ذلك أن سرعة التقدم الفنى فى الوقت الحاضر قد دعت الرئيس أثناء تجواله الذى استمر فيه اثنتى عشرة ساعة منقباً فى المعرض إلى التصريح بضرورة الاهتمام بالبحوث فى الصناعة الحديثة ، والإنفاق عليها جهد الطاقة . ذلك أن المصنع الذى يشتمل على المعدات

الحديثة لو أغفل التطورات المستمرة لعرض نفسه لأن يدخل فى عداد المصانع العتيقة ، فالتقليد وحده لا يكفى ، بل الواجب علينا — كما أشار الرئيس — أن نتعلم من تجاربنا وأن نعمل على الاستفادة من المعلومات الفنية الأجنبية على ضوء ظروفنا الخاصة . فليس يكفى فى التصنيع كما استطرد الرئيس أن نشترى المصانع والآلات من الخارج ، بل لابد لنا أن نصنع هذه المصانع والآلات فى بلادنا وأن نبتكرها ، وذلك لا يأتى إلا إذا تعاونا وتضامنا جميعاً ، وتعلم أبناؤنا الاعتماد على النفس ، وتحلوا فوق ذلك بالخلق الكريم والعمل والابتكار .

التشريعات الصناعية :

ولما كانت وجوه الضعف لاتوجد فى تكوين المصانع وفى وسائل تنظميها فحسب . بل إنها قد توجد فى الجو التشريعى والإدارى الذى تتنفس فيه الصناعة ، كما قد توجد فى التعليم الفنى الصناعى ، وفى ظروف الائتمان وفى الأنظمة الخاصة بالضرائب ، من ناحية طريقة وضعها وتقديرها وجبايتها . لذلك فقد كان من خير ما عملته الثورة فى سبيل التصنيع أنها عملت بالتشريع على تركيز كافة الشئون المتعلقة بالصناعة فى جهاز حكومى واحد بعد ما لمسته من الصعوبات الإدارية الصادرة من شتى المصالح الحكومية التى يدعى كل منها لنفسه نصيباً فى رفع نشاط المؤسسات الصناعية . فأصدرت الثورة عدة تشريعات تباعاً فى السنوات ١٩٥٢ ، ١٩٥٣ ،

١٩٥٤ ، ١٩٥٧ . وفى سنة ١٩٥٨ أصدرت القانون رقم ٢١ فى ٢٨ أبريل الذى أريد به أن تقوم الصناعة على أسس صالحة يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ – التوجيه فى الإنتاج الصناعى الاستغلالى لسد حاجات البلاد فى الاستهلاك أو فى التصدير . ولهذا الغرض أنشئت الجمعيات التعاونية الصناعية للتمويل وتوفير المواد الخام وتصريف المنتجات فى الأسواق المحلية والخارجية .

٢ – التنسيق فى التعليم الهندسى والصناعى .

٣ – التدريب الصناعى العملى .

٤ – الاتجاه نحو الرقابة المقترنة بالمعاونة والتشجيع .

ومن الأسس الصالحة التى عملت الثورة على إقامتها لإنجاح الصناعة إصدارها التشريعات المختلفة فى المسائل الآتية :

ا – الحماية الجمركية ، ولذلك فقد تم وضع مشروع للتعريفة الجمركية ضمن إطار الخطة العامة للتنمية الاقتصادية يهدف إلى توفير العدالة الضريبية وتبسيط الإجراءات عن طريق توحيد الرسوم وتشجيع التصنيع بإعفاء المواد الخام وأجزاء الآلات من الرسوم .

(ب) منح الإعانات المالية .

(حـ) توفير السلف الصناعية .

(د) ضمان القروض المالية .

(هـ) منح الأراضى الحكومية للمصانع بأثمان بسيطة .

(و) المساعدة على التصدير وتخفيض أجور نقل الخامات .

الإتفاقات الصناعية :

ونجد من ناحية أخرى أن الاتفاقات الصناعية التى عقدتها الجمهورية العربية المتحدة مع بعض الدول قد حققت من النجاح ما يبشر بالخير العميم والفوائد والمزايا للبلاد ، كالاتفاق الروسى والألمانى واليابانى وغيرها ، والتى بلغ مجموعها ١٦٤,٨ مليون جنيه استخدمت جميعها فى الإسراع فى تنفيذ البرنامج الصناعى – فرأينا الإنتاج الصناعى فى الإقليم الجنوبى يزداد منذ قيام الثورة فى سنة ١٩٥٢ حتى سنة ١٩٥٩ بمقدار ٨٠٪ فى الصناعات التحويلية و ٥٠٪ فى التعدين و ١٠٠٪

الطاقة الكهربية – كما زاد الغزل بمقدار ٧١٪ والسماد الأزوتى ١٣٥٪ ، والأسمنت ٥٦٪ والسكر ٧٠٪ والورق ١٤١٪ والبترول الخام ٤٨٪ – وهذا كله علاوة على إنتاج السلع التى لم تكن تنتج بالبلاد من قبل .

مشروعات الصناعة فى الإقليم الشمالى :

أخذت مشاريع الصناعة فى الإقليم الشمالى تنمو وتتقدم وساهمت الصناعة فى الدخل القومى مما أدى إلى تنويع الإنتاج وتأمين حاجات الإقليم من السلع الإستهلاكية والتصديرية .

ويشمل برنامج الاستثمار على ٥٠٩ مليون ليرة أى حوالى ١٨,٧٪ للصناعة من مجموع موارد التنمية . وسيتوفر العمل نتيجة للمشروعات الصناعية لما لا يقل عن ٢٥ ألف عامل ،

كما سينشأ عشرة مصانع للمواد الغذائية و ١٢ مصنعاً لمختلف الصناعات الكيماوية ، وقد بدئ كذلك فى استثمار حقول البترول .

● فالتنمية الصناعية التى أقامتها الجمهورية العربية المتحدة على أساس الاشتراكية التعاونية لا تقف عند حد إقامة المشروعات والصناعات الجديدة لمواجهة حاجات المجتمع ، بل إنها ستكون فوق ذلك مشبعة بالعدالة الاجتماعية ، يبدو ذلك فى الحيلولة دون سيطرة رأس المال على الحكم ، وفى مضاعفة القدرة على الاستثمار ، ورفع مستوى المعيشة ، وإتاحة الفرصة للعمل فى القطاع الصناعى بزيادة دخل العاملين فيه وتهيئة العدالة الاجتماعية للمواطنين .

وهكذا تسير الجمهورية العربية المتحدة سيراً حثيثاً فى طريق التصنيع وتبنى المجتمع الجديد الذى يرتفع فيه مستوى المعيشة ويزداد الدخل القومى وتتحقق فيه للمواطنين جميعاً الحياة الحرة الكريمة بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر الذى يدعوهم ، ويحثهم دائماً على العمل الجدى لكى تنجح خطتنا فى تنمية الثروة ومضاعفة الدخل القومى ، ولكى تنجح خطتنا فى التصنيع وتؤتى ثمارها فى القريب العاجل بإذن الله .

الدفع الثورى وسمات المجتمع الصناعى :

لا شك فى أن المجتمع العربى الجديد يسير الآن على الطريق السليم نحو الرقى والرخاء والمنعة والعزة. وهو فى واقع الأمر طريق

طويل ولكنه فى الوقت نفسه طريق عزيز عظيم كلما أسرعنا الخطى فيه منحنا المزيد من القوة والتأييد .

لقد أصبح للمواطن العربى بعد الثورة وجدان اقتصادى يحفزه إلى القيام بواجباته الوطنية لمضاعفة ثروة بلاده ورفاهيتها ويدفعه إلى تحقيق المشروعات القومية التى تحفظ الثروة بين الأيدى الوطنية .

ومما صاحب الثورة أغراض إصلاحية أثمرت ثمرات يانعة فى ميدان الاقتصاد والاجتماع وفى الميادين الأخرى ، وحسبنا أن نعرف أن حركتنا التى قامت فى سنة ١٩٥٢ لم تتجه إلى إعلاء مكانتنا فى الميدان السياسى فحسب ، بل اتجهت أيضاً إلى الصناعة وتنمية الإنتاج القومى . . .

فى يونيه سنة ١٩٦٠ حلقت أول طائرة نفاثة عربية صنعتها البلاد .

وفى ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٦٠ فى ذكرى عيد النصر قام الرئيس جمال عبد الناصر بتدشين « الحرية » أول سفينة عربية صنعت بأيد عربية فى مصانع القناة ، وأرسى الحجر الأساسى للحوض العائم والترسانة البحرية التى تعتبر أكبر ترسانة بحرية فى الشرق الأوسط وكذلك مشروع توسيع ميناء بور سعيد .

كما افتتح الرئيس عدة منشئات صناعية منها مصانع غزل الصوف والتريكو والأغطية السميكة وشباك الصيد والمعهد الصناعى ؛ ويسير العمل لصنع الأسطول التجارى فى البلاد .

والباخرة « الحرية » التى تبلغ قوة آلاتها ١٥٠٠ حصان

وسرعتها ١١,٥٠ عقدة « وأى مركب من نوعها لا تزيد سرعته عن ١٤ عقدة » تعتبر من بواخر البضاعة. وتستطيع السفر إلى جميع أنحاء العالم وأعالى البحار فحمولتها الصافية ٣٢٠٠ طن وطولها ٧٨,٧٠ متراً وعرضها ١٣ متراً وغاطسها وهى مشحونة ٦,٣٠ متر — وتشتمل الباخرة على عنبرين ويتطلب العمل فيها ثلاثون عاملا — وهى تمتاز بسرعة الشحن والتفريغ

— ولما كانت التجارة طابعها السرعة فقد جهزت الباخرة بأحدث التجهيزات. فمن أوناش ضخمة سريعة تبلغ الثمانية . إلى أوناش صغيرة مما يبلغ حمولته الخمسة عشر طناً .

لقد كان للبعثات العلمية التى أوفدتها الدولة والحقت بها عدداً كبيراً من العمال الفنيين للتدريب على كيفية تركيب وتجميع أجزاء السفن، أكبر الأثر فى الوقوف على أحدث الوسائل العلمية فى بناء السفن. فأصبح فى وسع الجمهورية العربية الآن بناء السفن فى داخل البلاد. فهى بعد إنزال الباخرة « الحرية » إلى البحر تسير فى هذا المضمار على بناء بواخر أخرى حمولتها ٦٠٠٠ طن و ١٠٠٠٠ طن إلى ١٩٠٠٠ طن إلى كافة الأحجام المتوسطة وغيرها .

الباب الثالث

العمل والعمال

تمهيـــد :

انتشرت المخترعات الحديثة فى أوربا فى مطلع القرن التاسع عشر . وتقدمت وسائل الإنتاج تقدماً كبيراً ، وهاجر الكثيرون من سكان الريف إلى المدن الصناعية ليعملوا فى مصانعها بعد أن تركوا قراهم وجذبتهم المدينة ببريقها ، وإمكانياتها التى لم يلمسوا مثلها فى بيئتهم الأولى .

واستغل أصحاب المصانع إقبال العمال المتزايد على العمل الجديد ، فأرهقوهم بالعمل وقتروا عليهم فى الأجر ، فكان على العامل أن يعمل من السادسة صباحاً إلى الحادية عشرة مساء نظير أجر لا يزيد عن اثنتى عشر شلناً فى الأسبوع . وتوسع أصحاب العمل فى تشغيل الأطفال والنساء ، لرخص أجورهم ، وكلفوهم بأعمال لا تتناسب مع قدراتهم ، فكان الأطفال الذين لا تتعدى أعمارهم الخامسة يعملون فى المناجم الرطبة ، وكانت

النساء يعملن أحياناً فى جر العربات المملوءة بالفحم .

كل ذلك تحت ظروف أشد ما تكون قسوة ، وفى أماكن لم تراع فيها قواعد الصحة . حتى تفشت الأمراض بين العمال ، وانحط مستوى الأخلاق ، وتكدست المدن الصناعية بهم ، وعجزت المساكن عن إيوائهم ، حتى اضطر أغلبهم إلى التجمع أكثر من أسرة فى حجرة أو حجرتين . كل ذلك ، وليس هناك من يهتم بهم أو يعمل على تحسين حالهم أو رفع شىء من المظالم التى يعانون منها .

وقد صاحب الوضع الجديد تغير جوهرى فى نظام المجتمع ، فظهرت طبقة جديدة من أصحاب رؤوس الأموال الذين استطاعوا أن يكونوا ثروات عن طريق الصناعة ، وأخذت هذه الطبقة المركز الممتاز الذى كانت طبقة الأشراف تحتله فى العصور الوسطى . وإلى جانب هذه الطبقة المترفة كان هناك طبقة العمال الذين لا يملكون سوى أجورهم الزهيدة فى وقت ارتفعت فيه الأسعار ، وكثرت مسئوليات الحياة .

وكان لا بد مما ليس هناك بد من وقوعه ، فبدأت مظاهر الشقاق والنزاع تأخذ طريقها بين العمال وصاحب العمل . وآمن الكثيرون من المفكرين والمصلحين بحقوق العمال ، وساندهم فى ذلك بعض أصحاب المصانع ممن لم يطمس التكالب على جمع المال معالم الرحمة من قلوبهم ، وكان من نتيجة هذه الحملة أن أصدر البرلمان الإنجليزى فى سنة ١٨١٩ قانوناً يعترف بنصيب العمال فى جزء من أرباح المصنع . ويعتبر هذا القانون

أول تدخل من جهة الدولة لتنظيم العلاقة بين العمال وصاحب العمل .

وبمضى الأيام ، أحس العمال أن سبب ما يلحقهم من غبن هو عزلتهم ، وعدم توحيد كلمتهم مما لم يدع مجالاً لرفع صوتهم ، وجعلهم أمام أصحاب العمل مجرد أفراد لا حول لهم ولا قوة مما سهل عليهم إيقاع الظلم بهم ، وسلبهم حقوقهم . وكان هذا الإدراك هو نقطة البداية فى تكوين النوادى والنقابات العمالية التى كان لها دور كبير فى جمع العمال تحت أهداف مشتركة ، وجعلهم قوة لها اعتبارها عند أصحاب العمل ، بعد أن كانوا مفرقين لا يجمعهم إلا الإحساس المشترك بالظلم والضعة ، فجاءت هذه النقابات لتترجم هذا الإحساس إلى مطالب وقرارات استمدت قوتها وتأثيرها من قوة الاتحاد .

وفى سنة ١٨٦٤ تكونت رابطة العمال الدولية ، وانضم إليها العمال فى إنجلترا وبلجيكا والولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا وهولندة وسويسرا . وكانت تهدف إلى إيجاد رابطة قوية بين العمال فى جميع أنحاء العالم تساعد على مقاومة ما يلحق بهم من ظلم بطريقة دولية مشتركة . وقد تعرضت هذه الرابطة للكثير من العقبات والصعوبات التى بذرها فى طريقها أصحاب العمل فى جميع الدول المشتركة فيها .

ثم بدأ العمال يتدخلون فى النواحى السياسية كوسيلة من وسائل اكتساب القوة وتوطيد المركز . وفى سنة ١٨٩٣ تكون فى إنجلترا أول حزب نبع من بين العمال ، معبراً عن مصالحهم .

وكان رئيس هذا الحزب عاملا من عمال المناجم اسمه « كيير هاردى » . وأصبح للعمال نواب فى مجلس العموم البريطانى يرفعون صوتهم عالياً ، ويعبرون عن مشاكلهم ، ويدفعون عنهم كل ضرر . وفى سنة ١٩٢٤ تولى « مكدونالد » زعيم حزب العمال رئاسة الوزارة البريطانية . وصاحب هذا التطور الخطير فى مركز العمال فى إنجلترا تقدم كبير فى مركزهم فى البلاد الأوربية الأخرى ، فكثرت المصانع التعاونية التى يشارك العمال فيها أصحاب رؤوس الأموال فى الأرباح . وحددت ساعات العمل والأجور بما يحقق الفائدة المشتركة بين كلا الطرفين على أساس من التفاهم والتقدير . وأخذت الكثير من المؤسسات الصناعية على عاتقها توفير الكثير من الخدمات الاجتماعية والثقافية والصحية والترفيهية للعمال مما زاد فى قدرتهم الإنتاجية وأحاطتهم بمصادر الطمأنينة والاستقرار.

وقد قامت « هيئة العمل الدولى » لتحقق نوعاً من التفاهم العالمى بين المنظمات العمالية فى جميع أنحاء العالم .

تشريعات العمل فى الجمهورية العربية المتحدة :

لم يحظ العمال فى الإقليم المصرى قبل الثورة بتشريعات ذات نتائج عملية فى محيط عملهم ، فإن أغلب هذه التشريعات كان متأثراً بعوامل النفوذ والسيطرة والاستغلال. وكان هناك أكثر من عائق يقف دون تنفيذ أى تشريع يهدف إلى إصلاح حال العامل أو رد الظلم عنه . وأول هذه العوائق سيطرة رأس المال

الفردى على الاقتصاد .

وقد عبر الرئيس جمال عبد الناصر عن هذه الحقيقة بقوله :

« هل ترفرف الرفاهية على المجتمع إذا كانت هناك أقلية تستعبد الأكثرية ؟ قطعا لا . . لأننا كنا فى الماضى نعانى من سيطرة الأقلية المنتفعة على الأغلبية .. هل إذا كان الاستغلال هو العامل الأساسى فى التعامل ، يكون هناك مجتمع ترفرف عليه الرفاهية ؟ لا يمكن ذلك قطعاً إذا كان هناك استغلال بأى وسيلة من الوسائل — استغلال للإنسان أو استغلال للفرصة ، أو استغلال اجتماعى ، أو استغلال سياسى أو استغلال اقتصادى . هل يمكن إذا استمر الظلم الاجتماعى أن يتحقق المجتمع الذى ترفرف عليه الرفاهية ؟ . . أو إذا سيطرت الانتهازية أو الرجعية أو الرغبة فى الانتفاع ؟ . . .

كلنا نعرف أن الوطنية كانت باستمرار لا تسير أو تتمشى مع الانتهازية ولا مع الاستغلال أو الرجعية . لأن الرجعية تعتبر الوطنية أول أعدائها . وليس لدى الرجعية والاستغلال والانتهازية مانع من أن تتفق مع الاستعمار على أن يبقى ويسيطر حتى يحقق لها مصالحها . إذن لكى نحقق مجتمعاً ترفرف عليه الرفاهية يجب أن نقضى على استغلال الأقلية بالأغلبية ، ونقضى على استغلال الفرصة بأى وسيلة ، واستغلال الإنسان بأى وسيلة ، ونقضى على أى سيطرة مستغلة من الداخل ونقضى على أى طبقة تنتهز الفرصة لتنتفع منفعة شخصية ، وباستمرار من حركة لحركة نقوم عيوبنا ونراجع ما حدث لنا

فى المرحلة السابقة ، ونصلح ونقوم من أنفسنا حتى ننتقل إلى المرحلة الأخرى . نقضى على الرجعية ولا نسمح لها بفرصة ، وبهذا نكون قد تخلصنا من المجتمع الانتهازى وسعينا لإقامة مجتمع يهدف إلى التعاون ، مجتمع ضد الاستغلال ، مجتمع يعمل من أجل العمل ومن أجل الإنتاج . »

● وعندما قامت الثورة فى يوليو ١٩٥٢ ، كان من أهم أهدافها الاهتمام بالشئون العمالية ، وتوجيه جميع القوى والجهود إلى ما فيه الصالح العام . والعمل على بناء مجتمع جديد تسوده الرفاهية بعد أن تخلص من الإقطـاع والاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم . وقد كان عدد قوانين العمل النافذة فى الإقليم المصرى حتى عام ١٩٥٩ ستة عشر قانوناً ، يرجع بعضها إلى عام ١٩٣٣ . ولما أعلنت وحدة الجمهورية العربية المتحدة فى ٢ فبراير سنة ١٩٥٨ أصبح من الضرورى توحيد التشريعات فى الإقليمين بصفة عامة وقوانين العمل والقوانين الاجتماعية بصفة خاصة ، فتم توحيد التعاون وقانون الجمعيات والمؤسسات الخاصة ، ولم يبق سوى تشريعات العمل والعمال ، والتأمينات الاجتماعية . وقد تم توحيد قوانين شئون العمل والعمال بمقتضى قانون العمل رقم ٩١ لسنة ١٩٥٩ واشترك فى إعداده مندوبون من الإقليمين المصرى والسورى ، وقام هذا القانون على أغلب الأسس والأحكام التى تضمنتها تشريعات العمل المعمول بها فى الإقليمين بصفة عامة ، كما قام على الأسس التالية بصفة خاصة :

١ ــ تكافؤ ظروف العمل بالنسبة لعمال الصناعة أو المهنة

الواحدة فى الإقليمين – وهذا التكافؤ مبدأ مقرر لا غنى عنه لما فيه من تحقيق للعدالة والمساواة بين أبناء الدولة الواحدة .

٢ – الاحتفاظ بحقوق العمال المكتسبة التى كفلتها لهم تشريعات العمل فى أى من الإقليمين إلا ما يكفل فى جملته مزايا أفضل .

٣ – مراعاة المستويات التى أوصت بها لجنة توحيد تشريعات العمل فى الدول العربية التى شكلتها الأمانة العامة للجامعة العربية عام ١٩٥٥ . وكذلك مبادئ اتفاقيات العمل الدولية التى أقرتها مؤتمرات العمل فى دورات انعقادها المختلفة .

ويقع القانون فى ٢٤٦ مادة تضمها ثمانية أبواب :

الباب الأول : وهو باب تمهيدى يتضمن :

● الفصل الأول : تعريف العامل وصاحب العمل والأجر .

● الفصل الثانى : ويتضمن عدة أحكام عامة استحدثت نص عدم سريان أحكام القانون على عمال الحكومة والمؤسسات العامة والوحدات الإدارية ذات الشخصية الاعتبارية المستقلة إلا فيما يصدر به قرار من رئيس الجمهورية . ويكون تطبيقه على هذه الفئات كلها أو بعضها تدريجاً فى حدود الامتيازات والحقوق المختلفة بالنسبة للمناطق والأقاليم والقطاعات التى تحدد بقرار من رئيس الجمهورية بناء على ما عرضه وزير الشئون الاجتماعية والعمل بالاتفاق مع وزير الخزانة .

وطبيعى أنه سيراعى عند سريان أحكام القانون على هذه

الطوائف عدم الإخلال بالامتيازات والحقوق الأفضل لصالحهم.

● الفصل الثالث : وهو خاص بتشغيل العاطلين ، واستحدث فيه إجازة تشكيل لجان استشارية لمعاونة مكاتب التوظيف والتخديم فى تأدية رسالتها. الأمر الذى يتيح لممثلى العمال وأصحاب الأعمال فرصة الاشتراك فى رسم وتنفيذ سياسات التخديم .

كما خولت المادة ٢١ لوزير الشئون الاجتماعية والعمل أن يلزم أصحاب الأعمال باستخدام العمال وفقاً لتواريخ قيدهم فى مكاتب التوظيف والتخديم . وذلك فى بعض الصناعات أو الأعمال أو الوحدات الإدارية وطبقاً للشروط والأوضاع التى يحددها بقرار منه ، وذلك تنفيذاً لمبدأ تكافؤ الفرص .

ولما كانت التجربة قد أثبتت أن نظام تشغيل العمال عن طريق متعهدى توريد العمال نظام تقتضى المصلحة العامة الحد منه بتشغيل العمال عن طريق مكاتب التوظيف والتخديم ، وحتى لا يكون تشغيلهم عن طريق متعهدى توريد العمال فيه تفويت لحقوقهم التى يجب أن يتساووا فيها مع بقية العمال ، فقد نصت المادة ٢٢ على قصر حق صاحب العمل على أن يعهد إلى متعهد بتوريد عمال له فى الجهات التى لا تسرى عليها أحكام الفصل الثالث .

● الفصل الرابع : وهو خاص بالتأهيل المهنى للعاجزين عن العمل وتخديمهم — وقد امتد سريان أحكام هذا الفصل على الإقليم الشمالى .

● الفصل الخامس : وهو ينظم عمل الأجانب ، ويلاحظ أنه فصل مستحدث فى الإقليم المصرى . فحذرت المادة ٣٥ على الأجنبي أن يزاول عملاً إلا بعد الحصول على ترخيص فى ذلك من وزارة الشئون الاجتماعية والعمل ، وأن يكون مصرحاً له بالإقامة وبشرط المعاملة مع الدولة التى ينتمى إليها الأجنبى بالمثل وفى حدود هذه المعاملة . وخولت المادة ٣٦ لوزير الشئون الاجتماعية والعمل بيان الشروط العامة للتراخيص والبيانات التى يتضمنها الترخيص والرسوم التى تحصل عليه ، وكذلك حالات الإعفاء من شرط الحصول على ذلك الترخيص .

الباب الثانى : وهو خاص بالتدرج والتدريب المهنى والعقود الواردة فى العمل. وينظم الفصل الأول فيه التدرج والتدريب المهنى ، وهو اتجاه مستحدث فى الإقليم المصرى على غرار ما هو معمول به فى الإقليم الشمالى . وتكفل أحكامه حماية الراغبين فى تعلم مهنة أو صناعة ، وتنظيم تدريبهم بما يحفظ حقوق كل من الطرفين ويتلاءم مع مصلحة الاقتصاد القومى بوجه عام . فعرفت المادة ٣٧ العامل المتدرج بأنه كل من يتعاقد مع صاحب العمل للعمل لديه بقصد تعلم مهنة أو صناعة .

وأوجبت المادة ٣٨ أن يكون عقد عمل المتدرج بالكتابة تحدد فيه مدة تعلم المهنة ، ومراحلها المتتابعة ، والأجر بصورة متدرجة فى كل مرحلة من مراحل التعليم على ألا تقل فى المرحلة

الأخيرة عن الحد الأدنى للأجور المحدد لفئة العمال فى المهنة التى يتدرج فيها .

ونصت المادة ٣٩ على أن تشكل بقرار من وزير الشئون الاجتماعيه والعمل لجان ثلاثية من مندوب أو أكثر عن كل من الجهات الإدارية المختصة كوزارة الشئون الاجتماعية والعمل والصناعة والتجارة والاقتصاد والتربية والتعليم ومنظمات أصحاب الأعمال ونقابات العمال . وتختص هذه اللجان باقتراح تحديد المهن الخاضعة للتدرج ومدة التدرج فى كل منها ونسب الأجور التى تعطى فى كل مرحلة من مراحل التدرج ، والبرامج الدراسية والنظرية والعملية ونظام الاختيار والشهادة التى تمنح فى هذا الشأن والبيانات التى تدون بها على أن تعتمد هذه الاقتراحات من وزير الشئون الاجتماعية والعمل .

وأجازت المادة ٤٠ لصاحب العمل فسخ العقد ، كما أجازت للمتدرج أن ينهى عمله بشرط أن يعلن الطرف الراغب فى الفسخ أو الإنهاء الطرف الآخر بذلك قبل ثلاثة أيام على الأقل .

وخولت المادة ٤١ لوزير الشئون الاجتماعية والعمل بيان الشروط والأوضاع التى تتبع فى التدريب المهنى .

● الفصل الثانى : وهذا الفصل خاص بعقد العمل الفردى ، وقد اقتضت عملية التوحيد تحسين بعض المزايا التى يكفلها عقد العمل الفردى ، فمن ذلك :

١ ــ استبعاد نظام السراكى الذى كان معمولا به فى الإقليم المصرى والذى ليس له مقابل فى الإقليم السورى ، وترك لوزير الشئون الاجتماعية والعمل أن يحدد الشروط والأوضاع التى تتبع فى إثبات تقاضى الأجر .

٢ ــ النص على جواز تراكم الإجازة السنوية لمدة سنتين بناء على رغبة العامل الكتابية وذلك دون إخلال بضرورة حصول العامل على إجازة قدرها ستة أيام متصلة كل سنة .

٣ ــ ترك تحديد أيام أجازات الأعياد لقرار يصدر عن وزير الشئون الاجتماعية والعمل كما أجيز فى المحال العامة التى يحددها الوزير تشغيل العمال فى هذه الأيام على أن يحصل كل عامل على أيام أخرى عوضاً عنها . وذلك مراعاة لطبيعة العمل فى هذه المحال .

٤ ــ زيادة المدة التى يستحق عنها العامل أجراً أو ميزة نقدية خلال المرض، فأصبح للعامل الذى يثبت مرضه الحق فى أجر يعادل ٧٠٪ من أجره عن التسعين يوماً الأولى تزداد بعدها إلى ٨٠٪ عن التسعين يوماً التالية ، وذلك خلال السنة الواحدة .

٥ ــ المساواة فى احتساب مكافأة نهاية الخدمة بين العمال الذين يتقاضون أجورهم بالشهر وغيرهم ممن يتقاضونها بغير ذلك. وقد أدت هذه المساواة إلى رفع المكافآت التى تستحق لعمال

الفئات الأخيرة ، ومساواتهم بعمال الفئة الأولى مع استبعاد الحد الأقصى للمكافأة عملا بالنظام المعمول به فى الإقليم السورى.

ولما كان تطبيق هذا المبدأ قد يلحق ضرراً بعمال الإقليم السورى لذلك رؤى : الاحتفاظ لهم بالحقوق التى اكتسبوها بمقتضى القانون الملغى إذا كان حساب المكافأة على أساسه أفضل من حسابها على أساس هذا القانون .

٦ ـ سريان نظام طلب وقف قرار الفصل فى الإقليم الشمالى إذا كان الفصل بغير مبرر .

٧ ـ تعديل قيمة المكافأة فى حالة الاستقالة ، فيستحق العامل ثلث المكافأة إذا كانت مدة خدمته تزيد على سنتين ، وقبل أن تبلغ خمس سنوات . وثلثيها إذا لم تبلغ مدة خدمته عشر سنوات . ويستحقها كاملة إذا استقال بعد عشر سنوات .

٨ ـ سريان أحكام عقد العمل على العمال الذين يعملون فى منشآت تستخدم أقل من خمسة عمال ولا تدار بآلات ميكانيكية ولا تدفع ضريبة تزيد على عشرين جنيها . وكذلك عمال أصحاب المهن غير التجارية الذين لا تزيد الضريبة التى يدفعونها على المبلغ المذكور . غير أنه رؤى عدم انتفاعهم بأحكام هذا القانون إلا من تاريخ العمل به وبذلك لا يكون له أثر رجعى بالنسبة لهم .

● الفصل الثالث : وهو خاص بعقد العمل المشترك ، وقد

امتد نطاق سريانه إلى الإقليم الشمالى ، وهو اعتراف لعمال هذا الإقليم بحق المفاوضة الجماعية ، وهو حق أساسى لا ينفصم عن حق التنظيم النقابى ومن شأنه أن يتيح للعمال إمكانيات الحصول على مزايا أسخى من تلك التى تكفلها أحكام قانون العمل باعتباره هذه الأحكام حداً أدنى .

الباب الثالث : وهو خاص بتنظيم العمل . وفى الفصل الأول نرى أن القانون الموحد قد استحدث نظام اللجان المشتركة بين أصحاب الأعمال والعمال فى مستوى المؤسسة والمجالس المشتركة لهم فى مستوى الصناعة . وبذلك أدخل لأول مرة فى الإقليمين نظام التشاور والتعاون بين الطرفين فى مستوى المؤسسة والصناعة معاً بما يكفل الاستقرار والنهوض بمستوى الإنتاج والصناعة .

● والفصل الثانى : خاص بتحديد ساعات العمل ، فحددت ساعات العمل الفعلية بثمانى ساعات فى اليوم أو ٤٨ ساعة فى الأسبوع لا تدخل فيها الفترات المخصصة للراحة أو تناول الطعام .

وأجازت المادة ١١٥ لوزير الشئون الاجتماعية والعمل زيادة ساعات العمل أو تخفيضها عن هذا الحد بمقدار ساعة واحدة فى الحالتين فى بعض الصناعات أو الأعمال أو بالنسبة لبعض فئات العمال تبعاً للظروف والمقتضيات .

ونصت المادة ١١٧ على وجوب تنظيم ساعات العمل وفترات

الراحة بحيث لا يتطلب وجود العامل فى مكان العمل أكثر من إحدى عشر ساعة فى اليوم الواحد فيما عدا العمال المشتغلون فى أعمال متقطعة بطبيعتها والتى يحددها وزير الشئون الاجتماعية والعمل بقرار منه .

● والفصل الثالث : خاص بتشغيل الأحداث ، وقد كان سن تشغيل الأحداث المعمول به منذ عام ١٩٣٣ هو ١٢ سنة مع جواز تشغيلهم فى بعض الصناعات البسيطة من سن ٩ سنوات نظراً لعدم توافر الإمكانيات اللازمة الأولية . ولما كانت هذه الإمكانيات قد توافرت فى الوقت الحاضر فقد رؤى إلغاء الاستثناء وجعل سن التشغيل الأدنى للأحداث هو ١٢ سنة ، وهى السن التى تنتهى عندها المرحلة الابتدائية للتعليم التى تمثل الحد الأدنى لما يجب أن يناله المواطن من معرفة .

● وعالج الفصل الرابع موضوع تشغيل النساء ، فزيدت إجازة الوضع بحيث أصبح للعاملة الحق فى أن تحصل على إجازة وضع مدتها ٥٠ يوماً تشمل المدة التى تسبق الوضع والتى تليها بشرط أن تقدم شهادة طبية مبيناً فيها التاريخ الذى يرجح حصول وضعها فيه . ولا يجوز تشغيل العاملة خلال الأربعين يوماً التالية للوضع .

ونصت المادة ١٣٤ على أن يصرف للعاملة أجر عن مدة إجازة الوضع التى تحصل عليها تعادل ٧٠٪ من أجرها بشرط

أن تكون قد أتمت وقت انقطاعها عن العمل سبعة شهور متوالية فى خدمة صاحب العمل نفسه .

واستحدث القانون الموحد فى الإقليمين . . إلزام صاحب العمل الذى يستخدم مائة عاملة فأكثر فى مكان واحد أن يوفر داراً للحضانة يحدد شروط إنشائها ونظامها وما تتحمله العاملة مقابل انتفاعها بها بقرار من وزير الشئون الاجتماعية والعمل حيث قد اتضح أن معظم أصحاب الأعمال قد قام بتوفير مثل هذه الدور من تلقاء أنفسهم .

● والفصل الخامس : خاص بتشغيل العمال فى المناجم والمحاجر ، وقد امتد سريان أحكام هذا الفصل على الإقليم السورى .

● أما الفصل السادس فهو خاص بتحديد الأجور ، وقد استحدث فى الإقليم المصرى تشكيل لجان لتحديد الأجور أسوة بما هو متبع فى الإقليم السورى فنصت المادة ١٥٦ على أن تشكل بقرار من وزير الشئون الاجتماعية والعمل لجنة مشتركة لاقتراح تحديد الأجور فى كل محافظة . كما يجوز تشكيل لجان خاصة لهذا الغرض بالمراكز الصناعية الهامة ، وبينت المواد ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ كل ما يتعلق باختصاصاتها العضوية فيها ، واجتماعاتها ، ومكافآت أعضائها وإصدار القرارات التى تعين الحد الأدنى للأجور .

الباب الرابع : وهو خاص بنقابات العمال ، وقد أخذ القانون بالمبادئ والأحكام التى تتلاءم مع الاتفاقيات الدولية الخاصة بحق التنظيم النقابى والمفاوضة الجماعية والحرية النقابية . ولم يتضمن القانون أية نصوص من شأنها تمييز نوع معين من النقابات على الأنواع الأخرى منها ، ويسر للنقابات فى الوضع الجديد أن تتطور إلى نقابات عامة للصناعة أو المهنة تمشياً مع التطور الصناعى للبلاد وحتى تستطيع النقابات بهذا الوضع الجديد أن تؤدى ما عليها من واجبات نحو أعضائها ونحو المهنة أو الصناعة بصفة عامة ويجوز لها أن تكوّن اتحاداً واحداً فى كل إقليم، ولهما أن يكونا اتحاداً عامًّا واحداً فى الجمهورية العربية المتحدة .

الباب الخامس : وهو خاص بالتوفيق والتحكيم فى منازعات العمل ، وقد بسطت نظم وإجراءات التوفيق والتحكيم فى منازعات العمل على نحو يحقق سرعة تسوية المنازعات فاكتفى بمرحلة المصالحة بتدخل مكتب العمل دون حاجة إلى مرحلة التوفيق بالنسبة لعمال المؤسسات التى تستخدم أقل من ٥٠ عاملاً ، فإذا تعذر على المكتب تسويتها أحالها إلى التحكيم مباشرة وفى ذلك توفير للجهد والوقت .

وأما بالنسبة إلى أصحاب الأعمال الذين يستخدمون ٥٠ عاملاً فأكثر فقد استبعدت مرحلة التوفيق بمعرفة مكتب العمل ، وعليه أن يحيل النزاع مباشرة إلى لجنة التوفيق .

الباب السادس : وقد تضمن بعض الأحكام الخاصة بتفتيش العمل والضبطية القضائية .

الباب السابع : وتضمن بعض الأحكام الخاصة بالعقوبات

● هذا وقد تضمن قانون الإصدار بعض الأحكام الانتقالية والختامية .

١ ــ فنصت المادة (٣) على أنه عند تطبيق نظم ومعاش الشيخوخة يكون للمنضمين إلى مؤسسة التأمينات الاجتماعية الخيار فى استبدال مستحقاتهم المقابلة لمكافأة نهاية الخدمة والأموال المدخرة لحسابهم فى المؤسسة عند استحقاقها إلى معاشات مدى الحياة طبقاً لجدول يصدر بقرار من وزير الشئون الاجتماعية والعمل بناء على عرض مجلس إدارة المؤسسة بشرط ألا تقل القيمة الاستبدالية لهذه الأموال المستحقة عن جنيهين شهرياً فى الإقليم المصرى و ٢٠ ليرة سورية فى الإقليم السورى .

٢ ــ ولما كانت لجان تحديد الأجور قد تستغرق بعض الوقت ، لذلك فقد رؤى استمرار العمل بأحكام الأمر العسكرى رقم ٩٩ لسنة ١٩٥٠ فى الإقليم المصرى ، على أن تصبح القرارات التى تصدرها اللجان المذكورة نافذة المفعول .

٣ ــ ولما كانت أحكام قانون العمل رقم ٢٧٩ لسنة ١٩٤٦

المعمول به فى الإقليم السورى تسرى على مستخدمى وعمال الحكومة هناك ، فقد رؤى النص على استمرار العمل بالأحكام الخاصة بهم فى القانون المذكور مالم يصدر قرار من رئيس الجمهورية بسريان أحكام قانون العمل أو أى قانون آخر عليهم .

٤ ـ وخولت المادة ٦ للنقابات والاتحادات القائمة فى تاريخ العمل بهذا القانون فى ممارسته أعمالها إلى أن تعدل نظمها مع الأحكام الواردة فيه ، وعلى أن يتم ذلك خلال أربعة أشهر على الأكثر من هذا التاريخ وإلا اعتبرت منحلة وتوجه فى هذه الحالة أموالها إلى وزارة الشئون الاجتماعية والعمل لصالح النقابات الجديدة ، أو لصرفها فى وجوه نافعة للعمال .

٥ ـ لما كان لأصحاب الأعمال منظمات خاصة بهم فى الإقليم السورى ، فقد رؤى إبقاء اختصاصاتها قائمة فيما لا يتعارض وأحكام هذا القانون .

٦ ـ وقد استحدثت المادة ١١ حكماً جديداً فى الإقليمين بمقتضاه تؤول إلى وزارة الشئون الاجتماعية والعمل جميع المبالغ المحكوم بها عن مخالفات أحكام هذا القانون لتقوم بصرفها فى الأوجه وبالشروط والأوضاع التى يحددها وزير الشئون الاجتماعية والعمل بقرار منه ، وهو ما سبق أن أخذ به فى قانون التأهيل المهنى للعاجزين عن العمل وتخديمهم .

الباب الرابع

أهم الأحداث الاقتصادية في الإقليم الجنوبي

تحقيق الموازنة في ميزان المدفوعات الخارجية

أولا : ميزان المدفوعات :

بعد أن قدمنا عرضاً للأحوال والتطورات الاقتصادية فى الإقليم الجنوبى وهى تطورات لم يكن فى الوسع إدراكها إلا فى ضوء التطورات المتعلقة بالصناعة رأينا أنه من دواعى الغبطة كيف أن سياسة التصنيع فى هذا الإقليم قد اتجهت إلى تحقيق أهداف الثورة من الاكتفاء الذاتى بما تستطيع البلاد أن تنتجه وفقاً للأسس الاقتصادية من المنتجات الصناعية — كما رأينا أن هذه السياسة قد اتجهت إلى الإكثار من الصناعات التى قد تجد لها البلاد أسواقاً فى الخارج ، وما من شك فى أن هذه السياسة قد أدت إلى تحسين ميزان المدفوعات الخارجية وتوفير

العملات الأجنبية التى تتطلبها برامج التنمية الضخمة التى اضطلعت بها الثورة مما يعود على البلاد بكثير من المزايا الاقتصادية .

ولقد ترتب على تنفيذ هذه السياسة من الآثار ما ظهر فى ميزان المدفوعات الخارجية بما توفر لنا من العملات الأجنبية على أساس قيمة الإنتاج المحلى حتى لا تظل البلاد محتاجة للاستيراد من الخارج علاوة على ما توفر على أساس قيمة الصادر من الإنتاج المحلى للخارج مما زادت معه حصيلة العملات الأجنبية ومن هذا الوفر استنزلت قيمة الخامات وقطع الغيار التى تستورد لمواجهة احتياجات التنمية فى برامجها المختلفة .

أما أعباء النقد الأجنبى التى ترتبت على تنفيذ هذه المشروعات فقد تم تقديرها على أساس ما يستحق دفعه منها مقدماً عند التعاقد وعند الشحن أو على أساس المستحق دفعه منها على أقساط طبقاً للتسهيلات الائتمانية التى ينتظر الحصول عليها .

وإنه بالرغم من زيادة هذه الأعباء فى المشروعات المختلفة فإن هذا الوفر سيتحقق فى حساب المدفوعات الخارجية فيما يتصل بالقطاع الصناعى وسوف لا يقف هذا الوفر عند حد معين بل يتحتم اتجاهه تدريجاً إلى الزيادة سنة بعد أخرى .

ثانياً : اليد العاملة :

اقتضت مشروعات التنمية فى برنامجها الثانى تشغيل حوالى ١٩٣٠٠٠ عامل خلاف من استخدم فى الصناعات الريفية ، وتقدر أجور العمال بـ ٣٣,٥ مليون جنيه سنوياً للعمل فى هذا القطاع بمختلف صوره كالصناعات البترولية وصناعة التعدين والصناعات الغذائية والكيمائية والدوائية والغزل والنسيج والصناعات المعدنية الأساسية والهندسية والريفية والتكميلية والتدريب المهنى .

على أنه من شأن مضاعفة النشاط الصناعى أن يرتفع عدد العمال الذين تتطلبهم القطاعات الأخرى لخدمة القطاع الصناعى كالتسويق والنقل وغيرهما ولهذا فسوف لا يقف عدد العمال المطلوبين عند حدود الـ ١٩٣٠٠٠ بل إنه سيكون دائماً فى ازدياد مستمر .

على أن التنمية الصناعية ستحقق دخلاً يستمر صعوده بحكم إضافة العائد المنتظر من مشروعات البرنامج الأول التى لم تكتمل بعد طاقتها الإنتاجية — ويصبح الدخل القومى بعد زيادة هذا العائد ١٩٠ مليون جنيه يضاف إليه ما سيتحقق من تشغيل طاقات المصانع العاملة وما ينتظر لها من النمو .

وقد دل البرنامج الثانى على أن نسبة الدخل القومى إلى

الاستثمار تتجه نحو الزيادة عما كانت عليه فى البرنامج الأول مما يترتب عليه حصول البلاد على زيادة فى الدخل القومى باستثمار أقل نسبيًا إذ يتاح استغلال ما كان فائضاً أو معطلاً من طاقة المشروعات القائمة إذ لا شك فى أن المال المستثمر منها لا يصل إلى ما تتطلبه المشروعات الجديدة من رأس مال كبير ، ومن شأن زيادة الكفاية الإنتاجية للمشروعات القائمة والمستغلة أنه يحدث التحسن فى معدل إنتاجية الاستثمار ، على أنه سيكون لدينا وفقاً للبرنامج الثانى معدات إنتاجية من صنع البلاد تدعو إلى التقليل من الإنفاق الخارجى ومن شأنه مضاعفة الدخل القومى .

على أنه كان من شأن تنفيذ البرنامج الثانى أنه حقق للإنتاج الصناعى زيادة كبيرة بحوالى ٧٠٪ بالنسبة لإنتاج سنة ١٩٥٩ الذى بلغت قيمته ١١٠٢ مليون جنيه ارتفعت نتيجة للزيادة إلى ١٨٢٣ مليون جنيه .

وهكذا تكون الثورة قد اهتدت فى بحثها عن الاستقرار الاقتصادى إلى تدعيم القطاع الصناعى حتى أصبحت الصناعة فى بلادنا من الأعمدة الراسخة بالنسبة لقيمة الإنتاج وبالنسبة لنصيبها فى الدخل القومى .

ولعل من حقنا أن نقف هنا لحظة نتدبر فيها المسافة التى قطعناها فى الطريق لنقول إنه سوف لا تمضى السنوات الثلاثة المقبلة إلا وتكون الجمهورية العربية المتحدة دولة صناعية فى

٨٠

المكانة الأولى وتكون الثورة الصناعية بفضل ثورتنا فى سنة ١٩٥٢ هى التى غيرت وجه الحياة الاقتصادية فى البلاد بعد أن أثبتت قدرتها على التقدم الصناعى بمعدل متزايد .

الباب الخامس

الرقابة على النقد وتنظيم المصارف في الإقليم الشمالى

« الحرية السياسية ليست فى أن يساق الشعب كالعبيد إلى صناديق »
« الانتخاب كل خمس سنوات تصويت . . . إنما الحرية أن »
« يتقاسم أبناء البلد خيراته . »

جمال عبد الناصر

التشريعات الجديدة :

تقوم السياسة الاقتصادية فى الجمهورية العربية على مضاعفة الدخل القومى فى مدى عشر سنوات وفقاً لبرنامج التنمية والتصنيع الذى يتطلب تنفيذه الحصول على مبالغ باهظة من الجنيهات والليرات — وقد رأت الدولة لإنجاح هذه الخطة أن تعمل على توفير هذه المبالغ ليفيد منها جميع المواطنين ، ولا تختص بها فئة دون أخرى ، إذ كانت طوائف الاحتكار والاستغلال تنقل ما تحصل عليه من الأموال إلى الأسواق الخارجية ، تشترى منها أدوات الترف والكماليات .

ونحن الآن فى حاجة إلى السلع الإنتاجية لإنشاء المصانع فى

إقليمي الجمهورية ، وتوفير الأعمال ، وزيادة قدرة المواطنين الشرائية . وكفالة ضرورات الحياة بإتاحة الفرص المتقاربة من العمل والرزق لأغلبية الشعب لذلك اقتضى انسجام النظام بين القاهرة ودمشق انسجاماً كاملاً أن يصدر فى ٤ فبراير سنة ١٩٦١ قرار جمهورى بتنظيم عمليات النقد الأجنبي فى الإقليم الشمالى إحكاماً للرقابة على النقد وفضلا عن ذلك فقد تلاه صدور قرار جمهورى آخر بتنظيم العمل المصرفى بما يضاعفه ويزيد فى نشاطه لما للوظائف المصرفية من بالغ الأثر فى التقدم الاقتصادى والمالى للبلاد بتدعيم قيمة النقد التى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالأمن الاجتماعى .

وأول ما يسترعى النظر فى هذين القرارين هو الرغبة فى تدعيم بنيان الاقتصاد القومى فى إقليمى الجمهورية ورفع المستوى العام تحقيقاً للاشتراكية التى تمنح الفلاح أرضه ويستعيد الشعب بها ماله من الحقوق ، علاوة على ما قضى به التشريع الصادر بالقرارين من عدم التعامل فى أوراق النقد الأجنبي أو تحويلات السياحة أو تحويل النقد من الإقليم الشمالى إلا بقرار من وزير الاقتصاد .

ويغلب على هذه القرارات الجمهورية ما اتسمت به من الطابع التنظيمى لتنسيق العمل وتوحيد الأنظمة الاقتصادية بين الإقليمين مما يزيد من سرعة عجلة التصنيع فى البلاد ويبيح للشعب أن يسيطر على رأس المال بما اتخذته الدولة من الوسائل لصيانة أمن البلاد الاقتصادى بتنظيم عمليات النقد الأجنبي فى

الإقليم الشمالى وسد السبل أمام تهريب الأموال إلى الخارج لتوفير ما يلزمه من هذا النقد للمشروعات الإنتاجية وأغراض التنمية الاقتصادية وتنظيم المصارف إذ لا يخفى أن استقرار العملة من ألزم الأمور للحرية السياسية مما يعتبر أساساً للروح المعنوية فى الشعب ودعامة قوية للنظام الاجتماعى .

أهم الأحداث الاقتصادية
فى الإقليم الشمالى

الوحدة السياسية والوحدة الاقتصادية :

لقد كان أول اهتمام الثورة فى سنة ١٩٥٢ موجهاً إلى الوحدة بين البلاد العربية فكانت أولى الخطوات بين مصر وسورية هى تحقيق الوحدة السياسية بينهما وكان طبيعياً لكى تنمو هذه الوحدة وتزدهر أن تكون الخطوة التالية هى تحقيق الوحدة الاقتصادية بعد أن استكملت المعدات اللازمة لها بما قطعته من مختلف المراحل التى هيأت لها إقامة الاتحاد الجمركى الذى أدى إلى تخفيض الضرائب الجمركية وتخفيفها بطريقة تدريجية على السلع المتبادلة بين الإقليمين .

وفى هذه الحدود قد تم حل المشكلة، ولكن كانت هناك مشكلات أخرى لا تزال تنتظر الحل وعقبات أخرى يجب أن نتغلب عليها حتى تستكمل الوحدة كافة عناصرها لإرساء قواعد الديمقراطية الاشتراكية التعاونية فإنه بالرغم من تلك المراحل السالفة الذكر كان لا يزال هناك من الصعوبات ما هو جدير بأن ينال من العناية والحكمة ما يساعد على

تنفيذ هذه السياسة وتحقيق الوحدة المنشود كإزالة القيود المفروضة على انتقال رءوس الأموال والأيدى العاملة وعدم التناسق بين مختلف التشريعات من النواحى الاجتماعية والاقتصادية والمالية بين الإقليمين .

وقد أدت هذه الحال إلى وضع بعض القواعد لربط الإقليمين وتذليل ما بدا فى الطريق من عقبات بالتنسيق بين التشريعات المختلفة والنظم القانونية والاقتصادية المعمول بها فصدرت القرارات الجمهورية المنظمة للرقابة على النقد وتلتها القرارات الأخرى المنظمة للمصارف .

وليس يغيب عن البال أنه كان للتعارض بين الإقليمين فيما يتصل بنظام الاستيراد والتصدير ونظام ميزان المدفوعات آثاراً ظاهرة جديرة بالتأمل والاعتبار لا سيما بعد أن تم صدور التشريعات فى الإقليم الجنوبى فى هذه النواحى متسمة بالطابع الاشتراكى التعاونى ومتفقة مع ظروف البلاد الاقتصادية ولم يكن بعد ذلك مما تستسيغه الوحدة بحال ولا مما يتفق مع أهدافها أن يستمر الحال على هذا المنوال .

مركز البنوك وتبسيط مهمتها :

على أننا لو ألقينا نظرة إلى الوراء لتبين لنا أن ثمت جانب آخر لهذه الصورة يكشف لنا عن تفاصيله خلو الإقليم الشمالى

من قانون لتعريب البنوك القائمة فيه والتى تتمثل إمكانياتها الذاتية فى رءوس أموالها مع احتياطياتها وهذه لا تتجاوز ٩٦ مليون ليرة سورية (١٢ مليون جنيه مصرى) فى الوقت الذى تجاوزت الاعتمادات المفتوحة فيها ٦٢٠ مليون ليرة سورية (٧٩ مليون جنيه مصرى) منذ النصف الثانى من سنة ١٩٦٠ حتى الآن . وكذلك بلغت الودائع تحت الطلب وللأجل أكثر من ٤٢٢ مليون ليرة (٥٣ مليون جنيه مصرى) .

ولم تكن هذه البنوك فى واقع الأمر قائمة بدور إيجابى فعال فى رسم السياسة النقدية لصغر حجمها وضعف إمكانياتها التمويلية ومنافسة المصارف الأجنبية من ناحية ولإحجام المدخرين من ناحية أخرى عن التعامل مع البنوك الصغيرة التى لا تملك فروعاً فى أنحاء الإقليم .

تعريب البنوك :

لذلك كان للقرار الجمهورى الخاص بالتعريب من الآثار المحمودة ما دعا إلى التوسع فى الخدمات المصرفية إذ اتجه الرأى إلى افتتاح فروع للبنوك المختلفة فى المناطق الصناعية والزراعية والجهات الأخرى لتنمية الصناعة والتجارة والزراعة ولإبعاد الوسطاء والمرابين .

وكان من شأن تحسن الأحوال الاقتصادية أن أعلنت

المصارف عن استعدادها لزيادة حجم قروضها وإلى تقديم المزيد من هذه القروض ببسط يدها فى إقراض الأفراد وتوسيع دائرة القروض بما يتفق مع خطة التنمية ، وذلك لحماية الصناع والمزارعين وغيرهم وللحيلولة بينهم وبين الخسارة الفادحة التى كانوا يتعرضون لها من جراء عمليات النقل ، والفوائد الفادحة التى كثيراً ما كانت تصل إلى ٩٪ أى ضعف ما يجرى عليه العمل فى الإقليم الجنوبى ، ومن أجل ذلك اتجه الأفراد إلى إيداع أموالهم فى البنوك . كما أنه يجرى العمل تنفيذاً لهذه السياسة على إنشاء بنك عقارى للقيام بعمليات إقراض الملاك وبنك خاص للإسكان وبنوك أخرى وفق الظروف والأحوال . حتى يتحقق ما لهذا التشريع من فوائد ومزايا ، وتتمكن المصارف من تأدية وظائفها بطريقة مجدية .

ويبلغ عدد البنوك العربية للدول الشقيقة ستة تقابلها ستة بنوك أجنبية وإلى جانبها بنوك أخرى تحمل جنسية الجمهورية العربية المتحدة .

وتتمثل أهم مظاهر الاختلاف بين الإقليمين من هذه الناحية فى أن الإقليم الشمالى ظل خالياً من مثل هذا التشريع على النحو الذى قام به الشارع فى سنة ١٩٥٦ فى الإقليم الجنوبى حين أصدر القانون الخاص بتمصير البنوك ومساهمة المؤسسة الاقتصادية فى أغلب رءوس أموالها مساهمة فعالة . . .

ولذلك فقد جاءت القرارات الجمهورية المنظمة للعمل

المصرف تنص على أن تكون كل المصارف مؤسسة على شكل شركات مساهمة لا يقل رأس مالها عن ثلاث ملايين ليرة — وأن تكون أسهمها اسمية ومملوكة لمن يتمتع بجنسية الجمهورية العربية .

على أن هذه القرارات لا ترمى إلى إدخال المصارف جميعها فى القطاع العام بل سيكون لهذه المصارف أن تحتفظ بحريتها والعمل فى القطاع الخاص ، ومن مقتضى هذا تتخذ المصارف صورة شركات الاقتصاد ذات الطبيعة الخاصة التى يشترك القطاعان العام والخاص فى الإسهام فى رأس مالها مما يؤكد من جانب الدولة بأهمية التعاون بين القطاعين .

وإنا لنلحظ فى القرار الخاص بتنظيم المصارف أنه يستهدف إسهام المؤسسة الاقتصادية السورية فيها بحصة لا تقل عن ٣٥٪ من مالها حتى تؤمن الدولة توجيه السياسة المصرفية لتحقيق مصالح الشعب فى تنفيذ خطة التنمية وصيانة الادخار الفردى من التلاعب والعبث والفساد .

تثبيت الأسعار :

كان من أهم العوامل التى أدت إلى هذه التطورات اضطراب أسعار السلع وانتكاسها فى الإقليم الشمالى مما دعا الشارع إلى إصدار القرارات الجمهورية التى أشرنا إليها فقد كانت

الأسعار قبل صدورها تتجه اتجاهاً صعودياً أدى إلى الارتفاع بها عن الحد المألوف، ويرجع هذا الاتجاه الصعودى إلى اضطراب أسعار القطع فى السوق الحرة من جهة وإلى ارتفاع أسعار العملات الأجنبية على حساب خفض سعر الليرة من جهة أخرى وكانت الليرة قد أخذت فى هذه الأوقات تتقلب فى حدود غير معقولة .

فى هذه الصورة القاتمة كان الإقليم الشمالى يرزح تحت أثقال نظام اقتصادى سىء للغاية يقوم على قصر إعطاء العملات الصعبة لفريق دون فريق آخر وعدم تحديد الكميات المسموح بها مما أدى إلى افتقار البلاد إلى أشياء كثيرة إذ لم يكن الاستيراد موجهاً لتوفير حاجة خطة التنمية وتوفير الاستهلاك المحلى من الأغذية والمستحضرات الطبية والمواد الأولية وبعض المواد الكمالية . . .

لذلك عمدت الدولة على أن يتوافر لديها القطع الأجنبى اللازم للاستيراد وما إن صدرت القرارات الجمهورية المشار إليها حتى أخذ سعر القطع فى الاستقرار وانعكس ذلك أيضاً على أسعار السلع فاستقرت من ناحيتها بعد أن أحجم التجار عن رفعها وذلك تحقيقاً لقصد المشرع فى عدم إثقال كاهل المواطن دون موجب أو مبرر .

حركة النقود والائتمان :

وأبرز مظاهر هذا التحول أن فتحت أبواب الاستيراد لتوفير ما يحتاجه المواطن من المواد الخام والمواد التموينية وقطع الغيار ومعدات التصنيع وبدأت كمياتها تزداد سداً لحاجة العامل والزارع والصانع والموظف وصاحب الدخل الصغير بصفة عامة، كما امتد الاستيراد لبعض أدوات الترف والترفيه فى الحدود المناسبة .

وستنشأ شركات للاستيراد تشترك الدولة فى رأس مالها عن طريق المؤسسة الاقتصادية السورية وبهذا تتوفر السلع والبضائع بأسعار مخفضة ويسير التموين فى طريق سليم يضع حداً لارتفاع أسعار المواد واحتكارها . . .

ولا شك فى أن النظام الجديد يحقق المزيد من النقد الأجنبي بإحدى وسيلتين : إما فى مقابل الصادرات التى تقوم على العملة الأجنبية . أو من القروض الأجنبية أو من تسهيلات التأمينات والنقد فوق ذلك فإنه يؤمن حاجات الإقليم الشمالى من العملات الصعبة التى تخصص لاستيراد المواد التى تحتاج إليها خطة التنمية من أجهزة صناعية وزراعية وما تتطلبه من مواد أولية وما يحتاج إليه الاستهلاك المحلى من سلع وبضائع ضرورية علاوة على تأمين حاجات المواطنين من السلع الغذائية والمستحضرات الطبية والمواد الأولية .

ومن ناحية التجارة الخارجية فإنه لا خوف على عرقلتها وشل حركتها إذ قد تم الاتفاق مع البلاد المجاورة على تمويلها عن طريق الحسابات غير المقيمة وأن يقبل الدفع بالعملات الحرة والعملات المقبولة . والبنكنوت الأجنبى .

وقد تم الاتفاق على تشجيع تجارة الترانسيت والاستيراد لأغراض التصنيع كما شمل إعادة التصدير .

أما عمليات التجارة بين الجمهورية العربية وبين البلاد العربية الشقيقة والبلدان المجاورة لسورية فقد رؤى استمرارها على النحو الذى كان متبعاً قبل صدور القرارات الجمهورية وعلى ذلك يستمر تبادل الخضراوات والأغنام والأسماك وغيرها مع لبنان وتركيا والسعودية .

وترجع أسباب أزمة النقد إلى قلة الحصيلة النقدية عن الصادرات نتيجة لانكماش حجمها إثر الظروف القاهرة وما صاحبها من قسوة الجفاف فى شتاء السنين الأخيرة مما كان له اسوأ الآثار على كافة المحاصيل، ذلك أن إيراد الإقليم من القطع الأجنبى هو عبارة عن القيمة النقدية لهذه الصادرات وكلما زادت الصادرات زادت بالتالى الحصيلة النقدية من هذا القطع وهو ما دعا إلى صدور هذا التشريع حتى تسير خطة التنمية فى سبيلها .

وقد كان كل من الإقليمين يرتبط مع عدد من الدول الأجنبية قبل قيام الوحدة باتفاقات تجارية ودفع ،وكان حتما

توحيدها ، فأصبحت الاتفاقات الجديدة تشمل الإقليمين وتم عقد عدد منها باسم الجمهورية العربية المتحدة ، وليس من شأن تحديد قيمة الجنيه المصرى بثمانى ليرات أن يلحق به أى ضرر أو خسارة ؛ فهو يعتبر أعلى سعر بلغه الجنيه البنكنوت فى الإقليم الشمالى .

السوق الحرة :

تعد الصادرات من أهم الموارد المباشرة التى يعول عليها الإقليم الشمالى من القطع الأجنبى وتليها حصيلة شركات البترول . والمسلم به أن حجم الصادرات من السلع والخدمات فى أى بلد يعتبر أساس موارده من القطع الأجنبى وهو القيمة النقدية لهذه الصادرات التى كلما زاد حجمها زادت تبعاً لذلك الحصيلة من القطع الأجنبى

والقرارات الجمهورية التى صدرت لا تحد من عمليات التصدير بأى تحديد أو قيد وإنما هى تقرر ضمان استرداد قيمة الصادرات كاملة وتدفع علاوة على ذلك إلى زيادة حجم الصادرات .

والمصدر الثانى للقطع الأجنبى هو حصيلة شركات البترول التى تقوم أولا على الإتاوة المفروضة للدولة وهى إتاوة ذات طبيعة دائمة حتى بعد صدور هذه القرارات ، وإلى جانب ذلك تقوم هذه الحصيلة على مختلف النفقات التى تتمثل فيما كان يحصل

عليه العمال والموظفون بهذه الشركات من أجور ومرتبات وهذه كانت تؤول قبل صدور القرارات للسوق الحرة يمتصها للاستغلال فى عمليات التهريب والمضاربة . أما الآن بعد صدور القرارات فقد أصبحت هذه الحصيلة للسوق الرسمية .

والسوق الحرة التى لم تكن تمول إلا بما قيمته ٦٠ مليونا من الليرات كانت عاجزة عن سداد العجز فى الميدان التجارى وقد كان هذا العجز لا تتجاوز نسبته ٨٪ من قيمة السلع المستوردة وفى السنوات الأخيرة كان متوسط قيمة السلع الواردة يتراوح بين ٦٠٠ و ٨٠٠ مليون ليرة سنوياً لم تقم السوق الحرة إلا بتمويل ٦٠ مليوناً فقط .

وسائل الدفع :

وقد تبين بعد صدور القرارات أن المصرف المركزى يلبى كل الطلبات النقدية التى تقدم إليه وإن فى استطاعته تغطية احتياجات القطع جميعاً وذلك أن حصيلة القطع حتى عند صدور هذه القرارات كانت ٢٥ مليون ليرة حين أن قروض البنك التى تعهد بسدادها فى خلال الأشهر الأخيرة بلغت ٢٢ مليون ليرة بمعنى أن صافى رصيد المصرف من القطع ٣ مليون ليرة فقط .

وقد تبين فى أعقاب صدور القرارات صعود هذا الرصيد إلى ٤٨ مليون ليرة علاوة على ما دفعه المصرف لتراخيص

الاستيراد التي فتحت في هذه الفترة وتقدر بـ ١٦ مليوناً من الليرات خلاف تراخيص الاستيراد الأخرى التي تسدد بحكم الاتفاقيات .

ولا شك في أن السوق الحرة قد ساعدت كما بينا على تهريب النقد إلى الخارج ولم تحقق هذه السوق توفير القطع الأجنبي اللازم للتنمية الاقتصادية فتوقفت مشروعاتها ، وكذلك لم تحقق استقرار الأسعار وسعر الليرة نفسها فاضطربت أسعار القطع وأسعار السلع المختلفة من جراء ذلك . وأصبح في الاستطاعة الآن توفر القطع اللازم لتغذية خطط التنمية وتحقيق الأمن والاستقرار في الأسواق — وباستقرار أسعار العملات تستقر أسعار السلع والبضائع .

القافلة تسير :

وإنا لنفخر حقاً بأن بلادنا في عهد الثورة قد حاولت محاولات صادقة في ميادين الاجتماع والاقتصاد وأنها نجحت في محاولاتها مما أكسب المجتمع شجاعة في هذه الأمور . وهذا فضلا عن عدد لا يحصى من التشريعات والإجراءات التنظيمية التي لم يحاك بها الجهاز الثورى أحداً ، وهى تستهدف استقرار اقتصادياتنا بتنظيم الأسعار والأجور والواردات والصادرات إلى جانب ما بدا من اهتمام الدولة بتوزيع الإنتاج القومى توزيعاً عادلا بين مختلف الطوائف الاجتماعية ، واتخاذ رفاهية المجتمع السياسية والاقتصادية هدفاً للسياسة الاقتصادية الحكيمة التى

تسير معها خطة التنمية ومشروع السنوات الخمس فى اضطراد تحقيقاً لمضاعفة الدخل فى عشر سنوات . . .

وهكذا لاح فجر هذا التشريع الجديد « بالقرارات الجمهورية » الذى طال انتظاره فى الإقليم الشمالى فكان خطوة جديدة فى طريق التقدم وتدعيم الاستقرار .

ولسنا نشك فى أن هذا التشريع بعصاه السحرية سيحيل القلق الذى ساد الأوساط المالية حيناً اطمئناناً وأمناً ، ويسجل للاستثمار زيادة طيبة بما يقوم به من توجيه دفة الأقتصاد فى الجمهورية نحو تحقيق الأهداف المرسومة .

بل إنا لنعلم يقيناً أنه بمثل هذه التشريعات والإجراءات التنظيمية سوف ندفع عجلة التصنيع إلى الأمام فيؤتى التصنيع ثماره اليانعة ويحقق أهدافه المرجوة . . .

وإنا لنتطلع إلى الأمام، بكل ثقة وأمل، ونرتقب أعواماً وأعواماً لا تحمل فى طياتها المزيد من الاضطراد والتقدم فحسب ، بل إنا لنرتقب الأعوام التالية وهى حافلة بكل جديد من الأعمال التى تستهدف تحقيق توازن الاقتصاد ورخائه .

الباب السادس

السوق العربية المشتركة

« إنها للعرب عزة وبناء ،
واستقلال وكرامة ووحدة وقوة »
جمال عبد الناصر

ليس من شك فى أن التكتلات الاقتصادية التى ظهرت فى دول أوربا الغربية ، ودول أوربا الشرقية ، ودول أمريكا اللاتينية ، تشكل خطراً كبيراً على اقتصاديات البلاد العربية ، فهى تهدد تجارتهم ، وصناعتهم ، ومصادر ثروتهم . ولا سبيل إلى مقاومة هذه الآثار الخطيرة إلا بالتعاون الوثيق بين الدول العربية فى كافة مجالات الاقتصاد ، حتى يضمن كل بلد منها أسعاراً عادلة ومجزية لمنتجاته ، وحتى لا يقع أى بلد منها فريسة بين مخالب الاحتكارات الأوربية .

ويمكن تلخيص خطر السوق الأوربية على اقتصاديات البلاد العربية فيما يلى :

١ – كل البلاد الأوربية التى أنشأت السوق الأوربية المشتركة تعد من البلاد الصناعية ، ومعظمها يعتمد على المواد الخام التى يستوردها من الشرق الأوسط ، فإذا اتفقت تلك

البلاد فيما بينها على أسعار محددة لموادنا الخام كان معنى ذلك إلغاء المنافسة ، ويتبع ذلك خضوع اقتصادنا للاحتكار ، واضطرارنا إلى بيع موادنا الخام بأسعار قد تكون غير مجزية لنا .

٢ — لهذه البلاد الأوربية مصالح استغلالية فى الشرق العربى ، وقد تتأثر فى علاقاتها الاقتصادية معنا بالاعتبارات السياسية وعوامل الضغط والحصار .

لذلك كله ، يجب على العرب التماسك لمقاومة هذا الخطر الكبير ، وعليهم أن يتذرعوا فى مقاومته بنفس الطريقة التى تذرع بها الغرب ، وهى الوحدة الاقتصادية والسوق العربية المشتركة . وإن تحقيق هذه السوق ، بالإضافة إلى كونه عملاً يقصد به الوقوف ضد التكتلات الاقتصادية الغربية ، من شأنه أن يحقق للعرب نتائج على درجة كبيرة من الأهمية . فهى تساعد على رفع مستوى المعيشة بين الشعوب العربية ، وتقضى على المنافسة التى تبغى إيقاع الضرر باقتصادهم ، وتسرع بالتنمية الاقتصادية فى البلاد العربية ، وتزيد حجم تجارتها .

كما أن قيام السوق العربية المشتركة ليس بالأمر الصعب التنفيذ ، فإن سهولة الانتقال بين البلاد العربية وعدم وجود عوائق طبيعية تفصل بينها ، واشتراكها فى الحدود ، وفى المصلحة التى تتعارض والمنافسة الأجنبية ، والرابطة القوية التى تربط بين شعوبها ، والتى استمدت قوتها من وحدة اللغة ، والتاريخ ، والأهداف والأمانى المشتركة ، والقومية الواحدة التى تحتل أرفع

مكان فى قلب كل عربى وفى تفكيره . كل هذه الروابط . تجعل من السهولة بمكان إيجاد السوق العربية المشتركة . فهى أمنية الشعوب العربية ، لأن فى قيامها ما يزيد من عزتهم وكرامتهم . ويجعلهم فى منأى عن عوامل الضغط . ويبعد اقتصادياتهم عن تيارات المصالح الاستعمارية وأعاصير السياسة والاستغلال.

الجمهورية العربية المتحدة والسوق المشتركة :

تقدم وفد الجمهورية العربية المتحدة إلى المجلس الاقتصادى العربى فى دورته الأخيرة بتخطيط للسوق العربية المشتركة كوسيلة من وسائل مقاومة الضغط الاستعمارى على الاقتصاد العربى ، وكعمل يقصد به تحقيق الوحدة الاقتصادية التى تعد مظهراً هاماً من مظاهر كرامة العرب ، وقوتهم وعزتهم . وقد سار التخطيط على النحو التالى :

١ ـ مراعاة الإمكانيات الصناعية لكل دولة من الدول العربية ، بحيث يكون هناك تكاملاً بين هذه الدول فى مجال الصناعة . ومعنى هذا أن يكون هناك ما يشبه التنسيق بين المنتجات الصناعية فى كل بلد من البلاد العربية ، ويقوم هذا التنسيق على أساس مقومات كل صناعة ومدى توفرها فى البلد المنتج . ويترتب على ذلك رخص هذه المنتجات وزيادة فرص تصديرها إلى الخارج .

٢ ـ العمل على زيادة التبادل التجارى بين الدول العربية .

٣ ــ توحيد الرسوم الجمركية على صادرات البلاد العربية إلى العالم الخارجى .

٤ ــ إعفاء البضائع المتداولة بين البلاد العربية من الرسوم الجمركية ، ويتم هذا الإعفاء على عشر سنوات ، بحيث تخفض هذه الرسوم بمقدار ١٠٪ كل عام .

٥ ــ عدم اشتراك أى بلد عربى فى سوق أخرى إلا بعد موافقة المجلس الاقتصادى العربى ، حتى لا يكون هناك مجال لإحداث ثغرات فى التكتل العربى .

ومهما صادف قيام هذه السوق من عقبات ، فإن الآمال معقودة على يقظة الشعب العربى وعلى كفاحه فى سبيل الوصول إلى تحقيقها ففيها عزته وكرامته وتحرره من سيطرة الإقطاعيين والاستغلاليين ، ومن بطش التكتلات الغربية التى تهدف إلى امتصاصه ، واستغلال ثرواته ، وربطه بعجلتها .

وليس هذا الأمل ببعيد ، فإن القومية العربية التى جمعت الشعب العربى من أجل البناء والوحدة والقوة والعزة والكرامة والاستقلال ، قادرة على تحقيق ما تمتلىء به صدورهم من أمانى وأهداف ، فهى ــ كما وصفها الرئيس جمال عبد الناصر ــ للعرب عزة واستقلال وكرامة وبناء ووحدة وقوة ، وهى للاستعمار نهاية الاحتلال والاستغلال ونهاية لعهد العملاء ومناطق النفوذ .

الباب السابع

العلاقات الاقتصادية بين الدول العربية

« وما القومية العربية فى مضمونها الواعى إلا حرية »
« كل وطن عربى وحرية كل مواطن عربى »

.. جمال عبد الناصر

مما يسترعى نظر القارىء واهتمامه بصفة خاصة أن الفوائد التى ستعود من قيام السوق العربية ليست بقاصرة على الجمهورية العربية وحدها بل إن الدول العربية هى التى ستفيد حتما من هذه السوق إذ أن لها مصلحة كبرى فى أن تصرف منتجاتها بأسعار مجزية .

وليس أدل على ذلك من استقراء الميزان التجارى بيننا وبين الدول العربية فهو يفصح بعبارة واضحة على أنه فى المدة التى تقع منذ قيام الثورة حتى وقتنا هذا لم يتحقق للجمهورية العربية أى غنم أو مصلحة خاصة بل دل الميزان التجارى على اتجاهه لمصلحة الدول العربية كالعراق والمغرب والمملكة السعودية واليمن وتونس ولبنان، وأوضح ميزان المدفوعات عجزاً فى غير صالح الجمهورية العربية .

ومن الجدير بالذكر أن مسألة السوق العربية تعتبر فى مقدمة المشروعات التى ستحدث انقلاباً فى حياة الشعوب العربية لذلك فإن الجمهورية العربية تقوم فى هذا الميدان بدور ملحوظ قصد حماية اقتصاد الدول العربية فلا عجب إذن أن اتجه الرئيس جمال عبد الناصر تحدوه الشجاعة الكافية إلى أن يعمل على تحرير قوى الإنشاء السليمة من عقال التحكم الاقتصادى وأن يعلن إيمانه بسياسة السوق العربية الموحدة فاتجهت الرغبة الصادقة فى اتخاذ وسيلة إلى التعبير عن هذه الأغراض بأن تتحمل الجمهورية العربية بعض التضحيات الاقتصادية فى سبيل إطلاق اقتصاد الدول العربية من إسار التحكم والقهر والاستغلال وأن تعمل على حماية هذا الاقتصاد كقوة متكاملة تستطيع بها هذه الدول أن تواجه ما قد ينجم من التكتلات الاقتصادية الخارجية من مخاطر وأضرار وذلك بتحطيم تلك التكتلات والقضاء عليها بعد أن أحس العرب بخطورتها بما سيلحق بهم من أضرار من جراء قيام السوق الأوربية المشتركة .

وثمة مظهر للسياسة الاقتصادية التى تنتهجها الجمهورية العربية جدير بالدراسة فهى وحدها تعتبر سوقاً لثلاثين مليوناً من المشترين فإذا لم تجد البضائع فى الدول العربية سوقاً كبيرة أدى ذلك بالمبيعات إلى انحصارها فى دائرة محدودة ونطاق ضيق يفرض عليها المزيد من القيود .

ولو قدرنا عدم قيام السوق العربية فقد تكتفى الجمهورية

العربية اكتفاء ذاتياً بما لها من الموارد الواسعة ولكن فى سلوك هذا الطريق ما يتنافر ويتنافى مع أهداف الجمهورية العربية منافاة تامة بل إن فيه ما يعرقل تلك الأهداف التى تسعى الدولة إلى تحقيقها تمشياً مع قاعدة الانطلاق التى ترتكز عليها . ومن السهل مع ذلك أن نتصور أن المستفيد الحقيقى من إقامة السوق هو المستهلك من أبناء الشعوب العربية لأنه يتمكن على هذه الصورة كما سبق القول من الحصول على وفر فى حدود ١٠٪ سنوياً إلى أن تلغى الرسوم الجمركية خلال عشرة أعوام . . .

اتجاه السفينة الاقتصادية :

ومن شأن الوحدة الاقتصادية وقد بدأ التخطيط فى الإقليم الشمالى فى يوليه سنة ١٩٦٠ أنه لا يترتب عليها أية أضرار بعد أن اتجه الميل إلى اعتناق الآراء الموحدة وتمت الاتفاقيات التى لا يخشى فى داخلها من تزاحم المنتجات وهى سبيل التكامل الاقتصادى الحقيقى كما أن أى مشروع اقتصادى محلى سوف لا يتأثر بأى مؤثر من جراء هذه الاتفاقيات .

وصفوة القول أن الجمهورية العربية تعمل على تقوية كيان الأمة العربية وهى فى ذلك لا تتجه إلى تحقيق المصلحة الخاصة مسوقة بوجهة النظر الفردية تلك المصلحة التى لا تزال تسيطر على الجانب الأكبر من سلوك الناس فى المسائل الاقتصادية

بل إنها تتجه بنظرتها من الزاوية العامة التى تتسم بطابع المصلحة العامة وهو الطابع الرئيسى الذى تتميز به الثورة . ذلك أن أى قطر عربى يصيب نجاحاً وخيراً لا بد وأنه يعم العرب جميعاً ، فى تكامل الكيان العربى لقطر ما وفى بلوغه درجة من النضج وسمو المنزلة ، ما يضمن للعرب جميعاً وحدة الكيان ، وما يجعل لهم من القوة الاجتماعية ما يكفى لتعزيز هذا المطلب .

وتحرص الدول العربية على أن تقيم هذا الكيان الموحد على أساس وطيد يضمن لها البقاء والاستقرار لأن هذه الدول على الرغم ما لها من الإمكانيات لا تستطيع وسط هذه التطورات أن تحافظ على بقائها فى المجتمعات الدولية إلا بأن يستكمل هذا الكيان شروطه ، وأن تقوم الصلات التى تقرب بعض هذه البلاد بالتعاون الوثيق والتفاهم قصد تحقيق الهدف المشترك ألا وهو التقدم الاقتصادى والاجتماعى .

الوحدة الأقتصادية بين الإقليمين :

تمثل البلاد العربية وحدة اقتصادية متكاملة العدة ذات كيان مستقل يضمن لها الاستقلال الاقتصادى والاكتفاء الذاتى تجاه العالم الخارجى فمواردها الاقتصادية المتعددة تعتبر على جانب عظيم من الأهمية إذ يوجد من بين ما تنتجه هذه البلاد كميات وافرة من البترول ، ومن مصادر القوى الكهربية ،

والمعادن والمنتجات الزراعية . وفوق ذلك فللبلاد العربية مكانة ملحوظة ذات نفوذ بارز تعتز به السوق العالمية — ولا شك فى أن كل ما تحققه الوحدة بين الإقليمين من الفوائد والمزايا تفيد منه الأجزاء الأخرى من الوطن العربى .

ويدل التكامل الاقتصادى على معنين مختلفين ولكنهما مع ذلك متقاربان فأولهما التكامل فى الإنتاج ونعنى بهذا التعبير فى هذه الدراسة صور تنويع الموارد الاقتصادية وتنسيق سياسة الإنتاج — وثانيهما — التكامل فى السوق : وهو العنصر الذى يؤدى الدور الهام فى إتمام الوحدة الاقتصادية والتنمية الأقتصادية ، لأن كل بلد عربى لو ظل متمثلاً فى وحدة بمفردها قاصراً عليها فإن سوقه وحدها لا تكون كافية بما تستلزمه التنمية الاقتصادية التى تتطلب ضمان السوق الواسعة الكافية لاستيعاب المنتجات ، فإذا كانت السوق العربية مفتوحة أمام منتجات البلاد العربية المختلفة ، فإن هذه السوق تكون كافية للقيام بالتنمية الاقتصادية التى لا بد وأن ترتكز على الوحدة الاقتصادية للبلاد العربية .

سياسة الإنتاج :

ويعتبر التكامل فى الإنتاج عنصراً من عناصر الوحدة المتكاملة وهو لا يقوم على تنوع الموارد الاقتصادية وحدها بل إن للسياسة الاقتصادية دوراً هاماً فى تحقيق هذا التكامل والوصول إليه — فإذا سارت البلاد العربية فى طريق تنسيق سياستها

الإنتاجية على أساس يتيح لكل بلد عربى أن يتخصص فى أنواع منتجاته المتميزة ليضمن انخفاض التكاليف من ناحية، وجودة الإنتاج من ناحية أخرى، وأن يقرن ذلك بتوحيد السياسة بينه وبين البلاد العربية الأخرى فيما يتعلق بالمنتجات المتشابهة كالقطن والبترول، فلا شك فى أن البلاد العربية، لو أنها سارت على هذا النحو من التنسيق والتوحيد فى السياسة، فإنها لا بد وأن تفيد فائدة كبرى وأن تصبح قوة فعالة فى تحديد أثمان البيع لهذه المنتجات بما يزيد الاطمئنان ويشجع على الاستثمار .

وعلاوة على ما للوحدة من الفوائد التى نوهنا عنها فإنها تعتبر تجاه الاستعمار من ألزم الضرورات لضمان استقلال البلاد العربية التى تحررت حديثاً ؛ فالأوضاع الاقتصادية تعتبر ذات قوة إشعاعية تؤثر من الناحية السياسية على وضع أى بلد من البلاد، ذلك أن الاستقلال إذا نظر إليه من زاوية السياسة فإنه يرتهن دواماً بالاستقلال الاقتصادى الذى يعد قاعدته ومحور ارتكازه .

وليس ثمة شك فى أن الوحدة ضرورة لمواجهة التكتلات الاقتصادية الدولية توجب على البلاد العربية أن توسع من سوقها الداخلية .

التكتل الأقتصادى :

تميز التاريخ الحديث بظهور التكتلات فى النواحى

الاقتصادية ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ ثم اشتدت العناية بها وكثر الكلام فيها حتى رأينا ـ كما سبق القول ـ أسواقاً عديدة منها ، السوق الشيوعية المشتركة والسوق الأوربية المشتركة التي تندمج في عضويتها فرنسا وإيطاليا وألمانيا الغربية وبلجيكا وهولاندا ولوكسمبورج . وقد تمكنت هذه السوق من توحيد الرسوم المفروضة على منتجات الدول غير الأعضاء، ومن إلغاء الرسوم الجمركية فيما بين الدول الأعضاء مما يلحق الخطر والإضرار بصادرات البلاد العربية إلى البلاد الأعضاء في السوق الأوربية بما تجره عليها سياسة التكتلات الاقتصادية من خسائر ، وقد تؤدى هذه السوق إلى التحكم في هيكل الأسعار عن طريق التفاعل بين العرض والطلب . ولذلك هب العرب منادين بضرورة قيام كتلة عربية مشتركة تقف في وجه الخطر الجديد وتحمى الشعوب العربية . . .

في سنة ١٩٥٢ قامت ثورتنا وتلاحقت بعدها الثورات الأخرى سواء في البلاد العربية أو في البلاد الإفريقية والآسيوية وكانت كلها تهدف إلى القضاء على الاستعمار ؛ ولم يكد يبدو التحرر السياسي حتى تغيرت الصورة تغييراً تاماً وبدأت حركة التنمية الاقتصادية وأخذ الإنتاج العربي يزداد عمقاً ويشتد تنوعاً .

فلما كانت الوحدة بين مصر وسورية كان أول مظهر لها أن أخذت العلاقات الاقتصادية بين الإقليمين تقوى وتشتد

وتلاشت أوجه النقد التي كانت تواجه إلى الاقتصاديات العربية من أنها إنما تتنافس بعضها مع البعض الآخر .

وقد رأينا أن التكامل الاقتصادى لا يقوم إلا على أساس تنسيق الإنتاج بين الإقليمين وفقاً لمبدأ التخطيط إذ أن فى تنسيق السياسة الاقتصادية كفالة تحقيق التكامل والقضاء على ما كان سائداً من فكرة التنافس وحدته بين الاقتصاديات العربية .

وليس يغيب عن البال أن الإجراءات قد اتخذت فعلا لمضاعفة التبادل التجارى رغبة فى توحيد السوق فى الإقليمين فوضعت التدابير النقدية والمصرفية بفتح حساب الإقليم السورى لدى البنك الأهلى ورفع حظر تراخيص الاستيراد على السلع المتبادلة بين الإقليمين مما ترتب عليه ارتفاع حجم التبادل من مليون و ٦٧٧ ألف جنيه فى متوسط العشر سنوات السابقة على الوحدة إلى ٤ « أربعة » ملايين و ٤٤٣ ألف جنيه سنة ١٩٥٨ ثم استمر حجم التبادل يأخذ فى الارتفاع إلى أن وصل فى عام ١٩٥٩ إلى ١٣ مليوناً و ٩٣٦ ألف جنيه مما يتبين معه استبعاد مشاكل التمويل .

ومما تجدر الإشارة إليه أنه كان من بين أهداف الخطة الخمسية الشاملة التى صدرت فى يوليه سنة ١٩٦٠ تنسيق الإنتاج وذلك بتقوية عناصر التكامل وزيادة التبادل التجارى بين الإقليمين .

وفى أول سبتمبر سنة ١٩٥٨ صدر القانون رقم ١٣١ بإلغاء

الرسوم الجمركية على المنتجات الزراعية والحيوانية والثروات الطبيعية ومنتجات الصناعة بين الإقليمين وذلك باستثناء بعض الأصناف التى لا تزال فى حاجة إلى الحماية إذ رؤى أن تؤدى عنها الرسوم كاملة وهى السكر والملح والتبغ ومشتقاته — كما خفضت الرسوم إلى النصف بالنسبة لغزل الحرير الصناعى ومنسوجاته والمنتجات الزجاجية والجلود المدبوغة والأحذية والمياه الغازية . . .

وأياً كان المصدر من أى الإقليمين ، وأياً كانت السلع التى يستوردها أى الجانبين من الآخر فإن المنتجات الصناعية لا تعتبر مصرية كانت أو سورية إلا إذا ثبت من شهادة المصدر التى تمنحها السلطات المختصة فى كل من الإقليمين أن المواد الأولية العربية واليد العاملة المحلية القائمة على صنعها لا تقل عن ٢٥ ٪ من نفقة الإنتاج وتكاليفه فى كل من الإقليمين .

وتنظيماً لعملية تمويل التنمية الاقتصادية بين الإقليمين صدر القانون رقم ٨ لسنة ١٩٥٩ للنهوض فى تنفيذ المشروعات الصناعية والزراعية وإتاحة الفرصة للمؤسسات العامة للمساهمة فيها .

اتجاه السفينة الاقتصادية :

وإننا بعد ما أدركنا فى مطلع الثورة أننا أحوج ما نكون إلى تدعيم كياننا الاقتصادى ، لعل من حقنا فى نهاية هذه الدراسة أن

نقف لحظة نتدبر فيها المسافة التى قطعناها فى الطريق منذ سنة ١٩٥٢ ، لنرى أن الثورة قد لازمتها نواح إصلاحية عديدة تفرعت منها ، وإن نهضتنا السياسية قد تشعبت إلى النواحى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، وإنه على قدر الاشتباك والتفاعل بينها ومن هذه النواحى ، قد تمت النهضة العربية الشاملة وأصبحت صالحة للإنتاج والتنمية الاقتصادية

وللقضاء على النفوذ والاستغلال الأجنبى اتجهت الفكرة فى سنة ١٩٥٣ إلى إنشاء مؤسسة عربية للتمويل برأس مال عربى . . .

ومن الجدير بالملاحظة أننا مررنا بثورة اقتصادية فى سنة ١٩٥٦ ومن شأن الثورات الاقتصادية أن تلقى ظلالاً بعيدة المدى وتقتضى جهداً كبيراً لمواجهة المشكلات لذلك لا نشك فى أنه سيكون للسوق العربية آثاراً مرضية على الاقتصاد فى مجموعه وستصبح تلك السوق من الأعمدة التى ترتكز عليها السياسة الاقتصادية التقدمية .

إن التبدل البيكولوجى الخطير ، والصحوة السياسية الثورية التى أيقظت فى نفوسنا الإقدام على المشروعات ، جعلتنا أكثر تفاؤلا ، وأشد رغبة فى العمل المشترك ، وأوفر قدرة على الإقدام والمغامرة .

فلنسر فى هذا الطريق بأقدام ثابتة ، وإيمان لا يتزعزع ، ووحدة وطنية تجمع الشعب كله .

وعلينا أن نعمل على تدعيم هذا الاستقلال ، وتثبيت بنيانه ،

بتنظيم الحياة القومية ، ورفع مستوى البلاد فى جميع النواحى .

علينا أن نعمل على زيادة ثروتنا ومضاعفة دخلنا . وإيجاد العمل لمن لا عمل له ، وتوفير الرخاء للمواطنين .

ولنعمل جميعاً بعزيمة ثابتة . مولين وجوهنا شطر المستقبل . وأن تكون جهودنا مركزة فى دائرة الإصلاح العام ، وأن نضع نصب أعيننا ، أن لا نلقى عبء هذه المهمة الوطنية الكبرى على كاهل الدولة وحدها ، بل نجعله قسمة بينها وبين المواطن ، فالشعوب لا ترقى إلا بدعم النهضة الاقتصادية والصناعية والثقافية ويسر الفلاح ورخاء العامل ، وإن فى ميدان العمل متسع للجميع ، وهو يتطلب منا جهداً وعملا وإنتاجاً . والأمل كبير فى أن تتضافر جهود الحكومة مع جهود الأفراد لتعوض ما فات وتحقق الأمل المنشود .

محتويات الكتاب

صفحة

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١

دار المعارف بمصر

اقــرأ

أقدم السلاسل الشعبية العربية انتشاراً وأكثرها رواجاً وأعمها نفعاً فازت بثقة القراء وإعجابهم لما تقدم لهم على صفحات كتبها الزهيدة الثمن من مطالعات مفيدة ممتعة وموضوعات متنوعة سهلة المأخذ ، قريبة من الأفهام ومختلف الثقافات :

وفيما يلى بعض ما ظهر فى هذه السلسلة من الكتب العلمية :

- العيون فى العلم
- الوراثة والجنس
- قصة البترول
- العالم سنة ٢٠٠٠
- قصة العناصر
- نحن المعمرون
- أينشتين والعالم
- حرب الخامات
- الصعود إلى المريخ
- الغبار الذرى
- عصر الألكترونات
- الهزات الزلزالية
- قوى الطبيعة فى خدمتك
- الكلف الشمسى
- التنبؤ بالغيب
- عصر التلفزيون

دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع

مايو ١٩٦١

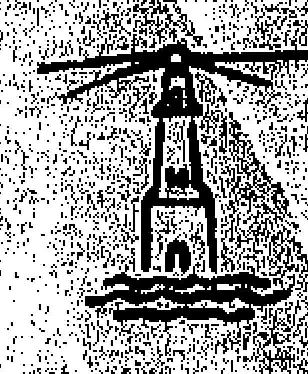
الثمن ٣٠ مليماً
٣٠ قرشاً سورياً

اقرأ

محمود أحمد حمّاد

الحياة المثلى وكيف نحققها

".. منهج ذو أسس جديدة
لمجتمع أفضل ثم لعالم أفضل"



دار المعارف بمصر

الحياة المثلى وكيف نحققها

محمود أحمد حماد

الحياة المثلى وكيف نحققها

.. منهج ذو أسس جديدة
لمجتمع أفضل ثم لعالم أفضل

اقرأ ٢٢٢

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٢٢ - يونيه ١٩٦١

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - شارع كورنيش النيل - القاهرة ج.ع.م.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ليست هذه فكرة للتسلية، يقرؤها المرء ثم يلقى بها جانباً، وإنما هي موقف تجاه الحياة أو هى « فلسفة حياة » يأمل كاتبها أن تكون منهاجاً عاماً ومحوراً جديداً يلتف حوله.

ودعوة كهذه، لا يقف القارئ منها موقفاً سلبياً، وإنما عليه أن يقرأها قراءة نقدية فيدعها تنساب فى إدراكه ووجدانه بكل ما لها من طاقة ورغبة فى الخير ثم يكون رأيه تجاهها، أما أهل الفكر خاصة فعليهم واجب آخر فوق ذلك، وهو أن يترجموا عن رأيهم فى عمل نقدى. سواء بالموافقة التامة أو بالقبول مع تحفظ، أو بالرفض أو بتصحيح بعض أخطائها وسداد أوجه النقص فيها.

فإذا كان الرأى الغالب معها فعلى المؤمنين بها أن يتبنوها ويحولوها إلى سلوك وعمل، وإن كان الرأى الغالب إلى نقضها أو رفضها فليكن عمل هؤلاء الرافضين أيضاً إيجاد منهاج آخر خير منها، وإن كانت تحتاج إلى تصحيح بعض الأخطاء فليتعاون الجميع على هذا التصحيح لكى تكون نقطة انطلاق إلى حياة أكرم وأسعد. هذا ما نأمله . . . ولا نظن أن

الغاشية التى تغشانا من الحيرة والشك فى مستقبل الإنسان تجعلنا نقف موقف المتردد إزاءها وإزاء الحياة بوجه عام .

إن الحياة تبعة ومسئولية — هكذا قدرت علينا — ولكنها تبعة تتفاوت خفة وثقلا بمقدار ما منحنا الله من الفهم والإدراك والشعور ، وإنه لتطربنى كلما ذكرت المسئولية الفادحة الملقاة على كاهل الموهوبين من البشر فى كل علم وفن تلك الآية الكريمة (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا فبئس ما يشترون) وليس الثمن القليل هنا إلا الإخلاد إلى الدعة والراحة والإشفاق من تحمل تبعات الرأى المستنير أمام الجموع المعارضة التى جانبها الصواب .

لقد غصت فى أعماق المجتمع بملاحظة دقيقة وعين مفتوحة، فتعرفت عيوبه وتبينت مشكلاته فوصفت الحل الملائم للمشكل، والعلاج الصالح للعيوب، ووضعت الأساس لحياة جديدة فاضلة نمارس فيها ممارسة عملية ما تشوقنا إليه فى تاريخنا كله فلما أعيتنا الحيلة أطلقنا عليه كلمة « مثاليات » أو مبادئ خيالية هذه دعواى . كل ما على أن أكون قادراً على أن أقيم البينة عليها كإنسان يشارك إخوته فى الإنسانية آمالهم وآلامهم .

إن الإنسان لم يواجه محنة فى تاريخه أشد مما يواجهها اليوم ولا يظن البعض أننا نرمى إلى خطر القنبلة الذرية والهيدروجينية وملحقاتهما ، ولكننا نقصد ما هو أفدح من أسلحة الدمار

والفتك التى باتت تهدده ألا وهى محنة العقيدة ، محنة الروح من خطر الفلسفات المادية التى أصبحت تسود وتزحف وتحتل كل يوم موقعاً جديداً .

لقد تجاهلت الفلسفة المادية كل القوى المعنوية ، والقيم الإنسانية ،وحصرت المشكلة كلها فى لقمة العيش أو الجنس ، ونسيت أو تناست أن عمل المعدة وشهوة الجنس تتساوى فيه مع الحيوان تمام المساواة ،وأنهما بعض فروع المشكلة الكبرى كما أنهما ليسا أشد عراقة من المشكلات الإنسانية العليا ونفاذاً إلى الصميم .

ومما يضاعف خطرها أنها لا تقف وحدها فى الميدان ولكن تساندها قوتان لا نقلل من أهميتهما هما : (الإيمان المغرور بالعلم) و (الاستغلال بنوعيه : المادى والمعنوى) وخطتنا لمواجهة هذا التيار الجمعى الجارف شىء واحد هو : (المسئولية الفردية) ،هذه هى بداية الطريق فى معركتنا الإنسانية المقدسة . فليس الوعى الإنسانى فرض كفاية ،وإنما على كل فرد أن يحمل عبئه من الواجبات الإنسانية على قدر جهده .

وتحضرنى بهذه المناسبة. قصة طريفة رواها الأستاذ مصطفى أمين من ذكرياته عن صدقى « باشا » السياسى . وهى : أنه ثار مع زملائه طلبة المدارس الثانوية لما ألغى صدقى دستور ١٩٢٣ فاستدعاه السياسى المحنك إلى مكتبه وسأله . هل قرأت دستور ١٩٢٣ و ١٩٣٠ ، وقارنت بينهما واعتقدت

أن الأول أصلح ؟ فأجابه لقد قرأه النحاس باشا زعيم الأمة وأبدى رأيه وهذا يكفى . فعقب السياسى العظيم قائلاً : إذاً فاذهب منذ الآن إلى بيتك ولا تكمل تعليمك لأن النحاس باشا زعيم الأمة يحمل الليسانس وهذا يكفى .

لسنا ندرى على التحقيق الغاية التى قيلت من أجلها هذه العبارة ، ولكن الذى نؤكده أنها أصابت كبد الحقيقة فى رأينا وهى تعبر عن وجهة نظرنا تماماً فيما نحن بصدده .

فخطر الحضارة الآلية بعد ما يسرت للفرد أموره المادية ، وجعلته يحصل على حاجاته المعيشية من أسهل الطرق ، وشغلته بتنوع ميادينها حببت إليه الكسل فى كل شىء والسطحية حتى فيما يتعلق بواجباته الإنسانية العليا فى ميادين الروح والأخلاق والأفكار . فاضمحلت عنده قوة الإدراك السليم والنظرة المستقلة . وأصبح يردد كالببغاء كلمات ماركس وسارتر أو الغزالى وابن رشد وأضرابهم من المشاهير دون أن يكلف نفسه مشقة البحث الجدى فى المراجعة والمقارنة وأعمال الفكر فى اختيار الأفضل والأصلح . واستخلاص الآراء الخاصة بما يستنتجه من اطلاعاته بشعوره وإدراكه . ولذلك فنحن على قصد واع حينما خطونا الخطوة الأولى فى معركتنا دفاعاً عن الإنسان . أن أهبنا بقواه المعنوية أن تهب لتؤدى دورها المفروض فى هذا الصراع ، ونحن نقول معركة . لأننا نعلم أن استبداد الفكرة أشد صلابة فى الدفاع عن كيانه من استبداد الفرد أو المجتمع ، وبعضنا

اليوم هنا وفى العالم أجمع استبدت بهم بعض أفكار معينة، وخدرت أصحابها فاستناموا لها وسيطرت عليهم بحيث أصبح مجرد مناقشاتنا لها، وليس محاولة تفنيدها أو استبعادها، يحتاج إلى كل ما تتطلبه جهود المعارك من حول واستعداد .

وليس هذا مكان مناقشة هذه الأفكار أو الرد عليها، لأن هذه المبادئ التى دعمت بعشرات السنين من الزمن، ومئات المجلدات من الكتب لا يتسع لنا المجال لمناقشتها فى هذا الحيز المحدود .

وكل ما علينا الآن أن نعرض فكرتنا فى صورة سهلة ميسرة لتأخذ مكانها بجانب الأفكار الأخرى ثم نقف بجانبها للدفاع عنها حينما توجه لها سهام النقد ممن يحب أن يتصدى لها من المعارضين .

وكاتب هذه الرسالة لا يسعده حظه أن يجمع الكل على استحسانها أو تقديرها والثناء عليها ثم ينتهى الأمر عند هذا الحد .

وإنما قيمتها عنده بمقدار ما توجه من طاقة وما تدفع إلى عمل وما تحقق من نتائج إيجابية فى محيط الواقع الملموس .

(محمود حماد ــ سمالوط)

هل هناك حياة أفضل . . ؟ ؟

منذ تفتح وعيي على هذه الحياة وأنا أشعر بعدم التجاوب بيني وبين المجتمع الذى أعيش فيه، ورغم التقدم الملموس فى جميع شئوننا المادية والعلمية والثقافية إلا أننى أحس أن هناك شيئاً ينقصنا . . .

وطالما أعملت فكرى فى البحث وراء هذا الشيء الناقص فاهتديت إلى أنه « فلسفة حياة »، أو مثل أعلى ينتظم نشاطنا وجهودنا فلا تتضارب ولا يناقض بعضها بعضاً .

لقد كنت منذ نشأتى أتساءل « ألا يمكن أن نقيم مجتمعاً على المحبة » ؟ كان هذا السؤال يبدو غريباً لنفسى شديد الغرابة وأنا أبصر المجتمع حولى يتنافس ويتطاحن فى حقد وضراوة بلا هدف ولا غاية . .

جيل حائر . . فقد المثل الأعلى والهدف الصالح والغذاء الروحى والقدوة الحسنة والفكرة السليمة التى يمكن أن يجتمع عندها الشمل وتأتلف الكلمة .

ولم أيأس . . وشجعنى على ذلك ما علمته من اطلاعاتى على تاريخ النهضات وتاريخ المصلحين وأن المصلح لا يظهر إلا كرد فعل للمجتمع المنحدر الذى يوجد فيه ولتصحيح الأوضاع المعكوسة وخلق القيم المعنوية الجديدة التى تصهر الروح

وتنير الضمير وتحلق بالنفس الإنسانية فوق أغراضها الوضيعة وغرائزها الدنيا، وأن يبث فى الأفئدة روح التطلع إلى أعلى فى كل مجال من مجالات الحياة .

وانزويت وحدى أدرس وأفكر وأتأمل وأرقب ما يحيط بى، وبين الحين والحين أراجع موقفى وأهم بالتراجع فأجد حافزاً خفياً يدفعنى أن أسير إلى نهاية الطريق . .

وبعد الهزات العنيفة من اليأس والأمل والمفارقات الطريفة من الإقدام والتردد والصراع الأليم بين الواقع المر والحلم الذى أعيش فيه تكشف لى الهدف الذى يمكن أن نلتف حوله وأقصر الطرق إلى بلوغه وحينما وجدت من نفسى العزم الصادق على أن أتصدى لهذا العبء الجليل كنت أقدر مدى الجهد الشاق والكد المضنى الذى سوف أتعرض له لأن الجهد يجب أن ينصب على هدفين رئيسيين .

أولا : تشخيص الداء .

ثانياً : العلاج الصحيح .

فالذى لاحظته أن كثيراً من المخلصين حينما يرون المجتمع الذى هم فيه ينحدر، ويحاولون إنقاذه يختلط عليهم الأمر فى فهم مشكلاته فهماً صحيحاً فيخطئون فى تشخيص الداء، ومن ثم يضعون حلولا غير عملية لمشكلات وهمية لم تقم على أسس من الدراسة الواعية والفحص الصادق العميق .

وتكون النتيجة أن تذهب جهودهم سدى ويستسلمون

لليأس بعد أن يبلوا البلاء الصادق فى كدهم وجهدهم، وينفقون الأعوام الطوال فى الجهاد والكفاح . . فيخيل إليهم أن صلاح الحال من المحال ويفلسفون الوقع الزرى الذى يعيشون فيه بأن الدنيا هكذا خلقت من قديم قائمة على المتناقضات وعلى الخير والشر، ولا جديد تحت الشمس، وأن التاريخ مملوء بالمصلحين والضحايا منذ الأزل فما انتفى الشر ولا صلح الحال .

أما أن الدنيا قائمة على المتناقضات وأن الشر عنصر أصيل فيها فهذا ما لا شك فيه . . ومما لاشك فيه أيضا أن البشرية قد قطعت أشواطاً عديدة فى مضمار الرقى والتقدم، وتكونت على مدى التاريخ مدنيات كانت كل واحدة أرفع من سابقتها وأوفى لعناصر الخير والسعادة للإنسان .

إن جهود المصلحين لم تذهب عبثاً . . وإنما أفاءت على الإنسان جسداً وفكراً وروحاً ما لا يحصى من الخيرات .

غاية الأمر أن الإنسان — وهذا من حسن حظه — طموح أبداً لا يكاد يعتلى درجة من درجات الرقى حتى يتطلع إلى أخرى، وتتلخص سعادته ورقيه فى هذا التطلع والعمل له، وما دام فى الإنسان نفس يتردد فان يهدأ له بال ولن يستقر على قرار ولن يكتفى بجهد السابقين فيما قدموه له، بل عليه أن يأخذ دوره مثلهم وأن يجعل حياته عامرة بالجهاد والنزوع .

هذا . . وكل مدنية جديدة — لأنها قامت على دعوة جديدة

ينادى بها الملهمون ويبشرون بها مستقبلا – يصيبون فى شىء ويخطئون الحساب فى شىء آخر، ولأنهم يسبقون زمانهم لا يستطيعون أن يحددوا المستقبل الاجتماعى بطريقة رياضية لا تحتمل الخطأ، وإنما يقدرون تقديراً فيخطئون فى بعض النتائج .

وتختلف طريقة التناول للفكرة الجديدة من فرد إلى فرد، ومن جماعة إلى أخرى ، فيساء تأويل معظمها وقد تؤدى أيضاً إلى عكسها ، وغالباً ما تتحول الدعوات الجديدة إلى نفس الأفكار السابقة وتتلون بها وتسرى كما هى فتكون كخمر قديمة فى زق جديد .

لهذه الأسباب كان على كل جيل أن يقوم بدوره فى تصحيح أخطاء مجتمعه ، وفى السمو به مادة وروحاً إلى أعلى ، ومفرق الطريق بين مصلح ومصلح لا فى مقدار الجهد ولا الحماسة للفكرة ، وإنما فى تشخيص الداء ، ووضع يده على المشكلات الحقيقية التى تعتاق طريق مجتمعه عن الرقى والنهوض .

إذن فالخطوة الأولى للمصلح الحق أن ينعم النظر ويطيل الروية فى فهم مشكلات مجتمعه ، و يحددها تحديداً قاطعاً ، ثم يكون من عمق البصيرة بحيث يرد المشكلات البارزة إلى عللها الخفية فلا يخطئ الربط بين الظاهر والباطن ، وبين ما هو مخبوء وما هو ماثل للعيان .

هذه هى الخطوة الأولى .

وتبقى الخطوة الثانية ، وهى أشد عسراً من الأولى : فقد

يتفق أكثر من واحد على تشخيص الداء ويختلفون فى تحديد العلاج .

والذى نلاحظه اليوم مع تعدد المذاهب المعاصرة أنها ترجع إلى مذهبين جامعين المذهب الجماعى والمذهب الفردى .

ونحن نرى أن من بين أتباع المدرستين من وفق توفيقاً لاشك فيه فى الكشف عن العلل الدفينة ، ولكننا لم نر بعد من وفق مثل هذا التوفيق فى العلاج الصحيح مع أن كليهما يشتعلان غيرة صادقة على خدمة الإنسان .

فالذين يبدأون الإصلاح من المجتمع يذهبون فى تطرفهم فى تقديس المجتمع والمساواة إلى حد فناء الفرد فى المجتمع بلا فهم . فيعودون بنا إلى مجتمع القبيلة فى أحط صورها . وهى نكسة نلمسها الآن فى كثير من البلدان والذين يبدأون الإصلاح من الفرد يذهبون فى تطرفهم فى تقديس الفرد والحرية إلى حد الفوضى والشطط بها على حساب المجموع .

وبين هذين الاتجاهين المتقابلين يقف الإنسان حائراً مبلبل الرأى والخاطر يتساءل أين الاتجاه الصحيح ؟

ونعود الآن إلى سؤالنا الأول . . (هل هناك حياة أفضل ؟)

وإذا لم تكن هناك حياة أفضل فهل حياتنا هذه جديرة بأن نحياها ؟ لقد قال الشاعر قديماً ولا يزال قوله صادقاً حتى الآن :

أين من لم يشك منا دهره   ليت شعرى هذه الدنيا لمن ؟

نعم لمن هذه الدنيا إذا كان كلنا يشكو ؟ هل يدعى أحد أنه يعيش فى دنياه كما ينبغى ، وأن يحقق الوسائل التى تكفل له ذلك ؟ أم سيظل أبد الدهر عاجزاً عن تحقيق هذه الوسائل . . كل ما فى الحياة من متع ومسرات خداع وسراب .

الحق أننا غفلنا عن السعادة التى نتعشقها كما تدور فى خيالنا لأننا غفلنا عن الوسيلة الصحيحة . . إن بيننا وبين السعادة الممكنة حاجزاً شفافاً نراها منه ولا نتناولها . فهل نستطيع أن نصل إلى المفتاح السحرى لهذا الباب لنعب من هذه الحياة المترعة بالهناء على قدر ما نطيق فلم يمنحنا الله الحياة لنعطيها ظهرنا ونعيشها ، ونحن نتحسر فى ضيق الحرمان إن الله أوسع رحمة وأشمل عدلا من أن تكون هذه الحياة مجرد معاناة وحرمان.

وقبل أن نبدأ فى وضع الخطة وفى تعبيد الطريق الذى علينا أن نسلكه يحسن بنا أولا أن نلقى نظرة دراسة فاحصة على المعوقات التى وقفت فى طريقنا فانحرفنا عن الجادة ولعل أولى هذه الأسباب وأقواها . أننا لم نعد الآلة التى توصلنا إلى أهدافنا إعداداً صحيحاً وما هذه الآلة إلا نفوسنا . فلم نتح عنها أثقالها التى ناءت بها آلاف السنين من الحقد والكراهية والغيرة وظننا أنها تستطيع وعليها كل هذه الأوزار أن تخطو فى هذه الحياة الفسيحة التى يلزمنا لدخولها أن نكون خفافاً متعاونين .

ثانياً : كانت معظم النهضات السابقة رد فعل لمظالم واقعة وهذا طبيعى ، ولكنها لم تكد تقوم وفى نيتها دفع الظلم وحده

حتى تحل مكان القوة المنسحبة كقوة طاغية مستبدة؛ فتكون أشبه بعملية انتقام منها بثورة وإصلاح .

ثالثاً : كان بعض دعاة الأفكار السابقة خياليين حالمين – وهذا لازم أيضاً – ولكنهم لم يكونوا دارسين دراسة تامة واقع حياتهم المحيطة بهم وطريقة تناولهم لفكرتهم بالصورة التى يمكن أن تجد قبولا لدى مستمعيها، وأن يتطوروا بها شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى النتيجة المرجوة .

رابعاً : كانت الدعوات السابقة انفرادية مفككة فلم تكن تجيد الربط بين القيم العليا وجمعها فى خيط واحد لتنتظم حياتنا من جميع نواحيها .

خامساً : يبدو أن البشرية على وجه الإجمال لم تكن مستعدة لقبول هذه الفكرة كما هى الآ ن . فقد أصبحت بعد التجارب المريرة التى خاضتها فى تاريخها الطويل، وبعد الخطر الماثل أمامها فى كل لحظة . . . أصبحت مهيأة لحمل هذه الرسالة الحقيقية لتقوم بشعائرها عن ولاء وإخلاص :

هذه هى المعوقات الكبرى التى اعترضت طريق الإنسان ووقفت حائلا بينه وبين حياته . . . والحق أنى لأعجب الآن بعد وصولى إلى هذا المستوى من الفهم للحياة كيف ارتضى الإنسان حياته السابقة، وكيف صبر عليها ولم لم يهزأ بها ويطوحها بين قدميه ؟

أهو يستحق الإعجاب على احتماله كل هذا العمر

الطويل أم نعتبرها بلادة حس وجمود إدراك ؟

إن على مدى التاريخ كثيراً من الذين أوتوا الإدراك السليم والإحساس المرهف عجزوا عن تكييف أنفسهم، وفق الحياة التافهة الحقيرة التي عاشوها فغادروها غير آسفين ؛ وإنى لأذكر والحسرة تملأ نفسي – آخر الضحايا هنا فى القاهرة منذ أكثر من عشر سنوات تقريباً . . . طالب جامعي أرسل خطاباً إلى صديقه يخبره بهذا المضمون قبل أن ينتحر وكان آخر كلماته . تلك العبارة الخالدة التي هزتني هزاً عنيفاً ومست قلبي بعمق لم يسبق له مثيل (أريد قيماً إنسانية) صرخ هذه الصرخة وبعدها ودع الحياة .

ولقد راودتني هذه الفكرة مرات ومرات ، وظلت تلح على طول عمرى أن أقتدى بهذا الزميل الشهيد أن أصرخ هذه الصرخة، وأودع هذه الكأس المريرة التي لم نجن منها إلا الصاب والحنظل إلا أن شيئاً غامضاً فى نفسي كان يهتف بى .. إن الفجر على الأبواب.

وكم بيننا اليوم من شهداء أحياء كل يوم وكل ساعة تمر من حياتهم تعتبر استشهاداً أو انتحاراً . . . كم بيننا الآن من هؤلاء الظامئين الحيارى الذين يحسون الحياة المترعة من حولهم ولا يدركون منها منالا .

فلهؤلاء الحيارى . . وللبشرية الجديدة الصاعدة والمقبلة على التوالى إلى هذا الرحاب الفسيح الذى جعلناه بجهلنا وعجزنا أضيق من سم الخياط أقدم هذه الدراسة الجادة وأسأل الله التوفيق .

المنهج العملى

المبدأ الأول :

الجزاء الذاتى

هل تذكر مرة وأنت تسير فى الطريق العام فى ساعة متأخرة من الليل أن وجدت وسط الطريق حجراً ملقى، أو وقع نظرك على قشرة موز مثلا فانحنيت عليها وألقيت بها بعيداً عن أقدام السابلة . . ؟

هل تذكر حادثاً كهذا أو شيئاً مماثلا له ؟ ثم هل شعرت بعد ذلك بكثير من الراحة النفسية والمتعة أنك نحيت الأذى عن طريق مجهول لا تعرفه كلما دار فى خيالك أن هذا القادم المجهول سيصاب برضة من أثر اصطدامه بالحجر، أو بكسر فى أحد أضلاع جسمه إذا انزلق قدمه على قشرة الموز فسقط على الأرض؟

فى هذه اللحظة لم ترغمك قوة قانونية على هذا العمل . . . ولم يصفق لك جمع من المشاهدين . . . ولم يتقدم إليك بالشكر أحد على صنيعك . لأنه مجهول منك وأنت مجهول منه . . ولم يكن هذا المجهول أحد أصدقائك أو ذوى قرباك . . وهذه هى الدوافع كلها التى تجعل الفرد يقوم بعمل طيب . . وإنما فعلت ما فعلت بدافع نفسى داخلى محض . كان أقوى عندك من التكليف والأمر . وأحلى لديك من كل جزاء وشكر .

بماذا نسمى هذا الدافع النبيل المطلق من أى إلزام أوجزاء؟ نستطيع أن نطلق عليه من الأسماء ما نشاء ولكنا نريد هنا أن نتفق على اسمه الحقيقى وعلى مدلوله الأوحد الذى ينطبق عليه تمام الانطباق وهو « الجزاء الذاتى » .

الجزاء الذاتى إذن : هو أن نفعل ما نعتقد أنه الخير بدافع داخلى محض أشبه بالاستجابة الطبيعية التلقائية منه بالعمل المحدد المرسوم،أن تفعل الخير جهد ما تستطيع لأنه خير — لا لأنك تثاب عليه أو لأنك ستتلقى الشكر من أحد . أو أن ما تعمله له أحد أقربائك أو أصدقائك أو أى شخص معروف لديك يمكن أن يرد الجميل بالجميل .

إننا نود أن نرتفع بمثل هذا المثل البسيط العادى المكرر إلى أسمى من ذلك وأكثر تعقيداً ، حتى نجعله ينتظم كل معاملاتنا وعلاقاتنا وأعمالنا . . . بل كل حياتنا من جميع نواحيها .

فلنتدبر جيداً . . . ولنفتح عيوننا وبصائرنا عن آخرها لنعلم أن كل ما نعانيه من خلط واضطراب وتخبط فى أمورنا وفى معاناتنا للحياة الكريهة التى نعيشها إنما هو لسبب واحد : هو أننا غفلنا فى تاريخنا كله عن هذا القانون العظيم الذى يتلخص فى كلمتين اثنتين : « الجزاء الذاتى » .

ونرجو ألا يدور بخيال أحد أننا حينما نصور كل ما نحن فيه من فوضى وتخبط ، أننا نقصد المبالغة أو عدم الدقة التامة فى التعبير ، وإنما نراعى الأمانة التامة فى وضع الألفاظ فى مواضعها الطبيعية ومطابقة لمدلولها الصحيح .

وندلل على هذا بمثل شائع مكرر يحدث بيننا كل يوم، ويلقى الضوء الكاشف على حقيقة وعينا لهذا الموضوع من جميع نواحيه ويغنى عن أكثر من مثال :

زيد وخالد قريبان أو صديقان حميمان ، اقترض أولهما من الثانى مبلغ مائة جنيه ، ونظراً لصلة الصداقة بينهما أو القرابة رفض خالد أن يأخذ من زيد إيصالا بالمبلغ أو أى إشهاد يثبت عليه الاقتراض ، وتمر الأيام . . . ويطلب خالد من صديقه زيد أن يرد مبلغه فيماطل . ثم يراوغ . ثم يثور آخر الأمر قاذفاً فى وجهه بهذه الكلمة الشهيرة التى كثيراً ما تقال فى مثل هذه المواقف « إن كان عندك ورقة روح اشتكينى » ويصاب خالد بصدمة وخيبة أمل فى الصداقة والأخوة والحياة . . . فيلجأ إلى القانون الذى وضع لينصف الناس من الناس، ويقتص للمظلوم من الظالم . ويطلب القاضى من المدعى أن يبرز ما عنده من البينات . فيثور الرجل مزمجراً شارحاً للقاضى ظروف الاقتراض ، وأن ما منعه من طلب إيصال كتابى إنما كان بسبب الصداقة القائمة أو القرابة الوطيدة... ويقتنع القاضى بصحة دعواه وحرارة صدقه . . . وبين يديه القانون الذى وضع لينصف الناس من الناس ويقتص للمظلوم من الظالم . ولكنه — وفى يده كل هذه السلطة وفى يقينه كل هذا الاقتناع — يجد نفسه عاجزاً أمام هذا الفرد الأعزل أن يرد الحق إلى نصابه .

ذلك لأننا غفلنا عن القانون الطبيعى النابع من الضمير وأقمنا الميزان لقانون مصنوع علقنا عليه كل آمالنا فى إقرار الحق والإنصاف والجزاء . . . واستعضنا به عن القانون الأصيل .

إذن فالقانون الموضوع لم ينصفنا فى حالتنا هذه ، أو بالأحرى عجز عن إنصافنا وفى حوزته كل ما كتب الشراح وجهابذة الفقة على مر العصور ، وكل ما تملك الدولة من أدوات التنفيذ والإرغام . .

عندئذ يخطو صاحب الحق خطوته الثانية فيلجأ إلى الرأى العام ممثلا فى معارفه وجيرانه ويعرض شكواه منددا بهذا الآخر الذى خان ثقته وضيع ما بينهما من أواصر الصداقة أو القرابة فى سبيل المال منتظراً أن يجد منهم من يسانده وينعى معه الخلق الفاضل ولكنه سيجد عكس ما كان يتوقع ، سيجد من يسخر منه ومن يهزأ به وبغفلته البالغة ، وعدم فهمه لواقع مجتمعه وكيف أنه لم يدرك الأمور على حقيقتها كما يجب أن تدرك ، فلا يثق بصديق أو قريب ، ولا ينخدع بالألفاظ المعسولة التى يطلقها هذا الشخص أو ذاك تحت اسم الصداقة أو الأخوة أو الخلق أو الرجولة وما إليها ، وأنه يعيش فى الأحلام التى لا يمكن أن تتحقق ، والتى فات أوانها من زمن بعيد .

ثم يذهبون إلى الآخر الذى انحط بشرفه إلى هذا المستوى الدنىء من أجل المال . فلا يلومونه على فعلته ولا ينكرون عليه ذلك المسلك الوضيع وإنما سيجد التشجيع والاستحسان

والثناء على شطارته وبراعته فى اقتناص المبلغ ويتبادلون الضحكات العالية على هذا التوفيق .

ونعود الآن إلى خالد . . . إلى الرجل الشهم النبيل الذى أنقذ زيداً من ورطته أو خيل إليه أنه كذلك، سنجده يكف يد المعونه والنجدة عن أى إنسان آخر مهما تأكد من صدق وعده، وشدة حاجته حتى لو كتب له ألف ورقة بمبلغه لأن المسألة فى حسابه ليست مسألة ورقة تضمن له حقه وإنما مسألة شعور بالتعاون والترابط بينه وبين الآخرين .

وبذلك تنبت ما بين الناس من صلات، وتنقطع ما بينهم من أواصر، ويعيش الكل منطوياً على نفسه منعزلا عن الجماعة لا يشارك أحد أحداً فى وجدان أو شعور كما هو واقع بيننا اليوم .. وبهذا تفقد الجماعة روح كيانها ومقومات وجودها، ويتجلى هذا عندما ينشد محتاج صادق الحاجة العون فلا يجده فى وقته . . فلا يكون أمامه إلا أحد أمرين . إما أن يهلك أو يسلب ما ليس له عنوة واغتصاباً . . فتكون الجريمة ويكون الصدام والتخبط الأعمى الذى ليس له مدى ولا نهاية . فتتقوض أركان المجتمع ويميل بنيانه ويترتب على هذا الشيء البسيط الصغير أو الذى نظنه بسيطاً صغيراً من الشرور والآلام ما لا يدركه الخيال أو يدور فى الحسبان .

ونعود إلى قصتنا مرة أخرى لنصل بها إلى النهاية ، فنجد أن خالداً عاد ثانية إلى صديقه السابق وقد عز عليه أن يخسر

الصديق والمال معاً . وليستنقد منه بعض ما أخذه، ولم يستطع أن يرده القانون أو القيم الاجتماعية السائدة . . يلجأ أخيراً إلى ضميره ليرد له ما يشاء من حقه، وما يخرج من ذمته، وقد يتفضل عليه زيد بما يشاء فيعطيه ربع المبلغ أو خمسه أو يرفض أن يعطيه شيئاً . . هذا إن لم يرده رداً غير كريم .

. . . هذا هو الوضع المعكوس .

ولذلك فنحن نؤمن أننا حينما ندعو إلى مبدأ الجزاء الذاتى لا نطلب مستحيلا، ولا ننشد خيالا ولا نتعلق بحبال الأمل الواهى، وإنما نريد أن نصحح الوضع ونعيد الأمور إلى حالتها الطبيعية الحقيقية كما ينبغى أن تكون .

إن خطيئتنا الكبرى على مدى التاريخ أننا ألقينا بالجزاء من الداخل إلى الخارج . فتعلق الإنسان به سواء أكان جزاء دنيويا أم أخرويا .. غافلين عن الجزاء الحقيقى الأسمى الذى ينبع من النفس ذاتها، والذى يعلو على كل جزاء . . إننا فى حاجة أن نوليه الجزء الأكبر من عنايتنا والنصيب الأوفر فى ثقافتنا وتربيتنا حتى ينال منا ما هو جدير به من الاهتمام الكامل، والتقدير الصحيح وبعدها سوف نفخر أننا نعيش فى مجتمع بشرى متحضر لا كهذه الذرات المتناثرة التى تتخبط فى عماء . .

* * *

ونحن لا نستطيع أن ندلل على صدق ما نقول عن الوضع الطبيعى بأكثر من القصة ذاتها لنرى لو قلبنا الوضع كما ينبغى أن يكون كيف يكون الحال ؟

والوضع الصحيح الذى نتخيله أو نأمله هو أن نبدأ حيث انتهت القصة على الوضع السابق ، فنرى المجتمع وقد سرت فيه كلمة — الجزاء الذاتى — أو على قطاع كبير منه وأصبح لها مدلولها الصحيح ، ووجدت الوعى النامى الذى يهضمها ويتمثلها ستكون النتيجة حينئذ أنه عندما يقرض خالد زيداً مبلغ المائة جنيه لا يتجه إلى القانون أولا ثم إلى قيم المجتمع المنحلة ثانياً ثم إلى ضمير الفرد المشلول ثالثاً ، وإنما سيتجه أولا وقبل كل شىء إلى الفرد ذاته وإلى شعوره بأن رد هذا المبلغ هو عمل طيب فى ذاته ، إنه وفاء بالوعد وامتنان للصديق وبر بالصداقة وصيانة للكلمة الملفوظة والتى هى أعمق أثراً من كل إيصال مكتوب . . ومن يشعر بمتعة الجزاء الذاتى سيجد فى القيام بهذه الالتزامات وحدها أصدق الجزاء وأغلى من كل ما على الأرض من كنوز .

فإن وجد بعد ذلك الشخص المختل الطبيعة الضيق النفس المظلم الإحساس ، العاجز عن أن يسمو إلى هذا المستوى العادى فسيجد خالد الإنصاف من المجتمع الناضج المتحضر الذى يعرف قيمة الكلمة ويقدس الشرف ويعتز بالرجولة ويتشرف إلى كل خلق كريم فلا يسمح لفرد من أفراده أن يعبث بكل هذه القيم التى يحرص عليها المجتمع أعظم الحرص ويعتبرها

ثروته الحقيقية . . . لا يسمح مجتمع هذا حاله لفرد طائش أن يدمر كل هذه القيم فى سبيل نزوة فردية أو رغبة دنيئة فلا يجد أمام إصرار الجماعة على مثلها . . بل على حياتها إلا أن يسلم بحق صاحبه راضياً أو كارها . . فإن وجد بعد ذلك الشخص الشاذ غير الطبيعى الذى لا يجد متعة فى الجزاء الذاتى وفى الوفاء بالتزاماته لمجرد الوفاء، ولا يحترم ما تواضع المجتمع الفاضل عليه من قيم، فهنالك أخيراً يجب تقديمه إلى القانون لينتصف منه لا على أنه مجرم بل لأنه جاهل أو عاجز أو مريض فيعمل بوسائل علمية على تقويمه وإرجاع نفسه الشاردة إلى حظيرة المجتمع الحر الكريم .

إننا لا نريد أن نسرف فى ضرب الأمثال، وفى إقامة الشواهد، وإنما همنا كله الآن أن نضع القاعدة وأن نطبق عليها مثالا واحداً يشهد بصحتها وصدقها، تاركين المجال بعد ذلك لمن يشاء من القياس والاستطراد .

وحينما نقول إن هذه الجملة الصغيرة المؤلفة من كلمتين اثنتين ستحدث من الأثر ما لم تحدثه أى ثورة سابقة لا نكون مغالين أو حالمين .

فقد تبلورت الثورة الفرنسية بكل جلالها وضخامتها فى كلمتين : حرية . ومساواة . . والإسلام وقد أسدى للبشرية ما أسدى لخص دعوته فى جملة واحدة « لا إله إلا الله » ومن قبله المسيحية جعلت شعارها « الله محبة » .

ولا يظن أحد أن المناداة بتطبيق هذا المبدأ جاء قبل أوانه، وقبل الاستعداد التام له . فنحن نعتقد أنها جاءت فى أوانها إن لم تكن بعد أوانها .

فهذا التخبط فى كل شأن من شئوننا، وهذه الفوضى الضاربة أطنابها فى كل ناحية، والانحلال الذريع فى كل مكان . . . هذا كله لا علاج له إلا شىء واحد هو الإسراع فى تطبيق هذا المبدأ الجليل .

ولا يفهم من هذا أن هذا المبدأ غير معمول به حتى الآن، فما أعمال الأنبياء والمصلحين والمخلصين من أبناء البشر منذ فجر التاريخ حتى اليوم إلا ترجمة دقيقة له . حتى إنه روى عن خالد ابن الوليد أنه قال « لولم أؤجر على ترك الكذب لتركته أنفة » .

كما أن عمل الغرائز والعواطف والصراع والكبت والعقد لم يكن موجوداً قبل فرويد ؟ وإنما كل عبقريته تتلخص فى أنه اقتنص المعنى الخفى المبهم الذى نحسه ولا نلمسه ووضع له الصورة اللفظية التى تحدد أبعاده وتجسده . ليصير معرفة عامة من بعده ويضاف إلى كشوف الإنسان فى مصطلحات العلوم .

ونحب أن نشير إلى الفروق الدقيقة التى تميز الجزاء الذاتى من الجزاء الدينى كما هو محدود فى الأذهان، فقد يقول قائل: إن الجزاء الذاتى ما هو إلا الجزاء الدينى المرتكز على الضمير، وحتى يتضح الفرق الدقيق نجيب : إننا نعتبر الجزاء الدينى

جزاء خارجياً كالجزاء القانونى سواء بسواء بمعنى أن الفرد الذى يؤمن بالله وبالجنة والنار ويفعل الخير نتيجة هذا الإيمان، لا يستشعر متعة الجزاء الذاتى فلو ضعف هذا الإيمان أو انتفى لأى سبب من الأسباب فلن يعمل الخير الواجب الذى كان يصنعه من قبل كالرجل الذى لا يخشى إلا القانون لو أمن بطشه لصنع ما تمليه عليه أهواؤه الضالة . . . وغاية الدين من أوامره ونواهيه ليس الحجر أو الوصاية، وإنما تهذيب النفس وتقريب الإنسان من فطرته التى فطره الله عليها، أى إلى مستوى الجزاء الذاتى .

أما فكرة الجزاء الذاتى فهى مبرأة من الرقابة القانونية والرقابة الدينية غايتها تحرير الضمير البشرى من كل قيد وأن يحمل تبعة عمله، وأن الجزاء فى نفس العمل إن خيراً فخيراً وإن شراً فشر .

هو الفرق بين نظرتين . نظرة تلزم الفرد بعمل الواجب لتغريه بالجزاء ونظرة تلزمه بعمل الواجب لأنه مسئول . . . وهو مسئول لأنه جدير بشرف المسئولية . إذ المسئولية لا تسقط إلا عن قاصر أو سفيه أو مجنون . . . .

* * *

وبعد أن توصلت إلى هذا القانون واطمأنت نفسى إليه ناقشت فيه كثيراً من أصدقائى أبدى بعضهم اعتراضات قد تجول فى أذهان كثيرين ويحسن أن نرد على بعضها هنا .

فقد اعترض البعض أن هذه الفكرة مثالية أكثر مما يجب ، وأنها تناقض الواقع الأنانى وما جبل عليه الناس من الأثرة وحب النفس . . وهذا الاعتراض أولى أن يكون تأييداً، لأنه إذا كان المجتمع على الصورة التى يذكرها فهذه الدعوة لازمة لإقامة التوازن فضلا عن أنها لو عمت وسادت لأصبح المجتمع على الصورة التى نأملها .

على أن أعجب ما وجه إليها من اعتراض هو : (أن ما نجده اليوم من اضطراب الحال وإشاعة القلق وزلزلة أركان الأخلاق إنما هو الضريبة المفروضة للمدنية الآلية الجديدة . التى يجب أن ندفعها عن طيب خاطر) . ومع ما فى هذا القول من بطلان واضح إلا أنه من الانتشار بحيث يجعلنا نقف عنده لنفنده .

ونبادر فنقول : إننا يجب أن نفهم أن الاهتمام الأول لكل مدنية أو تقدم إنما هو بمقدار ما تضفيه من السعادة على روح الإنسان نفسه بصرف النظر عن المظهر الخادع ولا قيمة للمظهر إذا كان ذلك على حساب الإنسان نفسه .

ومن العجز المخزى أن نرى كل هذه الرزايا الكبار التى تغشانا ظلالها بل ظلماتها ضربة لازب وقدراً مسيطراً لا مفر لنا منه ولا مخلص من أشراكه .

فالإنسان الذى حطم الذرة واخترق أجواز الفضاء العليا وغاص فى أعماق المحيطات لا يسعده ذلك إذا لم يبدع النظام اللائق به فى كل طور من أطوار حياته وأن يوجد القيم العليا

التى يترسم خطاها فى سيره فلا تضله ولا تشقيه .

إن الرضا بالواقع شىء . ومحاولة تحسينه والتطور به إلى أعلى شىء آخر . وما يظنه البعض من أن الحالة الأخلاقية التى نعيش عليها إنما هى الواقع الأمثل وهو أقصى جهد المدنية الحاضرة . إنما يغفل عن قانون التطور والمحاولة الإنسانية الدائمة نحو الأكمل والأمثل ، والنزوع إلى المستوى اللائق على قدر الإمكان .

فلنيمم وجوهنا منذ الآن شطر هذا المبدأ السامى ولنفتح له قلوبنا طواعية واختياراً ، ولنعلم أن كل دقيقة تمر بنا بعد الآن ونحن بعيدون عن تطبيقه إنما هى ضياع أكيد من وجودنا وحياتنا هذا الوجود الزائف الذى نعيش فى نطاقه .

(الجزاء الذاتى) ما أجمل هذه العبارة وما أرقها وأسماها خاصة حينما تسود بيننا قيمة عليا وحينما يحاول كل فرد أن يطبقها فى حياته جهد ما يستطيع .

إنه الأساس الوحيد المتين لكل ما ينبنى عليه من القيم العليا فى مجتمعنا المقبل السعيد بإذن الله ..

بقيت كلمة أخيرة فى مجال الاعتراض المقبول وهى :

هب أننا آمنا بالجزاء الذاتى كقيمة عليا وعملنا على تحقيقها فما هى المفاهيم الصادقة للفضيلة والرذيلة ، وما هى المعانى المحددة للخير والشر حتى نحس بمتعة الجزاء الذاتى حينما نفعل الخير ونبتعد عن الشر : إن الفضائل يختلف مفهومها من مكان إلى

مكان ومن طبقة إلى أخرى حتى فى الزمن الواحد فإلى أن يتحدد مفهوم القيم على معنى واحد لا سبيل إلى الشك فيه لا نستطيع أن نطبق هذا المبدأ السامى الجايل .

وأجيب : أولا : إننا نريد أن نقر المبدأ فى ذاته من حيث هو مبدأ .

ثانياً : أن نبدأ بتطبيقه حيث القيم المفهومه الواضحة التى نتفق عليها الآ ن .

ثالثاً — إن الأصول الأخلاقية الكبرى متفق عليها غالباً . ولا خلاف إلا على التفاصيل والفروع وهذه سيتكفل بها المبدأ الثانى من هذا البناء .

المبدأ الثانى :

الحق من طريق الإقناع

نشأة الحق :

نستطيع أن نتصور أن الحق نشأ فى المجتمع الأول بسيطاً واضحاً كان كل هدفه الإخبار بالواقع . وبعد مرحلة تقدم أصبح مضمونه الاستفادة الواعية من التجارب الماضية والقياس عليها لأمور المستقبل من ثقافة وممارسة وغير ذلك . وانفرد به أناس ذوو ألمعية خاصة كل فى ميدانه يتوفر عليه بجهده ، ودراسته حتى يصل إلى الحل الصحيح أو ما يعتقده صادقاً أنه الحل الصحيح ، ثم يبدأ يبشر بنظريته الجديدة داعياً لها جهد ما يستطيع وتقوم الآراء الأخرى من جانب أناس آخرين مفندة أو ناقدة أو مستحسنة أو هادمة للفكرة الجديدة ، ولا يزال الأخذ والرد حتى يستقر الأمر على إثباتها أو نقضها أو تكملة أوجه النقص فيها إن كان ثمة حاجة إلى تكملة .

ثم تطورت نظم الاجتماع وتعقدت أساليب السياسة والحكم ، واستغل ذوو الأغراض الملتوية هذا التعقيد فزيفوا فكرة الحق من أساسها وأعملوا جهدهم فى تزييفها لمنفعة شخصية بحتة . للخداع والتمويه . أو بالقسر والإرغام إن كان فى يدهم صولجان الحكم وأدوات التنفيذ .

فانطمست معالم الحقيقة وضل الناس السبيل إليها . وأصبحت كلمة شائهة مبهمة . لا مفهوم لها ولا مضمون . لأنها قامت على غير الأساس الوحيد الذى كان يجب أن تقوم عليه وهو « الجزاء الذاتى » عندئذ ساء ظن القارئ بالكاتب مهما يكن جاداً أو صادقاً ، ومهما يبدو عليه من الإخلاص والجهد فى سبيل فكرته وساء ظن المحكوم بالحاكم وإن بذل أقصى ما فى طوقه لمصلحته .

ولا أدل على ذلك من أن أسرد هذه القصة كما حدثت بينى وبين صديق لى عمدة لإحدى القرى المجاورة : جاءنى ذات يوم فرحاً ليروى لى حدثاً خطيراً وهو معتقد أنه أدى واجبه وأبرأ ذمته حين قام به .

قال : أنت تعرف الضريح المقام ببلدتنا للشيخ فلان . قلت له نعم . قال : لقد هدمت هذا الضريح فى الأسبوع الماضى بعد أن ضقت بزيارات الناس له وتمسحهم به . وتقديم القرابين باسمه مع شدة حاجتهم إليها . وكان يؤلمنى ما أراه هناك من تضرع وخشوع يجب ألا يكون إلا لله وحده جل وعلا ، فأقدمت على هذا العمل رغم استنكارهم له . وإيمانهم أننى بهذا أعرض نفسى لبطش الشيخ وانتقامه وها قد مضت هذه المدة ولم يحدث لى شىء والحمد لله .

قلت : وهل امتنع الناس بعد ذلك عن الذهاب إلى هناك وتقديم القرابين ؟ أجاب وفى صوته رنة أسى واضحة . أبداً .

إنهم يذهبون إلى المكان المسوى بالتراب ويفعلون ما كانوا يفعلونه فى الماضى ثم سكت ناظراً إلى ينتظر منى الجواب . وكان يعتقد أننى سأهنئه على خطوته الفذة الجريئة ، وأشاركه الاستياء من تصرف أهل بلدته . ولكنى أجبته بالحقيقة التى صدمته وكانت غائبة عنه حتى ذلك الحين . قلت له : أولا : إن ما قمت به من هدم الضريح وتسويته بالأرض — وإن كان حقاً فى ذاته — إلا أنه جهد ضائع لا قيمة له لأنه قائم على اقتناع فردى محض وإن تصرف أهل القرية بزيارتهم للمكان وتقديمهم القرابين إنما هو تصرف طبيعى لا ينتظر أن يحدث غيره . . . فالناس يستجيبون لك بنسب متفاوتة إذا صادمت عقائدهم الموروثة بالمنطق والإقناع وقد لا يستجيبون . ولكنك حينما تصدم عقائدهم وفى يدك القوة لا المنطق فإنك من حيث لا تشعر تزيد من تمسكهم ، وتولد فى نفوسهم الإصرار على ما يعتقدون .

ثانياً : سبق لك أن مررت على هذا الضريح مرات ومرت فهل شعرت يوماً أنك تستجيب لما يستجيبون من تضرع وخشوع أو تقديم للقرابين . والجواب . لا . لأن ما وصلت إليه بفهمك وثقافتك ورقى فكرك جعلك تعتقد عكس ما يعتقدون . . . إذن فالبناء مهدوم فى نفسك وإن كان قائماً أمام ناظريك أما هؤلاء — ولهم العذر — فالبناء قائم فى نفوسهم تحت تأثير العقيدة التى أملاها الجهل وإن كان مهدوماً فى الواقع ؛ فالحل

الطبيعي أن تحاول نقل إقناعك من نفسك إلى نفوسهم عن طريق المنطق والتدبر والفهم السليم .

قال : أوه . . . كم يلزمنا من الزمن لنصل إلى ما تريد عن طريق الإقناع . إن هذا يحتاج إلى سنوات بل أجيال .

قلت : إننا نريد أولا : أن نتفق على الحل السليم المجدى وبعد ذلك لا يهمنا الزمن ولا طول المسافة . . . أما اختصار الإجراءات إلى هذا الحد والوصول إلى الهدف من غير طريقه الطبيعي فسيقودنا إلى التخبط واحتمال النكسة أكثر مما يقودنا إلى الأمام .

لنفرض أنك اعتزلت هذا المنصب لسبب من الأسباب وتولاه أحد أقربائك أو منافسيك ولم يكن على الثقافة والإقناع الذى أنت عليه فماذا تكون النتيجة . سيعيد هذا الضريح كعهده الأول وسيكون الناس أكثر استجابة له . ولكننا لو تصورنا الوضع الآخر وهو أنك قمت بهدمه بعد إقناع فلن يعود هذا البناء أبداً مهما يتوالى على منصبك من أشخاص غارقين فى الجهل والرجعية وحتى لو أعادوه فلن يجدوا استجابة له من الجمهور الواعى المقتنع بفساد الإجراء .

يا صديقى : إن العمل الواحد قد يكون فضيلة ورذيلة معاً إن كان الدافع إليه الرغبة فهو فضيلة وإن كان الدافع إليه القهر فهو رذيلة مهما تكن نسبته إلى الفضيلة فى قاموس الأخلاق . . .

* * *

هذا من ناحية الأمر الملزم عن طريق سلطة الحاكم مع افتراض أن هذا الحاكم صالح مخلص مبرأ من العيب ومن الغرض . أما إذا كان سيىء الضمير وملتوى الغرض فإنه سيكون بمثابة الكارثة ولن تقف في طريقه قوة إلا أن يتجمع سخط النفوس فى ثورة عارمة تزلزل قواعد حكمه .

أما من ناحية الآداب والفنون التى تحاول الاتجاه بأساليبها إلى هدف معين ، والقدرة على الدعوة له بفنون الخداع والتأثير التى تجيده .

فيقول قائل عن رجال الآداب والفنون .

إنهم يستطيعون بما أوتو من براعة التعبير وأساليب البيان ، وما اكتسبوه من قدرة على صياغة الحجج أن يحسنوا القبيح ويقبحوا الحسن ، وعلى قلب الأوضاع وإشاعة الفوضى وإفساد الأخلاق والدعوة إلى الهدم والتخريب ، وسيكون تأثيرهم هنا أشد خطراً لأنه تأثير الإقتناع الذى تنادى به وتدعو إليه ، أليس من حق الحاكم أن يقف فى طريقهم وأن يصدهم عن غايتهم وأن يحطم وسائلهم الملتوية بقوة القانون وما يملك من أدوات التنفيذ أم يقف هنا موقف العاجز المتردد ويترك الأمور فى حرية حتى تصل إلى الفوضى والخراب ؟

وأجيب أولا : إننا حينما ندعو أن يكون الحق من طريق الإقناع إنما نقيده بما ندعو إليه على الأساس السابق وهو

الجزاء الذاتى لأن هذا المبدأ هو الأساس الوحيد لما يقام عليه بعد ذلك من القيم والأديب الذى يستشعر الجزاء الذاتى لا يستغل فنه . فى سبيل نزوة فردية أو مصلحة شخصية أو طائفية، بل سيكون كل همه أن يبرز ما فى طوقه من فكر وشعور فى سبيل ما يعتقد أنه الخير للجميع .

ثانياً : نحن نؤمن أن الحق المطلق لا وجود له ولكنه نسبى ككل شىء فى حياتنا وعقائدنا ولا يتجلى الحق كأوضح ما يكون إلا من خلال اصطراع الآراء وتضارب الحجج وتعدد وجهات النظر فلا يجوز لأى قوة أن تقف فى طريق الرأى الحر ليأخذ حقه فى الظهور والانتشار المقدر له تحت أى حجة وباسم أى دليل . . . فالوضع الذى نأمل أن يكون هو أن يؤدى صاحب الرأى رأيه كأى عمل طيب يود أن يسديه لمجتمعه فيبذل جهده فى هضمه و إعداده وتنقيته وتنقيحه قدر ما يستطيع ثم يعرضه للناس فى الصورة المناسبة ولا يهمه بعد ذلك قبله الناس أو رفضوه فهو يبذل جهده خالصاً فى سبيل المجتمع ورقيه، ويشعر أن جزاءه فى عمله وحده وفى إرضاء ضميره، لا فى تقدير الناس له بالرفض أو القبول .. إن جزاءه الأكبر فى كدحه للوصول إلى الحقيقة كما يراها من زاويته وفى الغيرة على أبناء جنسه التى صاحبته وهو يقوم بهذا العمل المحمود . وفى هذا وحده الضمان ألا يكون الأدب والفن مصدر عبث وهدم وتخريب.

إنى أعتقد أن البشرية كانت تختصر نصف الطريق

أو أكثر لو أنها سمحت لكل فكرة جريئة أن تظهر وتستقر وتؤدى ثمرتها المرجوة ودورها المأمول .

وتحت سوء الظن من الدولة أو المجتمع والقيام بخنق الحركات الجديدة ضاعت ثروات من الأفكار القيمة والآراء السديدة ما لو قيس معه الواقع المشهود أمامنا وما وصلنا إليه من تقدم ورقى لكان شيئاً غير ذى بال .

فالمناخ الصالح للفكرة هو التسامح المطلق مع كل رأى آخر ودرسه بحرية مطلقة وإفساح الطريق لكل فكرة جديدة مهما تكن مناهضة لآرائنا ومعتقداتنا وكل حجر على حرية الرأى لأى عذر وأى تبرير يجب أن نجعله دبر آذاننا وليكن الحكم الفيصل بين ما لكل فكرة وما عليها هو موقف الرأى العام منها بعد دراستها وتمحيصها وإعطائها فرصة الحياة والظهور .

فالنقاش الحر هو الذى يكشف زيف الفكرة أو صدقها ويوضح صحيحها وباطلها . . وقد تكون الفكرة ناقصة فيكملها غير صاحبها . . وقد تتجلى لنا أثناء النقاش الحر أفكار أخرى لا تخطر على بال صاحب الفكرة أو من يعارضه .. . ويكفى أن يشعر كل صاحب رأى أنه محل احترام مواطنيه وأهلا لثقتهم ليضطرم فى قلبه نار الإخلاص والكدح فى تقديم كل ما يمتع وما يفيد .

ولعلنا الآن نكون قد رددنا على الاعتراض الذى أثير فى الفصل الأول من المبدأ الأول وهو كيف نطبق مبدأ الجزاء الذاتى دون أن

نحدد تحديداً واضحاً معنى الفضيلة والرذيلة تحديداً لا سبيل إلى الشك فيه . فالوسيلة الوحيدة للوصول إلى هذا أن يسود هذا المبدأ الثانى المتصل به والذى يكمله ويكاد يكون نتيجة حتمية له . وهو الحق من طريق الإقناع بالصورة التى وضحناها .

وإذا سادت فى المجتمع هاتان القيمتان الساميتان وتمكنتا من أصل بنيانه أن يشعر الفرد شعوراً يقينياً أن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره فى الوقت الذى يقوم فيه بعمله من داخل ذاته لا من خارجها . . لا من جزاء القانون أو المجتمع أو تأثير الوعد بالجزاء الأخروى — وإن كان لا اعتراض لنا على الجزاءات الأخرى ولا نقلل من أهميتها ولا ننكرها فهى تدعيم طبيعى للجزاء الذاتى .

ثم يسود بعد ذلك الحق من طريق الإقناع فلا قوة أياً كانت تفرض عليك رأياً لا يرتضيه ضميرك ولا شيئاً تنفر منه بشعورك، إذا سادت فى المجتمع هاتان القيمتان العاليتان ماذا يترتب على ذلك ؟

(الثقة) .

فكما أن الحق من طريق الإقناع نتيجة طبيعية للجزاء الذاتى فكذلك الثقة ستكون نتيجة حتمية لهذين المبدأين مجتمعين .

المبدأ الثالث :

الثقة

لو سألتنى الآن عما نعانيه فى هذه الأيام من قلق وتخوف وحذر وعما نضطرب فيه من انكماش وتردد وإحجام عن أى جديد . . لأجبتك فى كلمة واحدة « أزمة ثقة » لقد أصبح مرض اليوم بلا جدال « ثم قلب أنت النظر فى مجتمعك يميناً وشمالاً وفتش فى زواياه وأركانه ثم عد إلى نفسك وأنعم النظر والروية فيما تجد من حواجز وعقبات ومن عدم القدرة على التآلف والتعاون ، والعزلة الشاملة والانطوائية القاتلة وحاول أن ترجع هذه المظاهر المتعددة إلى سبب رئيسى واحد فستجد الجواب أمامك واضحاً جلياً . . . إنها ... « أزمة الثقة » .

أزمة ثقة فى كل شىء وفى كل إنسان ومع الجميع .

أزمة ثقة متبادلة بين الوالد وولده والمدرس وتلميذه والزوج وزوجته والمرء ومرءوسيه والزميل وزميله وبين الجار وجاره والحاكم والمحكوم والتاجر والعميل ، وقس على ذلك كل ما بين الناس من صلات ومعاملات وروابط فى كل ناحية من نواحى الحياة .

وقل لى بعد ذلك كيف تسقط هذه القيمة العليا من سماء المجتمع وهى شمسه المضيئة ، وكيف تعزل عن كيانه وهى

روحه الحى . ثم يرجى لهذا المجتمع البقاء . فضلا عن النهوض والتقدم والارتقاء . . .

انظر إلى الفرد الذى فقد ثقته بنفسه تجده متردداً خائر العزم . كليل البصيرة لا يصمم على شيء حتى يرتد عنه ولا يقدم على عمل حتى يخور أمامه وتمضى أيامه تتنازعه الجواذب من يمين وشمال ، ويبدد عمره فى دائرة واحدة لا يتعداها ، ويفل عزمه عند الصدمة الأولى . انظر إلى فرد هذا حاله فستجد المجتمع كله على مثاله إذا فقد الثقة بنفسه ولكن على صورة أعمق وأعم وأشمل .

إننا نريد أن نفتح أعيننا جيداً ونفيق من دوامة الكارثة التى تغشانا ، ونبذل أخلص الجهد على قدر الاستطاعة لكيلا نصل إلى النهاية المنتظرة التى نحذرها ، ولا يتأتى ذلك إلا أن نبذل من ذواتنا أصدق الجهد متعاونين على الكشف عن العلل الأساسية التى أركستنا فيما نحن فيه ومحاولة الخلاص إنك تجد عند الجميع يأس العجز واستسلام البلادة ، لقد فترت إرادة الحياة فى النفوس ففترت الهمم عن الإرادة فى الخلاص مما جعل مهمة المصلح جد عسيرة لأنه أولا : فى حاجة إلى أن يوقظ إرادة الحياة فى النفوس التى سئمت الحياة الصحيحة والتى تعيش الآن فى سكرة ذاهلة وكأنها دمى تتحرك بلا قلب ولا روح .

ومع ما فى هذه المحاولة من صعوبة فيجب أن ننحى اليأس عن طريقنا وأن نعمل على الملاءمة مع هذا الدور بروح

التفاؤل والعزم المتين .

نريد تحديد الداء برد العلل الظاهرة إلى سببها الرئيسى وبعد ذلك يسهل العلاج ولكنا قبل هذا نريد أن نهز الروح الخامد كيما يستيقظ ، والهمم المتراخية كيما تنشط . وبعث الأمل من جديد .

إن علاج ما نحن فيه فى متناول أيدينا لو صدقنا الإرادة وما نحن فيه لم يأتنا قدراً أو يسقط علينا من السماء ، وإنما نحن صانعوه تحت ضغط ظروف تاريخية وعقيدية وسياسية ولو نحينا عن هذه الظروف ضراوتها لوجدنا الحياة التى نأملها . وأن ننعم بها كما أراد الله سخاء رخاء مترعة بالخير والحب والجمال.

ماذا كان من نتيجة فقد الثقة علينا أفراداً وجماعات . .

أستطيع الآن كعادتى أن أضرب مثالا واحداً يغنى عن كثير لأن فيه خلاصة المأساة من جميع نواحيها تاركا للجميع القياس والاستطراد . .

منذ أعوام مضت أقبل إلى القاهرة طالب أعرفه وأعرف أسرته ، ليلتحق بالجامعة ، وسكن بمنزل فى أحد الأحياء الشعبية وكان يجاوره فى حجرته هذه رجل فى منتصف العقد الخامس من عمره تقريباً ، يعمل رئيس عمال بإحدى الشركات ، وكان الفتى كما عهدته : دمث الخلق ، يتحلى بالطباع الريفية التى تقدس رابطة الجوار . وأنس الرجل إليه فقربه منه وكان كثيراً ما يدعوه إلى سكنه بحضور زوجته ليتسامر معه واطمأن الفتى إلى ذلك ، ووجد فى علاقته بهذه الأسرة الطيبة

عوضاً له عن غربته وانقطاع صلته بأهله وكان ينظر إلى الرجل كوالد وإلى الزوجة كأم . .

وبعد أسابيع وجد الطالب أن الزوجة تستدعيه فى غياب زوجها وتلمح فى كلماتها وحركاتها ما جعله يشك فى نواياها ويسترِيب ، ولكنه نحى هذه الفكرة عن ذهنه معللا أن هذا دليل على شدة التقارب ورفع الكلفة . . ولما رأت أن الفتى لا يفهم — جعلت التلميح أقرب إلى التصريح — فارتاع وفزع ضميره وعالج ذلك بأن امتنع عن زيارة المسكن ما لم يكن بحضور الزوج . وأحست هى بمسلكه الجديد فجعلت تتردد عليه فى حجرته ساعة غياب زوجها وغالباً ما تكون فى ثياب تكشف أكثر مما تستر ولكنه ظل على ترفعه وعناده رغم المحاولات المتعددة لاستمالته وإغرائه .

وذات يوم استأجر ساع بمكتب إحدى الشركات حجرة بأسفل المنزل فتركت صاحبنا واتجهت إلى القادم الجديد ولم يكن لهذا الأخير نصيب من الثقافة والخلق يعصمه من الانزلاق فاستجاب لرغبتها .

وانطوى الطالب على نفسه — بعد أن عرف قصتها — غماً وكمداً وامتنع عن زيارة المسكن حتى فى حضور الزوج لأن ضميره لم يحتمل أن يقابل زوجها دون أن يخبره بحقيقة الأمر ولو أخبره فسيفجعه فى أعز شىء مقدس . . . وهو الرجل الطيب وسيترتب على ذلك مشاكل لاعداد لها ووجد أن خير

طريق هو أن يعتزل الكل متجاهلا ما يحدث ، وهذا أضعف الإيمان .

وعرفت هي أن الخطر يكمن هنا . . . وأنه يجوز أن يأتي اليوم الذي يفلت فيه زمام أعصابه فيخبر زوجها لأنها كانت تثيره بهذا الساعي وكثيراً ما كانت تغازله على مرأى منه .

إذا فلتحطمه قبل أن يحطمها .. . فأفهمت زوجها بعد أن أظهرت التمنع والتردد أن سبب عزلة الطالب وابتعاده أنه غازلها فنهرته . وكان الفتى قد بدأ يبذل لها النصح من خلال تلميحاته فتهزأ من تلميحاته وفي ليلة عاد الفتى من الخارج وكان زوجها جالساً في إحدى الحجرات إذ نادت عليه ودار بينهما الحوار التالي على مسمع من الزوج المخدوع .

هي — مش عيب يا فلان توجه لي مثل هذا الكلام وأنا زي والدتك . ؟

وأجاب الفتى خجلا وقد ظن أنها عادت إلى رشدها أنا آسف . . سامحيني . . أرجو ألا يتكرر ذلك . . .

هي : لا . . . ماهودا مش أصول إن الرجل اللي دخلك بيته ووثق فيك زي ابنه وأكتر تقول لمراته الكلام ده . . يعني لو سمع هوه بحادث زي كده . . أنت عارف حايحصل إيه . ؟

هو : حايسمع من مين دي حاجة بيني وبينك . . بس أنا كان قصدي . . .

ولم يدعه الرجل يتم كلامه إذ انطلق من داخل الحجرة

منتفضاً يغلى كالمرجل وهجم على الطالب المسكين فى عنف مسمعاً إياه كلمات السباب والتقريع ما لم يسمع بمثله فى حياته . . وبهت لهول المفاجأة وحاول أن يعرف أين كان هذا الرجل ولماذا يثور عليه هكذا وهو الذى بذل كل ما فى وسعه لينقذ شرفه وشرف أسرته من العار . وحاول أن يتكلم فأعوزه النطق . . فى الوقت الذى كان الرجل يقذف به فى عنف وغيظ إلى خارج مسكنه ويزوده بكلمات التقريع فى هياج المجنون . وعاد الطالب إلى حجرته يستعرض ما حدث مرتاعاً مما رأى وبعد أن هدأت نفسه راجع ما حدث وعرف كل شيء ولكن بعد فوات الأوان .

وضربت المرأة أكثر من عصفور بحجر .

اطمأنت أولا إلى ثقة زوجها لتعمل ما يحلو لها فى غفلته واطمأنت ثانياً إلى مصدر التهديد من جانب الطالب فلن تقوم له قائمة . وانتقمت ثالثاً من الذى ترفع عنها ولم يستجب لمشاركتها فى الإثم الكبير .

وفى صباح اليوم التالى جاءنى الفتى يروى لى القصة كما حدثت وهو مصمم على الانتحار إذ كيف يستطيع أن يواجه الرجل بعد ذلك وهو متهم بهذا الاتهام . وكيف يستطيع أن يواجه المجتمع وقد ساءت سمعته إلى هذا الحد .

الانتحار . . هو الحل الوحيد لكل هذا البلاء . .

ولكنى طردت من ذهنه فكرة الانتحار . بأن القاهرة

مدينة كبيرة لا يعرف فيها كما هو الحال فى الأقاليم . . . كل ما عليه أن يغير مسكنه . وستنتهى مشكلته عند هذا الحد .

* * *

هذه حادثة واحدة نستطيع أن نتبين من خلالها مدى ما نعانيه من الوضع المؤلم المعكوس ونكشف على تفهمها موقفنا من الكوارث التى نتردى فيها كل يوم . أفراداً وجماعات .

فتى طيب الخلق ، عف النفس . مترفع عن الدنايا جدير بكل ثقة واحترام فى جانب .

وامرأة مستهترة تخون الثقة الزوجية المقدسة فى جانب آخر . .
وزوج مخدوع يفهم الأمر على عكس ما كان ينبغى أن يكون فى جانب ثالث . . . ولعله لا يترك فرصة إلا ويشيد فيها بفضائل زوجته وعفتها التى ترتفع فوق مستوى الشبهات

هذا هو حال المجتمع اليوم فى كل شأن من شئونه عائلية أو اجتماعية أو سياسية .

وأناس خائنون غادرون معرضون عن كل فضيلة بعيدون عن كل خلق كريم يدفعهم تفكيرهم الشرير الآثم إلى مداراة عيوبهم وستر نقائصهم . وخداع الجميع . ولا يكفيهم ذلك بل يتهمون غيرهم من الشرفاء بعيوبهم وإلباسهم نقائصهم .

وأناس شرفاء فضلاء متمسكون بالخلق القويم لا يجدون فيما يفعلونه ما يستحق الضجيج أو الظهور فلا يحس بوجودهم أحد

وهم مع ذلك عرضة للاتهام وسوء الظن والتأويل .

تجد اللصوص أكثر الناس حديثاً عن الأمانة وتجد الأمناء الحقيقيين لا يرددون مثل هذا الحديث تجد الفجرة والفاسقين أكثر الناس تمسكاً بمظاهر الفضيلة وتجد الأطهار الفضلاء قلما يهتمون بهذه المظاهر . تجد الفارغين التافهين أكثر الناس حديثاً عن الجد والعمل الصالح . وهنالك الأكفاء الممتازون يقومون بواجبهم فى إخلاص وأمانة ولا يبدون هذه الغيرة الجوفاء فكيف نتبين من خلال هذا الضباب طريق الصواب .

وهذا ما حدا الكثير منا إلى نبذ الأمل من صلاح الحال واستحالة عودة الوضع الطبيعى كما ينبغى أن يكون .

افتح باب الجرائم فى الصحف وطف بدور المحاكم لترى فنون الخداع والوقيعة وسر فى كل ناحية ومسلك حيث احتكاك العلاقات والمعاملات من أفراد مجتمعك فى الشارع فى الأتوبيس والسينما وفى دور البيع والشراء لتدرك حالة الحذر والفزع التى يعانيها الإنسان من أخيه الإنسان . ثم سائل نفسك . أفى مجتمع نحن أم فى غابة يخيل لى أن حضارتنا هذه رغم المظهر الخادع الذى يبدو لنا هى الامتداد لحياة الغابة على طراز أرقى .

لقد كان شعار الإنسان فى عهد الغابة « اقتل وإلا قتلت » وحينما تغوص فى أعماق المعاملات الاجتماعية الآن فى كل وجوه نشاطنا تجد أثر هذا الشعار محفوراً فى الأعماق وأن الاختلاف

لا يتعدى المظهر كمن يصافحك باليد اليمنى والخنجر فى اليسرى فيغلف لك حقده وضراوته فى ابتسامة تخفى وراءها الموت الزؤام .

كهذا الرجل الذى سافر من بلاد نيام نيام إلى إنجلترا وأقام فيها زمناً طويلا حصل خلاله على أرقى الإجازات العلمية وبعد عودته اعتزم أحد زملائه من الإنجليز زيارته . . وشد ما راعه أن رآه كدأب قومه لا يزال يأكل لحوم البشر . ولما لاحظ ما على وجه زميله الإنجليزى من الدهشة والاستغراب أجابه بأنه لا يأكله على الطريقة البدائية التى يستعملها قومه وإنما يستعمل الشوكة والسكين .

أرأيتم أن الخلاف فى المظهر وحده ؟ هذا هو حال المجتمع اليوم مع اختلاف طفيف . . .

وسبب هذا شىء واحد « أزمة ثقة » إذا فبالثقة وحدها . نستطيع أن نفخر بأننا أقمنا مجتمعاً متحضراً ولكن كيف السبيل .

هل نبشر بها على أعواد المنابر وفى أنهار الصحف . ؟ هل ينتشر الوعاظ والخطباء فى كل مكان يدعون إليها وهل مثل هذا يجدى الآن بعد أن بينا أن الناس أصبحت لا تثق — على الأخص — فى هؤلاء الذين يشحذون ألسنتهم بالغيرة على الفضيلة .

إذاً هل نستسلم حتى تأتينا الكارثة التى لابد منها إن استمر الحال على هذا المنوال .

نريد أن نعرف على التحديد هل الطريق إليها عسير : أم مستحيل ؟ أنا أجزم أنها تدخل فى حدود الإمكان على أن تقام على الدعامتين السابقتين . « الجزاء الذاتى والحق من طريق الإقناع »

فحينما يتأكد كل فرد أن المجتمع يسود فيه مبدأ الجزاء الذاتى فلا يستغله بل يبذل كل جهده ليؤدى له الخير وأنه لا يخدعه وإنما يبذل كل ما فى طوقه ليلتقى إليه بكلمة الحق . اذا تتحطم العوائق التى تقف فى طريق الثقة وسيصير قيامها بيننا أمراً ميسوراً إن لم يكن أمراً محتوماً .

حتى إننا نستطيع أن نقول إن :

الجزاء الذاتى + الحق من طريق الإقناع = ثقة .

ونؤمن أننا لا نجد معترضاً عاقلا يراجعنا فيما نقول .

المبدأ الرابع :

الحب

هل يمكن أن نقيم مجتمعاً على الحب .

سؤال طالما دار بأذهان الفلاسفة الأخيار والمفكرين المثاليين من قديم الزمان ولكن الوصول إليه جد عسير . . . لأن الذين نادوا به وبشروا لم يعرفوا الطريق إليه أو . . لأنهم نادوا به منفرداً فلم يزيلوا من طريقه العوائق التى تجعل الوصول إليه سهلا طيباً ولذلك ظل على مدى التاريخ فى مكانه الأسمى لم نستطع أن نصل إليه .

ونحن إذ ننادى بإقامة المجتمع على الحب لا نقصد من هذا أنها دعوة إلى ترف يمكن الاستغناء منه ولكنها ضرورة غفلنا عنها فوصلنا إلى ما وصلنا إليه .

فالمسألة التى نحاول أن نضغط عليها ونزيدها إيضاحاً أننا يجب أن نفرق بين الحياة التى نعيشها والحياة التى نأملها . فبعد أن يئسنا من الوصول إلى الحياة الفاضلة استسلمنا للواقع واعتقدنا أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

هذا هو الخطأ الأكبر .

إن فى الإمكان دائماً . أن نصل إلى مستوى أحلامنا لو وطدنا العزم وعرفنا الطريق بيد أننا نريد أن نأخذ الأمور

الجسام باليسر الذى نتناول به أيسر الأشياء مع أننا نملك الطاقة الكافية لتحويل كل شيء إلى ما ينبغى أن يكون .

ولأننا لم نجرب الحياة فى ظلال الحب . لم نشعر بحقيقتها ولكننا لو جربنا الحب كقيمة جماعية لعز علينا بعد ذلك أن ننزل عن مستواه مهما يكن الثمن أو العوض المقابل . ونرضى ثانية بهذه الحياة المهينة التى نعيش فيها الآ ن فى ظل الكراهية والصدام .

ونستطيع الآ ن أن نضرب مثلا يغنى عن كثير ويوصلنا إلى فهم الحقيقة بطريقة علمية ملموسة .

لقد ظل العالم فى تاريخه الطويل البالغ آلاف السنين حتى القرن التاسع عشر بلا كهرباء . . . وكان يمكن — لولا العبقرى الذى اكتشفها — أن يعيش حتى الآ ن بلا كهرباء . . . ولم يكن يظن أو يخطر فى باله أو حتى فى أحلامه أن هناك شيئاً فى هذا الوجود اسمه الكهرباء .

ولكنا بعد أن اكتشفناها وكيفنا حياتنا وفقاً لها هل نتخيل أننا نستطيع أن نعيش بلا كهرباء . . ولنتصور مدى الارتباك الذى نعانيه حينما ينقطع التيار لسبب من الأسباب بضع أيام .. بل بضع ساعات . . .

هذا بالنسبة لشيء مادى فى حياتنا . فما بالنا إذا أرضينا الضرورة العاطفية بالحب ؟ .

نعم نحن نؤمن وعلم النفس يؤيدنا فى هذا أنه ضرورة

عاطفية وليس إغفالنا لها كل هذا الزمن الطويل بالذى ينفى وجودها بل لعله أصلح شاهد عليها لما نعانيه من عدم تطبيقها من كل هذه الويلات . وقد حدثنى أحد معارفى أن زميلا فى دفعته الجامعية سافر فى بعثة إلى أمريكا ليلتحق بمعهد اجتماعى فكلفه أستاذه بالمعهد أن يقوم ببحث بعض حالات اجتماعية لحى من الأحياء الفقيرة فى نيويورك وذهب الطالب المصرى وهو معتقد أنه سيرى حالة من حالات الفقر التى كان يراها فى زوايا الأحياء الشعبية بالقاهرة والأقاليم وشد ما راعه أن رأى معظم الذين زارهم وبحث حالتهم يملكون فى منازلهم الفريجدير والتليفون والمكنسة الكهربائية وغير ذلك . وعاد يكتب فى تقريره بناء على هذه المعلومات أن الحى الذى زاره يتمتع أصحابه بمستوى مادى مرتفع واستدعاه أستاذه بعد قراءة التقرير ليسأله عن الأسباب الأخرى التى توصل إليها فى بحثه فأجاب الطالب : لقد كتبتها فى تقريرى . . فرد عليه الأستاذ باسماً شارحاً له أن ما ذكره فى تقريره إنما هى الضروريات التى لا يمكن لفرد أن ينزل عن مستواها هذا هو الفرق بين بلدين فى عصر واحد تحولت الكماليات المادية بزيادة الدخل أو بتوفر الطاقة إلى ضروريات فما بالنا إذا أتحنا الفرصة للضرورة الروحية أن تتنفس فى جوها الطليق . . . .

* * *

ويحسن أن نعرج هنا على الأهداف التى ثار حولها الخلاف بين فلاسفة الأخلاق على مر العصور وتنحصر فى ثلاثة أشياء

١ ـ الباعث . . .

٢ ـ القيمة . . .

٣ ـ الغاية أو الأثر . . .

هذه هى المجالات الثلاثة التى يوالى فلاسفة الأخلاق الدرس فيها والتطور بها والاختلاف عليها .

فمنهم من يضع الباعث فى الدرجة الأولى ومنهم من يتمسك بالقيمة ومنهم من يهدف إلى الأثر . .

فلنتتبع وجهة نظرهم فى هذه المجالات الثلاثة .

وننظر إلى القيمة وحدها ولنتخذ الصدق مثلا فهو قيمة أخلاقية متفق عليها من الجميع . .

ولكنا نرى أثرها سيئاً إذا قلنا الصدق لاثنين متخاصمين عما قال أحدهما فى الآخر حالة غضبه حين نريد الصلح بينهما .

فإذا تمسكنا بالأثر وحده وطبقناه على بناء مستشفى مثلا بناه صاحبه للفخر والمباهاة وليتحدث الناس عن كرمه وإحسانه وآخر بناه بدافع العاطفة النبيلة والرحمة للمحتاجين من المرضى لتجلى لنا بعد ذلك المجال الحقيقى للخلق .

إنه الباعث وحده . . .

لماذا ؟ . .

لأننا لو نظرنا إلى باعث الكذب للصلح بين المتخاصمين

وهو سيادة المودة بدل الجفوة والقطيعة لغضضنا النظر عن القيمة والغض هنا لا يضر بها .

ولكنا لو غضضنا عن الباعث بين الاثنين فى بناء المستشفى لكان معنى ذلك سيادة النفاق كخلق . والنفاق إذا انتشر تقوض بناء المجتمع .

وفى المثل إذا حسن الباعث — وهو سيادة السلام — اطمأننا إلى كل الأعمال اللاحقة لهذا الشخص وهو انصرافه عن القيمة لضرورة أو لقيمة أرفع منها .

إذاً فحيث يكون خط سير الباعث يكون المجتمع .

وهنا يبدو سؤال آخر . . .

هل يترك الإنسان القيمة المثلى إذا ترتب عليها ضرر ؟

والإجابة هنا دقيقة . .

هناك فرق بين الضرر الواقع على الفرد نفسه من التمسك بالقيمة وبين الضرر الواقع على المجتمع . . فإن كان الضرر واقعاً على الفرد فى سبيل المجتمع فيلزمه الباعث الخلقى ألا يتخلى المرء عن القيمة بل يتبعها مهما يكن الثمن كالاستشهاد فى سبيل الوطن أو فى سبيل عقيدة عليا .

أما إن كان فى سبيل قيمة أعلى من الصدق وهى السلام — كما بينا سابقاً — فعلى المرء أن يتخلى عن القيمة الصغرى فى سبيل قيمة كبرى وأن يوازن ما بينهما .

وما الدافع الأصيل الوحيد الذى يجعل المرء يرضى بالضرر

الواقع عليه ولا يرضى بالضرر الواقع على غيره .. وبعبارة أخرى ما وراء الباعث . .

إنه الحب . .

إننا حين نقيم مجتمعاً على الحب وننعم بمزاياه سنتلفت خلفنا لنترحم على هؤلاء الآباء والأجداد عبر التاريخ كله وسنأسى عليهم ونرثى لهم . . لا لأنهم عاشوا حياتهم بلا ميكانيكا أو كهرباء وما إليها من الوسائل المادية ولكن لأنهم حرموا نعمة الحب الجماعى فلم يستمتعوا بهذه العاطفة النبيلة السامية أمتع وأرقى عاطفة فى الوجود .

إن محمداً رسول الله وصف الجنة فقال : « فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

والقرآن يصف لنا حال المقيمين بها ليرينا أن الجديرين بمتعة الحياة فى الجنة هم هؤلاء : « ونزعنا ما فى قلوبهم من غل إخواناً على سرر متقابلين » .

فإذا كان نعيم الجنة فوق إدراكنا . . بل فوق خيالنا لا نستطيع أن نتعرف عليه بوسائلنا البشرية فإن فينا من القوى الروحية ما يمكننا أن نكون على مثل حال الجديرين بالإقامة فيها بأن ننزع ما فى صدورنا من غل وأن نعيش إخواناً متحابين متآلفين .

ولماذا نتباغض ونحن نقطع معاً رحلة الحياة . . . فلماذا نقطعها متخاذلين متدابرين .

فالإنسان هو العنصر الوحيد الذى يجعلنا نحس للحياة

طعماً وللوجود قيمة وأعتقد جازماً أنه لو قيل لأبشع أنانى على ظهر الأرض .. إننا على استعداد أن نهبه كل ما فى الدنيا من ذهب وكنوز وعلوم ومساكن وغيرها . . ليعيش بها وحده لا يشاركه فيها مشارك ولن يكون على ظهر الأرض غيره إذاً لكان الرد بالرفض القاطع المبين .

جرب أن تسير وحدك فى صحراء خالية من الناس لتحس الوحشة وتستشعر الخوف .. . بل سر فى شوارع العاصمة ذاتها بعد منتصف الليل . . إن الشوارع هى الشوارع . . والأنوار هى الأنوار . . ولكنها خالية من العنصر الرئيسي الذى يضفى البهجة على كل شىء . . . إنه الإنسان . .

هذا مع الوضع المزرى الحاضر الذى نعيش فيه ، فما بالنا لو كان ذلك فى مجتمع يقدس الحب ويعتبره فى المنزلة العليا .

إننا لا نستطيع أن نحب الإنسان الحب الصحيح ما لم نحترمه — فلا يظفر قليل الاحترام بالحب — وحتى نحترمه لابد أن نقدره قدره فنراه على حقيقته كأبدع وأروع مجلى لعظمة الله وقدرته وإبداعه .

إن ضغط الظروف الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية هى التى فرقت بين الأخ وأخيه وقسمت الجنس الواحد على نفسه وجعلت منه المستغل والمستغل . والسيد والتابع وصاحب السلطة والعبد الذليل .

وماذا جنى الإنسان من هذا التقسيم ؟ لا شىء . . .

إلا الحقد والتربص والحذر والألم الوضيع فحتى الألم مع الحب ألم نبيل عزيز أما ألم الحقد والكراهية فهو ألم مظلم كالح يقطر السم من ثناياه .

انظر إلى ألم الأم مع طفلها . وهى تسهر عليه الليالى الطوال لترعاه وتسكب عليه من فرط حنانها ومن ذوب وجدانها وقارن بينه وبين ألم الحقد والمناجزة والمعاداة .

هذا ألم يكسب النفس صفاء ويرتفع بها إلى السماء .

وهذا ألم يلف النفس بسواد الظلمة ويهوى بها إلى الحضيض.

مع الحب كل شيء جميل ممتع حتى الألم . وفى المعاداة كل شيء بغيض قابض . . حتى النصر ، إن هذه الحياة . . حياتنا . . علينا أن نكيفها وفق ما نحب ونهوى والكراهية ليست عنصراً أصيلا فى طبيعتنا ولكنها شيء مدخول ورثناه مع التركة الخائبة التى أورثنا إياها من جهلوا فن الحياة . . فإذا بشرنا اليوم برسالة الحب فإننا لا ننشد المستحيل ولا نضرب فى بيداء الأوهام ولكنا نريد أن نصحح الوضع المعكوس وأن نستمتع بأرقى عاطفة وهبت للإنسان وأنبلها وهى أن يكون محباً محبوباً . ولكن الوصول إليه ليس بالسهولة التى نتصورها كما أنه ليس مستحيلا . . كل ما علينا أن نعرف سبيله وننحى العوائق عنه ونحن بعد ذلك فى حاجة إلى رياضة نفسية تسمو بنا إلى مستواه . . .

وليس هذا غريبا .

فالذى يريد أن يقوى بدنه وهو أيسر ما يملك لابد له من التزام أصول الرياضة البدنية التى يحددها المختصون والزمان اللازم لذلك .

والذى يريد أن يحصل على مزيد من المعرفة أو على درجة علمية لابد له من رياضة عقلية وسهر فى المطالعة والتفكير وشحذ جميع القوى الفكرية والعقلية .

فلماذا حينما ننشد حياة فاضلة . فى مجموعها العام نريد أن نتناولها بأيسر سبيل .

فالرياضة النفسية هنا ألزم — لكى نحيا حياة أفضل — ألزم من اهتمامنا بالرياضة البدنية والعقلية مع تركيز اهتمامنا فيهما وترك الاهتمام بما يجب أن يقوم فى المقام الأول .

فى ظلال الحب . . . ستختفى كل الصفات الموروثة من حياة الغابة كالحقد والحسد والصراع لأتفه الأشياء .

أجل ستنقرض هذه الصفات التى لا تليق بإنسان متحضر لتحل محلها صفات عليا جديرة بكلمة إنسان . .

وحينما نلتزم المبادئ الثلاثة التى عرجنا عليها آنفاً نكون قد نحينا كل العوائق التى وقفت فى طريق الحب . من تاريخنا كله .

وحينما يثق كل فرد أن الآخرين يدينون بمبدأ الجزاء الذاتى فيفعلون الخير لوجه الخير ثم يقدمون ما اهتدوا له من حقيقة بلا ضغط ولا خداع ، ويتبادلون معه الثقة فى كل شأن من شئونه فماذا

بعد ذلك سيبقى فى الطريق ؟ ؟

النتيجة الطبيعية لهذا كله أن ينمو فى داخلنا روح المحبة والإخاء وما يتولد عنه من فضائل وصفات حتى إننا نستطيع أن نجزم بصحة هذه المعادلة .

الجزاء الذاتى الحق من طريق الإقناع + الثقة = الحب .

ونحن واثقون من سلامة التقدير .

المبدأ الخامس

« الحرية »

مشكلة المشاكل بلا جدال . . .

وهي التي حيرت أصحاب المواهب من رجال الفكر والفلسفة وواضعي النظم على اختلافها منذ فجر التاريخ حتى اليوم والتي لم يتفق على مدلولها نظام مع غيره . . . ووقف الكل يتشدق بها ويدعيها لنفسه وينكر فهمها على الآخرين . .

هي الشيء الوحيد الذي احتضنه أصدقاؤه وأعداؤه معاً . فليس هناك من نظام مهما يبلغ من السوء إلا بشر بها ، وليس هناك من حاكم مهما يطغى إلا جعلها على رأس هتافاته . وضاعت في زحمة الدعوات معالمها وانطمست حدودها فلا تستطيع أن تتبينها وسط الضجة وإن دققت النظر وأحكمت الأداء .

ولا شك أن من بين من بشّر بها أناساً مخلصين تعبدوا في محرابها عن عقيدة وإيمان ولكن خطأهم أنهم ضلوا الطريق إليها فلم يقيموها على الأساس الصحيح الذي يجب أن تقام عليه كل القيم .

لم يقيموها على الأساس الداخلي للنفس وإنما أقاموها

من الخارج ونظموا لها الحدود فكانوا لها كأعدائها لأن البناء الذى أقاموه على غير أساس لا يلبث أن ينزاح مع أول عاصفة تعبر الطريق .

إن الديمقراطية بمعناها الأصيل لتعد أعظم وأنبل دعوة وجدت لتمجيد الحرية فى تاريخ الإنسان حتى الآن ولكنها على الرغم من مزاياها التى لا تنكر لا تستطيع أن تدعى أنها أحاطت بالمشكلة من جميع وجوهها فلا يزال فى بنائها الضخم العتيد ثغرات وثغرات .

ما أقصى ما وصلت إليه الديمقراطية حتى الآن على أحدث التفاسير ؟ إنها حكم الأغلبية أى التى تعمل لصالح الأكثرية المطلقة لا لصالح أقلية مهما كان لونها ومنزلتها .

ولكن هذه الأقلية — مهما كانت ضئيلة — ولو كانت تعد بالآحاد ما ذنبها ؟ من يتولى حمايتها ؟ بل ما ذنب فرد واحد فى المجتمع كله يحس أنه غريب فى وطنه مهدور الرعاية أو ساقط الاعتبار ؟ .

فالنظام الذى يفخر بأنه سند الأغلبية من رعاياه إنما هو نظام سيئ . . أو هو لم يبلغ من الصلاحية الحد الذى يجب أن نقف عنده ونركن إليه .

يقول القرآن الكريم : (ومن قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً) هكذا . . . فحياة الجميع وحدة لا تقبل التجزئة

وكذلك الحرية لا تتجزأ فالدولة التى يظلم فرد واحد من رعاياها أو يشعر أنه غريب فى وطنه أولا تتاح له الحرية المطلقة ليعمل ما يستطيع أن يعمل ويقول ما يريد أن يقول هى دولة غير جديرة ببقيامها أو احترامها . . . . لأنها سلبته حريته التى هى صنو حياته وعاقبته بلا ذنب ولا جريمة وقد يعدل هذا الفرد الواحد الأمة بأسرها لو أقمنا له الميزان .

يقول توماس جيفرسون « إن الله الذى وهب للإنسان الحياة وهبه الحرية فى نفس اللحظة ولنفس السبب » فلا نتصور أن نفصل بين الحياة والحرية فهما متلازمان كالروح والجسد .

هذه هى الغاية . . . ولكن كيف السبيل . . .

السبيل أن نتجنب الأخطاء التى وقع فيها السابقون من الدعوة إلى القيم العليا دعوة انفرادية فلم يدركوا ما بين القيم من ترابط ولم ينظموها التنظيم الصحيح . . وليس معنى هذا أن نقف عند هذه النقطة لا نتعداها ولكننا نشكر لهم محاولاتهم الصادقة وتضحياتهم الجريئة فى هذا السبيل ونستخلص العبرة مما مضى فلا نكرر الأخطاء وسيكون الوصول إلى الطريق الصحيح تتويجاً لجهودهم البارة الخيرة فى نشدان الحقيقة والسمو والكمال . .

* * *

لا يمكن أن تسود فى المجتمع هذه القيمة العليا (الحرية) إلا إذا تحرر كل فرد من نفسه أولا : من أنانيته الضيقة ونظره إلى

الأمور من زاويته وحدها وعدم الاهتمام أو عدم الاحترام لرأى الآخرين . وبعد أن تسود فى المجتمع كل القيم العليا التى قدمناها والتى يكون بها الإنسان إنسانا . .

فالحرية الحقيقية هى الغاية النهائية لبنى البشر . . .

هى الشاهد على أنهم تخطوا صعداً كل الدرجات العلى وبلغوا القمة التى لا غاية وراءها ولا زيادة بعدها لمستزيد . . . لا بد أن تسود فى المجتمع هذه القيم أولا . . .

الجزاء الذاتى — الحق من طريق الإقناع — الثقة — الحب . . وبعد ذلك تكون الحرية .

فإذا سادت هذه القيم تكون الحرية نتيجة طبيعية لها فالمجتمع لا يحد من حرية فرد من أفراده ما دام يعمل بمبدأ الجزاء الذاتى فيقدم كل ما فى وسعه من خير . . . ويبذل جهده مبشراً بكلمة الحق . . . ويتبادل معه الثقة فى كل خطوة يخطوها — ثم يكن له أصدق الحب فلماذا لا يتركه حرًّا؟ إن حريته حينئذ ستكون فى خدمة المجموع . . لن يكون له نشاط هدام أو خروج على القانون . . سيكون نشاطه كله فى خدمة البشرية علماً وجهداً وفنًّا . .

فحينما نقصد الحرية لا نقصدها بمعناها المعروف وحده . . كحرية الوطن وحرية الجماعة وما إليها فهذه مدلولها قد تحدد فى الأذهان والواقع على صورة واضحة ملموسة . .

ولكننا نقصد الحرية بمعناها الأخص للفرد لكى يعمل على

تحقيق ذاته . . . هذه هى الحرية التى نبشر بها وندعو إليها . . أن تتوفر لكل فرد ضرورات الحياة من الأمن المعنوى والمادى كى ينعم بما يكتشفه فى داخله من فكر وعاطفة وشعور من خلال تفاعله مع الكون أو تجاوبه مع الإنسان .

نريد للفرد أن يتفاعل مع الكون فى كل خفقة من خفقات قلبه وأن يتجاوب مع الإنسان فى كل همسة من همسات روحه .

وحينما تبلغ الحرية مداها إلى هذا الحد يتحول الوجود إلى موسيقى سرمدية رائعة وتنتفى حدة الشر والخطأ والتحدى والسيطرة وتخضع كل القوانين الوضيعة للحرية فى مدلولها الواسع .

فيكون للطفل حريته فى العبث المناسب له وللشاب حريته فى إظهار التفوق والتحصيل . . حتى مظاهر الاعتزاز والغرور .

وللرجل الناضج تفكيره السليم المبنى على التجربة والثقة وللشيخ تأملاته وفلسفاته على النحو الذى يريد، وستتفرع من هذه الاختلافات الرئيسية اختلافات جزئية أخرى لا حصر لها حتى يكون لكل فرد صورة متميزة خاصة . لا يشاركه فيها غيره . ولكن هذا الاختلاف الفردى وسيلة إلى التآلف الجمعى فى نهاية الأمر كما نعدد أنغام الموسيقى وتتفق فى الوصول إلى لحن موحد جميل لا أن يصاغ الكل تحت وطأة الضغط القاسى فى قالب واحد متكرر ممل رتيب .

فالحرية بهذا المعنى ضرورة إنسانية من فقدها فقد إنسانيته وأصبح شبحاً بلا روح .

لأن الفرد الذى لا يتصرف أى تصرف إلا بعد أن يستشير القانون ثم يحسب حساب تقاليد المجتمع ويقدر الظروف الداخلية والخارجية المستطاعة . . مثل هذا الفرد لا يمكن أن يقوم فى حياته بعشر معشار ما ركب فى طبيعته من مزايا ومواهب . . . وكذلك الذى يكافح الضرورات الأولية اتقاء الفقر والخوف لن يجد الوقت الكافى للبحث فى تحقيق ذاته ولإبراز ما فيها من خير وجمال يسعد هو بالكشف عنه والعمل له ويسعد الآخرون بالتذوق والاستجابة والاستقبال .

ولذلك فنحن حينما نربط الحرية بالقيم السابقة لا نقيدها . . وإنما ننحى عنها عوامل الفوضى التى هى أشد خطراً من كل قيد .

ولا شك أن من أهم أسباب فشل الدعوات السابقة للحرية وعدم استجابة الناس لها كان مرده الخوف من خطر الانزلاق فى الفوضى .

فلا عاصم لنا حتى ونحن نبحث عن الحرية فى مدلولها الأسمى أن نقيدها ببعض القيود ولكنها ليست قيوداً مفروضة من الخارج كسلطة القانون أو سلطة الحاكم أو الفزع من الرأى العام . .

ولكنها قيود نابعة من الداخل . من فيض الإرادة ووحى الضمير .

الحياة

كل ما قدمناه من القيم السابقة إنما هو مقدمة لنتيجة نبتغيها وغاية نرجوها .

فما هى هذه النتيجة وما هى هذه الغاية .

إنها الحياة . . .

الحياة المظلومة التى نعيناها فى أشعارنا وتبرمنا بها وسخرنا منها ووصفناها بأقبح الصفات أنا لا ألوم من سخر أو تبرم . . ولا أهزأ بمن نعاها وتمرد عليها . . لأنها بوضعها الحالى لا تستحق الاهتمام فضلا عن الاحترام . ولكن اللوم كل اللوم على من يجد الحياة الصحيحة ثم ينكص على عقبيه لأنه يريد أن يتناولها بأيسر سبيل .

الحياة جميلة ومن طلب الحسناء لا يغلها المهر .

والحياة الراقية الرفيعة معقدة . . فليكن لنا من الإعداد النفسى ما يجعلنا نتناول تعقيدها ببساطة أى أن نكون لها أكفاء انظر إلى العامل عندما يقوم بإعداد آلة فى أول أمره تجده مضطرباً يتناول أبسط الأشياء فى حذر وتردد ثم انظر إليه بعد أن أتقن مهنته ومرن عليها تجده يتناول أعقد الأشياء بسهولة ويسر بل تراه يقوم بأدق الأعمال جيداً وهو يتحدث إليك أو يتشاغل بعمل آخر.

هكذا يكون موقفنا من الحياة فى تعقيدها . . . لا نريدها بسيطة دنيئة فتلك حياة حيوانية لا يرضاها الإنسان الراقى وإنما نريدها عزيزة معقدة سامية ثم نروّض النفس عليها فنجنى منها ثمارها الشهية على قدر الإمكان فى حدود ما توصلنا إليه من علم وفن وتجربة .

فالحياة التى نريدها إنما هى جماع القيم العليا ولن تكون بالسعادة المرجوة إلا إذا أقمناها على تلك القيم . فقاعدة الاكتفاء الذاتى لا تصلح للحياة فى مجموعها لأن هذه الحياة المنشودة تقوم على التعاون والحب . فلو كانت الحياة قائمة على الاكتفاء الذاتى لحرمنا أجمل معانى الوجود من الحب والمودة والألفة . . . فلا مفر لنا إن كنا نبغى الحياة الصحيحة من أن يعمل أحدنا من أجل الآخر مادة ومعنى . وفى النهاية سنجد المحصول المتبادل أكثر نفعاً وأعم فائدة مما لو كنا أنانيين مغرقين فى الأنانية .

فالذى يجمع المال بأى وسيلة لن يسعد به السعادة المأمولة لأنه يهدر قانون الحياة الطبيعى فيحتجن لنفسه ما ليس أهلا له . ويهدر قانون الوجود الإنسانى بانعزاله عن الجماعة وانطوائه على نفسه وسيحرم من نعمة الحب والتعاون ولن يجنى إلا الحذر والخوف على ما جمع .

فنحن حينما ننشد الحياة الفاضلة السعيدة إنما ننشدها للجميع حتى للأنانيين أنفسهم فإنهم لن يبلغوا بأنانيتهم مهما ستشرت وتضخمت ولو ملكوا كل ما على الأرض من كنوز

ما يعدل بسمة رضا من صديق أو انعطاف مودة من حبيب .

هذه هي مصادر الثروة الحقيقية . .

الثروة الإنسانية . . التعاطف الإنسانى . . البر الإنسانى . . الحب الإنسانى . هى التى تجعلنا نرتشف حلاوة الحياة التى حرمناها فى تاريخنا كله .

ونحن لا نقصد بحديثنا عن القيم العليا التى بيناها سابقاً أننا أبرزنا كل ما فيها من جمال وفائدة أو أتينا بجديد لم يأت به الأوائل وإنما أشرنا إلى مزايا كل قيمة إشارة عابرة . لأننا لا ننكر على السابقين أنهم تنبهوا إليها . فقد كان لكل قيمة عليا أنبياؤها وشهداؤها ولو أردنا أن نسرد مزايا كل قيمة فلن نجد أبدع مما تغنى به رسلها السابقون فى كل مكان وزمان .. وإنما كل همنا هنا هو تقرير القواعد وإرساء الأصول وتبيان الأخطاء التى اعترضت طريق السابقين لنعمل على تفاديها .

* * *

أول هذه الأخطاء هى النظرة الانفرادية .

فالذين بشروا بالثقة أو الحب أو الحرية ركزوا اهتمامهم بها وغفلوا عما عداها وتغنوا بها على أنها مثل أعلى لا يمكن تطبيقه كالشاعر العذرى الذى يتغنى بجمال محبوبته وهو لا يراها . فإن رآها خلع عليها من فرط القداسة ما ينأى به عن ملامستها .

ثانيها — أنهم لم يقيموها على الأساس النفسى من الداخل

وإنما أقاموها على السطح من الخارج فلم تثبت أمام زعزعة الأعاصير .

ثالثها — أنهم كانوا يقنعون بالإصلاح الجزئى وبالترقيع للنظم السائدة ولكننا هنا أطحنا بالبناء المتداعى من أساسه وأقمنا على أنقاضه حياة متكاملة ووضحنا السبيل للسالك بلا تيه ولا ألغاز ولا معميات وهو قابل للتطور والسمو به درجات بعد درجات على مدى الأجيال .

* * *

وحينما نصل بالحياة إلى هذا المستوى الكريم سيجد الفرد كل ما فى الحياة من جهد وفكر وخير فى متناول يده بلا من ولا ثمن . . كما يروى عن أمير المؤمنين هارون الرشيد أنه رأى غمامة تمر فوقه ولم تمطر فرفع بصره إليها وقال : أمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك .

قالها وهو يتمتع بعزة الملك وانفساح الرقعة تحت إمرته . . . أما بعد تطبيق هذه المبادئ فسيكون فى وسع كل فرد عادى أن يقول لكل ثمار الحياة من جهد وفكر وفن أينعى حيث شئت فستأتينى ثمارك . .

سيكون ما على الأرض من ثروات مادية وروحية ملك للجميع ولكل إنسان لأنه إنسان لا لملك متجبر أو حاكم متكبر أو عظيم مغرور .

وعلى ذلك فستكون حياتنا منذ الآن على هذا النمط البديع .

الجزاء الذاتى + الحق عن طريق الإقناع + الثقة + الحب + الحرية = حياة .

إذاً فدعوتنا ليست دعوة أخلاقية غايتها تمجيد الأخلاق والتغنى بمحامدها ولا ندعى هنا أننا أتينا بجديد . لقد أفاض فلاسفة الأخلاق وشراحها فى مزية كل قيمة على حدة بما لا نطمع نحن ولا غيرنا فى أكثر منه ولكن الجديد فى دعوتنا أنها أبعد مدى وأوسع ميداناً . . إنها دعوة إلى حياة أفضل وتحديد الوسائل التى نمارس بها هذه الحياة وإفساح المجال لكى نحياها فى كل منحى من مناحيها وكل معنى من معانيها عن طريق هذا الترابط الذى أسلفنا الإشارة إليه . .

سؤال

عندما أرجع الآن بفكرى إلى الوراء إلى فجر شبابى وأتذكر هذا السؤال الحائر الذى طاف بنفسى لأول مرة (ألا نستطيع أن نقيم مجتمعنا على الحب) ؟

كان ذلك منذ عشرين عاماً . . .

ولم أكن أتوقع أن أجد جواباً فقد كنت ساعتئذ متأكداً من استحالة تحقيق هذا الجواب وإنما كان هروباً من ضيق الواقع إلى فسحة الأحلام .

ومع ذلك ما فتئ هذا السؤال يقفز إلى ذهنى كلما رأيت كيف يعيش الناس وكيف يتعاملون وكيف يتصرفون تصرفاً كله الغش والخداع والنفاق . .

وبعد سنوات من استمرار الإلحاح بدأت أفكر تفكيراً جديا إذ اتخذ السؤال صيغة أخرى (ما الذى يحول دون تحقيق قيام المجتمع على الحب) وأعملت فكرى فى البحث وراء السر إلى أن تأكدت أن الثقة المفقودة هى العلة الرئيسية .

ولكن كيف نعيد الثقة إلى النفوس وفى المجتمع ما فيه من ألوان الزور والحقد والحذر ؟

وبذلك خرجت من تيه إلى تيه فلم تكن الإجابة على السؤال الثانى بأقل عسراً من الإجابة على السؤال الأول .

واعتصمت بالصبر وتركت حل المشكل للزمن والتجربة والدراسة وكانت كل ثقافتى فى الكتب وملاحظاتى فى المجتمع وخواطرى فى النفس طوال هذه المدة التى كانت كل شبابى المدخر تدور حول هذا المحور إلى أن وقفت إلى فكرة الجزاء الذاتى فأيقنت أنى عثرت على الجواب .

عند ذلك أخذت الأمر مأخذ الجد وعبأت كل قواى لإتمام هذه الرسالة وأضنيت نفسى فى البحث وراء هذه المجالات الثلاثة الكتاب والمجتمع والنفس — إلى أن تأكدت بصواب هذه المعادلة الجزاء الذاتى + الحق من طريق الإقناع = الثقة وأنى بهذا قد عرفت الطريق الصحيح إلى الحب .

ولا تسل عن سعادتى حينما تبين لى أنى عثرت على الجواب .

ولم يكن ذلك كل شىء . . .

فقد كان القدر يعد لى مفاجأة أخرى على أعظم جانب من الأهمية لم أكن أتوقعها ولم يكن يدور فى خيالى البحث عنها . . . مشكلة معقدة أشد التعقيد . . حيرت جبابرة العقول وأذهان الفلاسفة منذ فجر التاريخ حتى اليوم . .

إنها مشكلة الحرية . . .

إذ ثبت لى من خلال مراجعاتى الطويلة للموضوع وتقليب الأمر على جميع وجوهه للتأكد من سلامته أن :

الجزاء الذاتى + الحق من طريق الإقناع + الثقة + الحب = الحرية .

وأذهلتنى المفاجأة . . .

وكان هذا فوق خيالى . . . بل فوق احتمالى وشعرت أنى أخرج من ضيق الواقع الذى عشنا فيه إلى عالم طلق رحيب غير مطروق وأننى بهذا أكون قد ذللت مشاكل الثالوث المترابط جميعها مشكلة الأخلاق . . . مشكلة الاجتماع . . . مشكلة السياسة . . إذ أن هذه القوى تتعاون جميعها كل فى ميدانه للبحث عن هذه الحرية . حرية الفرد فى تحقيق ذاته .

ولأول مرة فى حياتى أحس بضخامة المسئولية إزاء هذا الموضوع : بل لقد طاف بنفسى طائف من الفزع والرهبة والحيرة . . ماذا يكون موقفى وأنا أشرف على هذا العالم المجهول ؟ . حتى إنه دار بخاطرى أن أطوى هذا السر بنفسى لا أطلع أحداً عليه فقد يترتب على الإفصاح عنه عكس ما كنت أتوقع للبشرية من السعادة والهناء .

فماذا ندرى بعد أن تختفى المشاكل التى صاحبت الإنسان فى تاريخه كله وألفها وألفته .

ماذا ندرى لو انتهت هكذا فجأة أن يصاب بالذهول أو يعتريه الدوار والارتباك .

إن الإنسان لأول مرة فى تاريخه . بعد تحقيق هذه القيم سيقف أمام ذاته وجهاً لوجه . إن صح هذا التعبير . سيشرف

على عالم أوسع من هذا العالم وأعجب . . . عالم النفس التى شغل عن تفهم أسرارها فى خلال صراعه الطويل على مدى الأزمان من أجل القوت أو من أجل الحرية .

لقد كشف الإنسان فى الأرض كثيراً من الأسرار المادية المحيطة به واخترق أجواز الفضاء وغاص فى أعماق المحيطات فراعه ما فى الكون من غرائب وعجائب وقوانين أذهلته حتى ظن أن المادة ولا شىء وراءها وأن العلم الطبيعى سيحل المشكل كله . وأن الاقتصاد هو المحور الذى تدور حوله القيم والنشاط العام . أما اليوم فسيتجه وجهة أخرى تناقض الوجهة الأولى وتستثمرها لمصلحتها وجهة النفس وما فيها من كنوز وآيات تزرى بكل ما توصل إليه من كنوز العلم والمعرفة المادية .

وما أن وصلت إلى هذا القدر من التفكير والمراجعة حتى تجلت فى وعيى هذه الآية الكريمة وكأنى أراها لأول مرة :
«وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون» .

* * *

وقد يسأل سائل : إن تحقيق الذات ممكن على أى وضع وفى ظل أى نظام وإنك لتنظر إلى المجتمع اليوم فترى كل فرد فيه له ذات متميزة وطابع خاص وسلوك منفرد به ألا يدل هذا على أن تحقيق الذات ممكن على وجه من الوجوه ؟ . وأجيب أن هذه هى النظرة السطحية العابرة .

والأصح أن نقول إن الفرد فى هذا الوضع يزيف ذاته

ولا يحققها . فكل واحد منا يعيش بشخصيتين متناقضتين يبدى للناس الصورة المزيفة ويخفى الصورة الحقيقية .

فالمجتمع فى جملته أشبه بالحفل التنكرى الذى يلبس كل من فيه قناعاً يخفى معالم شخصيته ولكن ما أبعد الفرق بين قناع الحفل وقناع الحياة . لأن قناع الحفل تستطيع أن تزيله بيدك لتعرف من هو الشخص الذى يختفى خلفه أما قناع الحياة . فيكلفك تجربة ضخمة غالية تستلب مالك أو تهدد كيانك أو تدمر حياتك فنحن نعيش فى ظل مثل مقاوبة صيغت فضائلها فى قالب الرذائل ورذائلها فى قالب الفضائل .

فنسمى النفاق براعة والصفاقة شجاعة . والتسامح عجزاً والترفع ضعفاً والإخلاص غباء وهكذا . . . ولا يستطيع الإنسان أن ينعزل انعزالا تاما عن مجتمعه إلا إذا قضى حياته فى دير أو على قمة جبل ولا بد أن يتكيف مع الوضع السائد بقدر مناسب على أى حال وقاعدة التكيف تفرض على الفرد أن يختبئ وراء قناع .

ومن الغريب أن الرجل النبيل المتسامح مضطر لكى يعيش أن يضع قناعاً من الغطرسة والتكبر والعنف حتى لا يطمع فيه الناس ويتهمونه بالجبن حسب مثلهم المقلوبة . إذا أبدى شخصيته على حقيقتها . هذا وتجد المجرم الأصيل اللئيم الطبع يضع على وجهه قناعاً من البراءة والتسامح والنبل كى يستطيع اغتيال فريسته فى الظلام، وكل يوم نلمس أكثر من شاهد حى على ما نقول .

وحينما يريد إنسان فاضل أن يمشى فى الحياة بغير قناع ويظهر نفسه على حقيقتها ويبرز ما عنده من الشمائل نجد المجتمع بدافع لاشعوري يحذره ويتخوف منه ويكون حريصا فى علاقته به ومعاملته معه لأن كل فرد يحس فى قرارة أعماقه أنه يعيش فى مجتمع كل واحد فيه يحمل القناع .

وقد يدرك مجرم أصيل صدق طويته ونقاء ضميره فيقذف من خلفه بإشاعة دنيئة تلون كل أعماله باللون الإجرامى فيصبح هدف سخرية الجميع واستهزائهم وكلما أمعن فى إبراز فضائله بالغ الناس فى التنقيص والازدراء حتى تطويه دوامة الإشاعة من جميع نواحيه وتبتلعه فى جوفها مشيعاً باللعنات على حين يقف المجرم الحقيقى وسط الجميع شامخ الرأس يفرك كفيه سروراً ويبتسم فى أعماقه ويتظاهر بالغيرة على الفضائل التى يدنسها كل يوم فى غفلة عن الجميع .

* * *

وقد يظهر فى مجتمع كهذا طائفة من الأدباء والمفكرين على جانب من الامتياز فلا نقول بهذا إنهم حققوا ذاتهم ولكنهم حققوا جانباً من جوانب ذاتهم هو الجانب الفكرى أو الفنى على حين تبقى حياتهم فى مجموعها من التآلف الإنسانى فى عزلة وانطواء .

وحتى إنتاجهم لا يكون هدفه تحقيق الذات بقدر ما يكون لأكل العيش والامتياز الشخصى والاستعلاء فلا يكون الدافع

إلى إنتاجهم هو الكشف عن الحقيقة والبحث عن الجمال أيًّا كان مصدره. وإنما سيكون الوصول إلى المركز الفكرى أو الفنى احتكاراً وامتلاكاً يذبون غيرهم عنه ويصدونهم بكل قواهم مهما يكن نصيب هذا الغير من العبقرية والنبوغ . ولا يكون بينهم التعاون الكامل الذى يجب أن يكون شعار من ينشد الحق فى كل مجالاته وإنما نرى بينهم من التنافس والتطاحن ما بين أبناء الحرفة الواحدة فى أى طبقة من الطبقات .

وقد ينشأ فى أمة من الأمم أبطال حقيقيون فى كل ميدان من ميادين البطولة وعظماء فى كل مجلى من مجالى العظمة وقد يعيشون فى حياتهم على أحدث ما وصل إليه التقدم العلمى ولكنا مع ذلك لا نطلق على هذه الأمة كلمة راقية أو متحضرة إلا تجوزاً . لأن آية الرقى الحقيقى بين أمة وأمة فى رأينا لا تتجلى إلا فى المشاركة الوجدانية بين أفرادها .

نحن والعالم

إن من يراجع ما مضى من الصفحات حتى الآن فلا شك أنه سيعرف مقدماً موقفنا من العالم . فنحن الذين نقدس الإنسان إنما نقصد الجنس من حيث هو بلا قيد ولا حد .

ليس هناك حدود جغرافية تحول بين فيض الحب للإنسان فى كل وطن من أوطانه ولا يمتاز عندنا أبيض من أسود ولا شرقى من غربى إلا بمقدار ما ركب فيه من مزايا ومواهب . وحب لبنى الإنسان والعمل على خيرهم جهد المستطاع .

وهذه القيم التى ندعو إليها فى مجتمعنا الخاص وهذه المشكلات التى نريد أن نحيها عن طريق مواطنينا ليعيشوا أحراراً كرماء وليمارسوا الحياة الفاضلة السعيدة جهد الطاقة إنما نريد أن نصدرها بعد نجاح التجربة إلى الخارج . لتتم الروابط الطبيعية بين الإنسان . وأخيه الإنسان التى فصمتها الظروف الصناعية من وطن ولغة ولون وغير ذلك من أسباب الخلاف .

ستكون الأرض كلها وطناً واحداً وسيشعر الإنسان الذى فى المشرق أنه أخ وحبيب للذى فى المغرب وستكون الثروة الحقيقية لكل إنسان فى هذا العالم بمقدار ما يتبادله مع الجميع من حب وتقدير واحترام ونحن بذلك نسير مع الهدف الطبيعى وفق الإرادة الإلهية وخطوات التاريخ .

فالإنسان قد تحول من العشيرة إلى القبيلة إلى مجموعة قبائل متجاورة ثم إلى أمة ثم اتحدت بعض الأمم المتجاورة فى أمة واحدة وبقى الشوط الأخير وهو أن يتحد العالم كله فى وطن واحد .

وقد تيسر له ذلك من الوجهة المادية كسهولة الاتصال التليفونى واللاسلكى والاتصال الشخصى بوسائل المواصلات السريعة التى تفوق سرعة الصوت وبقى أن يتحد من الناحية الروحية بالألفة التامة بين أفراده مع اختلاف أوطانهم وعقائدهم.

ولقد نادى بهذا كثير من المصلحين من قبل ولكنهم لم يزيلوا العقبات من الطريق ولم يضعوا لها الحل العملى الصحيح .

أما إذا زالت العقبات ووجد الإنسان الحل العملى فلا يمكن أن يتراجع عن تحقيق حلمه الأكبر وهو أن تشمله جنسية الإنسانية وحدها . أشرف وأسمى جنسية فى الوجود .

فالرجل الأمريكى الذى ذهب إلى قاعة هيئة الأمم يوم أن كانت منعقدة فى باريس وأقام فيها وادعى أنه مواطن عالمى وأذاع من هذا المكان أنه ينادى بوحدة العالم . . لم يكن يستحق السخرية أو اتهامه بالجنون . . فقد أرسل إليه الكثيرون من الحالمين والمخلصين فى أنحاء العالم برقيات ورسائل تأييد .

كل ما فيه أنه حالم مخلص ضل الطريق إلى تحقيق حلمه . . والطريق الصحيح أن يتبنى الدعوة إلى توحيد العالم مجتمع لا فرد — مجتمع يقوم على الحب ويتمسك أفراده بشعائره

ويمارسونه فيما بينهم ممارسة عملية .

هذا المجتمع وحده هو القادر على تحقيق وحدة العالم .

ومصر . . يمكنها أن تقوم بهذا الدور الفريد لتتوج به تاريخها كله فمصر بشهادة التاريخ أرست أول حجر فى أساس الحضارة البشرية وعلى أرضها الخصبة أقيم أول مجتمع متحضر وعنها أخذ العالم الأصول الأولى لكثير من العلوم والفنون .

فمصر التى أنشأت الحضارة فى التاريخ القديم يجب أن تعمل الآن على أن تنقذها من الدمار الأكيد إن لم يتحد العالم الآن على الحب عن طريق الحكومات التى تعتنق هذا المبدأ أو التنظيمات الأهلية على وجه من الوجوه . . . هذه هى رسالة مصر فى هذه الفترة الحرجة من التاريخ. وإن التجارب التى اعتصرتها والآلام العديدة التى عانتها وصقلت روحها لكفيلة أن تجعلها جديرة بحمل الرسالة العالمية عن طريق الروح بعد أن تمهدت السبيل أمامها عن طريق العلوم .

وحتى نكون جديرين بهذه الرسالة لا بد أن نمارس هذه القيم أولا ممارسة طبيعية . من فيض إيماننا بأنفسنا وبالطريق الذى اخترناه وبذلك سيجد العالم ألا مفر له من الاقتداء بنا لينقذ المدنية وينقذ نفسه أولا من الخطر الماحق الذى يتهدده وأصبح ماثلا للعيان .

فأعصاب الطرفين اللذين يملكان القنابل الذرية والهيدروجينية صارت مشدودة كالوتر ، وقد صور كاتب مدى الخطر الذى

يتهدد العالم لو أن ضابطاً مجنداً واحداً من الطرفين ألقى قنبلة مما فى حوزته على المعسكر الآخر فيرد هذا الضربة بأشد منها . وتكون نتيجة ذلك أن يدمر العالم فى أيام إن لم يكن فى ساعات .

ولكننا نؤمن أن الله أبرّ بخليقته من أن يسلط عليها ذلك المجنون وأنه سيهديهم إلى الطريق المستقيم طريق الحب والتعاون والتآلف لما فيه خير الجميع وسعادة الجميع .

فالبشرية الآن على استعداد أن تلبى هذه الدعوة لأول هاتف تعتقد فيه الصدق والإخلاص .

إن عصر الإنسان الذهبى لم يبدأ بعد، لا يزال طى الغيب، إنه هناك فى المستقبل . .

إنه ليس عصر العلم ولا تحطيم الذرة ولا القمر الصناعى.. لا . . ليس هذا عصره الذهبى كما يتصوره بعضنا ولن يكون عن طريق التقدم العلمى ولو كان ما وصلنا إليه مضروباً فى آلاف المرات .

ولكنه سيكون عصر الروح . . . عصر الحب . . . عصر القيم العليا . . . هذا هو العصر المرتجى وغيره لن يكون . . .

« و بعد »

حينما اطمأنت نفسى بعد المراجعات الطويلة إلى هذه القيم على الهيئة المترابطة السابقة كان على أن أختار القالب الذى أعرضها فيه .

وكان أمامى واحد من اثنين . إما أن أضعها فى قالب فلسفى معقد . بكل أصولها وتفريعاتها والدراسات التاريخية المقارنة للمذاهب السابقة ثم بعد ذلك أبسطها شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى المستوى العادى وإما أن أضعها فى صورة مبسطة مفهومة لكل مستوى ثم نمضى بها صاعدين درجة بعد أخرى إلى التفريع والتشقيق .

وكان لا بد أن أختار الطريق الثانى لأنه هو الطريق الطبيعى .

فما نريده فى هذه المرحلة عقيدة تمتزج بوجدان الجماعة وتشكل سلوكها أكثر مما هو فلسفة ترضى عقول خاصة من الأفراد .

فليست هذه فكرة للدراسة وكفى . . . وإنما هى قبل كل شىء دعوة إلى عمل وتطبيق .

وهى بهذه الصورة تبدو واضحة المعالم متقاربة القواعد . . وهى بهذا التركيز أقوى أثراً وأشد نفاذاً وأجمع لشتات الرأى من

تصدع التشقيق وتميع التفريع .

وكانت مهمتى فى الأيام الأخيرة محاولة التبسيط والتركيز فمهمة الرائد ليست فى الوصول إلى القمة وإنما فى تعبيد الطريق إليها لكى يسهل وصول الآخرين .

وشيء آخر وهو أن التوسع فى الأصول الأولى قد يجعلها تنحرف عن اتجاهها الطبيعى فى نهاية الأمر لأن فرق ملليمتر فى نقطة الانطلاق عن الهدف يزداد اتساعاً كلما ازداد بعداً .

وشيء ثالث هو أن المبادئ السائدة اليوم لا نكتشف أنها منحرفة أو هدامة إلا فى الزوايا المظلمة التى تتلفع برداء الفلسفة المعقدة التى يصعب فهمها على الخاصة فضلا عن الأوساط من الناس .

لهذا كان رائدى فى هذا العرض . الدقة والوضوح بقدر الإمكان حتى لا يتيه القارئ أو يتبلبل خاطره بين التفريعات المعقدة التى تصلح للدرس دون التطبيق .

* * *

هل نحن فى حاجة إلى مذهب جديد . . .

إن من يتتبع تاريخ الإنسان خطوة خطوة منذ فجر التاريخ حتى اليوم سيروعه بلا شك هذا الحشد الهائل من النظم والمذاهب والقوانين على اختلافها .

وسيرى بعضنا أن فى تطور القوانين والنظم مع سير الزمن علامة سارة . وإنها لكذلك على وجه واحد .. إنها تعتبر الطريق

الصحيح لتقدم الإنسان والعلامات الدالة على الأشواط التى قطعها من عمره المديد .

أما أن نعتبر القوانين والنظم قوة دافعة على التقدم والارتقاء فهذا ما نشك فيه أو بالأحرى يجب أن يكون الآن محل بحث وتمحيص . . .

ولماذا الآن . . . ؟ لأننا اليوم والبشرية عامة على عتبة دور جديد من أدوار تقدمها وارتقائها ويتلفت المشفقون على المصير حولهم فى لهفة باحثين عن نظام جديد يلائم الدور الجديد الذى يوشك أن يبزغ ونحن نخشى أن يكون هذا منتهى أمل الباحثين والمتلهفين .

إننا نستطيع أن نقول ونحن نجزم ونؤكد إن الدور الذى سنقبل عليه يختلف اختلافاً تاما عن كل الأدوار التى سبقت فى تاريخ الإنسان . وهو كذلك يحتاج دعوة جديدة . . . جديدة فى كل شيء عما سلف من الدعوات.

إنه لا يصلح له التقليد ولا التطوير ولا الترقيع لأى نظام سابق وإنما يحتاج إلى إلهام ويقين وجرأة ماضية نافذة منقطعة النظير . إنه يحتاج إلى رجل أوتى الصفاء النفسى والاتصال بسر الحياة حتى لكأنه يفكر بتفكيرها ويحس بإحساسها . أما هؤلاء الذين يودون الخلاص على يد مذهب جديد فإنا نصارحهم أنهم يؤملون فيما لا طائل تحته ولا يغنى عنهم شيئاً . فلنوفر الجهد فى هذا السبيل ولنتجه إلى ما يفيد .

إلام نتجه إذاً . . ؟

إلى الإنسان ذاته . . . نعم إلى الإنسان لا سواه . . .

فهمتنا اليوم ليست فى استحداث نظام جديد وإنما فى خلق نظرة الإنسان الجديدة للقوانين والنظم والحياة بكل ضروبها وألوانها .

وعن طريق الحب نجد الإنسان ونجد العلاج أيضا . . .

ويغنينا لتوضيح رأينا فى هذا المقام بعض فقرات من رسالة بعثت بها منذ ثلاثة أعوام إلى الأديب السودانى الأستاذ مصطفى حامد الأمين حين طلب منى أن أبعث إليه برأيى فى كتابه « البوذية » جاء فيها :

« . . . وخلاصة ما اهتديت إليه بفطرتى ودراساتى أن الحب هو القانون الأعظم الذى يجب أن ينتظم سير المجتمع والبشرية كافة وأنه وحده هو المصدر الأسمى والأوحد الذى تتفرع منه القيم والتعاليم والعقائد . . . بل القوانين ذاتها يجب أن تكون مقيدة ومشدودة إلى هذا المصدر . ولست الآن بسبيل شرح فكرتى لك بإسهاب فذلك مجاله رسالة أخرى أو رسالات أخر .

إن شخصية كبوذا يجب أن تكون الشغل الشاغل لكثير من الباحثين والمفكرين خاصة فى هذه الأيام يجب أن تسلط عليها الأضواء الكشافة من كل جانب لا لما فيها من الجرأة على نقض القديم والشجاعة فى مواجهته فحسب بل لما فيها من التعاليم السامية المبتكرة المتعشقة للحرية ووضع الإنسان فى مكانه الطبيعى

كسيد لحياته سيادة مطلقة لا يحدها إلا شعوره بواجبه وبإنسانيته التى يجب أن تترفع عن الصغائر . . .

لست أدرى إلى أى ناحية من نواحى العظمة المتعددة فى بوذا أود أن أشير . . . ولكن لو لم يقل إلا هذه الكلمة « إن البوذى ليس عبداً لبوذا ولا لأى كتاب ولا يضحى بحريته الفكرية بصيرورته تلميذاً لبوذا .. لو لم يقل إلا هذه الكلمة لأحالته المنزلة العليا من التقدير والإكبار . . . .

إن هذا الركام الهائل من المواريث والمعتقدات الخرافية لفى حاجة إلى أكثر من بوذا واحد . . . فقد تحجرت الفضائل والمثل حتى صارت قيوداً ثم تراكمت وانتشرت حتى أصبحت متاهات ومجاهل ضحيتها شىء واحد هو « الفرد المسكين » .

لقد ضاع الإنسان تحت هذا الركام المتراكم من المواريث . وتتلخص مهمة المصلح اليوم فى البحث عن هذا الإنسان الضائع وفى الطريق إلى العثور عليه يجب أن نضحى بكل شىء وأن يتخطى كل الحدود والسدود » . .

* * *

نعم . . . نحن اليوم لسنا فى حاجة إلى أوامر جديدة ونواه جديدة وإنما حاجتنا إلى التفاهم العميق والرغبة الصادقة المخلصة والحب والإخاء من الجميع حكاماً ومحكومين .

بقى الآن السؤال الأخير :

كيف السبيل إلى تطبيق هذه القيم تطبيقاً عمليا ؟

والجواب أن تؤلف منذ الآن رابطة يطلق عليها (رابطة الجزاء الذاتي) ينتسب إليها المؤمنون بهذه القيم ويقومون بالدعوة لها بالقول والعمل وبذلك تقوم بعملية امتصاص لبقية أفراد المجتمع.

وحينما تصير قيماً اجتماعية يؤمن بها المجتمع وينفذها أو قطاع كبير منه تبدأ هذه الرابطة فتبشر بها على نحو عالمي وهو واجب لا يقل لزوماً عن التبشير بها في مجتمعنا الخاص .

فكما أن الإنسان الفاضل لا يستطيع أن يمارس فضائله في مجتمع منحل بل تظل في حالة كمون يشقى بها إذ لا يستطيع التنفيس عنها فهكذا مجتمعنا بالنسبة للعالم . لا يهنأ بهذه القيم أو يسعد بها ما دام العالم يعيش في ظل المبادئ الحالية . لأن العلم الحديث ربط الأرض كلها برباط مادي يجعل من العسير على أمة ألا تتأثر بما يجري خارج حدودها .

ونحن نؤمن أن العالم الآن على استعداد أن يتقبل هذه الدعوى ويباركها بإخلاص عظيم .

وهو أمام تجربة فاصلة . فدعوة الحب والإخاء والتعاطف الإنساني في ناحية . . .

وفي ناحية أخرى ما استحدثه العلم من الأدوات الفتاكة المدمرة التي لو أطلقت من مكامنها فلن تذر على الأرض دياراً .

وسنرى . . هل بلغ الإنسان رشده أم لا يزال في دور الطفولة لا يستطيع أن يفرق بين الجمر والتمر . . . وهل يجذبه ظلام المادة أم صفاء الروح ؟ .

الجواب عند علام الغيوب .

المحور الحق

الإيمان

هذا هو المحور

من المؤلم المؤسف أن نجد المشكلة الاقتصادية تحتل مركز الصدارة من مشاكلنا المحلية والعالمية على السواء .

بل نرى بعض الدول قد أدمجت مشاكلها السياسية والاجتماعية والأخلاقية فى مشكلة واحدة هى مشكلة الاقتصاد وطبعت كل تصرفاتها بطابع اقتصادى .

ولذلك علينا الآن قبل أن ننهى هذا البحث أن نتعرض لوجهة النظر هذه وأن نلقى الضوء عليها ونضعها فى مكانها الحق وفاقاً لما قلته فى المقدمة من أن العالم لم يواجه محنة فى تاريخه أشد مما يواجهها اليوم من أثر الفلسفات المادية التى أصبحت تروج وتزحف وتحتل كل يوم موقعاً جديداً .

ولا أود — وإن كنت أمام بحث نظرى — أن أخرج إلى الشروح والتفاصيل والتعرض لوجهات النظر الأخرى بالرد. فليس المقصود عرض وجهات النظر والرد عليها — فهذا لا يتسع له المقام .

وإنما هى عرض وجهة نظرنا نحن . . من خلال تعرضنا لهذه الفلسفات .

وقد طلب منى بعض معارفى ألا أتعرض لمسألة الإيمان هنا ما دمت قد أردت أن يكون منهجاً عمليا عالميا للجميع بعيداً عن

اللجاجات والخلافات التى تجعل الكثير ممن يسيئون الظن بالأديان لا يقبلون عليه أو يقرأونه وفى نفوسهم بعض الريب والحذر .

ولكنى عزمت على أن أنشر رأيى كاملا ومنهجى واضحاً حتى لا أتهم بعد ذلك لو أبديت بقية رأيى أننى أقصد الملق والنفاق .

* * *

وعلى أى حال فهذا الفصل دراسى نظرى يعتبر مستقلا عن المنهج العملى الذى وضحته فيما سبق . . ولا حرج على من يخالفنى فيه أن نتفق معاً على تنفيذ المنهج العملى .

أما مسألة العقيدة الداخلية فلا سلطان لأحد عليها ولا تقطع ما بيننا وبين الجميع من أواصر الود والتعاون .

ورأيى الذى اهتديت إليه بعد شك طويل وتأمل أطول أن الإيمان بالله يجب أن يكون محور حياتنا الجديدة بعد تطبيق كل القيم التى قدمناها ... فالإيمان بالله فوق أنه فطرة الإنسانية عريقة فى الجنس البشرى وفى أعماق النفس الإنسانية إلا أنه ضرورة عقلية كذلك . وسبيلنا إلى إثبات هذا هو المنطق العقلى وحده فلا ضغط ولا إكراه وسنحقق بهذا أول تجربة لمبدأ (الحق من طريق الإقناع) فى هذا الموضوع الضخم العميق .

وقبل أن نبدأ سنجد أمامنا هذا السؤال . . .

* * *

كيف تقطع أن الإيمان بالله فطرة إنسانية وضرورة عقلية مع ما نراه من انصراف الكثيرين عن الدين ومن بينهم فلاسفة كبار وعقول نشهد لها بالدقة والعمق والحصافة ؟ وبم نعلل عزوف نفر كبير من أصحاب الهمم العالية والنفوس الكبيرة . بل الأخلاق المستقلة عن الأديان ؟ إن العالم لم يصل إلى درجة من العلم والمعرفة والثقافة أرفع مما هو الآن ومع ذلك لم تواجه الأديان محنة وهجوماً أشد مما تواجهه هذه الأيام .

وجوابي أنني سأفصل ما أجملته في المقدمة . من أن الفلسفة المادية ترتكز على دعامتين هامتين هما : الإيمان المغرور بالعلم . والاستغلال بنوعيه المادي والمعنوي . أما الإيمان المغرور بالعلم فهو قسمان قسم يبحث في نشأة الأديان ويعللها وقسم زلزل إيمانه كشوف العلم إلى درجة تقارب الخيال . القسم الأول يتحدث بلا سند علمي وإنما هو استنتاج سماه علما ولو كان علماً حقيقيا له حصانة قوانين العلم لما اختلف علماء الاجتماع مع علماء النفس وعلماء التشريح مع علماء التاريخ . فمنهم من يروي لك علمه في نشأة الدين على خوف الإنسان الأول من الكون والعجز عن تفصيل ظواهره والرغبة في التقرب إليه ومنهم من يصور نشأته بالأحلام التي رآها الإنسان الأول لبعض ذوي قرباه من الأموات فخيل إليه أنهم أحياء في عالم آخر فأكبر شأنهم ومجدهم وانتقل بعد هذا إلى تأليههم بل تطرف بعضهم إلى حد القول : إن الإنسان لما ابتكر اللغة وأطلق أسماءها على الظواهر الكونية

الكبرى كالشمس والقمر ورآها تتحرك شرقاً وغرباً وجعل يقول أشرقت الشمس وغرب القمر اعتقد أن لها روحاً تحركها إلى آخر هذا التخبط الذى لا يؤيده دليل قوى . . . دع عنك ما يقوله علماء النفس من شعور الإنسان بالضعف أمام قوى الكون المجهولة ولما كان يحتمى بأبيه وهو صغير فإنه لما يكبر يجد هذه القوى لا تزال مجهولة ويحار فى تفسيرها وهو كبير أيضاً فيحس بحاجته إلى الحماية وإلى قوة ينشدها كقوة أبيه فى المخاوف أو عندما تتعقد أمامه سبل الحياة فينشأ عنده وهم بإله قادر يكون له بمثابة الأب إلا أنه لا يدرى أن هذا وهم أو هو لا يريد أن يكشف هذا الوهم حتى لا تضطرب حياته .

وكذلك نظرية الطوطم وهو شعار القبيلة البدائية التى يرسمها أفرادها بالوشم على أجسادهم لاعتقادهم أن هذا يجلب لهم الحظ ثم بعد ذلك يرفعونه شيئاً فشيئاً على مدى الأجيال إلى مرتبة الألوهية .

وغير ذلك كثير من هذه الاستنتاجات التى تقوم على الفروض لا غير . ولا تتفق فيما بينها على تعليل واحد ولسنا ننفى أن كل هذه الفروض حدثت أو يمكن أن تحدث وإنما تعليلنا لها هو أن التدين فطرة عريقة فى الجنس البشرى وفى أعماق النفس الإنسانية كما بينا . ولم تكن هذه الاستجابات الساذجة إلا تمهيداً لنشوء الاستعدادات التامة لإدراك معنى الدين الصحيح .

* * *

وأما القسم الثانى فراح يتيه بما وصلت إليه الإنسانية من كشوف ومخترعات ومن انتصار على حل ألغاز الطبيعة التى كانت سرا مغلقاً على الأقدمين فأعرض عن كل ما لا يدخل تحت الميكروسكوب أو المعمل أو المعادلات التى اكتشفها ونظمها العلم الحديث .

ونحن بدورنا نسأل ماذا صنع الإنسان بعد هذا الرقى العلمى ما مبلغ جهده ما نهاية ابتكاراته إن مبلغ جهده فى هذا السبيل أنه اكتشف أنظمة موجودة ولم يخلقها . وكلما ازداد الإنسان علماً وكشفاً لهذه القوانين وجد ما هو أدق وأعجب مما وصل إليه . فالكهربا لم يخلقها أديسون وتابعوه وإنما كل جهدهم أنهم اكتشفوا قوانينها أما هى فموجودة فى هذا الرحاب قبل ملايين السنين وقس على ذلك كل ما وصل إليه الإنسان وما سيصل إليه من كشوف .

فلا يتبجح الإنسان بما وصل إليه من علم ويدعى أنه اكتشف قانون الحياة وسر الوجود فمبلغ علمه مما لم يعلم كقطرة من بحر أو ذرة من فضاء وهذا بشهادة العلم نفسه .

والحقائق العلمية والتاريخية لا تعطينا الدليل القاطع على أنها تسير بذاتها ولذاتها ولا يستطيع أحد أن يجزم بذلك .

فإذا كانت كل عظمة الإنسان وعبقريته لا تتعدى دائرة اكتشاف ما هو موجود بل شيئاً ضئيلا جدا مما هو موجود فيدعى بغروره أنه عظيم أو إله وأنه سيصل إلى كشف كل شىء ولا عيب

أنه الآن فى الطريق . ونحن لسنا ممن ينكر على الإنسان عظمته بل لعل أحداً لم يشرف عليها فيراها بعين البصيرة حافلة بآيات الإعجاز مليئة بالأسرار كما نراها . وليست هذه الدعوى التى فصلناها سابقا إلا للفت نظره إلى تلك الكنوز الهائلة بداخل النفس التى شغل عنها بالكنوز الخارجية . ولكنها ليست فى موقف المقارنة بين عظمته وعظمة الله أو فى موقف المقابلة بين عظمة الخالق وعظمة المخلوق .

لنفرض أنه وصل إلى كل شىء واكتشف كل الأسرار الموجودة فسيبقى شىء وراء تفوقه ووراء نبوغه وهو خلق ما لم يوجد .. . وهذا ما لا يستطيع . . .

(إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) .

ومع ذلك فنحن نسأل . . .

هل يستطيع الإنسان أن يدبر الكون بطريقة أعظم مما هو عليه الآن . . هل يمكن أن يبتكر نظاماً جديداً لدورة الليل والنهار وشروق الشمس وغروبها وتعديل محور الأرض أو موقعها على هيئة أكثر دقة مما هى الآن أو وضعها فى مكان أنسب مما هى فيه بالنسبة للمجموعة الشمسية ؟ . . .

وما لنا نبحث فى هذا كله . . لنعد إلى الإنسان نفسه . من سواه على هذه الصورة المعجزة جسداً وروحاً فالإنسان

أعجب ما صنع الله وأبدع مخلوقاته، من ركب فيه هذا العقل الطلعة الذى لا يستقر ولا يهدأ، ولا يكف عن الشغف بكل جديد ؟ من ركب فيه هذه العواطف السامية . . من أودع فيه هذه الروح ؟ من زوده بإنسانيته المتكاملة التى أحالت الوجود إلى كل هذا الجمال والنظام ؟ . هذا الإنسان بكل عظمته وإعجازه هل جاء أيضاً عفو الصدفة أو وفق قوانين لا منظم لها ... فالذين تشيعوا للإنسان حتى ألهوه .. هل يرضيهم أن يكون وليد صدفة أو نتاج مادة . فمن يؤلهون المادة عن علم أو عن غير علم أن ينظروا إلى الإنسان نفسه لا أن يتخبطوا فى التفاصيل من معميات التاريخ التى ليس لها مستند علمى صحيح والذين لا يؤمنون إلا بما يرونه ويحسونه أو من خلال المعادلات التى تجرى فى معاملهم هم أولى الناس بالتبشير بوجود الله لأنهم أكثر اطلاعاً على أسرار الكون . فالعلم لا ينقض الإيمان بل يسانده . إن لم يكن أقوى سند له . وكثير من العلماء الأفذاذ كان العلم الذى يمارسونه من أقوى الأسباب التى هدتهم إلى الله والإيمان به كأقوى ما يكون الإيمان .

فمسألة إثبات وجود الله قررها العلم ببحوثه وهو يتخطى طوراً من بعد طور فيجد نظاماً إلى نظام أعجب وأكثر دقة وإحكاماً .

وقررته الملاحظة الدقيقة الواعية لكل ما فى الكون من أسرار معجزة وعلى رأسها الإنسان . ولا يستساغ أن يكون هذا

النظام الذى يشمل كل ما فى الكون من ذرات وأفلاك وأجرام وينتظم كل ما فى الوجود على نسق واحد وإنما جاء من وحى الصدفة أو من غير تدبير من إله حكيم قدير .

* * *

أما الاستغلال بنوعيه : المادى ، والمعنوى وهو يتلخص فى سلب القوت والفرص المتكافئة للرزق أو سلب الحرية باسم الأعذار الكثيرة التى يطلقها الطغاة كالحرص على النظام أو مصلحة الدولة العليا وغيرها أو هو بمعنى أوضح فساد النظام الاقتصادى أو فساد النظام السياسى . فأحد الأسباب الهامة التى ترتكز عليها الفلسفة المادية لتبرر قيامها . . .

* * *

ذلك أن المتدين يشعر عادة بصلة نفسية تربطه بالله القوى القادر وحينما يشتد عليه الظلم ويطول مداه ويتضرع إلى الله أن ينقذه ومع ذلك لا ينزاح عنه ظلم الظالمين . يبدأ عقله يتشكك فى وجود الله لأن الله لا يرضى لعباده الظلم . لاعتقاده أنه ما دام متمسكاً بالله فإن الله يتولى عنه رد الظلم ويساعد على ذلك أن يبدأ الصراع بين الظالم والمظلوم فيتخلى كلاهما عن الرحمة وما يماثلها من الشمائل الإنسانية كل فى سبيل وجهته . فيكونون بذلك فى درجة هى إلى الحيوانية أقرب . وسيصرفهم الصراع عن إشباع العقل بالثقافة وإشباع الوعى بالتأمل وإشباع العواطف السامية بالتودد فيكون ذلك جميعه عوناً للفلسفة المادية التى

تنادى بخرافة الإيمان بالله .

ولذلك فسيكون هذا المنهج العملى الذى قدمناه لتخليص الإنسان من الاستغلال الاقتصادى والاستبداد السياسى من أهم الدوافع التى تعيد الفرد إلى حظيرة الإيمان بالله ولإشراق نوره عليهم من جديد .

وهنا سبب ثالث نراه لا يقل خطورة عن سابقيه وهو تصرف رجال الدين وسلوكهم فى الحياة وجوابه أن الخلط بين مبادئ الدين نفسه وبين سلوك رجال الدين لا مبرر له ولا ذنب للدين فيه . فالدين قد حض على مكارم الأخلاق ووعد العاملين بها بالجنة . وتوعد المخالفين بالنار فى الدار الباقية . فإذا استهان بعض رجاله بهذه الأوامر والنواهى فلا يتخذ ذلك حجة على الدين نفسه فهم بشر كسائر البشر وكونهم يقولون ما لا يفعلون لا يجعلنا نقللهم فى أعمالهم ونضرب صفحاً عن التعاليم السامية التى يبشرون بها . كما أن هؤلاء ليسوا أصحاب دعوة وإنما هم محترفون أى أنهم يؤدون عملهم الوعظى وهو وظيفة لا رسالة وقد لفت نظرنا القرآن لأمثال هؤلاء بقوله «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون» .

وهناك شىء آخر وهو أن بعض الناس يظن أن رجل الدين يجب أن يكون كاملا كمالا تاما من جميع نواحيه وأن يكون فاضلا فى كل تصرفاته جميعها . ولكن الحقيقة أن الفضائل أكبر من أن يحيط بها فرد واحد مهما يكن ذلك الفرد من

النبل والسمو ونقاء الفطرة . كما أن الفضائل درجات يعلو بعضها بعضاً فلو اتصف رجل الدين ببعضها وتخلى عن البعض لا ينظر الناس عادة إلى فضائله التى يتحلى بها وإنما يركزون كل أنظارهم على نقائصه أو ما يخيل إليهم أنها نقائص على حين لا تكون هى كذلك . بل قد تكون وسيلة إلى فضيلة أعلى .

وأنا أعترف أن من بين الأسباب الهامة التى جعلتنى قبل ذلك أتشكك فى الدين إنما كان مواقف بعض رجاله نظراً لجمودهم العقلى أو لبعض تصرفاتهم . وحينما حالت القيم الدينية فى نفسى لم أبتعد عن الفضائل الدينية وإنما رسخت فى نفسى كقيم خلقية لا غير . أؤديها كإنسان يحترم إنسانيته حتى ولو لم يترتب عليها الجزاء الأخروى الموعود . وكنت أعتقد أن صلتى بالدين هى صلة الجزاء وحده .

ولذلك لما رأيت أنى لا أستطيع أن أتخلى عن فضائلى حتى ولو لم يكن هناك وازع دينى رأيت أنى قد نفضت يدى من الدين نهائياً إلى أن طاف بذهنى هذا السؤال الخالد : « من خلقنى» ؟ من أودع فىّ هذه القوى المعنوية كالعقل والخلق والعاطفة ؟من نظم الكون هذا التنظيم المحكم؟ ولم يكن جواباً لهذا السؤال الأبدى إلا أن يكون الله القوى المقتدر واجب الوجود الكامل فى كل شىء وليس كمثله شىء هو الذى خلقنى ونظم هذا الكون الهائل حتى وجدتنى أعود ثانية إلى هذا المرفأ الأمين.

* * *

والإيمان بالله يستتبع الإيمان بحياة أخرى بعد الموت . . . ونستطيع بالبرهان العقلى وحده كذلك أن ندلل عليها على الوجه الآتى :

لو فرض أننا سألنا خلية حية إبان تلاقحها – إن كان لها عقل يسأل – هل فى الإمكان أنك ستكونين بعد شهور جنيناً إنسانياً متكامل الخلقة . لكان الجواب بالدهشة والاستغراب . ولو سألنا الجنين فى بطن أمه – ولنفرض أن له وعياً يدرك – هل تظن أن هناك عالماً أوسع من هذا العالم الذى توجد فيه ؟ لأجاب مؤكداً : أنه لا يمكن أن يكون هناك عالم أفضل . ودليلنا على هذا أنه حينما يغادر مقره يستقبل هذا الوجود الرحب بالبكاء .

فهذه العناية الخفية التى حدبت على الخلية الأولى فى الأصلاب والترائب ونمته جنيناً فى بطن أمه من باب أولى أن ترعاه بعد أن يبلغ هذا المستوى العالى من النمو والاهتمام ولذلك فنحن نسير مع المنطق الطبيعى إن آمنا أن بعد هذه الحياة حياة أخرى أبعد فرقاً مما بين الخلية الأولى والجنين فى بطن أمه وأوسع مدى مما بين الجنين والإنسان فى عنفوان رجولته وشبابه . ولا بد أن يكون أكمل من هذا العالم الملىء بالمتاعب والحسرات والآلام .

وقد يقول قائل : إن النبات والحيوان يشاركنا فى النشأة والنمو ولكنه يفنى . . وهنا يجب أن نفرق فى هذا المجال بين الوسائل والغايات . فالنبات والحيوان وسيلة الإنسان لحياته على هذه

الأرض أما الإنسان الذى ركب الله فيه هذه الروح والخلق والعقل فهو غاية فى ذاته لهذه الخصائص الإنسانية وإلا فلأى شيء يكون الإنسان وسيلة ؟ . . فإذا أدركنا أنه لا يمكن أن يكون وسيلة ثم نفينا بعد ذلك أن يكون غاية فإن وجوده سيكون عبثاً . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ومع إيماننا الكامل بالله وملائكته وكتبه ورسله والحياة الأخرى إيماناً قائماً على العقل والمنطق إلا أننا نعرض هذا الرأى ولا نفرضه فإكبارنا للعقل جعلنا نضع فى صلب المنهج العملى مبدأ الحق من طريق الإقناع .

فترابط العقل والخلق والإيمان هو الذى يصعد بالإنسان إلى قمة السمو والسعادة بل إن إنسانيته الحقيقية لا تتحدد إلا بترابط هذه القوى الثلاث .

فإيمان وخلق بغير عقل : لا قيمة لهما بل لا يتصوران أصلا . . .

وعقل وإيمان بغير خلق : لا يفيدان المجموع فلا قيمة لهما كذلك .

وخلق وعقل بغير إيمان : لا يسموان بالإنسان إلى المدى المستطاع . .

إذاً فقيمة هذه القوى أن تترابط لتؤدى دورها معاً حتى تحقق الكمال المنشود . والعالم اليوم ينقسم إلى طوائف ثلاث .

١ــ أخلاقيون . يؤمنون بالله وبالأديان . . .

٢ ـ أخلاقيون لا ينتسبون إلى دين . . .

٣ ـ لا أخلاقيون . . سواء منهم من ينتسب إلى دين ومن لا ينتسب إلى دين .

ومقصدنا الآن أن نحقق وحدة العالم على أسس خلقية . . ولذلك فمن واجب الأخلاقيين أصحاب الطائفتين الأوليين أن يتعاونوا معاً لبناء هذا العالم المأمول سواء منهم من آمن بالله أو من لم يؤمن ما دام كلاهما يقدس الغاية الأخلاقية .

ولا يكون سوء ظن الأخلاقيين بالمؤمنين بالذى يشككهم فى جدوى هذا التعاون . فقيمة الأخلاق عند المؤمنين أنها لاتعمل على إسعاد المجتمع فحسب، ولكنها قبل ذلك تقرب الإنسان إلى الله، والله مطلع على الضمائر وفى هذا ضمان أكيد ألا نتخلى عنها .

وكذلك لا يكون عدم إيمان الأخلاقيين بالله سبباً فى فصم عرى التعاون عند المؤمنين فإن الأخلاقى الذى يحترم إنسانيته، ويترفع عن الصغائر والنقائص بدافع داخلى دون انتظار جزاء لا ينقص من قدره فى دائرة النشاط الجماعى أن يؤدى دوره كاملا . وقد يكون فى تحلى المؤمنين بالأخلاق الكريمة وتعاونهم معه ما يجعله يعود إلى منطقة الإيمان ... والله تعالى يقول: « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » . .

وسيكون أولى ثمرات هذا التعاون أن يضيق الخناق على المنحلين ومن يتبجحون بالإلحاد ليداروا نقائصهم باسم الثقافة أو حرية الفكر . . . أو التقدمية . . .

* * *

وهنا يعترضنا سؤال آخر . . لقد أسهبت فى الحديث عن الإيمان وتركت المشكلة الاقتصادية جانباً . مع أنك افتتحت هذا الفصل بأن المشكلة الاقتصادية هى المشكلة الرئيسية فى عالم اليوم عند الجميع والجواب أنى بعد هذا الذى بينت لا أرى أنها مشكلة بالمرة ... إنى أعتقد أن هذه المشكلة ما كانت لتوجد أصلا إلا لما تخلينا عن القيم المعنوية . .

وهنا يعترضنا بقية السؤال الأول . . .

كيف تقولوا بتحقيق القيم المعنوية قبل أن تحل المشكلة الاقتصادية .. إن هذا كمن يضع العربة أمام الحصان . . فالجائع لا يستطيع أن يتمتع بالإيمان والخلق والعقل إذ الجوع ينفى كل هذا فمن واجب الدولة أن تقف كل جهودها على حل المشكلة الاقتصادية حتى يوفر المستوى المادى المناسب للجميع وبعد ذلك يمكننا أن نتطلع إلى الآفاق المعنوية . أى أن مطالب الجسم أولا ثم مطالب الروح . .

والسؤال وجيه لا شك فى ذلك . وجوابه :

إننا لا نمانع أن تنفق الدولة بعض جهودها لعلاج المشكلة الاقتصادية، ولكن ما نمانع فيه هو أن تستنفد كل جهودها . على أن دعوتنا إلى تطبيق هذه القيم موجهة إلى الجماعة أولا لا إلى الدولة . . . كما أننا لا نطالب هؤلاء الذين شاء لهم الحظ

العاثر أن يوجدوا فى السفح الاقتصادى والعلمى ليشاركوا فى البناء، فهؤلاء لا يملكون ما يشاركون به، ويكفينا منهم الموقف السلبى والنية الطيبة وغيرتهم الظاهرية على الدين والأخلاق، ولكن دعوتنا موجهة بالذات إلى هؤلاء الذين أوتوا بسطة فى العلم والمال أن يقوموا بواجبهم لا أن يقفوا موقف المتفرج بلا مبالاة وقد توفر لهم كل شيء فتقصيرهم خيانة لأنفسهم ولإنسانيتهم ولا يعقل أن نقول لأمثال هؤلاء انتظروا حتى تفرغ الدولة من حل مشاكلها الاقتصادية وبعد ذلك اعملوا على تطبيق المبادئ الخلقية .

فالاشتراكية الاقتصادية ليست حلالة العقد كما يتصورون، وإنما الاشتراكية الخلقية هى التى يمكن أن تنهض بهذا الدور عن جدارة ويقين . ومفرق الطريق بيننا وبينهم أنهم يعملون بكل قواهم ليصل من هم فوق فى المستوى الاقتصادى إلى تحت . أما نحن فنعمل بكل قوانا ليصل من هم تحت فى المستوى الأخلاقى إلى فوق . . .

وهم يحاربون النقائص النفسية بإلغاء أسبابها، ونحن نحاربها بالجهاد والمثابرة للتفوق عليها، ونرى أن الحياة لو مضت هكذا بلا جهاد للروح فإن يوماً واحداً يغنى عن ملايين السنين .

وهم يريدون أية حياة مهما تكن هابطة ما دامت فى ظل المساواة . ونحن نريدها حياة سامية عزيزة جديرة بكل ما راح فى سبيلها من جهود الأنبياء والمصلحين، وما ضاع من أرواح

الشهداء والضحايا على مر العصور فى كل مكان .

وما دمت قد أعلنت موقفى صريحاً من الإيمان فسأستشهد بسورة قصيرة من القرآن الكريم هى سورة العصر يقول الله تعالى: « والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » وهنا نجد أن هذه السورة القصيرة قد جمعت كل مقومات الإنسانية الحقيقية فى أبلغ صورة وأوجز عبارة . . .

فالإيمان وهو الفضيلة الإنسانية العليا . . .
والعمل الصالح أى ما مجاله الخلق . . .
والتواصى بالحق أى ما مجاله العقل . .

والتواصى بالصبر فى سبيل خير الجميع وهو هنا يعتبر مرادفاً لكلمة الحب لأنه صبر فى سبيل الجماعة فالصبر نوعان: صبر فردى كالصبر على الطاعة والصبر على المصيبة والصبر على المعصية . وصبر جماعى وهو أن تتحمل الإيذاء فى سبيل الحق والخير للجميع . وهو هنا يفسر بمعنى الحب لأنه لا شىء يحملك على احتمال الأذى فى سبيل الغير إلا الحب. فما أعجب أن نجد أنفسنا فى سورة واحدة صغيرة لا تتعدى سطرين اثنين أمام كل الفضائل التى نادينا بها فى منهجنا العملى وزادت عليه فضيلة الإيمان وليس هذا وحده . . .

ولكنها تشير كذلك إلى ناحية علمية سامية يجب علينا إبرازها . . .

فلم تكن الصياغة للمفرد كأن تقول والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذى آمن وعمل صالحاً وتمسك بالحق والصبر. إذ لو كانت الصياغة هكذا لحددت صفات الإنسان المثالى ولم تحدد صفات الحياة المثالية .

فالإنسان الذى يتصف بكل الفضائل السابقة لا يكون مثاليًّا حقًّا إلا فى مجتمع على شاكلته يتحلى بهذه الفضائل وإلا فستكون فضائله أكبر جناية عليه ،لأن الفرد الذى يود أن يعيش فاضلا فى مجتمع غير فاضل سيتهم هو نفسه بأنه غير فاضل ولا يتركه المجتمع المزور الزائف يمضى فى طريقه فيترصده بالإيذاء والتحقير والابتعاد عنه وتسفيه رأيه فلا يكون أمامه إلا أحد أمرين : إما أن يتخلى عن مثله ويندمج مع الجماعة ، وإما أن يظل متمسكاً بها أميناً عليها ،فلا يشارك مجتمعه فى فكر أو شعور ،ولا يسأم كذلك من إيذائهم وتكون نتيجة هذا كله أن يحس بالغربة الدائمة فيزلزل عقله ويصيبه الخبال . . .

فالأخلاق الجماعية أو المثل العليا التى تقدسها الجماعة هى التى تصوغ الأفراد وتشكل سلوكهم فإن كانت صالحة صلح الفرد،وإن كانت فاسدة فسد تبعاً لها . ومن هنا نلمح أثر التربية التى تقرها الجماعة الصالحة . فالدوافع قوة عمياء لا تؤدى عملها على أفضل وجه إلا بالتربية الصالحة وما تواضع عليه المجتمع الفاضل من نظم وقيم . . ولنتصور مثلا دافع حب

الاستطلاع كيف يكون خطره إن لم يدرب الناشئ منذ حداثته على البحث المنطقى عن الحقائق العلمية والفلسفية، وعلى النظرة المستنيرة إلى حقائق الوجود عن طريق محاكاة من هم أكبر منه وأقدر، وما خلفه السابقون من تراث علمى وفنى وأدبى، وإلا فستنصرف طاقته إلى الكشف عن نقائص الناس وتتبع عوراتهم وما شاكل ذلك .

فالتربية الصالحة والبيئة الفاضلة تشكل الدافع وتسمو به إلى أعلى قدر مستطاع من الإنسانية وكذلك غريزة الجنس ينظمها المجتمع بالزواج والاقتناء ويكيفها النظام الاقتصادى وهكذا . . .

فالفرد يولد عادة بفطرة بريئة وما يلوث هذه الفطرة إلا سوء التربية أو انحلال البيئة وهنا نجد أنفسنا أمام فكرة مسئولية الجماعة التى طالما تشدق بها أنصار الماركسية وظنوا حينما توصلوا إليها أنهم وضعوا يدهم على العلة الرئيسية، التى لم يسبقهم إليها سابق مع أننا رأينا الآن أن القرآن الكريم صاغها كاملة منذ أربعة عشر قرناً .

ولكن ما أبعد الفرق بين المنهج السامى الذى رسمه القرآن للجماعة، والغاية النبيلة التى دعا إليها وحددها عن طريق القوى المعنوية، وبين الأسلوب الوضيع والغاية المسفة التى تطلع إليها الماديون الاقتصاديون، فالمشكلة الاقتصادية عقدناها نحن بأيدينا بتخلينا عن الفضائل العليا، وبعد ذلك رحنا نلتمس لها الحلول

كمن يصنعون أصناماً ثم يخرون لها ساجدين .

ولا شيء يجعلنا نستمسك بعروة الإيمان أكثر من أن نراه خاصة إنسانية . فالحيوان يشاركنا فى الصفات الإنسانية العليا كالإدراك والخلق والإحساس بالجمال وإن كانت على نسب محدودة أو ضئيلة إلا أنها موجودة فعلا فلا يمكن إنكارها . أما الشيء الذى هو إنسانى محض فهو التدين . ولذلك فإنا نرى أحدث تعريف للإنسان أنه حيوان متدين . بدل أن يقال حيوان ناطق أو ضاحك . وإن كنا نرفض هذا التعريف هنا .. لأنه ما دام التدين خاصاً به وقفاً عليه فإنا نطلق عليه كائناً متديناً تمييزاً له عن وصفه بأنه حيوان وتكريماً لإنسانيته .

* * *

نعتقد الآن أن هدفنا قد أصبح واضحاً تماماً وهو العمل على إيجاد حياة مثالية عن طريق مجتمع يطبق القيم التى قدمناها فى منهجنا العملى على أن يكون الإيمان بالله هو المحور المختار ...

وتصميمنا على أن يطبقها المجتمع كله لا بضعة أفراد منه هو إيماننا أنه كلما زاد عدد المنفذين لها قلت مشقتها فإذا طبقها المجتمع كله أضحت عملا عادياً يسيراً لا كلفة فيه ولا معاناة .

ودليلنا على هذا موقفنا من مذهب « كانت » الأخلاقى . وكانت لم يكن فيلسوفاً عادياً أو حتى مفكراً عبقرياً ، وإنما هو عقلية فذة يعز نظيرها فى تاريخ البشر بشهادة الجميع .

وإلقاء نظرة على فكرتنا وفكرته الأخلاقية يوضح هذا

بما لا يدع مجالا للشك بعده . فنحن نختلف في ثلاث معه نقط رئيسية .

أولا : هو يرى أن آية الفعل الخلقى أن يكون مطلقاً غير مشروط . . هذا صحيح . . ولكنه يرجعه إلى النزاع الذى يقوم بين الواجب والشهوة أو بين العقل والهوى وأنا أرى كذلك أن الفعل الخلقى مطلق ولكنه يستند إلى الجزاء الذاتى لا إلى الصراع الذاتى . . .

ثانياً : اضطر لتبرير مذهبه أن يقيمه على أسس ميتافيزيقية كخلود النفس ووجود الله لأنه رأى أن العناء الذى يكابده الأخلاقى فى هذه الحياة لا يجد ما يكافئه من الجزاء فيها . ولابد أن ينال جزاءه فى الحياة الأخرى والله العادل يتولى جزاءه هناك .. وأنا وإن كنت أتفق معه على الحياة الأخرى إلا أنى أرى أنه إذا سادت القيم الاجتماعية الفاضلة فإن الإنسان يسعده جداً أن يفعل الواجب ويجد فى قيامه به الطمأنينة كفاء ما قدم حتى ولو لم تكن هناك حياة أخرى . . .

إننا لو خلقنا مجتمعاً فاضلا فستكون النتيجة كالآتى :

العمل الخلقى =

$$\frac{\text{تقدير المجتمع + مسايرة القانون + احترام الذات + الثواب}}{\text{الأخروى}}$$

العمل غير الخلقى = استهجان المجتمع + جزاء القانون + احتقار الذات + العذاب الأخروى. أى أن المجتمع الذى تسوده قيم

فاضلة تتعاون المثوبات كلها مع الفرد لحساب الفضيلة .

وكذلك تتعاون عليه العقوبات كلها إن اتجه ناحية الرذيلة ومن هنا ينعدم الصراع لأن الصراع ينشأ نتيجة اهتزاز القيم وغموضها فى نفس صاحبها بالنسبة لانحلال المجتمع أما إذا التف المجتمع حول مثل أعلى فلا اهتزاز ولا غموض .

ثالثاً : أنه لما بنى أخلاقيته على أساس الواجب المطلق أكد أن الأفعال غير الخلقية يؤدى إليها دائماً حافز غريب عنها بينما الأعمال الخلقية تحمل فى ذاتها مبرراتها بصرف النظر عما يترتب عليها من نتائج وآثار . . .

وأنا أرى أن الأخلاقية تبنى على الحب لا على الواجب ولذلك فيمكن أن يدخل فى العمل الخلقى حافز غريب عنه ليصحح آثاره ومع ذلك يبقى عملا أخلاقيا . على شرط أن يكون أساسه الغيرية لا الأنانية والحب للغير لا لمصلحة شخصية كما بينت ذلك فى فصل الحب عن أهمية الباعث بالنسبة للقيمة والغاية .

* * *

فكانت لم يتطلع مثلنا إلى مجتمع يقوم على الحب ويعمل على إيجاده ، ولكنه نظر إلى واقع المجتمع الأنانى الذى يعيش فيه وبنى مذهبه الأخلاقى المثالى لحفنة قليلة ممن أوتوا حظا عالياً من السمو العقلى والخلقى ليمارسوه كرياضة عنيفة وبطولية عالية فيكونون أشبه ببهلوانات السيرك أمام المتفرجين .

ونحن نرفض هذه الأخلاقية التى يريدها كانت وأضرابه من العقليين ... نرفضها باسم الأخلاق نفسها لا لشىء آخر، فمعظم هؤلاء يمارسون أخلاقيتهم تفاخراً لا رغبة، وفى المجتمعات المنحلة تجد هذا الطراز من البشر يحدثك عن ترفعه ومثاليته بكثير من الغرور والإعجاب بنفسه ويخيل إليك أنه يدل بهذه الأخلاقية كما يدل الغنى بماله والعظيم بمركزه وجاهه وتحس أنه يتمنى دوام الحال هكذا حتى لا يرتفع إلى مستواه الأخلاقى أحد ليظل له تفوقه وامتيازه . إننا نطلق على هذا الصنف « أنانيين أخلاقيين » إن صح هذا التعبير . وعلى ذلك فهم لا أخلاقيون فعلا وإن كانوا فى ظاهر الأمر فى القمة العليا من الأخلاق ولا قيمة لعملهم هذا ما لم يعملوا على تعميمه وانتشاره .

وأصدق مثل لهذا موقف بضع مئات من الأسر المحافظة فى مدينة كمدينة القاهرة . . . إنك لتجلس مع الواحد منهم فتراه يقيم الدنيا ويقعدها شكوى من سوء الحال واستهتار النساء والتبرج والانحلال وما شاكل ذلك . ليقودك بعده إلى حديث عن أسرته واحتشام نسائها وبناتها وأنهن يعشن فى القاهرة كما يعيش أترابهن فى أعماق الريف فلا خروج إلا بإذن وتحت وصاية وفى أضيق الحدود، ولا اتصال بجيران أو معارف حتى لا يصابوا بالعدوى من هذا الفساد المستشرى الذى لا أول له ولا آخر، وهم بمسلكهم هذا واهمون . . . فالذى يحدث فعلا من وراء ظهور أكثرهم عكس ذلك تماماً لأن هذا الفسا

المستشرى لن يتركهم فى عزلتهم وإن هم تركوه فسيمتد إلى داخل هذه الأسر عن طريق خادمة أو صديقة أو ما شابه ذلك من عشرات الحيل الشيطانية التى يجيدها المفسدون . كما أن نساء مثل هذه الأسر إذا سقطن ولو مرة واحدة فستكون السقطة التى لا قيامة بعدها .

ولقد رأيت بنفسى بعض أوغاد الشبان يتآمرون على مثل هذا الصنف من الفتيات والنساء ويعقدون المباريات والمراهنات للعمل على سقوطهن والفوز بهن . وقد تجد الواحد منهم له علاقة بأكثر من فتاة ولكنه لا يفاخر إلا بعلاقته بهذه بالذات التى يظن الجميع أنه شيء مستعص أو بعيد المنال .

وأمر من ذلك وأدهى لو وقع فى يد واحد من هؤلاء أثر لها كرسالة أو صورة ممهورة بإمضائها فسيستذلها بها مدى الحياة وقد تكون السقطة هذه والفتاة غضة السن فى دور المراهقة ثم تكبر وتخطب وتتزوج ومع ذلك يظل على تتبعها وهى لا تستطيع المقاومة لشعورها أن شرف أسرتها كله معلق بنشر هذه الرسالة أو هذه الصورة فتظل أمة مسخرة له ما لم يرتد إليه ضميره أو ينقذها الله منه عن أى طريق.. . ولو خيرت أنا بين الرذيلتين ــ إن كان فى الرذيلة خيار ــ لقلت إن التى تمارسها هواية ومتاعا خير من التى تمارسها غصباً واضطرارا لأن هذه الأسر المتحررة التى تترك لفتاتها الحبل على الغارب يصادقن كما يردن لا يقدر وضيع أن يستغلهن هذا الاستغلال .

* * *

والخلاصة أن الحياة المثلى هى الحياة المتناغمة المتقاربة أخلاقيا وليست المنقسمة على ذاتها فقلة نادرة بلغت حد الاكتمال البشرى وقطيع كامل يعيش على وحشية القبيلة أو ما دونها .

وبذلك تحل مشكلة الاستبداد كما حلت مشكلة الاستغلال تطبيقاً لحديث الرسول : كما تكونوا يول عليكم. فإذا أتيح للجماعة أن تسمو إلى هذا المستوى فلن تكون هناك فرصة لمستبد أو طاغية لأنه لن يكون هناك وصوليون أو نفعيون يبررون المظالم ويشرعون أقلامهم للتفسيرات الملتوية لكل خطيئة يرتكبها مستبد أو غشوم .

ولذلك فحين قلنا فى المقدمة إن العالم يواجه أشد محنة فى تاريخه من أثر الفلسفات المادية كنا ندرك النتيجة التى سينتهى إليها لو لم يرفع رأسه عن الأرض ليتجه إلى السماء .

ولا خلاص للعالم اليوم من أزمته الراهنة إلا إذا سادت هذه القيم .

فعلى من يؤمن بهذه الرسالة واجب الإسراع فى تنفيذها مجتمعين لا فرادى ليحققوا لأنفسهم إنسانية كريمة عالية ولينقذوا العالم من الهاوية التى يوشك أن يتردى فيها . .

والله الموفق للصواب . . .

موضوعات الكتاب

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١

دار المعارف بمصر

تقدم إلى قراء العربية هذه الطائفة من الصور الاجتماعية الحية الطريفة على صفحات كتب سلسلتها الشعبية « اقرأ » :

- طرائف من الصحافة
- المعذبون فى الأرض
- رقيق الأرض
- الجدة الصغيرة
- أمير قصر الذهب
- وعى الشباب
- قصر الرشيد
- حبات المسبحة
- الجامحة
- عادات الزواج وشعائره
- شيخ التكية

دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع

يونيو ١٩٦١

الثمن ٣٠ مليماً
٣٠ قرشاً سورياً

اقرأ

محمد كامل حتة

الشاعر الشهيد
هاشم الرفاعي

دار المعارف بمصر

الشاعر الشهيد

هاشم الرفاعي

محمد كامل حته

الشاعر الشهيد
هاشم الرفاعى

اقرأ ٢٢٣

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٢٣ – يولية ١٩٦١

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – شارع كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

مقدمة

كان الأفق تكسوه حمرة قانية كالدم ، عند غروب شمس يوم الأربعاء الثانى من شهر يولية عام ١٩٥٩ .

وكأنما كانت الطبيعة تعكس فى تلك اللحظات ، صورة المأساة التى استشهد فيها الشاعر هاشم الرفاعى .. صورة الدم الزكى الذى تخضبت به حديقة النادى ، بعد أن سدد الجناة إلى قلب الشاعر طعنات غادرة !

وهكذا ودع هاشم الرفاعى الحياة . . .

ولم يكن الشاعر الشهيد قد جاوز الرابعة والعشرين إلا بقليل . . .

حياة قصيرة إذا قيست بالأعوام والشهور . . .

ولكنها حياة طويلة ، عميقة ، فسيحة . . بما زخرت به من مثل كريمة ، وتجارب مضيئة ، وشاعرية تضعه وهو فى سنه تلك بين أعلام الشعراء ؛ فكيف إذا امتد به الأجل فبلغ من العمر مبلغ أولئك الأعلام ؟ !

وبعد ، فهذه دراسة لحياة الشاعر الشهيد هاشم الرفاعى وفنه ، نقدمها تحية لذكراه الخالدة . . .

١

هذا شاعر جاء مع الثورة العربية الكبرى على ميعاد ، وكأنه ظاهرة من ظواهرها المضيئة على حاشية الأفق ، وصورة من وجدانها تمثل حقيقة مجنحة فى سماء القومية العربية .

مع إرهاصات الثورة كان مولد الشاعر[١] ، وفى بيئة عربية مؤمنة كان مرباه ، وفى إحدى المناطق التى كانت أكثر معاناة لنكبة الاستعمار والإقطاع كان مثار شاعريته ، وفى طلائع المعركة كانت بواكير فنه .

وهو إلى ذلك شاعر اهتدى إلى حقيقته ، وآمن بدينه ولغته وقوميته ، وحمل أمانته نحو فنه وأمته ، وملك أداة بيانه ، ثم انطلق يشدو ويحدو فى موكب البعث والبناء ، بألحان أصيلة المشاعر ، صادقة التعبير ، رائعة الأداء .

ذلك هو الشاعر الشاب الشهيد : هاشم الرفاعى . . .

ولهذا كانت الفجيعة فيه فجيعة أمة كانت تفتقد مثل هاشم الرفاعى فى خلقه ووعيه وشاعريته ، ليكون برهان هذه الأمة على أن فى شبابها هذا الطراز القوى المؤمن ، الذى لم يفتنه

---

(١) ولد الشاعر سنة ١٩٣٥ وهى السنة التى بدأت فيها إشعاعات الثورة فى نفس الرئيس جمال عبد الناصر — « كتاب فلسفة الثورة » .

عن دينه ولغته وقوميته ما تسلل إلى المجتمع واندس فى أعماقه من العوامل الدخيلة التى فتنت الكثيرين . . .

هذا الشباب الذى وصفه الشاعر فى صورة رائعة ، هى انعكاس لحياته ومبادئه فى الحياة :

شباب لم تحطمه الليــالى ولم يُسلم إلى الخصم العرينا
ولم تشهدهم الأقداح يوماً وقد ملأوا نواديهم مجونا
وما عرفوا الأغانى مائعات ولكن العلا صيغت لحونا
وقد دانوا بأعظمهم نضالا وعلما ، لا بأجرئهم عيونا
فيتَّحدون أخــلاقاً عــذاباً ويأتلفون مجتمعاً رزينـــا
فما عرف الخلاعة فى بنات ولا عرف التخنث فى بنينا
ولم يتشدقوا بقشور عــلم ولم يتقلبوا فى الملحدينا
إذا شهدوا الوغى كانوا كماة يدكون المعــاقل والحصونا
وإن جن المساء فلا تراهم من الإشفاق إلا ساجدينا

وكما كانت حياة هاشم الرفاعى من براهين هذه الأمة التى ردت إليها إيمانها بمقوماتها الأصيلة ، ومناعتها ضد ما حشد لها العدو على تعاقب عصور وأجيال من مؤامراته الظاهرة والخفية ، كذلك كان استشهاد هذا الشاعر فى باكورة شبابه ، برهان صدقه وإيمانه فى معركة القومية العربية ، وكانت دماؤه الزكية أروع ملاحمه وأخلد ألحانه . .

٢

فى بلدة « إنشاص » من إقليم الشرقية ولد هاشم الرفاعى عام ١٩٣٥ ، وكان أول ما صك مسمع الطفل يوم مولده أصداء ثورة الشباب فى سبيل الدستور ، وهى إحدى الانتفاضات الثائرة لضمير الأمة ضد الاحتلال وأعوانه، بذل الشباب فيها دمه . فكأنما كان مولده وقتئذ إرهاصاً بالصورة التى انطوى عليها ضمير الغيب لحياة هذا الشاعر واستشهاده . . .

ثم درج الطفل فى البيت الكبير ، فكان إذا وصل إلى بابه استرعى نظره ضريح جده الكبير السيد مصطفى الرفاعى ، وهو من أقطاب التصوف على عهده ، تخرج فى الأزهر وصار من علمائه ، وله مؤلفات فى التصوف والفقه والأدب ، وكان يقول الشعر وله فيه ديوان مخطوط .

وكانت أسرة الرفاعى فى إنشاص تتوارث ريادة التصوف والفقه والأدب ، وتجتمع لها من ذلك صورة للدعوة الدينية المستنيرة . وكذلك كان جد الشاعر وسميه السيد هاشم ابن السيد مصطفى الرفاعى ، فقد تلقى العلم على والده فى الأزهر ، ثم تولى مشيخة « الطريق » بعد أبيه ، وكان له تلاميذ ومريدون فى مختلف الأقاليم : فى الشرقية ، والدقهلية ، والقليوبية ،

والغربية ، والصعيد . وكان يطوف بهذه الأقاليم يفقه الناس فى الدين ، لا ينزل ببلد من بلادها حتى يبدأ بشرح « البخارى » فلا يغادر البلد إلا بعد تمامه . وهو إلى ذلك يروض الناس على الفضائل الدينية ، ويأخذهم بالتربية الروحية ، ويصرفهم بالمجاهدة عن كل زيغ أو انحراف . ومما يؤثر عنه أنه كان قوى الأثر فى هداية الخارجين على المجتمع ، المسرفين على أنفسهم وعلى الناس ، وأن الكثيرين من هؤلاء عادوا على يديه تائبين منيبين . . .

وخلفه من بعده ابنه السيد محمد جامع الصغير والد الشاعر. وكان كذلك عالماً متصوفاً يقول الشعر. سار على نهج أبيه وجدّه فى ريادة « الطريق » على ذلك الأسلوب الذى يتخذ من كتاب الله وحديث الرسول وفقه السنة دعامة للتصوف وشرعة للحياة . كان يؤدى مهمة الريادة فى طوافه على تلاميذه ومريديه فى مختلف البلاد ، وفى داره حيث يستقبل الوفود بعد الوفود من التلاميذ والمريدين ، وحيث كانت تعقد المجالس وتقام الليالى « الكبيرة » التى تشد إليها الرحال ، فى مختلف الذكريات الدينية:

يا راكب الوجناء قد حثّ الخطا
فى إثر ركب فى الدجى متحمل

إن أبصرت عيناك شامخ قبة
غراء تجتاز السحاب وتعتـلى

ورأيت ساحات لهــا قد زينت
فبدت لعينك ذات ثوب أجمل
خفقت بها لله أرفــع رايــة
فى ظلها الأملاك تهبط من عل
فاقصد إلى بيت العلا من هاشم
وبباب أرباب النــدى فترجل
قسماً بهم لو زرتهم لوجــدتهم
أندى عليك من الغمام المثقــل
تلك المنازل قد أقام بها الهدى
عنها مــدى الأيام لم يتحــول
يرث السنا والمجد فيها كابــر
عن كابر ، علم ، أغرّ محجل *

وكان الطفل الصغير هاشم الرفاعى قد استوى على قدميه ، وتفتح وجدانه وعقله على ما يسمع ويرى وهو فى حجر أبيه الشيخ ، وهو جالس إلى جواره ، فى مجلس من مجالس العلم والعبادة والتوجيه ، أو فى مهرجان تخفق أعلامه وتأتلق أضواؤه وتتردد فى سمائه أصداء المشاعر الدينية الجميلة .

وكان ينفلت أحياناً من مجلس أبيه فى ليالى شهر رمضان ،

---

* من قصيدة للشاعر ألقاها فى الاحتفال بذكرى مولد جده الكبير .

وفى الليالى التى تحتفل فيها البلدة بالذكريات الدينية ، ليقضى جانباً كبيراً من الليل وهو يستمع إلى شاعر الربابة فى أحد المقاهى ينشد ملحمة أبى زيد الهلالى . وكان لكثرة تردده على مجلس الشاعر وافتتانه به قد حفظ — على صغر سنه — ملحمة أبى زيد الهلالى ، وكان كثيراً ما يجلس على « المصطبة » أمام البيت الكبير وحوله أترابه من الصبيان وهو ينشدهم هذه الملحمة . ولعله كان يحس أن افتتانهم به وبقدرته على الرواية والإنشاد ، لا يقل عن افتتانهم بالملحمة وبطلها الفارس الشاعر !

وكثيراً ما كان الصبى ينطلق مع أترابه إلى ظاهر البلدة ، حيث تمتد الحقول وتنساب الجداول وتنتشر ظلال الأشجار ويفوح عبير الأزهار ، وتتجاوب أصداء السواقى وأغاريد الطيور وأغانى الفلاحين والرعاة . . وتنعكس هذه الصور الطليقة الباسمة فى وجدان الصبى ، وتسكب فى روحه من موسيقاها المؤتلفة ما يبعث النشوة ويثير الخيال ، وينمى إحساسه بالحرية والجمال . .

فى ربوع ظلالها فتانه ... يبسط السحر فوقها ألوانه
صادح الطير فى رباها تغنى ... وشدا للخميلة الفينانه
وجرى الماء بالحياة نماء ... طرز العشب والندى غدرانه
ونسيم مؤرج قد تهادى ... فى مجون يراقص السنديانه
وعلى الشاطئ المقابل راعٍ ... ساق للعشب فوقه قطعانه
وإذا ضمه من التوت ظلٌّ ... داعب الناى مرسلا ألحانه

بين تلك الربا وهذى المغانى والرؤى والمفاتن العريانه
قد عرفتُ الوجود طفلا بريئاً حظه منه أن يمص بنانه

وكانت ثمة حقائق مغلفة بالضباب تبدو أحياناً من وراء هذه الصور الجميلة ، يلمحها الصبى على وجوه مواطنيه ، ويتسمعها فى بعض ما يتهامسون به فى أحاديثهم وأسمارهم . إن هذه الأرض الطيبة التى تجود بالرزق الوفير وتفيض بالجمال الساحر ، ليس لأهلها من ذلك كله إلا هم الليل وعناء النهار ، والاصبابة من الرزق يحصلون عليها فى ظل الاستغلال والإرهاب.

هذا الوجه الكريه للإقطاع ، كان يطالع أهل إنشاص كما يطالع ملايين المواطنين فى بلاد أخرى . وإن كانت صورته فى إنشاص أشد بشاعة . . لأنه إقطاع « ملكى » ؛ فلما أطاحت الثورة بالملكية انهار معها الإقطاع وانزاح عن صدر الشعب ذلك الكابوس الرهيب . وفى ذلك يقول الشاعر :

إنشاص تذكر بؤس أيام مضت
كانت عليها بالشقاء تمور[1]
هذى منازلهـا وتلك ضياعها
خطت عليهـا بالدموع سطور
ذاق الفقير بها الحيـاة ذميمة
يصليه من ظلم الطغاة سعير

---

(١) تمور : تضطرب .

وينتقل الشاعر من محيط قريته «إنشاص» إلى المحيط العام ، فيتحدث عن جرائم الإقطاع فى الريف وجناياته على المواطنين فيقول :

كم غاصب أرضاً لهم ، بسياطه
دميت جلود ألهبت وظهـور

كم بالدم المهراق من أبـدانهم
مُلـكت ضياع جمة وقصـور

كم بالندى المنثال (١) فوق جباههم
حملت نُضاراً (٢) للنساء نحـور

كم فاقد للقوت بات على الطوى
والرزق عنـد المالـكين وفير

الغرس غرسهمُ ، وقد روّى الثرى
عَرَقٌ لهم فوق الجبـاه غـزير

عملوا له حتى بـدت أثمـاره
ما بال من لم يشق فيه يجور !

كم بانتقام الـكاظمين لغيظهم
جاشت نفوس حـرة وصـدور

---

(١) المنثال : المتناثر .
(٢) النضار : الذهب .

كم باللظى المشبوب فى أعماقهم
لسقوط الاستبداد فاض شعور
وأخو الهوان – ولو يطول هوانه –
لا بد يوماً أنه سيثور

وهناك على الجانب الآخر من «أنشاص» كان يقوم قصر للطاغية الذى اغتصب هذه الأرض الطيبة ، وجعل من أهلها أجراء يسكبون فيها عرقهم وتتبخر دماؤهم ويذوب شبابهم ، ليذهب الطاغية بثمرات ذلك كله ، ولا يبقى لهم من المائدة – وهم أصحابها – إلا الفتات * . . .

وكان ذلك القصر الذى أقامه الطاغية بإنشاص ، أحد الأوكار التى اتخذها لمباذله وملذاته . ولم تكن الأسوار العالية والمناطق الحرام التى تحيط بالقصر ، لتمنع الأصداء الآثمة من أن تصل إلى الآذان ، فتضيف إلى عوامل السخط مادة جديدة تتهامس بها العيون والشفاه . .

ويسترجع الشاعر هذه الصورة بعد قيام الثورة ، من قصيدة له فيقول :

مرت بنا الأيام فى لون الدجى — أما الحياة فطعمها كالحنظل
حكمَ الكنانة خائنٌ مستهتر — طاغٍ بشأن بلاده لم يحفل

* كان للطاغية فاروق فى إنشاص إقطاعية ، اجتمعت فيها مساوىء الملكية والإقطاع معاً .

إن شيد للإصلاح صرح كرامة يسعى إلى هدم البناء بمعول
سائل هنالك القصر عن رب الهوى والليل : كيف نهاية المتبذل؟
يا قصر: هل أغناه ما قد شمته وشهدته من كل فعل مخجل!
تلك الرياض الناضرات كأنها عدن ، بها من كل واد مبقل
إبليس غادرها رجيماً إنــــه لم يرع حق المنعم المتفضل

وتكتمل عناصر الصورة داخل الإطار . إن هذه المنطقة التي يقوم فيها الإقطاع « الملكى » بمظالمه ومباذله ، تقوم على مقربة منها إحدى قواعد الاحتلال البريطانى البغيض ، كأنما يقوم ذلك برهاناً على ما بين الملكية الفاسدة والاستعمار من قرب وقربى فى المصالح والأهداف . وبذلك اكتملت عناصر الصورة أمام المواطنين فى هذه المنطقة ، وتجسمت معانيها فى خواطرهم ، وانعكست بعض ظلال هذه الصورة ومعانيها فى خاطر الصبى ، على قدر ما يستوعب من هذه المعانى والظلال .

٣

من هذه الخيوط ، خيوط الوراثة والبيئة الطبيعية والاجتماعية ، نسج القدر الخلايا الأولى فى حياة هذا الشاعر . ومن هذه الروافد أرضعته الطبيعة غذاء روحه ، وفى حضانة هذا « الجو » تفتحت مشاعره كما تتفتح البراعم فى أحضان الربيع .

ثم بدأت ملكاته تنمو وتتعدد منذ التحق بالمعهد الدينى بالزقازيق عام ١٩٤٧ ، وبدأ يقول الشعر وهو فى الثالثة عشرة

من عمره ، كانت محاولات لم تلبث أن نضجت واستقامت معنى ومبنى ، وظهر شعره فى الصحف يحمل من عناصر التجربة النفسية والشعور القومى ، ومن حصيلة الثروة اللغوية والبيانية ما يسبق سنه الصغيرة بمراحل بعيدة .

وكانت الفترة التى قضاها بمعهد الزقازيق حتى عام ١٩٥٥ ذات أثر كبير فى إبراز معالم شخصيته ، فقد كانت فترة حافلة بالأحداث القومية التى سبقت الثورة ومهدت لها ، والتى صاحبت الثورة ومعاركها الأولى . وفى هذه الفترة كان الشاعر شديد الانفعال بإرهاصات الثورة لأنه كان يعيش فيها بوجدانه . وكانت له مواقف توصف بالتطرف والاندفاع فى الحركات القومية التى انبثقت فى صدور الشباب الأحرار بعد نكبة فلسطين ، فأقضت مضاجع قوات الاحتلال الرابضة فى منطقة القناة ، وزلزلت دعائم العرش الفاسد ، وأطاحت بالحكومات الصنيعة ، وبلغ السخط حداً أفلت معه الزمام فكان حريق القاهرة . . .

فى تلك الفترة كان الشاعر يقود الثورة فى معهد الزقازيق ضد الاحتلال وأعوانه ، وقد أطلقت عليه إذ ذاك * رصاصة كادت تودى بحياته !

وظل وجود هاشم الرفاعى بالمعهد يؤرق عيون رجال الأمن والمشرفين على المعهد . فقد كان حرباً لا تخبو نارها على

* عام ١٩٥٠ .

الاستعمار وصنائعه ، حتى صدر قرار بإبعاده عن المعهد وحرمانه من الدراسة بتهمة النشاط الفدائى ، ولما يتضمنه شعره من ثورة على الأوضاع القائمة . . .

وظل هاشم مبعداً عن المعهد فترة طويلة ، فلم تلن قناته ولم يستسلم لعوامل الطغيان من حرمان وإرهاب ، أو من ترغيب وإغراء ، حتى إذا عاد للمعهد عاد مرفوع الرأس قوى الشكيمة ، وفى ذلك يقول :

رجعنا ؛ وخاب المنذر المتوعد وعدنا بعون الله والعود أحمد
خرجنا رجالا يعرف الكل بأسهم وجئنا وفى أضلاعنا العزم موقد
فما أوهن الإبعاد منا عزيمة ولا نال من أسد الشرى المتأسد

ثم يتحدث عن شيخ المعهد الذى أصدر قراراً بإبعاده ، وعن فريق من علماء الدين انحرفوا عن الجادة وتخلوا عن أمانة العلم والدين وشايعوا الطغيان وساروا فى ركابه . . فيقول :

فقولوا لشيخ السوء — لا بورك اسمه
ولا عاش باسم العلم فينا يقيد :
أجئت عميداً أم ترى جئت غازياً
فأنت على الطلاب صخر وجلمد
لحا الله أعواناً لئاماً تجمعـــوا
هم الذئب غدراً والرياء المجســـد

ترى بينهم من يرتدى زى عالم
فقيه ، وفى الأثواب جهل مؤكد
وتحسبه عنـــد الملاقاة مصلحـــاً
ولـــكنه فى الخبث والدس أوحـــد

ذليل يرى الملك الذليل إلهـــه
يـــكاد له خوفاً يصلى ويسجـــد !

وينصب فوق الرأس منـــه عمامة
تشع بياضاً بينما القلب أســـود

وقبيل الثورة بأيام ، قامت وزارة النزع الأخير برياسة المرحوم أحمد نجيب الهلالى . ومنذ الليلة الأولى لقيام الوزارة كان منزل أسرة الرفاعى بإنشاص محاصراً بقوة عدتها سبعون جندياً ، جاءوا يبحثون فى مخابئ المنزل عن السلاح !

وتخيب هذه الحملة فيما قدمت من أجله ، ولكنها تأبى إلا أن تمعن فى الطغيان والإرهاب ، فلا تعود إلا والقيد فى يدى شقيق الشاعر الأكبر الأستاذ مصطفى الرفاعى ، ليقضى فى الاعتقال ما شاء له الطغاة . . .

كان ذلك ليلة ٢٠ يولية عام ١٩٥٢ .

وكان القدر يوشك أن يفرغ من صنع المعجزة التى غيرت وجه التاريخ والحياة . . .

وظل الشاعر فى تلك الليلة ساهراً لا يغمض له جفن ، ثائر المشاعر تموج بقلبه عوامل اليأس والرجاء . إن الظلم والظلام الذى يطبق على الوطن قد صرع الآمال وغرس أنياب اليأس فى القلوب. ولكن أما لهذا الليل الطويل الذى لف الكنانة بظلمه وظلامه من آخر ؟ أتخطئ نواميس الوجود فلا يعقب هذا الليل الطويل فجر يذوب فى ضوئه الزاحف هذا الظلم والظلام ؟

وبات الشاعر ساهراً يتقلب على خواطر مؤرقة ، تتخللها بوارق من الآمال . . .

وكأنه كان فيما يشبه « المخاض » وهو ينظم هذه الخواطر والآمال . لقد كان فى تلك الليلة يعيش بإلهامه مع المعجزة التى تكاد تولد فى ضمير الغيب . . .

إنه يقول فى قصيدته « خواطر ثائرة » :

مضى للنوم سمار خلت من أنسهم دار
فما أشجى لهم لحن ولا قد رن مزمار
وعدت بمهجة حرى وقلب ملؤه نار . . .
وحولى من سكون الليل والأوهام أستار
وفى رأسى خيالا ت تموج به وأفكار
سجين ، لى من الظلما ت قضبان وأسوار
تعذبنى أحاسيس لها بالقلب أظفار
تموت لديه آمال وتذوى منه أزهار

ويحيا حين تبرق من سنا الأحــلام أنوار
وبين يديه مسكوب من الأوهــام مدرار
له لليــأس أسباب وللتأميــل أعذار ..
ومن أعمــاق خاطره مُنًى تطفــو وأكدار
كذلك فى ربا الوادى يذوق المــرّ أحرار
متى رفض الهوان فتى فليس ينــاله عار

ثم قامت الثورة . . وكان قيام الثورة فى وجدان هاشم الرفاعى انطلاقة بعيدة المدى لمشاعره ، وانتصاراً رائعاً لما يهتف به فى شعره من معان وأفكار . ولم يكن هاشم يومئذ بحاجة إلى أن يتلمس الطريق ليواكب الثورة فى انطلاقها نحو أهدافها ، لأنه كان يسير من قبل على هذا الطريق ، وكان يستشعر فى ضميره تلك الأهداف ، ويتغنى بها فى شعره ، ويرنو إليها من وراء الغيب يكاد يحدد مكانها على حاشية الأفق البعيد . . .

وحين أتم هاشم الرفاعى دراسته الثانوية فى معهد الزقازيق ، والتحق بكلية دار العلوم عام ١٩٥٦ ، كان الشاعر الشاب يجتاز أخصب مراحل حياته ، ويضع قدمه على أول مدارج القمة وهو لم يكد يتجاوز العقد الثانى من عمره !

وفى هذه المرحلة القصيرة كان الشاعر الشاب قد استكمل مقومات شاعريته ، فقد تفتحت مواهبه على آفاق واسعة واستمدت من روافد جديدة. ولهذا بهرت ألحانه القلوب والأسماع ،

وكانت التعبير الصادق عن مبادئ الثورة العربية الكبرى ، يتغنى بها ويخوض معاركها ، فى إيمان عميق يخالط دمه وقلبه ومشاعره ، لأنها مبادئ أصيلة فى تكوينه ، وفى ملكاته الموروثة والمكتسبة . ولهذا كان بحق شاعراً من شعراء القومية العربية ، يؤمن بعراقة تاريخها ومجادة تقاليدها وشرف كفاحها وسمو أهدافها .

وكانت الدولة قد عرفت للشاعر الشاب مواهبه الفنية والخلقية ، فأظلته برعايتها وزودته بكل ما ينمى هذه المواهب من أسباب التشجيع والتقدير .

وعرفت له مجامع القاهرة ودمشق أصالة مشاعره وصدق شاعريته وتفرده بهذه الخصائص النفسية والفنية ، فكان شاعراً مرموقاً فى كل ميدان ، ونجماً متألقاً فى كل مهرجان . . .

ولكن هذا الشاعر الذى جاء مع الثورة العربية الكبرى على ميعاد ، والذى أسرعت خطاه إلى القمة وهو فى مقتبل الشباب ، والذى كان خليقاً أن يأتى بالمعجزات كلما تقدمت به السن وازدادت تجاربه النفسية والفنية عمقاً واتساعاً . . .

هذا الشاعر الذى كان طرازاً فريداً فى الشباب ، فاستحق لقب الطالب المثالى فى الجمهورية العربية المتحدة ، لأنه حقق الصورة التى يرجوها المخلصون لأبناء هذا الجيل والأجيال القادمة ؛ من سلوك سوىّ ، وإيمان قوىّ ، وعكوف على الدرس

والتحصيل ، وحفاظ على تراثنا القومى ومبادئنا الأصيلة ، واستجابة لنداء الوطن فى كل ميدان . . .

شباب كانطلاق الفجر يذكر ظلمة الأمس
ويدرك أنه بيــديك بدد ظلمــة اليأس
يسرّك فى لظى الميدان أو فى قاعة الدرس
وإن صحت به لبي وجاد لديك بالنفس[1]

هذا الشاعر الذى كان أملا من آمال الأمة ، وآية من آيات الثورة ، وعنواناً من عناوين الجيل . . . لم تمهله يد الغدر حتى يحقق رسالته كاملة فى الحياة ، ويحقق أمل الأمة كاملا فيه ، فاغتالته يد الغدر فى ريعان شبابه وفنه وآماله ، وهو أشد ما يكون إقبالا على الحياة ، واستجابة للمشاعر الفتية والآمال الجياشة التى يهتف بها ضمير الأمة ويخفق بها قلبه المشبوب .

٤

والعجيب أنك تجد هذه المأساة عنصراً هامًّا فى حياة هاشم الرفاعى وفنه ، وتجد أنها كانت تعيش فى أعماق الشاعر منذ تفتح قلبه للحياة ، وتؤلف نغماً متميز اللون والأداء فى ألحانه .

أهو نوع من الإلهام كان يصل بين ضمير الشاعر وضمير الغيب ، فتنعكس عليه الرؤى البعيدة ، ويستشعر الحقائق

---

(١) من قصيدة الشاعر « فى عيد الوحدة » يخاطب الرئيس جمال عبد الناصر .

المحجوبة . . ذلك الذى جعل هاشم الرفاعى يكاد ينعى نفسه ، ويرثى شبابه وأحلامه ، وكأن صور الموت تلح على خاطره من خلال أفراح الحياة !

فهو فى القصيدة التى عنوانها « بسمة الحياة »

على شط من الألحان والأزهار والعطر
بروض الحب والأنغام والإخلاص والطهر

يدعو ليلاه وإلف روحه لتشاركه أفراح الحياة فيقول :

تعالى نقطع الأيام فى حلم على النهر
نرى الدنيا وقد فاضت أفانين من السحر

ولكن هذه الصورة الباسمة المتفتحة للحياة ، لا تلبث أن تغيم عليها الصورة الأخرى التى تلح دائماً على خاطره :

تعالى فالربا تهتز بالأفراح والبشر
قريباً تظلم الدنيا وتمضى بهجة العمر !

وفى قصيدته التى يصور بها « أيام الطفولة » حيث كان يطفر مع لداته كالفراشات الجميلة بين أزاهير الحياة ، نجده يختم هذه الصور الجميلة بقوله :

هى الأيام لا تبقى عزيزاً وساعات السرور بها قليله
إذا نشر الضياء عليك نجم وأشرق ، فارتقب يوماً أفوله

وفى هذه الصورة — إلى جانب المعنى الذى ألمعنا إليه —

يتمثل مزاج الشاعر « الصوفى » ، ونظرته المحيطة إلى حقائق الكون والحياة . إن الصوفى لا ينظر إلى هذه الحقائق من جانب واحد ، ولكن نظرته تجمع بين الجوانب المتقابلة . . الحياة والموت ، الدنيا والآخرة ، الإشراق والأفول . وبهذه النظرة المحيطة يتحقق التوازن فى وجدان الصوفى ويتكون مزاجه الخاص .

وكأنما كان الشاعر يتحدث عن نفسه ، ويصور مأساته من وحى الإلهام الذى ربط بين ضميره وبين ضمير الغيب ، فهو يقول فى قصيدته « وصية لاجىء » :

أنا يا بنىّ غداً سيطوينى الغسق
لم يبق من ظل الحياة سوى رمق
وحطام قلب عاش مشبوب القلـــق
قد أشرق المصباح يوماً . . واحترق
جفت به آماله حـــتّى اختنـــق

وفى قصيدة عنوانها « زفرة » تطالعك هذه الصورة ، وكأن الشاعر ينعى فيها نفسه :

دفنت الأسى فى حنايا الفؤاد فبرّح بالقلب كتمانهُ
وصيرت همى جار الضلوع فضجّت من النار جيرانه
حزنت على أمل باسم يـــكاد يهدّم بنيانه
على صادح غرد أصبحت تصاغ من الشجو ألحانه
على قبس مؤذن بالخمود وقد فاض بالنور وجدانه

وتبلغ المأساة قمتها فى ضمير الغيب ، حين ينظم الشاعر ملحمته الخالدة « رسالة فى ليلة التنفيذ » ، ليلة تنفيذ حكم الإعدام فى أحد شهداء الحرية والقومية العربية . لم يكن شهيداً واحداً .. ولكنهم كانوا كثيرين امتلأت بهم السجون وناءت بهم أعواد المشانق فى قطر عربى شقيق ، إنها ملحمة كل شهيد ، ولكنها هنا ملحمة الشاعر نفسه ، اشترك معه فى نظمها القدر ، لينشدها الشاعر بصوته من وراء الغيب . . فى الحفل الذى أقيم لتأبينه ، بعد أن لحق بمن سبقه من أولئك الشهداء !

قال الشاعر على لسان الشهيد الذى ينتظر فى غده لقاء الموت ، فى رسالة كتبها إلى أبيه ليلة التنفيذ :

أبتاه ماذا قد يخط بنانى ... والحبل والجلاد ينتظران!
لم تبق إلا ليلة أحيا بها ... وأحس أن ظلامها أكفانى

وفى هذه القصيدة تتجلى عبقرية الشاعر وعمق تجربته وصدق تعبيره ، فى صورة تعكس جوانب حياته وفلسفته فى الحياة ، إنه يصور أيام الشهيد الأخيرة فى السجن ، ويستعرض أيام كفاحه فى سبيل الحرية ومقاومة الطغاة والطغيان ، ويسجل نبضات قلبه وخلجات نفسه ، وينظر إلى الغد مصبوغاً بدمه الزكى ، فيحاول أن يعزى قلب أبيه ويأسو جراح أمه . . .

الليل من حولى هدوء قاتل ... والذكريات تمور فى وجدانى
والصمت يقطعه رنين سلاسل ... عبثت بهن أصابع السجان

ما بين آونة تمر وأختها يرنو إلىّ بمقلتى شيطان
من كوة بالباب يرقب صيده ويعود فى أمن إلى الدوران

ولكن الشاعر الذى يرى سجانه فى صورة الشيطان ، ويحس أن مكانه منه مكان الفريسة وقعت بين أنياب وحش كاسر ، قد اتسع قلبه لمشاعر أخرى طيبة نحو هذا السجان ، بل إنه ليتنكر لمشاعره الأولى التى صورت له سجانه فى تلك الصورة البغيضة ، فهو يعود فيقول :

أنا لا أحس بأى حقد نحوه ماذا جنى ؟ فتمسه أضغانى
هو طيب الأخلاق مثلك يا أبى لم يبد فى ظمأ إلى العدوان
لكنه إن نام عنى لحظـة ذاق العيال مرارة الحرمان
فلربما ، وهو المروع سحنة ، لو كان مثلى شاعراً لرثانى
أو عاد من يدرى ؟ إلى أولاده يوماً وذكّر صورتى لبكانى

إنها مشاعر لا ينطوى عليها إلا قلب كبير ، يعرف من هو عدوه وجلاده ، ويغتفر لسجانه موقفه منه ، لأنه يؤدى واجبه فى الحدود التى فرضت عليه ، وينفذ إلى أعماقه ليرى فيها صورته الحقيقية ، صورة المواطن الطيب . . الذى يضمه مع الشاعر سجن كبير ، فلو كان شاعراً مثله لتفجرت عواطفه بالرثاء ، وهو حين يعود إلى أولاده فيطالع فيهم صورة الشهيد الذى يحتويه ظلام السجن ، يهتاج وجدانه فيجهش بالبكاء . . .

ويبلغ الشاعر أقصى مراتب الصدق حين يسجل همسات

قلبه بكل ما فيها من ضعف وقوة ويأس وأمل . إنه يصور همسات الضعف واليأس فيقول :

ويدور همس فى الجوانح : ما الذى
بالثورة الحمقاء قد أغرانى ؟ !

أولم يكن خيراً لنفسى أن أُرى
مثل الجموع أسير فى إذعان

ما ضرنى لو قد سكت ، وكلما
غلب الأسى بالغت فى الكتمان

هذا دمى سيسيل ، يجرى مطفئاً
ما ثار فى جنبيّ من نيران

وفؤادى الموار فى نبضاته
سيكف فى غده عن الخفقان

والظلم باق ، لن يحطم قيده
موتى ، ولن يودى به قربانى

ويسير ركب البغى ليس يضيره
شاة إذا اجتثت من القطعان !

ولكن الشاعر تنتفض نفسه من هذه الخواطر اليائسة التى تهمس بها الطبيعة البشرية فى لحظات ضعفها ، وتعلن نفسه

المؤمنة المكافحة عن حقيقتها ، وعن إدراكها لمعنى الحياة وفلسفة الكفاح :

هذا حديث النفس حين تشف عن
بشريتى ، وتمور بعد ثوان !

وتقول لى : إن الحياة لغاية
أسمى من التصفيق للطغيان

أنفاسك الحرّى وإن هى أخمدت
ستظل تغمر أفقهم بدخان

وقروح جسمك وهو تحت سياطهم
قسمات صبح يتقيه الجانى

دمع السجين هناك فى أغلاله
ودم الشهيد هنا سيلتقيان

حتى إذا ما أفعمت بهما الرّبا
لم يبق غير تمرد الفيضان !

ويتجه الشاعر إلى قلب أبيه الذى سيواجه النكبة ، ويتجه إلى قلب أمه . . .

إنه يحاول أن يدخل العزاء إلى قلب أبيه ، ويعرف من أى باب يستطيع أن يبلغ من قلب أبيه ما يريد :

ليكن عزاؤك أن هذا الحبل ما صنعته فى هذى الربوع يدان
إن ابنك المصفود فى أغلاله قد سيق نحو الموت غير مدان
اذكر حكايات بأيام الصبا قد قلتها لى عن هوى الأوطان!

أما حديث الشاعر إلى قلب أمه ، فقد استمعت إليه أمه الثكلى يجىء إليها من وراء الغيب . كانت تجلس فى القاعة الكبرى بجامعة القاهرة بين الألوف الذين حضروا ليشتركوا فى تأبين الشاعر الشهيد . ولم يكن هاشم بين خطباء الحفل كعادته فى كل حفل ومهرجان ، ولكنه كان صورة وذكرى . . .

وتعاقب الخطباء والشعراء يتحدثون عن الشاعر الشاب الشهيد، وعن فجيعة الأمة فيه ، وعن المستقبل الذى كان يدخر لهذا الشاعر الشاب مكاناً فى الصدر بين فحول الشعراء الذين يجلسون على قمة التاريخ .

قال السيد كمال الدين حسين : لم أصدق عينى أول الأمر عند ما قرأت نعى هاشم الرفاعى وأنا فى غيبة عن الوطن . . فقد كان عهدى به غير بعيد يوم وقف فى دمشق بين آلاف الشيوخ والشباب والأمهات والبنات ، تتدفق حماستهم وتهدر وهو ينشدهم شعره وينفث أناته وزفراته حمماً من لهب وشواظاً من نار . . .

وقال السيد يوسف السباعى : لقد سمعته ينشد شعره مرة واحدة ، فأخذت به وأحسست أن الله منحنا به موهبة فذة ، ولم

أشك فى أن صوته سيرتفع بيننا فى كل حفل . ولكن القدر أبى إلا أن يكون هو نفسه موضوع الحديث فى هذا الحفل ، وأبى علينا إلا أن نسمع عنه ولا نسمعه ، وألا يعلو بيننا صوته إلا صدى ذكريات . .

وقال الأستاذ على الجندى عميد كلية دار العلوم السابق :

أطول الفخر أن تحوز الذى حزت من الفخر فى الزمان القصير
نلت ما نال حافظ وخليل بل وأدركت حظ شوقى الأمير
كرموهم وكرموك وفخـــر أن يحوز الصغير شأو الكبير

وكان الأستاذ على الجندى يقول[١] : لو عاش هاشم الرفاعى إلى سن الثلاثين ، لغطى على جميع شعراء العربية فى العصر الحاضر !

وقال الأستاذ زكى المهندس عميد كلية دار العلوم الأسبق[٢] : لو قدر لهاشم الرفاعى البقاء ، لكان أشعر أهل زمانه . . .

وكانت أم الشهيد تصغى إلى كلمات الخطباء وقصائد الشعراء ، وكأنما بعثت المأساة فى وجدانها بكل صورها الدامية ولهيبها المشبوب . وكان يزيد فى حزنها ولوعتها أن يخلو الميدان من

---

(١) فى حديث خاص .

(٢) جريدة المساء فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٥٩ .

فارسه المعلم ، وأن يقفر الروض من بلبله الصداح .

ولكن القدر كان قد أعد لهذا الحفل مفاجأة مثيرة . . .

فقد انتهى الخطباء والشعراء من إلقاء كلماتهم وقصائدهم ، وأخذ كل منهم مكانه على المنصة فى صمت وخشوع ، وظل جهاز الإلقاء قائماً لا يتقدم إليه أحد ، ولكن الجميع ينظرون إليه وينتظرون . . .

ومرت لحظات طافت فيها بخيال الحاضرين صور كثيرة ، وثارت فى وجدانهم انفعالات شتى . ولو نطقت هذه الصور والانفعالات لقالت : أين شاعر الحفل . . أين نجم المهرجان ؟

وكان القدر قد أعد الرد على هذا السؤال الذى لم تنطق به الشفاه ، ولكنه كان صورة تطوف بالخيال ، وانفعالا يثور فى الوجدان . . .

وكانت المفاجأة التى أعدها القدر . . .

صوت من وراء الغيب يتردد صداه فى قاعة الاحتفال ، لشاعر مشبوب العاطفة قوى النبرات . . إنه صوت الشاعر الغائب عاد يدوى فى الأسماع والقلوب ، ليكون ــ كالعهد به ــ شاعر الحفل ونجم المهرجان !

إنه صوت هاشم الرفاعى . . .

وجمدت الدموع فى عينى أم الشهيد ، وتألق فيهما بريق الدهشة والفرحة الحائرة ، وكادت تهب من مكانها وتفتح ذراعيها لتحتضن الصوت الحبيب . . .

أبتاه ماذا قـــد يخط بنانى   والحبل والجلاد ينتظران ؟ !

. . .   .

إنها ملحمة الشهيد « فى ليلة التنفيذ » !

الملحمة التى اشترك فى نظمها الشاعر والقدر ، لينشدها الشاعر مرة أخرى بصوته من وراء الغيب ، فى الحفل الذى أقيم لتأبينه ، بعد أن لحق بمن سبقه من الشهداء . . .

وعادت صور المأساة تتتابع فى وجدان أم الشهيد مع ألحان الملحمة التى ينشدها بصوته من وراء الغيب . واستمعت إلى رسالته التى وجهها إلى أبيه « ليلة التنفيذ » :

. . . .

وإذا سمعت نشيد أمى فى الدجى   تبكى شباباً ضاع فى الريعان
وتكتم الحسرات فى أعماقهـــا   ألمـــاً تواريه عن الجيران
فاطلب إليها الصفح عنى ، إننى   لا أبتغى منها سوى الغفران !

وهنا ترفع أم الشهيد نظراتها ويديها إلى السماء فى صلاة عميقة وقد أشرق وجهها بالضراعة والدعاء . . .

وتفيق أم الشهيد على صوت الشاعر ينبعث من أعماقها لا من جهاز التسجيل. إنه يذكرها أمنية عزيزة طالما ألحت بها عليه :

ما زال فى سمعى رنين حديثها ومقالها فى رحمة وحنان . . .
أبنىّ : إنى قد غدوت عليلة لم يبق لى جلد على الأحزان
فأذق فؤادى فرحة بالبحث عن بنت الحلال ودعك من عصيانى
كانت لها أمنيّةٌ ريانــة يا حسن آمال لها وأمانى
غزلت خيوط السعد مخضلاً ولم يكن انتقاض الغزل فى الحسبان
والآن لا أدرى بأى جوانــح ستبيت بعدى أم بأى جنان !

وعادت الدموع التى جمدت فى عينى أم الشـهيد تنهمر على خديها ، وعاد وجيب قلبها المفئود يختلط بزفراتها الحارة ونشيجها المكتوم . . .

وانفجرت على مقربة منها فتاة متشحة بالسواد تبكى فى حرقة طاغية . إنها الفتاة التى اختارها الشاعر الشهيد لتكون رفيقة حياته . إنها « بنت الحلال » التى كانت تتمناها أم الشهيد ... تمثلت فيها صورة الزوجة الكاملة كما يتصورها الشاعر بمقاييسه الخاصة ، فهفا إليها قلبه وتعلقت بها آماله .

كتبت إليه « بنت الحلال » ذات مرة تهنئه بفوزه بجائزة الشعر فى مسابقة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، فكتب إليها — شاكراً — هذه الأبيات :

شكرى إليك يسوقه قلبى ولا يجدى لسانى فيه يا فريال
لى أمنيات كان فوزى واحداً منها ، فهل تتحقق الآمال؟

ولكن يد الغدر عاجلت الشاعر الشاب فأجهزت على هذه الآمال ، كما أجهزت على آماله الكبيرة الأخرى فى الحياة ، وعلى آمال الأمة العربية فى فتى من فتيانها وشاعر من شعرائها الكبار .

٥

وتستطيع أن تستقصى أسباب الجريمة التى أطلقت يد الغدر فأودت بحياة الشاعر الشهيد ، فى الصور الوجدانية التى أودعها الشاعر أحزان قلبه وزفرات فؤاده وتجاربه المريرة مع الحياة والناس ، وفى بعض ما نظم — على قلته — من قصائد الهجاء .

إن فى هذه الصور الوجدانية وفى بعض قصائد الهجاء ، الخطوط الأولى التى تحدد بواعث الجريمة ، والملامح النفسية لسر هذه المأساة . وأول هذه الخطوط والملامح ، أن هاشم الرفاعى كان كثير الأعداء . . .

إن التزامه سلوكاً معيناً فى الحياة يقوم على الجد والترفع عن الصغائر والاعتزاز بالنفس ، وما كان يتميز به الشاعر بين أترابه فى المدرسة وفى المعهد وفى الجامعة ، من نبوغ مبكر ومواهب كبيرة فتحت أمامه أبواب المجد والخلود . والمعارك التى خاضها

الشاعر تحت لواء القومية العربية ، انتصاراً لقوميته ودينه ولغته وتقاليد أمته . .

كل هذه الصفات والمواهب والمواقف التى تتألف منها شخصية هاشم الرفاعى ، خلقت حوله كثيراً من الأعداء . . بعضهم كان ينقم منه استقامة خلقه ، وترفعه عن مباذل الشباب ، وتصونه من كل عاب ، لأن ذلك يشعرهم هوان ما هم فيه ، ويدمغ جباههم بالذل والعار . . .

ومنهم من كان يحقد على هاشم الرفاعى لتفوقه ونباهة ذكره. ولو أنصفوا أنفسهم وأنصفوه لعرفوا أنه لم يبلغ مبلغه ذاك إلا بعد أن أدى ثمنه الغالى ، وأنهم كانوا يستطيعون أن يبلغوا مبلغه ، أو أدنى من ذلك أو أكبر ، لو التزموا المنهج وساروا على الطريق . .

ومنهم من كان يأكل الحقد قلبه ، وتضطرم نار الانتقام فى نفسه ، لأن هاشم الرفاعى صار شاعراً مرموقاً من شعراء القومية العربية ، ولأنه كان فى شاعريته آية للأحرار ، وسوط عذاب على الصنائع والعملاء . .

ومن هؤلاء الأعداء من كان ينقم على هاشم الرفاعى ، ويضطرم قلبه بنار الحقد والانتقام ، لهذه الأسباب مجتمعة . . على مقدار ما بينه وبين هاشم الرفاعى من تباين فى مقومات

الشخصية ، واختلاف فى الوسائل والغايات . ومن هذا الفريق الأخير كان « لؤلؤة » ! !

يقول الشاعر الشهيد فى قصيدة بعنوان « مساكنكم يأيها النمل » :

إلى ذروة العلياء سار بى الفعل   ومثلى للعلياء بين الورى أهل
سموت بجدى وارتقت بى فضائلى   وليس أخو جد كمن طبعه الهزل

وبعد أن يعدد الشاعر صوراً من خلائقه التى أبلغته مراتب التقدير والتكريم ، يعود فيقول :

ولكن قوماً ـ لا عفا الله عنهم ـ   يرون ذنوبى أن يدين بى النبل
وما حيلتى فيهم ، وذنبى لديهمو   مقامى حميداً حيث لا ينزل الذل
وإنى وقد أنضجت غيظاً قلوبهم   على حين لم يسمع لدى لهم قول
لئن شئت عاشوا فى ثياب مذلة   ولكن لى عنهم بنيل العلا شغل

ويصف هؤلاء الحاقدين الذين أنضج قلوبهم غيظاً فيقول :

إذا رمت أن تسقى من الود عندهم
فكن مثلهم فى الناس شيمتك الجهل
وإن كنت تبغى العيش فى ظل حبهم
فلا يصطفيك العمرَ من دونهم فضل
أولو حسد قد ساءهم ما بلغتـــه
فحقدهم وار وفى صــدرهم غــل

يريدون بين النـــاس ذكراً ورفعة
وظنوا بأن المجـــد إدراكه سهـــل
ودون بلوغ المجـــد عزم وفطنـــة
وما لهمُ فى ذاك باع ولا حـــول

ويختم الشاعر قصيدته موجهاً حديثه ووعيده إلى أولئك الحاقدين :

فيأيها القوم الذين بلوتهـــم
فأغرقنى من خبث أخلاقهم سيل
لقد جاءكم منى سليمان فادخلوا
مساكنكم فى الأرض يأيها النمل !

إنها صورة واضحة الملامح قوية التعبير عن بواعث المأساة . وإذا كان هاشم الرفاعى قد طغى عليه الشعور بقرب نهاية حياته ، وكانت هذه الصورة تنعكس فى كثير من شعره ، فما أظنه كان يتوقع أن تنتهى حياته على هذه الصورة الغادرة — على سوء رأيه فى أولئك الحاقدين — إنه اعتاد أن يخوض معاركه بشجاعة وشرف ، وحين يرى من قوم خيانة كان ينبذ إليهم على سواء .

لقد جاءكم منى سليمان فادخلوا
مساكنكم فى الأرض يأيها النمل

ولكن أعداءه كانوا غير ذلك . فاختاروا للمعركة ميداناً غير ميدانها ، واستخدموا غير أسلحتها . إنهم لم يستطيعوا أن يواجهوه رأياً برأى ، أو يغالبوه « بالعزم والفطنة » ، أو يلتقوا معه أعداء شرفاء — ولكنهم أظهروا له الود ، وأعلنوا الندم على ما فرط منهم فى حقه ، وبسطوا إليه أيديهم يطلبون الصفح ويوثقون العهد . . واستدرجوه إلى « النادى » فى وقت خلا فيه من سماره ، وهنالك انكشف القناع عن أنياب الخيانة والغدر ، وامتدت اليد الآثمة تسدد إلى قلب الشاعر طعنات قاتلة . . .

ولم يمت هاشم الرفاعى ، ولم تمت كذلك أحقاد أعدائه !

فقد كان استشهاد الشاعر على أيدى هؤلاء الجناة ، شهادة فى سبيل الحق والمثل الرفيعة والمبادئ القويمة ، كتبت للشهيد حياة خالدة ، إن تكن قد انطوت منها بموته صفحات ، فقد بدأت صفحات أخرى متجددة على تعاقب العصور والأجيال ، تروى للشباب ملحمة هذا الشاعر الشهيد .

ولم يطفئ الدم الزكى الذى تفجر من قلب الشاعر الشهيد، نيران الحقد والانتقام التى كانت تضطرم بها قلوب أعدائه ، بل زادها الدم المهراق حرقة وضراماً ، لأن أملهم فى أن يخفت الصوت الهادر وتنطفئ الجذوة المشتعلة قد خاب ، فهم من نار الحقد ونار الخيبة فى جحيم دائم وعذاب مقيم . . .

٦

ولقد كان هاشم الرفاعى طرازاً قليل النظراء بين الشعراء . كان شعره تعبيراً صادقاً عن حياته ، وكانت حياته تعبيراً صادقاً عن مبادئه ، وكانت هذه المبادىء دستوراً فى السلوك الفردى القويم ، ومنهجاً فى التربية الاجتماعية والرسالة القومية .

قد يكون بين الشعراء من يجيد ــ مثلا ــ شعر الحماسة ، وإنه ليثير بشعره الحمية والشجاعة حتى فى قلوب الجبناء ، فإذا واجه عدوًّا أو خاض معركة كان قلبه فى جناحى طائر ، وولى على عقبيه يؤثر الفرار . . والعار !

هذا حسان بن ثابت الذى يقول :

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما!

والذى كان شعره « أشد على الكفار من وقع الحسام فى غبش الظلام » ، ماذا كان موقفه فى غزوة الخندق ؟

لقد كانت مهمته ــ فحسب ــ أن يحرس حصناً أوت إليه النساء والأطفال . وتسلل رجل من العدو إلى الحصن فاستنفرت النساء الحارس اليقظ لمواجهته . ولكن الحارس كان يجيد الدفاع والهجوم بشعره لا بسلاحه ، وشعره لا يجدى فتيلا فى هذا المقام. وحملت عبء الدفاع عن الحصن ومواجهة العدو . . امرأة !

إنها صفية بنت عبد المطلب ، عمة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ حملت قضيباً وأهوت به على رأس العدو فقتلته ، ثم قالت لحسان :

قم إليه فاسلبه ، فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل ...

قال حسان : مالى يا ابنة عبد المطلب بسلبه من حاجة ! !

وقد يكون بين الشعراء من يبلغ الذروة فى فنه ، ولكنه يفتقر إلى الإيمان بما يقول ، لأنه يستمد بواعث شعره من الظروف التى تحيط به ، وقد تختلف هذه البواعث من حال إلى حال ، حتى تبلغ فى اختلافها مبلغ التناقض العجيب ، مثل تناقض المتنبى فى موقفه من كافور . . .

وقد يكون من الشعراء من يعبر شعره تعبيراً صادقاً عن خصائص نفسه وسلوكه فى الحياة . ولكن ميزة الصدق فى كفة « الفن » تقابلها المعرّة فى كفة « الالتزام » إذا كانت الخصائص النفسية للشاعر وسلوكه فى الحياة يقومان على الأنانية أو الانحراف أو غير ذلك من المثالب والعيوب . وهنا يتحول معنى الصدق فى التعبير إلى معنى آخر قد يكون الوقاحة أو الفجور !

ومن الشعراء من تكون هذه خصائصه النفسية ، وذلك سلوكه فى الحياة ، ولكنه فى شعره صورة أخرى . . ينتحل فيها المعانى الكريمة ويوقع ألحان العزة والشرف ، ولا يجد حرجاً فى أن يكون ذا وجهين كل منهما على نقيض الآخر . .

وهنا تبرز قضية كبرى ، هى شخصية الفنان فى حياته الخاصة والعامة ، وفى صلة مبادئه وسلوكه بما ينتج من فن .

هل للفنان شخصية واحدة ، هى قوام سلوكه وفنه . أم أن

للفنان شخصية مزدوجة . . فسلوكه شيء وفنه شيء آخر ؟

وهنا أيضاً تبرز مغالطة كبرى . . .

تلك التي تقول إن للفنان حياته الخاصة ، يتصرف فيها كما يشاء ، ووفقاً لأهوائه ونزواته . فإذا أنتج فنه وجاء هذا الفن فى صورة أخرى مغايرة كل المغايرة لطبيعة الفنان وحياته الخاصة بما فيها من نزوات وأهواء ، لم يكن فى ذلك أية غرابة أو مجافاة للمنطق ولطبيعة الفن والحياة !

والحقيقة الأولى التى تصدع هذه المغالطة الكبرى ، هى أن الفن تعبير عن الحياة ، وأن أهم مقومات الفن هو الصدق فى التعبير . وعلى قدر نصيب التعبير من الصدق تكون قيمة الفن وحظه من العمق والأصالة . فليكن الفنان ما شاء فى مبادئه وسلوكه ، ولكن حين يجيء فنه صورة أخرى لا تحمل ملامح نفسه وخطوط مسلكه فى الحياة ، فذلك برهان كذبه وخداعه ، ودليل على زيف فنه ، مهما برع فى « الصناعة » وأجاد التمثيل .

« ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » !

حقيقة خالدة ، اهتدى إليها العلم فى أحدث ما وصل إليه

من كشوف فى عالم النفس ، تتبدد فى ضوئها خرافة ازدواج الشخصية . . .

* * *

تلك أنماط مختلفة من الشعراء ، وصور من مقومات شخصياتهم وعناصر فنهم ، ونماذج من قضايا الفن والحياة .

فأين مكان هاشم الرفاعى من هؤلاء الشعراء ، وأين مكان فنه ؟

إن هاشم الرفاعى طراز آخر قليل النظراء فى ميدانه ، لأنه جمع فى شخصيته من العناصر والمقومات ما يندر أن تجمعه شخصية شاعر آخر ، ولأنه كان يمتاز بالاتساق العجيب بين أبعاده النفسية والسلوكية والفنية ، وبالتآلف الكامل بين هذه العناصر التى تقوم عليها حياته وفنه . ولهذا جاءت شخصيته سوية لا تناقض فيها ولا اضطراب ، قوية واضحة لا اهتزاز فيها ولا غموض .

ولنعرض قطاعاً معيناً من حياة الشاعر وفنه ، ذلك هو القطاع العاطفى الذى يربطه بالمرأة . فماذا كانت مشاعره وآراؤه ومسلكه فى هذا القطاع ؟

إن نشأة الشاعر فى بيئة ريفية دينية ، تلتزم التقاليد العفة فى علاقة المرأة بالمجتمع ، وفى تحديد الإطار الذى تعيش فيه ، قد طبعت وجدان الشاعر وفكره بهذه التقاليد ، فهو فى مناعة

من دينه وخلقه ، وهو مؤمن بفضائل المرأة فى مجتمعه هذا الذى لم تصل إليه موجات الاستعمار الانحلالية التى غزا بها بعض المجتمعات فى المدن الكبرى . . .

ومعركة المرأة كانت إحدى المعارك التى خاضها الاستعمار لإذابة مقومات المجتمع العربى ، وحشد لها كل أسلحته بالفيلم والصورة والكلمة والنغم وأنماط الأزياء ، وأسواق الرقيق الأبيض على الشواطىء وفى بعض حفلات البر . وقد استطاع الاستعمار أن ينتصر فى هذه المعركة ، ولكن انتصاره كان محصوراً فى بيئات خاصة هى التى انحلت فيها عرى الدين والتقاليد العربية الأصيلة ، وظلت البيئات الأخرى فى المدن وفى الريف عامة ممتنعة على هذه الغزوات ، تعيش المرأة فيها على تقاليد عفة كريمة .

كم فى القرى من غادة ... حسناء كالرشأ الغرير
النائمات لدى العشى ... القائمات لدى البكور
الحافظات على الليالى ... قدس عهد للعشير
السافرات وفى شمائلهن ... حصن للسفور
وبرزن فى أخلاقهن ... حياء ربات الخدور

وفى ظلال تلك التقاليد العفة الكريمة ، يكون الحب معصوماً من الزلل ، لا تلحقه ريبة أو سوء ظن . وفى ذلك يخاطب الشاعر محبوبته قائلا :

يا بنت ذا الريف الجميل لقد مضى
عهد ونحن على البعــاد القائم
قسماً بمشبوب الغــرام وإنــه
للظى تأجج فى الفــؤاد الهــائم
لم أخش يوماً فى هــواك وشايــة
أو خفت فى لقياك لومة لائم
بنت الطبيعة إن أحب فــؤادها
تلق الحبيب عــلى عفاف سالم

وحين يهبط الشاعر العاصمة ويلتحق بالجامعة ، تفجؤه صورة أخرى فى مجتمعه الجديد ، صورة بعض الفتيات وقد أسرفن على أنفسهن وعلى الشباب حيث يجمل القصد . فلا تستهويه الصورة المثيرة كبعض الشباب الذين جرفهم التيار . . ولكنه يقول لإحداهن من قصيدة بعنوان « رماد الفضيلة » .

لا تمدى لصيــده أحبولــه
من تــثنٍّ ومقلة مكحولــه
إنه ها هنــا أخ وزميــل
أنت أخت له وأنت زميــله
نحن فى منهــل العلوم ولسنا
فى مباراة فتنــة مصقوله

فعـــلام الشفاه ترمى بنـــار
خلّفت تحتها رماد الفضيله
إن هـــذا الذى نرى رقصات
فوق قبر الـــكرامة المقتـــوله
فإذا شئت أن ترينـــا جمالا
حسبك النفس حين تبدو جميله

ويبدو أن الشاعر تعرض لتجربة من هذا النوع فى أواخر أيامه ، صورها فى قصيدة بعنوان « العابثة بالحب » فقال :

قالت العين لى : أجل	ثم أطرقت فى خجل
أنت أحببتـــنى ولم	أدع الحب يكتمل
أنت تلهـــين بالهوى	ومن اللهو ما قتـــل
كم تساءلت ما الذى	يمنع المرء لو فعل
أنفق الوقت هانئاً	بشبـــابى على مهل
ساخراً من قيودنـــا	والرقيب الذى غفـــل
ثم أنسلّ عائـــدا	لا أبالى الذى حصل

إنه يصور بذلك منطق بعض الشباب الذين يتخذون من « الحب » مطية للعبث والانغماس فى العلاقات الآثمة ، فإذا قضى أحدهم وطره . . انسل عائداً لا يبالى الذى حصل !

أما الشاعر فليس من هذا الطراز من الشباب . إنه يقول لفتاته العابثة بالحب :

ذاك مـــا يستطيعـــه كل من يبتغى الزلل
فدعيـــنى فإننـــا إن بدأنا فلن نصل
رب شخص سواى لو مسح الجرح لاندمل

ذلك أن الشاعر لا يعرف « الحب » وسيلة للعبث والسقوط ، ولكنه يرى الحب عاطفة قدسية سامية . وأسمى مراتب الحب عنده هو الحب العذرى ، تدل على ذلك مسرحيته التى نظمها وهو فى العشرين من عمره عن شهيد بنى عذرة : عروة بن حزام . . .

إن اهتمامه بحياة هذا الشاعر العذرى الشهيد ، وتصوير قصة حبه واستشهاده فى هذه المسرحية ، ليس إلا انعكاساً لمذهبه فى الحب ، وتجاوباً فى المشاعر بينه وبين شهيد بنى عذرة . وقد هيأ له ذلك أن يبلغ فى مسرحيته هذه — وهى محاولته الأولى فى هذا الفن — مستوى عالياً فى صدق التعبير وروعة البناء وبراعة الحركة ، لا يقل عن مستوى كثير من أعلام المسرحية الشعرية فى الأدب العربى .

إن الشاعر العف الذى يستهويه الهوى العذرى ، يقول على لسان « سعاد » إحدى شخوص مسرحيته :

بنو عذرة الطاهرون الأباة كرام الشيوخ نقاة الشباب
إذا عشقوا كان عشق التقاة وقام من الطهر فيهم حجاب
يموتون حبًّا لأن العفاف لهم فى الصبابة طبع وداب

الطهارة ، والإباء ، والكرم ، والنقاء ، والتقى ، والطهر ، والعفاف . . . هى عناصر الحب عند بنى عذرة ، وعند شاعرنا الشاب الشهيد !

والحب عنده ليس عاطفة ضالة مهومة متقممة ، تقود صاحبها على غير هدى ، وتنهب اللذة الآثمة من هنا وهناك . ولكن الحب عاطفة قدسية تعرف معارجها إلى هدف كبير ، يلتقى عنده قلبان وتمتزج روحان . استمع إلى الشاعر وهو يقول على لسان عروة :

تحملت يا عفراء حبا كأنه بقلبى على مر الزمان لهيب
فؤادى فؤاد ملؤه البثّ والضنى يكاد من الوجد الشديد يذوب
فلا هو عن حب ابنة العم مقصر ولا جرحه فيما يطيب يطيب
وما زال مذ نحيت عنى تمائمى إلى اليوم يعروه لديك وجيب
وماذا يفيد القرب إن لم يكن لنا من القرب فى ظل الزواج نصيب !

أجل . ما الهوى ، وما الحب ، وماذا يفيد القرب . . إذا لم يكن ذلك فى ظل الرباط المقدس ؟ !

وللشاعر عدة قصائد فى الغزل ، وهو فى طابعه العام غزل عف تتمثل فيه عبادة الجمال ، على أن بعض هذا الغزل تختلف صوره عن طبيعة الشاعر الملتزم ، مثل قوله فى مقطوعة بعنوان « فاتنة » :

بسمة الوجه فى دجى الشعر تحكى ومضة الفجر فى ظلام الليالى

ذلك الثغر باهتصارك يغرى ذلك الصدر ملهب للخيال
فى قوام متى احتواه ذراعى وأطل الردى فلست أبالى !

ومثل قوله فى وصف « راقصة » :

وجسم كطيف النور ينضح فتنة مشت فيه نيران الصبا فتلهّبا
عليه من الوشى الرقيق غلالة أبانت لنا السحر الخفى المحجبا
وإن أنس لا أنساك ليلة جئتنا يزينك بردان : الملاحة والصبا
وطافت بك الأنغام سكرى تأوّدت فهزت لنا ردفاً ونهداً مدربا
وملتِ فمال الكون بى وإخالنى خرجت من الإعياء أرجوا المطببا

هذه الصور التى تبدو معربدة متمردة على خلق الشاعر وطبيعته العفة الجادة ، ليست إلا لوناً من ألوان التنفيس عما يكابد الشاعر من كبت وحرمان ، والتعويض بالصورة والخيال عما يتحرج أن يمارسه فى واقع الحياة .

على أن الشاعر يُكشف عن حقيقة ليست خافية كل الخفاء ، وهى أن الغزل فى شعره لا يصور فى جميع حالاته تجارب خاصة ، فهو قد يجىء فى شعره على طريقة المتصوفة حين يرمزون به إلى معان أسمى من معانيه الظاهرة . وقد يبدأ الشاعر بعض قصائده بالغزل على الطريقة التقليدية ، ثم يخلص من الغزل إلى أغراض القصيدة الأخرى . وإذا كان بعض غزله لم يتوافر له عنصر الصدق فى التعبير عن طبيعته ، فإن الشاعر كان صادقاً كل الصدق حين قال فى مقطوعة له بعنوان « كبرياء الحب » :

المنى ملء قلبه لا الصبابه ... وهب المجد روحه وشبابه
شاعر يقطع الحياة انطلاقاً ... والطموح الوثاب يحدو ركابه
يخدع الناس إن تغزل يوماً ... مبدعاً صورة الهوى وعذابه
فتخالونه سقيماً معنّى ... شفه الحب طاغياً وأذابه
وهو لم يسلم العنان لأنثى ... ذات سحر تريه معنى الكآبه
نفسه حرة ، بها كبرياء ... تعصم القلب أن يضيع صوابه

٧

ومحاولة الشاعر التنفيس عما يكابده من التزام الجد فى كل أمره ، وفطام نفسه عن لذاذات الشباب ، اتخذت مسارب أخرى غير التعبير بالصورة المعربدة والخيال المتمرد . وذلك عن طريق الزجل والشعر العامى ، والشعر الفكاهى الذى يجمع بين العامية والفصحى .

إنه فى هذه الفنون يتخفف من أعبائه النفسية وقيوده الفنية ، فينطلق يداعب ويسخر ويهجو . . فى صور لاذعة أحياناً ، تكاد تقهقه أحياناً أخرى . وهو فى ذلك يبلغ غاية بعيدة من الإبداع الفنى . فلو لم يكن اشتهاره بالشعر لكان من أعلام فن الزجل .

وهو فى هذه الفنون الترويحية التى يتخفف فيها من أعبائه النفسية وقيوده الفنية ، لا تزايله مثله ومبادئه وأهدافه . ولهذا كانت أزجاله وأشعاره العامية صورة من شعره الفصيح بكل

خصائصه الموضوعية ، وكان الاختلاف فقط فى الشكل والإطار . . .

استمع إليه فى زجل عنوانه « حامى الاستعمار » يقول لمستر تشرشل رئيس وزراء بريطانيا وقتئذ :

كل الشعوب تلعنك يا حامى الاستعمار
يا باغى ع الحق دايماً بالحديد والنار
اسمك صبح من تاريخه للنداله شعار
بكره الزمن راح يسجل فى صحايفه السود
أفعالك اللى ح تنطق بالهوان والعار

* * *

كان فين « إرسكين » بتاعكم قاتل الأطفال
وانتم ف « دنكرك» شايفين العذاب أشكال
وقفت تخطب نهارها وتشكى سوء الحال
وتقول معنديش خلاف الدمع دلوقتى
داهية تسم البعيد الخاين البطـــال

فى هذه الصورة ثورة على الاستعمار وتنديد بجرائمه المنكرة وصحائفه السود ، وكان « إرسكين » قائد القوات البريطانية فى منطقة القناة ، قد فقد صوابه فراح يصب نقمته على المواطنين العزل ، ينسف الدور ، ويقتل الشيوخ والنساء والأطفال ؛ فنظم الشاعر هذا الزجل موجهاً حديثه إلى تشرشل « حامى

الاستعمار » يلعنه ويعيره بموقف الهزيمة والذل والعار فى « دنكرك » ويمن عليه بحماية الشعب العربى فى مصر لقواته المنهزمة أمام قوات « رومل » حتى تحولت معركة العلمين بعد الهزيمة إلى انتصار :

أشهد لك انك يا مستر فى السفاله زعيم
خاين لأنك بتتنكر لشعب كريم
فضله عليك قبل غيرك يا خواجه عميم
وان كنت ناسى جنابك زنقة « العلمين »
يفكرك «مونتجمرى» اللى بيومها عليم

وهو فى قصيده فكاهية عنوانها « مشى الهلافيت » يقدم نموذجاً للرجل أدركه الشيب وما زال سادراً فى غيه ، فى صورة ساخرة ونقد لاذع فيقول :

لا بالملام ولا بالنصح تنتفع — متى أراك عن التهليس تمتنع ؟
رأيت ذقنك مثل الصوف شايبة — ولست عن سيرك البطال تنقطع
عار عليك إذا أصبحت منحنياً — وفيك كل صنوف الهلس .. والبدع
فكم سهرت بكازينو تبعزق فى — مصروف بيتك والأولاد ماشبعوا
إذا رأيت «لهاليبو» لك ابتسمت — تطب فى حبها كالعجل إذ يقع
لك انبساط وتهييص وفرفشة — وللولية هم القلب والوجع

وتجد الملامح النفسية والفنية للشاعر فى أزجاله ، هى ملامحه ذاتها فى شعره الفصيح . فهو يقول على لسان عروة بن حزام :

لياليناعند الخميـــلة عودى
فقد أذبل الهجران ناضر عودى

جرى الدهر بالتفريق بينى وبينها
وآلمنـــا بالنحس بعد سعود

وكان حميداً فعــله فإذا به
وليس على هذا الأسى بحميــد

فصوّح أزهارى وكانت ندية
ومات على ثغرى الغداة نشيدى

وهذه الصورة بملامحها النفسية والفنية تجدها فى أغنية عامية للشاعر عنوانها « أيام هواك » إذ يقول :

أيام هواك كانت أحــلام   يا ريتها طالت أحلامه
دامت لمين فى الهوى أيام   لما تدوم لنــا أيامه !

* * *

ياما ليالى علينـــا كتير   فاتت وكنت قريب منى
تشكى الهوى من قلب أسير   ودموعى تشكى لك عنى

راحت وراح أملى فيهـــا
ما بقيتش يوم افرح بيهـــا

ماتت على عودى الأنغـــام   وياما رنّت أنغـــامه
دامت لمين فى الهوى أيام   لمـــا تدوم لنا أيامه !

٨

وتمضى الخطوط النفسية فى حياة الشاعر واضحة المعالم مستقيمة الاتجاه ، معروفة البداية والنهاية . يتمثل ذلك فى جميع صوره الشعرية ، فهو الشاب الذى عرفنا سلوكه العف ومنهجه الجاد فى الحياة . وقد كان إحساسه بمعنى الوطنية والاستجابة لداعى الكفاح جد مبكر فى حياته ، إنه يقول وهو فى الرابعة عشرة من عمره تحت عنوان « عقيدة » :

حب البلاد عقيدة أشربتها من ثدى أمى حين كنت رضيعا
فإذا دعتنى للكفاح عقيدتى لبيت داعيها الكريم سريعا

وفى هذه السن المبكرة جداً بدأت ثورته على « الطاغية » ومفاسد عهده ، فقد قال فى هذه القصيدة نفسها ويرجع تاريخها إلى يوليو عام ١٩٤٩ — والطاغية فى عنفوان طغيانه :

يا فتية النيل الممجد إننـــا نأبى ونرفض أن نساق قطيعا
هذا ابن «نازلى» للهلاك يقودنا جهراً ويلقى فى البلاد مطيعا
فإلى متى هذا الخنوع وإنه جرم أضاع حقوق مصر جميعا

وفى الفترة التى سبقت قيام الثورة ببضعة أشهر ، اشتدت وطأة الفدائيين على معسكرات الاحتلال البريطانى ، فعملت الحكومة القائمة وقتئذ على شل حركة الفدائيين ، وقبلت الدخول فى مفاوضات مع الغاصب المحتل . فنظم الشاعر قصيدة بعنوان « جهاد ضائع » استهلها بقوله :

سئم الفؤاد الزوز والتضليلا لا نرتضى غير الجهاد سبيلا
قالوا : مفاوضة . فقلت لهم متى أجدت مفاوضة اللئام فتيلا؟

ثم يتحدث عن أولئك الفدائيين الأحرار الذين زلزلوا قواعد المستعمر وأرقوا أجفانه فيقول :

هم فتية بذلوا النفوس رخيصة يبغون مجداً للبلاد أثيلا
هتفوا لمصر غير أن هتافهم كان الجهاد عشية وأصيلا

وبعد أن يعدد جرائم المستعمر ويحرض على القصاص منه يقول :

السيف مفتاح الطريق إلى العلا تعس الذى يبغى سواه بديلا
خلّوا سبيل القائمين بحماه فسيطردون من البلاد دخيلا

وإنك لتجد إيمان الشاعر بأن الحق يجب أن تؤيده القوة ، واضحاً فى مواضع كثيرة من شعره ، فهو يقول :

* والحق إن صنته بالرمح تسمعه
كل الشعوب وتصحو عين غافيها

* وإذا الضلال طغى على صوت الهدى
فالسيف بعض وسائل الإقناع

* دع السيف يبدى الحق لو كان خافياً
فما مثله إن شئت فى الحق قاضيا
وخضّبه لا ترحم عدوّاً فإنه
لورد دم الأعداء قد بات صاديا

أضرّ بـــه طول الأوام ، فروّه
إلى أن يرى فى الكف أحمر قانيـــا

أرانا إذا لم نطلب الحق بالظـــبى
فلسنا عـــلى الأيام نلقى الأمانيـــا

وفى هذا الاتجاه نفسه الذى تسير فيه حياة الشاعر ، تطالعنا صورة الفتى المؤمن بدينه وتاريخه ، إنه يخاطب بعض الشباب الذين لفهم ضباب الحيرة ، وتجاذبتهم مختلف الصيحات ، وكاد ينقطع ما بينهم وبين حقائق دينهم وأمجاد تاريخهم من أسباب فيقول :

أيها السائر بـــين الغيهب
عاثر الخطو جلّى التعب

ضارباً فى لجـــة غامضة
من محيط العالم المضطرب

لا تقف حيران مشبوب الأسى
هكذا ، نهباً لشتى الريب

ذلك الدرب سلـــكناه معاً
من قديم ، لست بالمغترب

أنت فى الدنيا نمـــاءٌ هائل
مشرق الماضى عريق النسب

أنت لا تعرف من أنت ولم
تقرأ التاريخ يا ابن العرب

تلمس العلة تشكو بأسها
ثم لا تدرى لها من سبب

أنا أنبيك عن الداء وعن
طبه المهجور ملء الكتب

ثم يتحدث الشاعر عن رسالة الأمة العربية التى انطلقت من قلب الجزيرة فغمرت الآفاق شرقاً وغرباً بالنور والعدل والحضارة ، ويثير فى خاطر هؤلاء الشباب الذين أوهن الاستعمار

إيمانهم بأنفسهم ، كوامن القوة والعزة الممتدة بجذورها فى أعماق ماضيهم فيقول :

لم يزل فى خاطرى أن الذى قوّض الرومان بالرمح أبى !
كيف لا أذكر أجداداً لهم فتكة الإعصار عندالغضب
وجواداً قبّلت حافـــره لجة البحر تجاه المغرب
وملوك الصين تهدى تربها لفتانا فى صحاف الذهب
نهضة بالدين شادوا صرحها ثابت الركن قوى الطنب

ثم يتساءل بعد ذلك موجهاً حديثه إلى شباب الأمة :

أعرفت الآن معنى أن ترى حاقداً يلبس ثوب الثعلب
عرف الإسلام ، ما غايته ما الذى يحمل للمغتصب
فمشى بالكأس مسموماً وكم يشهد الليل دبيب العقرب
همّه أن يصبح العرب بلا عاصم كالدين عند النّوب
همه المصباح لو أطفـــأه أهلك السارين ليل العطب

إن الدين فى روحه أحد عناصر القومية العربية ، وفى أرض العرب ومن سمائهم أشرق الدين فى صوره المتعاقبة على لسان موسى وعيسى ومحمد . وليس كالدين قوة وعصمة وهدى للفرد والأمة .

وفى نشأة الشاعر الدينية ، بين أسرة اشتهرت بالتصوف والريادة فيه ، حقيقة نرى من الإنصاف أن نركز عليها الأضواء . . .

هذه الحقيقة تمثلها الشاعر فى حياة أسرته ، وفى واقع حياته كما تضمنها شعره فى كثير المواقف .

وتلك هى أن الدين ليس عقيدة منعزلة عن الحياة ، وليست مجرد طقوس وعبادات فحسب ، ولكنها عقيدة دافعة فى الحياة إلى الخير والحق ، والجهاد فى سبيل الخير والحق حتى الشهادة ..

وكذلك التصوف ليس هروباً من الحياة ، وإنما هو تحرر من أغلالها ليستعلى الإنسان بنفسه وبالإنسانية إلى حياة أكرم وأرشد ، ومجاهدة تعين على الجهاد لتحقيق هذه الأهداف .

وكان ذلك هو الواقع الذى تمثله الشاعر فى حياة أسرته ، وأخذ عنه فى حياته . . .

وقد مرت بنا بعض المواقف التى تؤكد هذه الحقيقة ، ونعرض هنا الصورة الشعرية كما يعكسها وجدان الشاعر ، للرجل المؤمن بدينه حق الإيمان — فى أعلى مراتب الإيمان ، إذ يقول :

* تراه إذا ما لفه الليل قانتاً	ويبدو إذا ما كرت الخيل ضيغما
* تراه كميًّا فى النضال مدرعاً	وتلقاه ليلاً للقيام تأهبا
* من كل صنديد تضم ضلوعه	إحساس قديس وقلب شجاع
* إذا شهدوا الوغى كانوا كماة	يدكون المعاقل والحصونا
وإن جن المساء فلا تراهم	من الإشفاق إلا ساجدينا

ويمضى الشاعر الشاب على دربه ، تتفتح مشاعره كل يوم عن تجربة جديدة تعمق إحساسه بمواريثه الدينية والقومية ، وتنمي مواهبه وملكاته المتفاعلة مع الأحداث ، وتهيئه للالتقاء مع الثورة العربية الكبرى على موعد وقدر !

فلما قامت الثورة ، كان هاشم الرفاعى ظاهرة من ظواهرها المضيئة على حاشية الأفق وصورة من وجدانها تمثل حقيقة مجنحة فى سماء القومية العربية .

وكذلك كان قيام الثورة فى وجدان هاشم الرفاعى انطلاقة بعيدة المدى لمشاعره ، وانتصاراً رائعاً لما يهتف به فى شعره من معان وأفكار . ولم يكن الشاعر يومئذ بحاجة إلى أن يتلمس الطريق ليواكب الثورة فى انطلاقها نحو أهدافها ، لأنه كان يسير من قبل على هذا الطريق ، وكان يستشعر فى ضميره تلك الأهداف ، ويتغنى بها فى شعره ، ويرنو إليها من وراء الغيب يكاد يحدد مكانها على حاشية الأفق البعيد . . .

٩

وعرف الشاعر مكانه فى موكب البعث والتحرير والبناء ، وعرفت الأمة مكانه . . فكان شاعراً من ألمع شعراء الثورة العربية الكبرى ، اصطنعته الأقدار التى صنعت هذه الثورة . فهو يتغنى بمبادئها وانتصاراتها ، ويحدو خطاها فى طريقها الصاعد ، ويخوض معاركها فى كل ميدان . . .

استمع إليه فى « معركة القناة » يقول :

بمدفعه المغرور قد صال واعتدى
وراح علينا بالقذائف واغتدى
وأغرى بنا عند الحدود كلابه
وأرسل للعدوان يضرب موعدا
مؤامرة كانت أعدت وأحكمت
ولكنها ضاعت على بابنا سدى
وكائن(١) وقفنا فى لظى الحرب وقفة
نجسّم منها للبطولة مشهدا
بكل فتى يهفو إلى الدم سيفه
فلا ينثنى حتى يروّى له صدى
كتائب إن طالعتها يوم زحفها
تروّعك من أيمانها النار والمدى

ثم يصف كفاح بور سعيد وصمودها فى وجه العدوان ، ويقارن بينها وبين بلاد للمعتدين أنفسهم ذاقوا فيها مرارة الهزيمة والعار ، تجد هذه الصورة مفصلة فى عدة أبيات من القصيدة ، وتجدها كذلك وقد اجتمعت خطوطها فى بيت واحد إذ يقول عن المدينة الباسلة :

---

(١) كائن بمعنى كأى تفيد التكثير مثل « كم » قال جرير :
وكائن بالأباطح من صديق يراك إذا أصبت هو المصابا

وكانت لهم « دنكرك » أخرى ولم تكن
« كباريس » للألمان صيـــداً معبدا !

وكان الشاعر المؤمن الملهم يعبر عن الإرادة المنتصرة إذ يقول عن القناة وقد توقفت فيها الملاحة بسبب العدوان :

فلا صلحت هذى القناة ولا جرت
بحاجات قـــوم لا يمرون سجّدا !

وقد كان . . .

فقد فشلت مؤامرة العدوان ، وارتد المعتدون على أعقابهم منكسى الرءوس والأعلام ، وأصابهم توقف الملاحة فى القناة بالفزع من سوء المصير . وصدق الشاعر المؤمن الملهم فى تعبيره عن الإرادة المنتصرة ، فلم تجر القناة بعد إصلاحها بحاجات أولئك القوم ، إلا وهم يمرون بها سجداً ويعطون « الجزية » عن يد وهم صاغرون ! !

ويعود الشاعر أربعة عشر قرناً إلى الوراء ليقول على لسان الخنساء شعراً ، أو هو يبعث الخنساء فيمن بعث من شعراء العربية الذين أيقظتهم الصيحة فساروا فى موكب البعث والتحرير . . .

إن الخنساء تقف على قمة التاريخ وتنظر إلى الأفق البعيد عبر القرون والأجيال ، تتنور صورة الفتى العربى المأمول فتقول :

رأيت سناً يطل من الدياجى على آفاقهم ولمحت فجرا

كأنى بالفتى العربى يومـــاً وقد عرف الطريق فسار حرا
وأدرك كل ما نصبو إليه وأحرز فى مجال العز نصرا
وأمسك غمد مـُنصله[1] بكف ومدّ إلى سماء المجد أخرى !

إنها صورة البطل القائد ، وصورة كل فتى عربى يأخذ مكانه فى موكب البعث والتحرير . صورة لو حاول إبداعها مصور أو مثّال ، لما بلغ ما أبدعته ريشة الشاعر فى هذا البيت من روعة وإعجاز :

وأمسك غمد منصله بكف ومدّ إلى سماء المجد أخرى !

ويقول الشاعر فى عيد الجلاء ، من قصيدة بعنوان «شعب وقائد» :

شعب يعانق مجده المسلوبا ويشق آفاق الخلود وثوبا
قد أذّن الأحرار من أبنائه بالبعث فانتفض الرماد لهيبا
ودعاه داع بالعلا كلف ، فما ألفيت إلا سامعاً ومجيبا
وتلفّت التاريخ يشهد دولة كبرى ، ويبصر قائداً محبوبا

ويتوجه الشاعر إلى القائد بالبيعة والعهد فيقول :

فانهض بشعبك يا جمال فإننا جئنا نردد عهدنا المكتوبا
إن شئت أفعمنا الوجود محبة بيضاء تعبق فى المدائن طيبا
أو شئت أنبتنا الأديم جماجما تسقى دما يجرى لديه صبيبا

إنه دستور الثورة ، وعهد الأحرار . . بيننا وبين الأصدقاء والأعداء :

---

(١) المنصل بضم الصاد وفتحها : السيف .

ونمد كفا للصديق نديـّة ونمد سيفاً للعدو خضيبا

وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

إنى لأعمل للسلام ولغرس أزهار الوئام
الله يشهد ما بذر ت بذور شر فى الظلام
لكننى آبى لأرض ى أن تذل وأن تضام
هذى يدى . فيها الإخا ء وفى يدى الأخرى سهام
فالود منى للصديق وللعدا الموت الزؤام !

وكان الشعور بالقومية العربية من أعمق مشاعره وأكثرها امتزاجاً بفكره ووجدانه ، فهو شعور أصيل ينبع من مواريث الشاعر ومن روافد بيئته ومصادر ثقافته . ولهذا كانت صوره التى أبدعها عن « الجزائر الثائرة » وعن مأساة فلسطين فى قصيدته « وصية لاجئ » وملحمته الخالدة « رسالة فى ليلة التنفيذ » ومذابح الأحرار فى العراق ، والمحاكمات التى أهدرت دم العدالة. فى قصيدته « أغنية أم » . . كانت هذه الصور أسمى ما وصل إليه فنه الشعرى ، وأروع ما تردد فى سماء الأمة العربية من ألحان ، وأصدق ما عبر عنه شاعر عربى المشاعر والبيان . . .

بهواك ، بالدم فوق تربك يا جزائر
يجرى وينبع من حشاشة كل ثائر
بشهيدك الملقى على سفح المجازر
بالسخط يغلى فى القلوب وفى الخناجر

بالرابضين على القمم
الثائرين على الظلم
سنفجر الأضواء فى تلك الدياجر
وتسيل أفراح الحياة على المقابر

تلك هى الجزائر الثائرة ؛ كما تنعكس صورتها من وجدان الشاعر ، وكما تعيش فى وجدان كل ثائر من الرابضين على القمم ، وكل عربى ما بين المحيط إلى الخليج . . .

أما وصية اللاجئ إلى ابنه ، فهو بعد أن يصف له المأساة الدامية ، ويثير حنينه إلى مرابع طفولته ومستقر آماله ، يقذف فى نفسه شحنة تتجمع فيها عناصر المأساة ويهتف به قائلا :

إن جئتها يوماً وفى يدك السلاح
وطلعت بين ربوعها مثل الصباح
فاهتف على سمع الروابى والبطاح
إنى أنا الأمس الذى ضمد الجراح
لبيك يا وطنى العزيز المستباح

أوَ لست تذكرنى ؟ أنا ذاك الغلام
من أحرقوا مثواه فى جنح الظلام
بلهيب نار حولها رقص الذئاب
لفّت حياتى بالدخان وبالضباب

وعلى ضفاف الرافدين ، كان الليل يلف أمّاً اتشحت

بالسواد ، وهى تضم إلى صدرها طفلا « ترضعه الجراح مع اللبن» فقد أعدم الطغاة أباه فيمن أعدموا من الأحرار الأباة . وهى تهنه الطفل الساهر بأغنية حزينة مقاطعها « تأجج بالدماء » .

ستمر أعوام طوال فى الأنين وفى العذاب
وأراك يا ولدى قوى الخطو موفور الشباب
تأوى إلى أم محطمة مغضّـنة الإهاب
وهناك تسألنى كثيراً عن أبيك وكيف غاب
هذا سؤال يا صغيرى قد أعد له الجواب

فلئن حييت فسوف أسرده عليـك
أو متّ فانظر من يسرّ به إليلك

فإذا عرفت جريمة الجانى وما اقترفت يـداه
فانثر على قبرى وقبر أبيك شيئاً من دماه !

وفى هذه الأغنية تجلت كل طاقات الشاعر القومية والفنية ، فقد كانت مأساة القومية العربية هناك فى عنفوانها ، وكان الطغاة والعملاء قد صبغوا الرافدين بدماء القوميين الأحرار ، وأحالوا ضفافهما الزاهرة مجازر رهيبة حمراء !

وليس ببعيد أن تكون « أغنية أم » التى تجمعت فيها نيران الثورة المكبوتة فى صدور أبناء الرافدين ، ومشاعر السخط التى كانت تغلى فى صدور أبناء العروبة فى كل مكان . . ثم قذف بها الشاعر فى وجوه أولئك الطغاة والعملاء — ليس ببعيد

أن تكون هذه الأغنية التى نظمها الشاعر قبل مصرعه بفترة قصيرة . . . هى التى ألهبت فى قلوب أعدائه نار الحقد والانتقام !

وتكتمل شخصية الشاعر وتبلغ مشاعره مداها فى مختلف الأبعاد التى تمتد إليها رسالة الثورة العربية الكبرى ، فهو ينفعل بالأحداث التى تجرى فى الأقطار الإفريقية والآسيوية ، ويحس فى أعماقه بالجذور المشتركة التى تربط بين أبناء هذه الأقطار ، ويدرك وحدة الكفاح بينهم فى سبيل التحرر من أغلال الاستعمار ، وبناء مستقبل تمارس فيه شعوب هذه المنطقة حقها فى الحياة الحرة الكريمة .

استمع إلى الشاعر فى قصيدة بعنوان « رسالة من إفريقية » على لسان أحد جنود الاستعمار هناك ، يوجهها إلى فتاته فيما وراء البحار . إنه يصور فى هذه القصيدة الهول الذى يلف حياة أولئك الجنود وهم يخوضون معركة خاسرة ، بعد أن دوت فى القارة العذراء صيحات الحرية ، وتفجرت تحت أقدام المستعمرين براكين الثورة ، وآذنت شمس الاستعمار بالمغيب . . .

ومع المساء تزلزل الأحراش دقات الطبول
وترنّ أنغام الدمار على الروابى والسهول
ومراجل الأحقاد تغلى فى المراعى والحقول
وأمام حشد الزاحفين تفر أسراب الوعول

حتى إذا صرخ النذير
ودنوا من السور الكبير

جنّت بنادقنا ، وخاضوا نارها متقحمين
فإذا النصال من الشمال تلفّنا ومن اليمين

ويستيقظ ضمير الجندى الذى قذفوا به من وراء البحار إلى أعماق القارة السوداء ، ليسفك دم الأبرياء ويسفكوا دمه ، ويحمى اللصوص الذين يسرقون حريات الناس وأرزاقهم ، فيقول فى رسالته إلى فتاته :

أو ليس يكفينا لكى نحيا نتاج المزرعه
حتى أصب على أخى سوط العذاب لأخضعه
ويقض حيناً مضجعى وأقض حيناً مضجعه
وأعيش مغترباً هنا بين الرماح المشرعة
يأتى الطعام إلى فمى
مرّاً تلوّث بالدم
وأصوغ من آلام قوم جنة للمترفين
الحالمين ، وثورة البركان تهدر من سنين!

ويوحى المؤتمر الآسيوى الإفريقى للشاعر معانى يستمدها من أعماق التاريخ . إن الروابط التى تجمع بين الأمة العربية وبين الشعوب الإفريقية والآسيوية ليست وليدة الكفاح المشترك فى سبيل الحرية فحسب ، ولكنها روابط عريقة تمتد بجذورها إلى فجر ذلك التاريخ ، يوم حملت الأمة العربية رسالة النور

والحرية والإخاء إلى مختلف الشعوب . . .

في آسيا وعلى جديب رمالها ... شهد الورى ميلاد شعب واع
نبت الهدى والحق فى جنباتها ... وجرى الضياء على لسان الداعى
وكما يسيل الفجر سال النور من ... هدى السماء على ربا وبقاع
ومشت مواكبه وفى أيمانها ... آى تبلغها إلى الأسماع
من كل صنديد تضم ضلوعه ... إحساس قديس وقلب شجاع
وكسا الضباب الأرض فى إفريقيا ... ما بين غابات بها ومراعى
بسطت ذراعيها لتحتضن السنا ... طبا يخلصها من الأوجاع
عرفته فتحاً للبناء وللعلا ... قد جاء ، لا لمجرد الإخضاع
وتنسمت ريح المنى فى زحفه ... من بعد حالك هونها اللذاع
فإذا الوجوه السمر من أبنائها ... تطوى خضم البحر فوق شراع
وتدك خلف الماء عرش محكم ... فى الناس أو ملك هناك مطاع

١٠

بقيت كلمة أخيرة فى فن الشاعر وأداة بيانه .

ما هى طبيعة أسلوب الشاعر ، ومادته اللغوية ، وطريقته التشكيلية ؟

إن نشأة الشاعر فى بيئة عربية أصيلة عرف أهلها بالفقه والأدب ، والتحاقه بمعهد دينى من أهم مواده علوم اللغة وآدابها ، ثم التحاقه بكلية دار العلوم ، وهى البيئة المتطورة لهذه العلوم

والآداب ـ كل ذلك زود الشاعر بحصيلة وفيرة من ذخائر اللغة وأنماط التعبير ، طوعت له إفراغ مشاعره القوية المتعددة الجوانب فى قوالب شتى من اللفظ المعبر والعبارة المؤتلفة والنسق المبين :

وكثيراً ما أثيرت قضية اللفظ والمعنى ، أو الشكل والمضمون . . فى تقييم الأدب والفن . وكنا نجد إسرافاً فى مذهب الذين يزعمون أن التمكن من اللغة ، والتعمق فى معرفة أسرارها ، والاحتفال باللفظ والشكل ، ليس شيئاً ذا بال فى تقييم الأدب ، وليس شيئاً ضرورياً فى بناء شخصية الأديب . وأن القيمة الحقيقية للأديب وأدبه هى صدق انفعاله وصدق تعبيره ، على أية صورة من الصور أو أى مستوى من البيان . . .

وكذلك كنا نجد إسرافاً فى مذهب الذين يستهلكون طاقاتهم فى الصياغة الشكلية والزخرفة اللفظية ، حتى تجف مشاعرهم فلا تجد لها فيما أنتجوا من فن أو أدب ، نضارة رى أو نبض حياة !

وحسب هذا المذهب وذاك بعداً عن الحق ومجانبة لمنطق الفن والحياة ، أن كليهما يقوم على الغلو والإسراف . . .

وهذا الإسراف ترجع بواعثه ـ فى الغالب ـ إلى العجز أو القصور فى ناحية ، فيكون الإسراف فى الناحية الأخرى لتغطية هذا العجز أو القصور . فالشاعر الذى تتوافر لديه عناصر الشاعرية ، ولكنه لا يملك أداة التعبير لضيق ذات يده أو ذات

عقله من الثروة اللغوية ، ولا طاقة له على التزام قيود الفن فى توقيع أنغامه . . مثل هذا الشاعر يحاول أن يغطى عجزه وقصوره فى الأداء ، بتلفيق مذهب أعجمى البيان مهاهل الأوزان ، ويسرف فى اصطناع هذا المذهب والدعوة إليه وتسفيه ما عداه أيما إسراف . . .

والشاعر الذى يملك أداته من لغة وأوزان ، ولكنه ضحل المشاعر محدود التجربة ، يحاول أن يغطى هذا القصور فى عناصر شاعريته ، لضيق ذات نفسه ، بالإسراف فى العناية بالشكل والإطار ، والزعم القديم بأن « المعانى » ملقاة على جوانب الطريق يلتقطها من شاء ، ولكن اختيار « الألفاظ » وفن الصياغة هو مقياس البلاغة وعنوان الإبداع . . .

إسراف هنا وهناك مبعثهما فى الغالب عدم تكامل الشخصية الفنية عند هذا الشاعر أو ذاك . وحين يوجد هذا التكامل بين عناصر الشاعرية وأداة البيان ، لا يقصر لفظ عن معناه ، ولا يستعجم معنى على مخارج حروفه ، ولا تضيق قافية بعاطفة . وإنما هو الشعر فى صورته الفنية الكاملة ، إحساس صادق ، وعبارة نابضة ، ونسق مؤتلف ، وإيقاع جميل .

وكذلك كان الشاعر هاشم الرفاعى . . .

وهو لم يكن كذلك منذ مارس التعبير بالشعر عن تجاربه النفسية والفنية . ولكنه كان منذ البداية يملك بذور هذه

الخصائص التى تنتج مع نموها فى وجدان الشاعر وملكاته هذه الصورة الفنية الكاملة .

وقد كانت تغلب على الشاعر فى أداة بيانه ، صور الانطباعات التى ترسبت فى وجدانه وفكره من قراءاته الأولى فى الأدب العربى القديم . فهو فى بعض قصائده الغزلية يقدم لنا هذه الصورة البدوية التى انطبعت خطوطها فى وجدانه ، فكانت من أسلوب تعبيره وأداة بيانه :

جيد الظبا والمقلة الحوراء　　هذان يا قلبى هما الغرماء
كيف الوصول إلى التى قد ضمها　　خدر تظلله القنا ، وخباء
إنى سعيت لها بقلب واله　　وعلىّ من نسج الظلام رداء
وخطوت مجتازاً إليها ساحة　　للقوم حول خيامها إغفاء
وهمست من تحت الدياجى باسمها　　وبدا لخطوى عندها إبطاء
ورأيت تحت السجف بدراً عند ما　　برزت إلىّ يلفها استحياء
ضربت بكف صدرها وتعجبت　　من جرأتى ولعينها إيماء
فأجبتها : لا تعجبى ، غلب الهوى　　ضحكت وقالت : هكذا الشعراء !

ولكن الشاعر كان كلما نمت شخصيته وازدادت روافده النفسية والفنية ، تخلص شيئاً فشيئاً من الأثر المباشر لهذه

الانطباعات ، ولا يبقى فى وجدانه وفكره إلا ما يتمثله ويحيله إلى صور جديدة تحمل نبضات مشاعره وملامح فنه . وبذلك تطورت أداة الشاعر فهى عربية البيان أصيلة الألحان ، تترجم عن واقعه الفنى فى اتساق وقوة وائتلاق :

أقسمت بالبطل الشهيد وبغضبة الشعب المجيد
وبثورة البركان بر كان العلا فى برسعيد
وبوثبة الأحرار حين أقضّ بهم ذل العبيد
فى المغرب الدامى وأر ض عمان قد خلعوا القيود
لأحطّمن الطامعين الجا ثمين على الحدود

وهو حين يعود إلى استخدام الأداة الأولى فى شعره ، فإنما يجىء ذلك لا عن تأثر بانطباعات خارجية ، وإنما استجابة لمقتضيات الفن نفسه ، يتمثل ذلك فى قوله على لسان عروة بن حزام :

ألا من لقلب ناوحته الزعازع
وشوق قد انضمت عليه الأضالع
ونار لها بين الحنايا تأجج
تزيد ضراماً إن سقتها المدامع
وما زال هذا القلب مذ شطّ وَلْيُها[1]
وقطع ما بين الخليلين قاطع

---

(١) الولى : الموودج .

يكلفنى عفراء والدار قد نأت
وقد صدع العهد الذى كان صادع

فالشاعر فى هذه الصورة يبلغ قمة من الفن ، لأنه استطاع بما يملك من أداة بيانه أن يصور الجو النفسي الذى كان يعيش فيه شهيد بنى عذرة ، بأسلوب تحمل ألفاظه ملامح البيئة وخصائصها اللغوية والأدبية .

وقد يأخذ القارئ العجب وتملكه الحيرة ، حين يرى شاعراً مثل هاشم الرفاعى ملك أداة بيانه على الصورة الرائعة التى تضمنها شعره ، ثم هو مع ذلك يقول الزجل والشعر العامى .

وقد مرّ بنا أن اتجاه الشاعر إلى هذا اللون من الأدب كان تنفيساً عن عواطفه الجادة المثقلة بالهموم الكبار . ونضيف هنا أن الشاعر كان يرى « أن الزجل — لا الشعر — هو الأداة التى تصوّر بها أحاسيس رجل الشارع » وهو فى هذا الرأى لا يلتقى مع الذين يدعون إلى « العامية » كمذهب فى الأدب ، ولكنها ضرورة فنية تزول بزوال أسبابها ، وستزول هذه الضرورة يوم تزول عن رجل الشارع أميته ، وتتحقق له اشتراكية العلم والثقافة العامة .

وهذه الضرورة الفنية التى تفرض على الشاعر أن يعبر أحياناً بالزجل والشعر العامى ، لتصوير أحاسيس العامة ، هى نفس الضرورة التى فرضت عليه أن يستخدم الأسلوب الجاهلى

فى التعبير عن مشاعر شهيد بنى عذرة . . .

وإنما هى فى الحالين ، القدرة على امتلاك أداة البيان ، وفقاً لما يقضى به الفن فى مختلف بواعثه وأجوائه . . .

والشاعر فى أسلوبه التشكيلى يلتزم الطريقة العربية الأصيلة. إنه يلتزم بحور الشعر المعروفة ، وقد يتحرر من النمط الواحد فى القصيدة ، مع التزام التفعيلة ـ وحدة البحر .

وقد ترك الشاعر فى مذكرة بخط يده رأيه فى شكل القصيدة فقال إنه يرى ــ بناء على تجربته الشخصية ــ أن التمسك بالوزن والقافية لا يحول بين الشاعر وبين ما يريد أن يضمنه قصيدته من خلجات وأفكار . ويرقب بعين الحذر التطور الذى أدخله بعض الشعراء المعاصرين على شكل القصيدة العربية .

وكان برهان الشاعر على صدق رأيه فى التزام الوزن والقافية ، قصيدته التى نظمها بعنوان « صور وذكريات » وهى تبلغ خمسة وسبعين بيتاً ، التزم فيها قافية عصية . . ولكنها أسلست له قيادها وعرض فيها من صور الطفولة وذكريات الصبا ومغانى الريف وآلام الفلاح وآماله . . . آيات تكاد تبلغ حد الإعجاز !

ثم هو يخاطب الداعين إلى تحطيم عمود الشعر ، وتفتيت الوحدة الموسيقية للقصيدة ، وتحرير الشعر من قيود الوزن والقافية فيقول :

أيها الهاتفون بالشعر حــرّا ولكم دعوة بــه طنانه
قد أتيتم له بنهــج غريب يفرض اليوم بينكم سلطانه
وتشدقتمو بزخرف قــول عن « مفاهيم » نمقتهاالرطانة
ليس شعراً وإنما هو شيء فوقه الشعر رتبة ومــكانه
إنما الشعر ما تدفق عذبــاً فى بناء فأحكموا بنيانه
أسمعونا إذا استطعتم قريضاً لا خيالات جالس فى حانه
فإذا شقّت القيود عليــكم فدعوه لمن يصوغ جمانه

* * *

ذلك هو الشاعر الشاب الشهيد : هاشم الرفاعى . . .

طاقة جبارة من الشاعرية ، وشحنةدفاقة من مبادىء القومية العربية ، والتزام صادق فى الفن والحياة .

وتلك بعض ملامح حياته وفنه ، نقدمها للتعريف بحياة الشاعر وبواعث فنه وخصائصه النفسية والفنية ، وتحية للشاعر الشهيد فى يوم ذكراه : . .

رثاء وتقدير

أقام المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، حفلا لتأبين الشاعر الشهيد يوم ٢٧ أكتوبر ١٩٥٩ بقاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة . وفى الصفحات التالية مختارات من الكلمات والقصائد التى ألقيت فى هذا الحفل . إنها طاقة من الأزاهير ندية الأوراق متجددة العبير ، نضعها على ضريح الشاعر الشهيد فى يوم ذكراه . . .

افتتح السيد كمال الدين حسين
حفل التأبين بالكلمة التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم

منذ أشهر قليلة ، فوجئت مفاجأة مذهلة ، حين قرأت وأنا فى غيبة قصيرة عن أرض الوطن ، نعى هاشم الرفاعى فى إحدى الصحف العربية . . .

لم أصدق عينىّ لأول وهلة ، فقد كان عهدى بهاشم الرفاعى غير بعيد ، يوم وقف فى دمشق العربية ، بين الآلاف من الشيوخ والشباب ، ومن الأمهات والبنات ، تتدفق حماستهم وتهدر ، وهو ينشدهم شعره فى مهرجان الشعر الأول ، وينفث أناته وزفراته حمماً من لهب وشواظاً من نار . . .

أنات وزفرات من الظلم والطغيان الذى يسيطر على القطر العربى الشقيق ، وعلى الشعب العربى الشقيق ، فى بغداد وما حول بغداد . . .

وحمم ولهب ونار على الطغاة الظالمين الغادرين من حكام

العراق ، الذين انحرفوا بثورته التاريخية المجيدة إلى عكس أهدافها ، وإلى ضد مراميها ومبادئها . . .

وكان عهدى بهاشم الرفاعى غير بعيد ، يوم وقف فى العيد الثانى للوحدة المجيدة الخالدة ، يحيى الوحدة ويباركها ويعاهدها عهد الوفاء وعهد الفداء ، فى خضم زاخر من مئات الآلاف من الشباب ، قد احتشدوا للاحتفال بهذا العيد الخالد ، وليروا ويسمعوا قائدهم ورائدهم وحامل رايتهم إلى المجد جمال عبد الناصر . . .

وكان عهدى به غير بعيد ، يوم رأيته من قبل ومن بعد ، مرتين أو مرات ثلاثا ، يعتلى المنصة فى بعض ندوات الشباب ، ينشد من شعره فى كفاح بور سعيد الباسلة ، ويصف الدم العربى المشترك الذى بذله الأخوة العرب ، دفاعاً عن هذا الجزء الغالى من وطن العرب ، الذى أبت قوات البغى والعدوان وشراذم العصابات إلا أن ترده بعد عز الحرية إلى ذل الرق ومهانة الاستعمار ، فكانت وقفة العرب التاريخية التى نصرت الحق ورفعت راية الحرية ، وكان اندحار كل قوى البغى والعدوان .

كان عهدى بهاشم الرفاعى غير بعيد فى هذه المواقف القريبة ، وكنت أتطلع إلى المستقبل الذى ينتظره ، وأرى الشعلة التى يحملها تصعد متوهجة الضياء فى سماء الشباب والشعر والوطنية ، فيمتلئ قلبى ثقة بالمستقبل واطمئناناً إليه ، إذ أرى

شباب الثورة قد أخذوا أهبتهم لحمل أعباء المستقبل الثقال ، وأرى واحداً من قادتهم فى ميدان الرأى والشعر والأدب والروح ، تؤهله حماسة وخلق وجد وعزيمة ، ليتخذ له مكاناً بين صفوف الطليعة . . .

كانت الشعلة التى يحملها أذاناً ببزوغ فجر جديد ، ولكن سرعان ما أطفأتها يد الإجرام والحقد والغدر والخسة . . .

لقد علقت بهاشم الرفاعى أملاً كبيراً ، فكانت صدمة فجيعتى به ، على قدر عظيم أملى فيه . . .

كانت أناشيده للحرية أنغاماً عذبة تشجى كل باحث عن الحرية وكل مجاهد لها فى كل وطن .

أحببت هاشم الرفاعى ، لأنى رأيت فيه صورة لما أحب من شباب وطنى وأمتى ، فكان حبى له لوناً من حبى لوطنى وأمتى . . .

لقد كان نموذجاً طيباً للشباب العربى الطيب ، عاش لفكرة آمن بها ومات دفاعاً عنها ، وبفكرته وبإيمانه سيحيا ويمتد فى الزمن ما امتد الزمن . . .

إن الذين ضاقوا بفكرته فاغتالوه بالخنجر المسموم فى الظلام ، لم يكن كل قصدهم أن يقتلوا هاشم الرفاعى ، إنما كانوا يريدون أن يطفئوا شعلة ويخفتوا صوتاً ويمحوا صدى ، ولكن هاشم الرفاعى الذى غيبه القبر منذ بضعة أشهر ، لم يزل

مضىء الشعلة ، عالى الصوت والصدى . . .

إن صورة هاشم الرفاعى باقية هنا ، فى نفوس شباب الجمهورية العربية المتحدة ، الذين يعتدونه مثلاً وقدوة ومفخرة.

وقصته باقية هنا ، بين أبهاء هذه الجامعة . . . التى فقدته عضواً بارزاً من أسرة هذه الجامعة ، وأسرة كل جامعة ، فى الجمهورية العربية المتحدة .

باقية فى كلية دار العلوم ، التى تعتده خريجاً من خريجيها ، وإن استشهد قبل أن يستكمل صفة الخريج ، لأنه فى سبيل رسالتها للقومية وللعروبة كان رأيه وكان استشهاده فى سبيل هذا الرأى .

قصته باقية فى إنشاص ، القرية الرابضة على حدود أرض المعركة التى تحقق فيها النصر للأمة العربية والخذلان لأعدائها .

قصته باقية فى دمشق ، حيث لم تزل أصداء هتافه للحرية ، وللوحدة ، وللحب والسلام والرحمة ، تتجاوب مع أهازيج الطير وحفيف الغصون فى بساتين دمشق الفيحاء . . .

قصة باقية فى كل مكان ، وفى كل أرض ، وفى كل نفس ، لأنها قصة الشباب المؤمن ، المنطلق فى إخلاص يرسل النغم ويرتل الأناشيد لحب الوطن ، ومجد الوطن ، وحرية الوطن ، ووحدة الوطن . . .

ستبقى قصة هاشم الرفاعى ، وستبقى روحه ، تدفع شباب

الشعراء لحمل المشعل والراية ، لا تثنيهم عن بلوغ الغاية خيانة خائن ، ولا غدر غادر ، لأن فى نفوسهم إيمانهم ، وشعورهم بواجبهم ، يدفعانهم إلى الفداء والبذل ، وإلى القول والعمل ، مترسمين خطاً جريئة شجاعة مؤمنة ، خطاها قبلهم على الطريق هاشم الرفاعى . . .

إن الراية التى حملها لن تسقط ، والمشعل الذى أضاءه لن ينطفىء ، والمبادئ التى ترسمها لن تنمحى . . . ستنتصر دائماً مبادئ المحبة ، والوفاء ، والبناء ، على مبادئ الحقد والغدر والتدمير . . .

إن الشباب المؤمن ، الواعى ، المستنير ، لا يمكن أن يتنكب طريق الخير والحق والفضيلة ، لأن واحداً منهم قد ذهب ضحية هذه المبادئ ، بل سينتصرون للخير ، ليثبتوا أن الخير جدير بأن ينتصر ، ويكافحون فى سبيل الحق ، ليبلغوا من حقهم ما أرادوا ، ولتظل منارة الحق مضيئة عالية ، تتنور نبراسها فى كل طريق جموعهم الزاخرة ، الزاحفة إلى المجد ، وجموع مواطنيهم الذين يستضيئون بأنوار إشعاعاتهم القوية الوضاءة . . .

إن الشباب المؤمن ، الواعى ، المستنير ، لا يبالى ما يصيبه من مكروه فى سبيل عقيدته ، ورأيه ، والغايات العظيمة التى يطلبها لوطنه . إنهم خليقون بأن يتمثلوا أبداً قول شاعرهم :

لو لم أكن فى ثورتى متطلباً   غير الضياء لأمتى لكفانى

أهوى الحياة كريمة لا قيد، لا إرهاب، لا استخفاف بالإنسان
فإذا سقطت سقطت أحمل عزتى يغلى دم الأحرار فى شريانى

لست أدرى أأرثى شباب الشاعر الذى استشهد قبل أن تدق أصبعه على كل أوتار نفسه الشاعرة ، أم أرثى شعره الشاب الذى انبتر لحنه الدافق بحيوية الشباب قبل أن يستكمل أنغامه . . . لست أدرى ، ولكنى أدرى أن هنا شاعراً شاباً وشعر شباب ، بكل ما يدل عليه معنى الشباب من قوة وعنفوان ، ومن إيمان وأمل . . .

شاعر شاب ، انصهرت فى نفسه كل آمال أمته ووطنه ، أمته العربية ووطنه العربى ، وتجاوبت فى أعماقه كل أصداء النداءات الصارخة من كل حدب وصوب ، من أرض فلسطين الشهيدة ، إلى أرض الجزائر المجاهدة ، إلى أرض بور سعيد الباسلة ، إلى أرض العراق المخضبة بدم الأحرار من أهل الإيمان والفضيلة ، وكأنما أبت موجة الطغيان والبغى التى تغمر العراق الآن . . . حين رأت هاشم الرفاعى يثور على طغيانها وبغيها ونذالتها . . . أبت ألا أن تحرقه بنارها ، وتضمه إلى قائمة الشهداء الأبرار من أحرار العراق ، فقتله العملاء غيلة وغدراً بمثل الأسلوب الوحشى الذى وصفه الشاعر الشهيد فى آخر قصيدة نظمها للتنديد بطغيان جلادى شعب العراق ، وكأنما كان يتحدث من وراء الغيب عن قصة اغتياله وقصة إخوان له

فى سجون العراق إذ يقول :

دمع السجين هناك فى أغلاله ودم الشهيد هنا سيلتقيان
حتى إذا ما أفعمت بهما الربا لم يبق غير تمرد الفيضـــان

وكما كان شهيد اللاذقية جول جمال فى بور سعيد ، رمزاً على وحدة الكفاح بين مصر والشام فى سبيل الحرية ، كان دم الشاعر الشهيد هنا ودمع السجين المقيد بأغلاله فى بغداد ، رمزاً آخر على وحدة الكفاح فى سبيل الحرية ، بين مصر و بغداد ...

لقد عاش هاشم الرفاعى حياته شاعراً بطلاً ، ومات ميتة شاعر بطل ، وكان فى حياته وموته صادق التعبير عن نفسه ، وعن مشاعره ومشاعر أمته ، لو شاء باحث أن يعرف حياته كاملة من شعره لوجد فى شعره كل أسباب المعرفة لحياته ، ولو شاء شاعر أن يقرأ آخر قصيدة لم ينظمها هاشم لقرأ قصة موته ، إنها خاتمة ديوانه ، وآخر قصائده الصامتة . . .

رحم الله هاشم الرفاعى وشكر سعيكم له ، وأيدكم بالإيمان والعزم والقوة ، ليمتد بكم فى الزمان أثره وتاريخه . والسلام عليكم ورحمة الله .

* * *

وقال السيد يوسف السباعى
السكرتير العام للمجلس :

أذكر أننى ما التقيت بالسيد كمال الدين حسين وجاء ذكر الشعر والشعراء إلا وسألنى :

ــ ألم تر هاشم الرفاعى ؟

وأهز رأسى بالنفى . . فيقول :

ــ إنه شاب عجيب . . إنه نابغة . . لا بد أن تسمعه . .

ورأيته فى مهرجان الشعر أول مرة . . شاباً أسمر متين البنيان فى ملامحه رجولة . . وفى خطواته اعتزاز وقوة . .

وبدأ يلقى قصيدته بلسان شهيد يوشك أن يلقى حتفه وهو يحدث أباه من وراء قضبان السجن . . وكانت الثقة ملء صوته. وكان فى إلقائه إيقاع . . يأخذ بالكلمات فتتقدم ثابتة موزونة، ونغم . . يحيط بالمعانى فتنساب فى رفق هادئ مريح . .

ولقيته آخر الحفل . . وشددت على يده وهنأته . . وعدت إلى القاهرة . . وصدى الشاعر ملء أذنى . . وقبل أن أدعوه للقاء . . قرأت نبأ مصرعه . .

لقد كان هاشم من خير شبابنا . . كان رجلاً وكان عبقرياً . . رحمه الله . . وعوضنا فيه خيراً .

هتف النعاة على دمشق . . .

من قصيدة الأستاذ شفيق جبرى
مقرر لجنة الشعر بالإقليم السورى

هتف النعاة على دمشق فلففت بيض الثياب
ورمــت إلىّ بحزنهـا والليل مسودّ الخضاب
فركبت متن الريح يدفعنى السحاب إلى السحاب
وأتيت « مصر » ودونهـا أفق مغطى بالضبـاب
حتى لقيت النيـل مضطرم الغـوارب والعباب

* * *

يا زهــرة لو أمهلت مــلأت نوافحها الرحــاب
لهـفى عليك فهل يطول على الحمى منك الغياب
لم أنس شعراً فى دمشق كأنه الصــدق اللباب
فيه الفتــوة والرجولة والدعــاء إلى الوثــاب
إيمــانه ملء القلوب وصــدقه مــلء العيـاب
ذابت حشاشتــه عــلى وطن تعبّــده وذاب
فبمثلــه عــز الحمى وبمثله طاب النصاب
عجبى لمن ألــقى عليه سلاحه حــتى أصاب !

لهف نفسى !

من قصيدة للأستاذ على الجندى

لهف نفسى على الصبا المنضور لفه الغدر فى ظلام القبور
لهف نفسى على القريض المصفى صوحت زهره عوادى الشرور
لهف نفسى على النبوغ المسجى بردآء من البلى والدثـــور
فجعتنا عصابة الكفر والإلحا د والبغى والخنى والفجور
بالمجلّى السامى على كل قـــرن فى مجال المنظوم والمنثور
بالرفاعى فى غرائب ما يأتيـ ه من زخرف ومن تحبير
بالمكنّى فى شعره بابن أوس[1] والمسمى بالبحترى الصغير
ذبحوه ويأرج المسك مذبو حاً ، وبالذبح كان فخر العطور
قتلوه بغياً ليخفـــوا سنـــاه كيف يخفى سنا الصباح المنير

* * *

ولدى هاشم وما كنت إلا ولدى فى وفاتك المأثور
جدك السبط — وهو أكرم سبط — لقى الله بالنجيع الطهور
لم يحصنه من كلاب الأعادى أنه بضعة البشير النذير
فتمل الرضوان فى الخلد وانعم بين ولدانها وبين الحور

---

(١) ابن أوس : أبو تمام .

الشهيد الخالد . . .

للأستاذ محمود عماد

برعم فتح من قبل الأوان | نشر العرف وشيكاً واستكان
أتراها دفقة من عـــرفه | أخدرته أم جناها فيه جان
لو درى الجانى على من قد جنى | لتهاوت ندما منه اليـــدان
بل دراه وأتى فعلتـــه | مذ أتاها ــ وهو مثلوج الجنان
أفـــا بيّت أمـــراً حيـــنما | بيت السكين واختار المكان؟
اغتفر يا ذئب فى القفر لنا | ما اتّهمناك به فى كل آن
إن منا من إذا أبصرتـــه | قلت : إنى شيخ نُسّاك الزمان!

* * *

أنت يا هاشم قد زلت ومـــا | زلت فى صحبك تبدو للعيان
لست أنسى زهرة قد هزهـــا | شعرك الباكى بيوم المهرجان
فانبرت تدفع جمعاً حاشدا | وتلقتك بفيض من حنـــان
ثم قالت : ما اسم من أنشدنا ؟ | فتسميت . . فأعياها البيان
ومضت باكية عن حفلنـــا | قبل أن يعقب هذا الشعر ثان
أنت قد أبكيتها حيًّا فيـــا | شدّ ما تبكى وذا حينك حان
أدرت أن الذى أعجبهـــا | أجهز الحقد عليه فى ثوان
لا . . فما مات سوى الحقد وما | زلت يا شاعر مرعىّ الكيان
إن من تذكره دولتـــه | فهو باق والذى تنساه فان

دمعة دمشق . . .

للدكتورة طلعة الرفاعى

ورنت دمشق إلى الضياء وهللت ... لفتى تخطى عالم الفتيان
تصغى إلى لحن الخلود يريقه ... فيض سماوى السنا . . ربانى
ويسود صمت لا تحس خلاله ... إلا هدير الوحى والإيمان
وتقمص الجمع الغفير بواحد ... وكأن آلاف الأكف يدان
صور من الملأ الكبير سخية ... هى فوق كل تصور وبيان
صور من الروح المعذب صاغها ... ملك كبير الروح والوجدان
فإذا دمشق تموج بين دموعها ... فى رفق إشراق وسحر معان
وتساءلت عنه . . فقيل فتاك من ... أرض الجهاد يزينه بردان
برد النبوغ العبقرى يلفه ... بأريجه برد الصبا الريان

* * *

أنا لست أنسى يوم قولك : يا أخى ... «والحبل والجلاد منتظران [1]»
وكأنما كنت النبى منبهاً ... فى وحيه للغدر والعدوان
ما ضر لو صبرت ركابك يا أخى ... ووقفت تشهد ثورة البركان
ورأيت سيل النار يهدر هازئاً ... بجماجم الأنذال والعبدان
ورأيت موكب أمتى فى زحفها ... ألقاً يبيد دياجر الطغيان

(١) إشارة إلى قصيدة الشاعر الشهيد « رسالة فى ليلة التنفيذ ».

يا شهيد البيان

للدكتور أحمد عبد المقصود هيكل

فقده جل أن يكون مصابا فلقد كان محنة وعـذابا
محنة وشحت فـؤادى سوادا وعذاباً غشي عيونى ضبابا
إن نصلاً أصاب هاشم غدرا مالئٌ مهجتى مُدى وحرابا
فلقد كان فرحة تفعم « الدا ر » رجاء وبهجة وشبابا
ولقد كان نغمة فى الفم النيـ ـل ولحناً فى سمع مصر عجابا
ولقـد كان للعروبة ناياً يتغنى بمجـدها خلاّبا
يتغنى فتحسب الوحى قد عا د ليملى من القريض كتابا
ولقد كان وهو بعد هـزار يسبق النسر للعلا والعقابا
ولقد كان وهو عـود رطيب يفرع الدوح والجذوع الصلابا
ولقد كان وهو نبـع صغير يزحم النهر هادراً والعبابا
ولقد كان وهو مثل بنينـا إن شدا بزّنا فنحنى الرقابا
كيف يهوى النجم السنى إلى الأر ض ويمسى تحت التراب ترابا
كيف تردى النسرَ المحلق كفٌ هى أحرى بأن تصيد الذبابا
كيف تفرى الذئاب قلب ملاك قد أحب الأحياء حتى الذئابا
يا شهيد البيان هذا بيانى ذاهل اللحن لا يحير جوابا
يا شهيد البيان طِر فى ذرى الخلـ ـد وخذ جانب الإله رحابا

لن ننسى . . .

للدكتور عبد الحكيم بلبع

. . إيه أيها الصديق العزيز !

لم يكن فى الحسبان أن ننعاك وأنت ما زلت فى عمر الورود . لم يكن فى الحسبان أن تصبح ذكرى أمسنا وأنت الذى كنا نرجيك لغدنا ؛ فكم كانت لنا فيك مع الغد آمال ، وكم كانت لك أنت مع الغد آمال . . آمال نضرتها بألحانك العذاب ، آمال وطنك الحبيب الذى طالما غنيت له أعذب أغنيات النصر ، وطالما اهتزت نفسك لأحداثه الكبيرة فسكبت هذه النفس شعراً حيًّا لايزال ينبض بالحياة ، وسيظل أبداً ينبض بالحياة . . .

لن ننسى — يا صديقى العزيز — مواقفك الرائعة الخالدة التى صنعتَ بكل موقف منها مجداً ، ونسجت فى كل موقف منها خيطاً فى قصتنا الكبيرة . . قصة كفاحنا من أجل الحرية والحياة .

ولكأنى بك حينما مثلت بخاطرك قصيدتك العظيمة « رسالة فى ليلة التنفيذ » ، إنما كنت تستلهم أحداثها من مصيرك أنت ، وهكذا كان إحساسك بوطنك وأمتك ، وهكذا استطعت أن تصنع من حياتك القصيرة قصة كبيرة حافلة بالأمجاد والمفاخر . . .

مع الخالدين

للأستاذ صالح جودت

اللاجئون يولولون عليك ولــولة الثــكالى
وبنو الجزائر يصبغون بيوم مصرعك الجبالا
والثائرون بــكل أرض حــرة ترد القتالا
شقوا محاجرهم عــلى فجر تهلل ثم مــالا
وذووك من هول المصاب عيونهم تندى الرمالا
من كل نائحة عليك . وكل سائلة سؤالا :
أين الذى زاد الملاحم من جوانبــه اشتعالا؟
وأنا أسائل : أين قاتلك الذى هدم المثالا؟
إن عده نصراً ، فمغلوب من انتصر اغتيالا
أو كان ثعباناً فكيف على « الرفاعى » استطالا!
أو كان يطلب ما بلغت علاً فقد طلب المحالا
أو كان يطمع فى فنائك فالخلود إليك آلا
ولرب يوم فى شبابك يعدل الحقب الطوالا
يوم كيومك فى دمشق وقد تقدمت المجالا
ودمشق مهد الشعر منذ أمية طابت ظلالا
إن كان لم يرحم شبابك حاسد ركب الضلالا
فاركب براق الخالدين ولذ برحمته تعالى

شهيد الأحقاد

للأستاذ عبد الله شمس الدين

قضيت حياتى لا أحب المراثيا
وما جئت كى أبكى وما جئت راثيا
ولكننى للمجد جئت ملبيـاً
أحيي نشيداً فى فم الخلد ساميـا
أحيي شهيداً قام فينا مغنيـاً
من الملأ الأعلى يرف أغانيا
يمر على حقد الـتراب معاتباً
ويومى إلى تـكريمه اليوم راضيا
فيا شادياً ما زال يرجف أيكه
ذهولاً ، ويا كم رجّع الشدو باكيا
رمتك يد الأحقاد فى بسمة الصبا
وما رحمت فيك الصبا والأمانيـا
وما مات من غنى الخلود بشعـره
وعاش صداه فى فم الدهر شاديا
ولا مات من وفى العهود بروحـه
وقد كان درعاً للعروبة فاديـا

مات شاعر . . .

للأستاذ إبراهيم عبد الحميد عيسى

الليل والصمت الرهيب طوى انطلاقات الصباح
والدمعة الخرساء أطلقها على الخـــد النواح
والآهة الثـــكلى تئن بها السوافى والريـــاح
والأفقِ مربدّ الأديم فلا يرف بـــه جناح
ماذا وراء الكون . . ماذا يحملِ القدر المتاح ؟
فرنا الوجود إلىّ مخبولاً بكىّ القلب حاسر
وتعثرت كلم الزمان وقال لى : قد مات شاعر

* * *

ماذا أقول وقد تعثّر فى فمى حتّى النـــواح
والشعر فى شفتيك إلهـــام لغيرك لا يتـــاح
طعنوك . . هل طعنوا سوى ألق الرجولة والكفاح ؟
خنقوا الزهور وبعثروا أوراقها فوق البطـــاح
أنا لست أدرى هل بقلبي ما بقلبك من جراح؟
يا صاحبي والموت حصّاد عمىّ الخطو عاثر
رغم الردى . . قال الورى : لا لم يمت من مات شاعر

صديقى . . عد !

للشاعر أنس داود
الطالب بكلية دار العلوم

صديقى . . عد ، عاد كل الرفاق ، أأنسيت أن هنا الموعـــدا
مكانك . . مجلسك الشاعرى . . تبدّى كسيف الرؤى أربدا
وعبر الدروب البعاد تسمّع خطوك واشتاق منه الصـــدى
وما زال فى حيرة الانتظار ، يفلسف حيرته مفـــردا
صديقى . . أنا والمكان هنا . . نناديك . . ننتظر الموعدا

* * *

أهاشم : يا قصة العبقرية زف الزمان لك السؤددا
وأرغم إكليل غار على أن يتوج شاعره الأوحـــدا
مكانك . . مجلسك الشاعرى . . تسربل جلبابه الأســـودا
نظرت إليه غداة النعىّ أتى كالحا ، شاحبا ، أربـــدا
فألفيته بقعة من دماء . . تروع النواظر والأكبـــدا
وحملته مضجعاً لرؤاى . . يفزّع صحوى والمرقـــدا
وما زلت أرتاع حين أراه ، وأغفى له خائفاً مرعـــدا
وأبعد عنه . . فيبقى وحيداً ، يفكر . . ينتظر الموعـــدا

لهفة الذكريات *

للأستاذ محمد على أحمد

. . بلى، إنه الليل ليل القريض ، فأين ترى صاحب الصوبلجان؟
وأين القوافى تهز الجموع ، وأين الغوانى وأين الحسان ؟
ترقرق أعينهن الدموع لشدو القصيد وسحر البيان
بلى إنه الليل والشعر يبكى . . لك الله يا شاعر المهرجان !

* * *

ألا إنها لهفة الذكريات تلم خيوط الفضاء السحيق
وتمشى بنا فى دروب الأمانى فنمضى ويدعو خطانا البريق
نكاد من الشوق نرقى المحال كما تلمس الشط كف الغريق
فتصدمنا مبهمات الغيوب وندرك أنا ضللنا الطريق

* * *

أخى فى الخيال ، أخى فى النضال ، أخى دمت للمجد فى الخالدين
كأنى أراك برغم القضاء تلوّح بالنصر للمخلصين
كأنك فى الحفل تدمى الأكف وتتلو علينا خطاب السجين
أخى أنت لحن ستصغى السنون إليه فيبقى بقاء السنين

---

* ألقيت فى الحفل الذى أقامته كلية دار العلوم بنادى الطلبة الشرقيين .

شكر وعزاء

كلمة أسرة الشاعر

للأستاذ مصطفى الرفاعى

بسم الله ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله
أيها الأحباب :
أرأيتم إلى المصباح . . يشرق حيناً . . ثم يختنق . . ؟
أرأيتم إلى الزهرة . . تزهو وتألق . . ثم تذبل وتصوح . . ؟
أرأيتم إلى الحلم الجميل . . يحلق بالمهومين فى دُنا من الأمانى الرائعات . . ثم يوقظهم فى عنف . . ليردهم إلى دنيا الواقع . . ؟
أرأيتم إلى الأمل الحبيب . . يداعب الآملين . . فيدنو . . ويدنو . . ثم ينأى ويتلاشى . . فإذا به ومض سراب بقيعة . . ؟
أرأيتم إلى البيرق . . يتصدر الموكب مختالاً خفاقاً . . تدق من حوله طبول الفرحة . . ثم يطوى وينكس . . فينفض عنه السامرون . . ؟
كذلك كان هاشم — يا أحباب :
مصباح أشرق ثم اختنق . !
وزهرة زهت وألقت ثم ذبلت وصوحت .
وحلم جميل طاف بنا ثم ردنا فى عنف إلى الواقع المر .

وأمل تلألأ ثم بان أنه ومض سراب بقيعة .

وبيرق طوى ونكس وانفض عنه السامر الحزين .

ولئن جل المصاب فى هاشم — يا أحباب — فإن عزاءنا فيه وعنه أنه قضى شهيد مبدئه وعقيدته ، وعروبته وقوميته ، تلك القومية التى تفجر إيمانه بها شعراً . . شعراً فيه عمق هذا الإيمان ووضاءته ، ودفعه وقوته .

لا نقول : هاجت الأحزان، ولا نقول : استبدت الأشجان، ولا نقول : انفطرت القلوب أو احترقت الجفون ؛ فإن رحمة الله تداركتنا ، فامتدت إلينا من هناك يد، يد بيضاء رحيمة، كفكفت عبراتنا ، وشدت ظهورنا ، وربطت على قلوبنا ، أتدرون يد من ؟ إنها يد جمال .

فإلى ذلك السيد السند ، راعى العروبة ، وقائد نهضتها ، وباعث قوميتها ، وجامع كلمتها ، أمل هاشم المرتجى قبل الثورة ، وملهمه بعدها ، الذى جدد عهداً ، وصدق وعداً ، وشيد مجداً ، وأفسح ببطولته للشعراء مجالات فشعروا ، وهيأ للكتاب غايات فنثروا .

وإلى الوزير الكبير ذى القلب الكبير، السيد كمال الدين حسين ، رائد النهضة العلمية ، وقائد الحركة الأدبية ، من أفاض على أسرة الشاعر من جميل المواساة ، وموفور الرعاية ، وسابغ العطف ، ما عزاها عن فقده خير عزاء .

وإلى السيد الوزير أحمد نجيب هاشم ، من عزى ورعى ، فأحسن الرعاية ، وأجمل العزاء .

وإلى الملأ من رجالات الجامعات ، الذين كرموا هاشماً حياً وكرموه شهيداً .

وإلى السادة الشعراء والأدباء ، الذين خلدوا الشهيد ، فى أسماع الوجود .

وإلى رجال الصحافة والإذاعة ، الذين احتضنوه فى حياته ، واحتضنوا قضيته بعد مماته .

إلى الذين سعوا إلى هذا الحرم ، يكرمون ويحيون .

إليكم جميعاً — يا أحباب — عميق شكرنا ، وخالص دعائنا

شكر الله سعيكم ، وأجزل أجركم ، وأطال بقاءكم . وإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، والسلام عليكم ورحمة الله .

مختارات

١ — صور وذكريات .

٢ — مساكنكم يأيها النمل !

٣ — عيد الثورة .

صور وذكريات

طفولة الشاعر وصباه ، وألوان الحياة النابضة فى الريف ، تصورها هذه القصيدة الطويلة التى التزم فيها الشاعر قافية عصية أسلست له قيادها ، ليدحض بها دعوى القائلين إن الشعر فى بنائه التقليدى يحول دون حرية التعبير ودقة التصوير .

ولو أن قصيدة تغنى عن ديوان فى الدلالة على حياة شاعر وفنه ، لكانت هذه القصيدة فى الدلالة على حياة هاشم الرفاعى وشاعريته .

فى ربوعٍ ظلالُها فتانـــه ... يبسط السحر فوقها ألوانه
صادح الطيرِ فى رباها تغنى ... وشدا للخميلة الفينانه
وجرى الماء بالحيـــاة نمـــاءً ... طرّز العشبُ والندى غدرانه
ونسيمٌ مؤرّج قد تهـــادى ... فى مجون يراقص السنديانه
بين تلك الربا وهذى المغانى ... والرؤى والمفاتن العـــريانه
قدعرفتُ الوجود طفلاً بريئاً ... حظه منه أن يمصّ بنانـــه
ورأيت الدُّنا بعينىْ صبى ... لم يكن بعدُ حاملاً أحزانه

يتْبع الرفقة الصغار للهوٍ ... قد أعدوا فى بيدر (١) ميدانه
ويجدّون فى اصطياد فراشٍ ... طاف بالحقل مسرعاً طيرانه
ولكمْ عربدوا بضفــة نهر ... وتحدى سبّاحهم خلجانه
وعلى الشاطئ المقابل راعٍ ... ساق للعشب فوقه قطعانه
وإذا ضمه من التوت ظـــلٌ ... داعب الناى مرسلاً ألحانه

* * *

لست أنسى انطلاقهم فى الليالى ... يوم أدنى السرور منهم دنانه
أزعجوا النائمين بالدرب لهواً ... صارخاً شق للفضاء عنــانه
ويقرّون فى قــرار خفيٍّ ... حين يأتى الخفير بالخيزرانه
ذكريات تلوح للعين خطْـا ... من سنى أوهن الأسى لمعانه
أبعد الدهرُ عهدها وفؤادى ... لم يزل خالطاً بها خفقــانه
ووعى الريفُ صورةً من حياة ... برّةٍ عشقها وسل رمضانه
أمسيات من الضياء وليل ... رفّ فى جنحه الإخاءُ وزانه
ساهرٌ(٢) عنده تجمّع قومى ... حول شيخ مرتل قرآنــه
فى خشوع لا يسمع المرءُ منهم ... غير همس: سبحانه سبحانه!!

* * *

الشموع التى بأيــدى صغار ... أسعدتهم دموعها الهتانه
والأساطير عن حروب رواها ... (شاعر) فى الندىّ أعلوا مكانه
وطبول السحور فى هدأة اللي ... ل بفطرىٍّ جرسها رنانه

---

(١) البيدر : المكان الذى يدرس فيه القمح ونحوه .
(٢) الساهر : مكان السهر .

والتراويح تحت خفق شعاع لقناديل تشتكى الاستكانه
والتسابيحُ كلّ مطلع فجر قبل أن يعلن الإمام أذانه
ودبيب الشيوخ نحو المصلى أملوا عند ربهم غفـــرانه
صور تملأ الغـــداة خيالى حين أطلقت للخيال عنانه

* * *

وتقضّى الصبا ومرت ليال حاليات ببشرها مزدانـــه
سار بالصبية الزمان ووالى بأســـاه وخيره دورانـــه
فإذا الانطلاق سجنُ كفاح أحكم الدهر حولهم قضبانه
أسلمتهم حيـــاتهم لشباب قد قضوا فى نضالهم ريعانه
من حنين فى صوت ورقاء تشدو عرفوا الحب واجتنوا تحنانه
كلما جاءهم ربيعٌ جديد يشهد الزهر والهوى مهرجانه
وعن الفجر حين يبدو كبيراً ناشراً من وضاءة طيلسانه..
عرفوا لـــذة ازدهار المعانى فى قلوب لنيلهـــا ظمآنه
وتجيش النفوس بالأمل الحلو ليقضوا من الحياة لُبانه
الأنين المكتوم فى صدر كهل شحن العزم بالقوى شريانه
فى سبيل البقاء يفنى ويسقى من دموع ومن دم عيدانه
بذراع معروقة أثقلتهـــا يدُ فأس يبثهـــا أشجانه
يتولى زروعـــه كصغـــار وأب قد أذاب فيهم حنانه
للثرى عاش ثم فى ذات يوم سيوارى هذا الثرى جثمانـــه

* * *

لوحةٌ لا تزال تنبض بالريف صراعاً . . وعزة . . وأمانه
تدفع المرء للكفاح مريراً وتقوّى بنفسه إيمـــانه
ولكمْ أضرمت شعور أديب عاش فيها وألهبت وجدانـــه
ملأت صدره أحاسيس شتى صبغت بالأسى العميق بيانه
وسمعنا القريض من فم شاد أنطقت بالجميل منه لسانه
فجرى كالسهول صفوا وكالزر ع نماءً وكالطباع .. رزانه
لفظه فى صلابة الأرض نسجاً والمعانى فى رقة الأقحوانه

* * *

أيها الهاتفون بالشعر حرًّا ولكمْ دعوةٌ بـــه طنـــانه
قد أتيتم له بنهج غـــريب يفرض اليوم بينكم سلطانه
وهجرتم توافه المتنـــبى . . وأبنتم بعلمــكم نقصانه
وتشدقتمو بزخرف قـــول عن مفاهيمَ نمقتها الرطـــانه
ثم قلتم من الحياة كلاماً ومن الواقعِ استمد كيانه
ليس شعراً وإنما هو شيء فوقه الشعرُ رتبةً ومكانه
ذهبت عنه روعة للحـــون يرهف الدهر عندها آذانه
وخلا من أصالة وجـــلال بهما أظهر الزمان افتتانه
إنه أبصر الحياة سقيما حاملاً فى يمينه أكفانــه
أيعيش الوليد والداء يمشى بين جنبيه ناشراً سرطانه

* * *

إنما الشعر ما تدفق عذباً فى بناء فأحكموا بنيانـــه

أسمعونا إذا استطعتم قريضاً . لا خيالات جالس فى حانه.
فإذا شقت القيود عليكم فدعوه لمن يصوغ جمانه
إننى ما رأيت فى الروض يوماً ما غراباً مزاحماً كروانه

* * *

أمن الفن أن يساق كلام ساذج باسم نهضة شيطانه ؟
طالعوا النور فى تراث القدامى وانظروا كيف أبدعوا تيجانه
سجلوا الواقع المراد ولكن جعلوا الفن عالياً ترجمانه
رسموا صورة الحياة لديهم فى جلاء بريشة فنانه

* * *

لا أنادى بأن تحاكوا زهيرا فيه أو أن تقلدوا حسانه
راح عهد الوقوف بالطلل البا كى فلا تذكروا به سكانه
جددوا ما استطعتمو فى المعانى وقفوا لا تحطموا أوزانه
ليست الفكرة الجديدة تأبى عرضها فى جزالة ورصانه
ألبسوها من القوافى خلودا ومن الوزن قوة ومتانه
لا تحيطوا تراثنا بلهيب فى غد تكره العيون دخانه
كل نهج أتى ليستر عجزاً نتقيه ونزدرى بهتانه
ربّ إنى على القديم مقيم وأعدّ الخلاص منه خيانه

مساكنكم يأيها النمل

تصور هذه القصيدة خلائق الشاعر واعتداده بنفسه ، كما تكشف عن عوامل الحقد التى سيطرت على نفوس حاسديه . نظم الشاعر هذه هذه القصيدة قبل مصرعه بقليل . . .

إلى ذروة العلياء سار بى الفعلُ
ومثلى للعليـــاء بين الورى أهـلُ

سموتُ بجـسدى وارتقت بى فضائلى
وليس أخو جد كمن طبعه الهزل

خُلقت أبيا يعشق المجـد يافعـاً
إذا ما وَنى[1]عن نيله فى الصبا كهل

وعشت بدفع الضيم والذل مغرماً
وأبذل فيـه الروح لو وجب البـذل

---

(١) ونى : ضعف ، كل .

وإنى لأُبـــدى الود للخـــل صادقاً
إذا كان فى الإخلاص قد صدق الخل
وإن شمتُ عنى فيه ميلا ورغبة
تبدّل منى الود وانقطع الوصـــل
إذا أنا لم أعرف لـــذى الحق حقه
فلا زانى حسنُ المكارم ، والأصل

* * *

ولـــكنّ قوماً ــ لا عفا الله عنهم ــ
يرَون ذنوبى أن يدين بىَ النبـــل
وما حيلتى فيهم ؟ وذنبى لديهمُ
مقامى حميداً حيث لا ينزل الـــذل
تحملت منهم كل ما يغضب الفتى
وعند امتلاء الكيل قد يطفح الكيل
وأهونُ حى من يُـــرى ذا عزيمة
ويسكت يوماً إن أساء له نـــذل
وإنى وقد أنضجتُ غيظاً قلوبهم
على حينَ لم يسمع لدىّ لهم قـــول

لئن شئت عاشوا فى ثيــاب مذلة
ولــكن لى عنهم بنيل العلا شغــل

لحىَ[١] الله جهالاً تــكاثر جهلهم
فسال به حزن وفاض به سهل

* * *

إذا رُمتَ أن تسقى من الود عندهم
فــكن مثلهم فى الناس شيمتك الجهل

وإن كنت تبغى العيش فى ظل حبهم
فلا يصطفيك العمرَ من دونهم فضل

أولو حسد قد ساءهم ما بلغته
فحقدهمُ وار وفى صدرهم غــل

يريدون بين الناس ذكراً ورفعــة
وظنــوا بأن المجــد إدراكه سهل

ودون بلوغ المجــد عزمٌ وفطنــة
وما لهمُ فى ذاك باعٌ ولا حــول

---

(١) لحى : قبح ، لعن .

وكم بذلوا للنيل منى جهودهم
فما بلغوا قصداً وفاتهم النيل

وما أنا ممن يجحد الناس فضلهم
ولكنه خبث السريرة والدخل(١)

وكم فى عداد العاجزين مكابرٌ
إذا جاء ضوء الصبح قال هو الليل

ومثلىَ لو شاءوا البلوغ لمجده
لأقعدهم جبن وأعجزهم عقل

* * *

وذو سَفهٍ منهم مشى بنميمة
فأهونُ تنكيل يليق به القتل

يذم لديك الغير حتى إذا مشى
إلى الغير لم يخطئك من كيده نصْل

وآخر ذو وجهين يلقاك باسماً
عليه ثياب البشر رقّ بها الغزل

---

(١) الدخل : الداء ، العيّب ، الريبة .

فشفّت عن الأحقـــاد واللؤم تحتها
فظهره وُدٌّ وفى بُـــرده صلٌ[١]

وكم لامهم فى شرهم كلُّ مصلح
فلم يهدهم لومٌ ولم يثنهم عذل

فيأيهـــا القـــوم الذين بلوتُهم
فأغرقنى من خبث أخلاقهم سيل

لقد جاءكم مـــنى سليمان فادخلوا
مساكنكم فى الأرض يأيها النمـــل

---

(١) الصل : الحية شديدة الخبث .

عيد الثورة

آخر ما نظم الشاعر ، وجدت
على مكتبه يوم استشهد ومدادها لم يكد
يجف بعد . . كان يريد أن يحيي بها
الثورة فى عيدها السابع ٢٣ يولية ١٩٥٩
ولكن القدر اخترم حياته وأخلف
موعده ، وبقيت هذه القصيدة
بلا ختام . . . إلا الخاتمة الرهيبة
لمأساة الشاعر الشهيد !

أعيدى قصـــة النصر ومـوعـــدنا مع الفجر
وزحف النور من غسق الدجى فى ساعة الصفر
فتلك حــكاية يا أمــتى أحلى من العمـــر

* * *

. . وكان بهامش التــاريخ شعب يائس ضائع
يباع ويشترى والحقـــد مطوى به جائـــع
وقد يعدو على الشارى ولا يقوى على البائع

* * *

.. وطال بنا الحنين إلى انبــلاج الفجر يا بلدى
ويختنق الدعاء : متى سأفرش بالضياءغدى؟
مضوا يستعبدون أبى ولن يستعبدوا ولدى !

* * *

وجزارين قد شرعـوا مـدى مجنونة الذبح
تعالت صيحـــة الأحـــرار فى إشراقة الصبـــح
جنود البعث قد جاءوا بنصر الله والفتـــح

* * *

وعاد النور فى الأرجا ء يغسل جبهة الساجد
فيبنى صرح عزتـــه قوى الروح والساعد
ويشهد تحت ظـــل البشر موكب مجـــده العائد
ويغمر صفحـــة الأيا م حب الشعب للقائد

* * *

لقد عشنا وكان النصـــر فى أذهاننا فكره

... ...

... ...

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١

يوليو ١٩٦١

الثمن ٣٠ مليماً
٣٠ قرشاً سورياً

اقرأ

دكتور حليم الكرداني

الأسنان
أمراضها وعلاجها

دار المعارف بمصر

الأسنان

أمراضها وعلاجها

دكتور حليم الكدواني

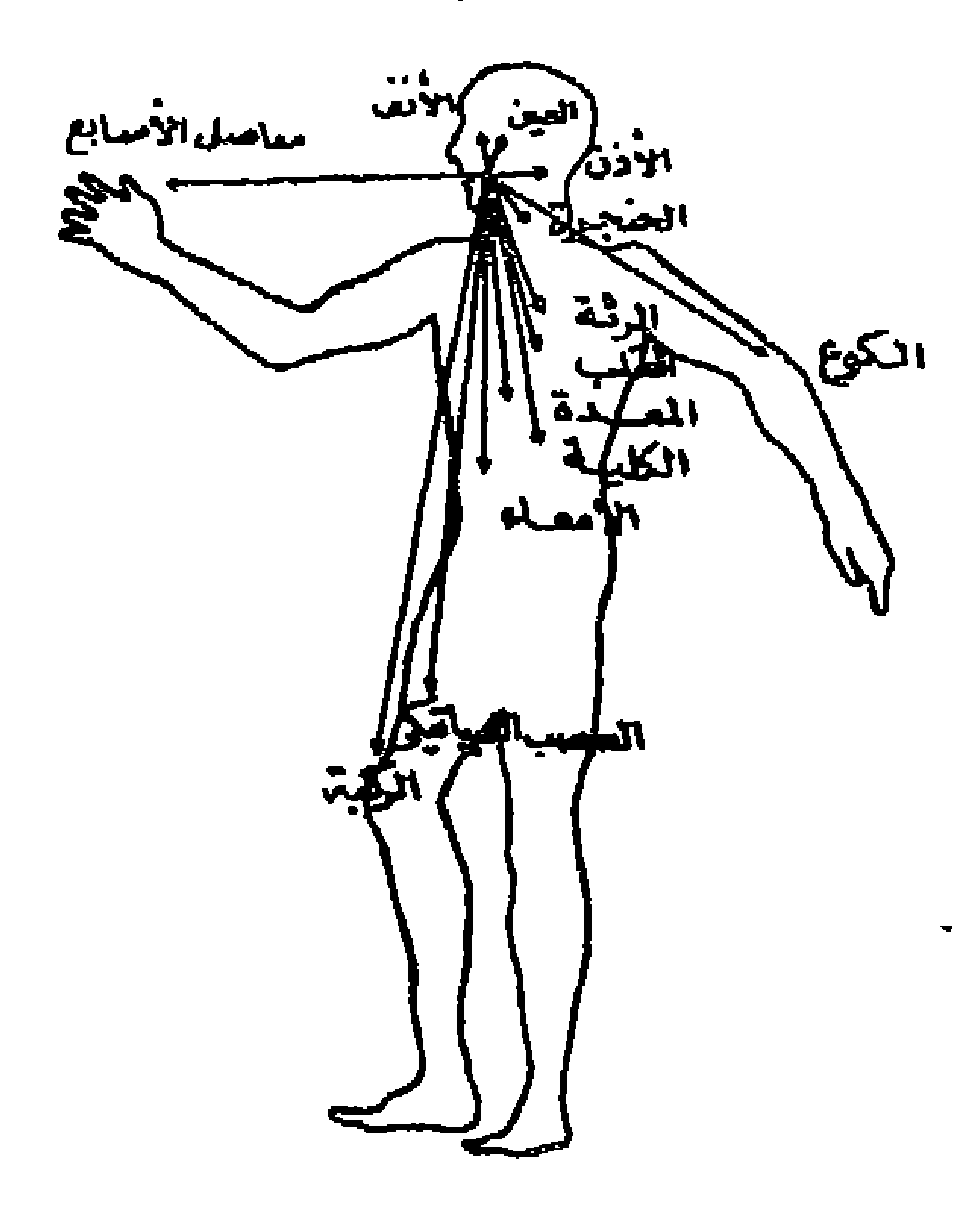
الأسنان
أمراضها وعلاجها

اقرأ ٢٢٤

دار المعارف بمصر

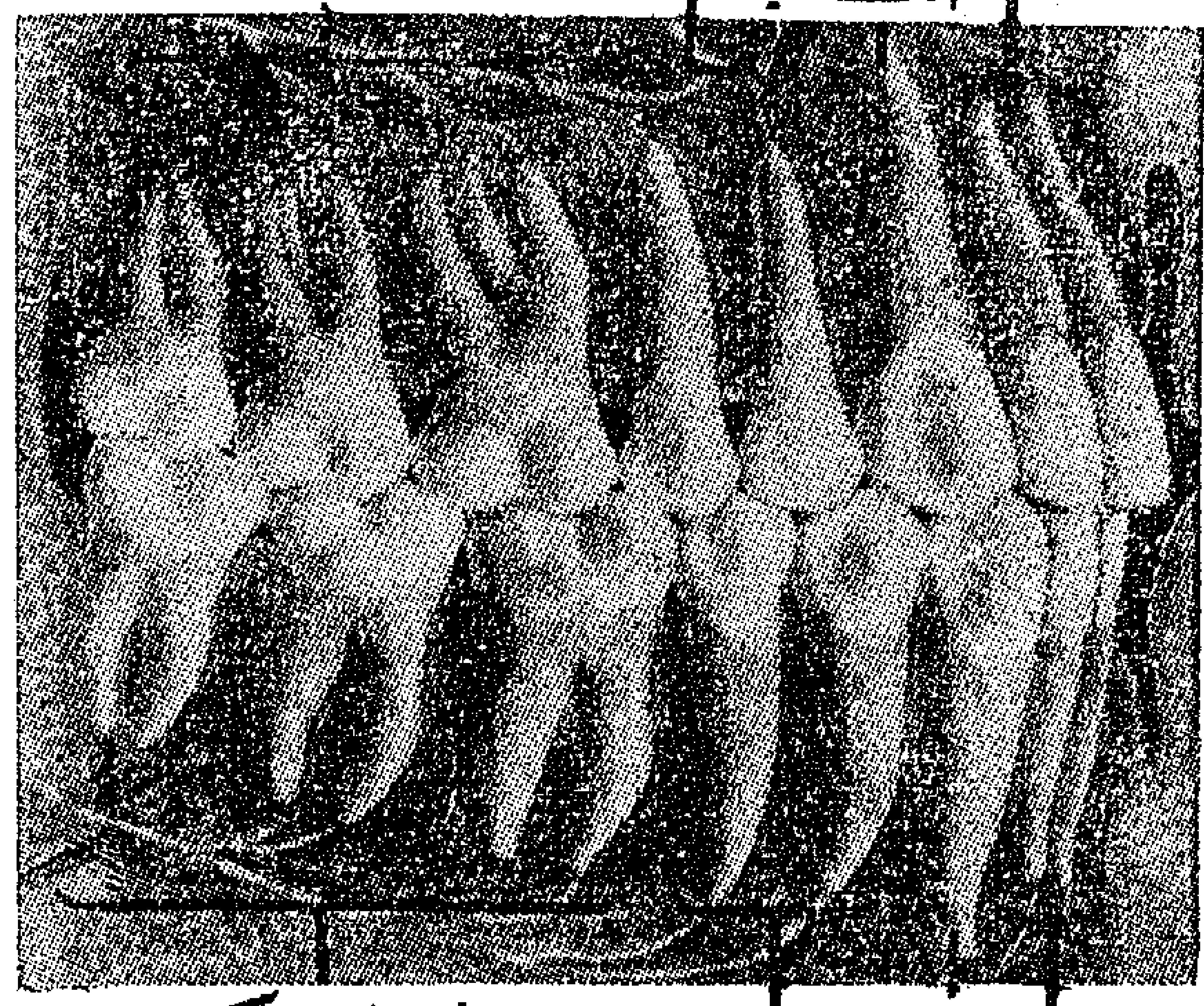
اقرأ ٢٢٤ – أغسطس ١٩٦١

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – شارع كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.



(الشكل الأول)

يبين أعضاء الجسم الأكثر تعرضاً للإصابة بالمرض
من بعض أمراض الأسنان



(الشكل الثانى)

الأسنان المستديمة وعددها ٣٢ سناً موزعة بالتساوى نصفها على الفك العلوى والنصف الآخر على الفك السفلى بمعنى أن ١٦ منها على كل فك

معلومات عامة

يملك الإنسان فى فوهته الفمية عضواً رئيسيا هو بداية الجهاز المضمى يتكون من عدة قطع يطلق عليها « الأسنان » وعددها عند البالغ ٣٢ سنا وعند الطفل ٢٠ سنا وقد أعدت بحسب ترتيبها لقطع الطعام ثم طحنه فمضغه . كل ذلك فى حركات آلية أولية تسبق التفاعلات الكيماوية المعقدة التى تتم بها عملية الهضم حيث تتحول الأطعمة التى نتناولها إلى مواد قابلة للتمثيل. فالامتصاص .

والأسنان موزعة بالتساوى نصفها على الفك العلوى والنصف الآخر على الفك السفلى بمعنى أن ١٦ منها على كل فك عند الإنسان البالغ وعشرة على كل فك عند الطفل .

وهى متماثلة فى التوزيع على جانبى كل فك — وهى مثبتة تثبيتاً متيناً بواسطة جذورها فى حفر موجودة على حافتى عظمتى الفكين العلوى والسفلى . وهذه الحفر هى الأنسخة ومفردها . « سنخ » .

والفك العلوى ثابت بينما السفلى متحرك يؤدى حركاته على مفصل هو « المفصل الصدغى الفكى » بواسطة مجموعة من العضلات تدعى العضلات « الماضغة » ويطاق على جميع أجزاء هذا الجهاز من عضلية وعظمية وسنية اسم الجهاز «المضغى» وذلك لأنه على تباين أجزائه وتنوعها مرتبط ببعضه ارتباطاً وثيقاً — فلا يكاد يختل جزء من هذه الأجزاء حتى تختل معه باقيها نسبياً وتختل تبعاً لذلك عملية المضغ .

وتختلف الأسنان بعضها عن بعض فى الشكل والحجم . فى كل نصف فك من الفكين عند الإنسان البالغ يوجد من

الأمام إلى الخلف على الترتيب ثنيتان دقيقتان قاطعتان ثم ناب محدب مدبب . وهذه معدّة لقطع الطعام ثم خمس أرحية لطحن الطعام ومضغه (انظر الشكل الثانى). والأسنان كبقية أعضاء الجسم لا تأخذ شكلها وعددها وحجمها المألوف دفعة واحدة بل هى تنمو بالتدريج تبعاً لنمو الفك المثبتة فيه — وهذا الفك ينمو بالتدريج تبعاً لنمو العضلات الملحقة به . والجهاز الماضغ بأكمله ينمو تدريجيا مع نمو الجهاز الهضمى وهذا الأخير ينمو نمواً متناسباً مع نمو الجسم كله .

وتبتدئ الأسنان فى التكوين عند الجنين ابتداء من الشهر الثالث وعلى ذلك توجد بذرتها فى السنخ الفكى قبل ظهورها فى الفوهة الفمية بزمن طويل — ويظهر منها عدد معين فى حياة الطفل الأولى بعد ولادته بعدة أشهر وتسمى الأسنان المؤقتة أو الأسنان « اللبنية » وتقوم بعملها لبضع سنوات قلائل ثم تتساقط من أثر الدفع الذى يدفعه لها نمو الأسنان الجديدة التى ستمكث مدى الحياة وهى « الأسنان المستديمة » أو الأسنان النهائية وهذه تكون أكثر عدداً وأكبر حجماً من سابقاتها كما أنها أقدر منها على القيام بما يحتاجه نمو الجسم وتطوره المتوالى طوال حياته .

ولا يتم ظهور الأسنان المستديمة أو المؤقتة كلها دفعة واحدة بل تظهر على دفعات . ويكون ظهورها بوجه عام مزدوجاً . الزوج يعقبه الزوج ومن الأمام إلى الخلف والصغيرة الحجم أولاً ثم الأكبر فالأكبر . وتتشابه الأسنان فى الطبقات المكونة لها فيتكون كل منها من طبقتين رئيسيتين هما طبقة الميناء وطبقة العاج وتتكون

كل طبقة من هاتين الطبقتين من خلايا خاصة بها تعتريها تطورات خاصة بها غاية فى الغرابة . وتكاد تكون قاصرة عليها دون باقى خلايا الجسم .

فبعد أن يتم نضج الخلية وتصبح صالحة للقيام بعملها تفرز كميات كبيرة من مادتى الميناء والعاج كل حسب ما خلقت له ومنهما تكتسب السن صفة الصلابة والمتانة التى تمتاز بهما عن باقى أعضاء الجسم . وبعد ذلك ينتهى عمل الخلايا فتتحلل وتتلاشى بعد أن يتم تكوين السن ويصبح صالحاً لتأدية وظيفته .

وليست الأسنان قاصرة فى تكوينها على طبقتى الميناء والعاج فحسب . بل الواقع أن العاج يكون الجزء الأكبر من السن — والميناء وهى غاية فى الصلابة — تكون طبقة تغطى طبقة العاج وهذا وصف الجزء الذى يظهر للعين المجردة من السن فى فوهة الفم ويسمى « تاج السن » . أما الجزء المختفى داخل عظم الفك فهو « الجذر » ويغطيه نسيج عظمى يسمى « الملاط » والجذر مغروس فى السنخ ومثبت فيه برباط من نسيج ضام يسمى الرباط «السنى السنخى» .

يبقى بعد ذلك « اللب » وهو عبارة عن ضفيرة دقيقة من الأوعية الدموية والأعصاب موجودة داخل السن تدخل إليه من ثقبة صغيرة فى طرف الجذر وتسير فى قناة بطول الجذر حتى تستقر فى غرفة هيئت لها فى داخل تاج السن وتسمى « حجرة اللب » هذا مجمل لما يجب معرفته عن الأسنان فى شكلها وعددها وحجمها وتكوينها ووظيفتها أوردناه بحسب ما استدعاه المقام تمهيداً إلى استيعاب ما كتب عنها فى هذا الكتاب .

الجزء الأول
الأمراض الجرثومية

الفصل الأول
نخر الأسنان

تعريفه – تاريخه – أسبابه المباشرة – أسبابه المهيئة
الموضعية – أسبابه المهيئة العامة – أسبابه الطارئة .

تعريفه :

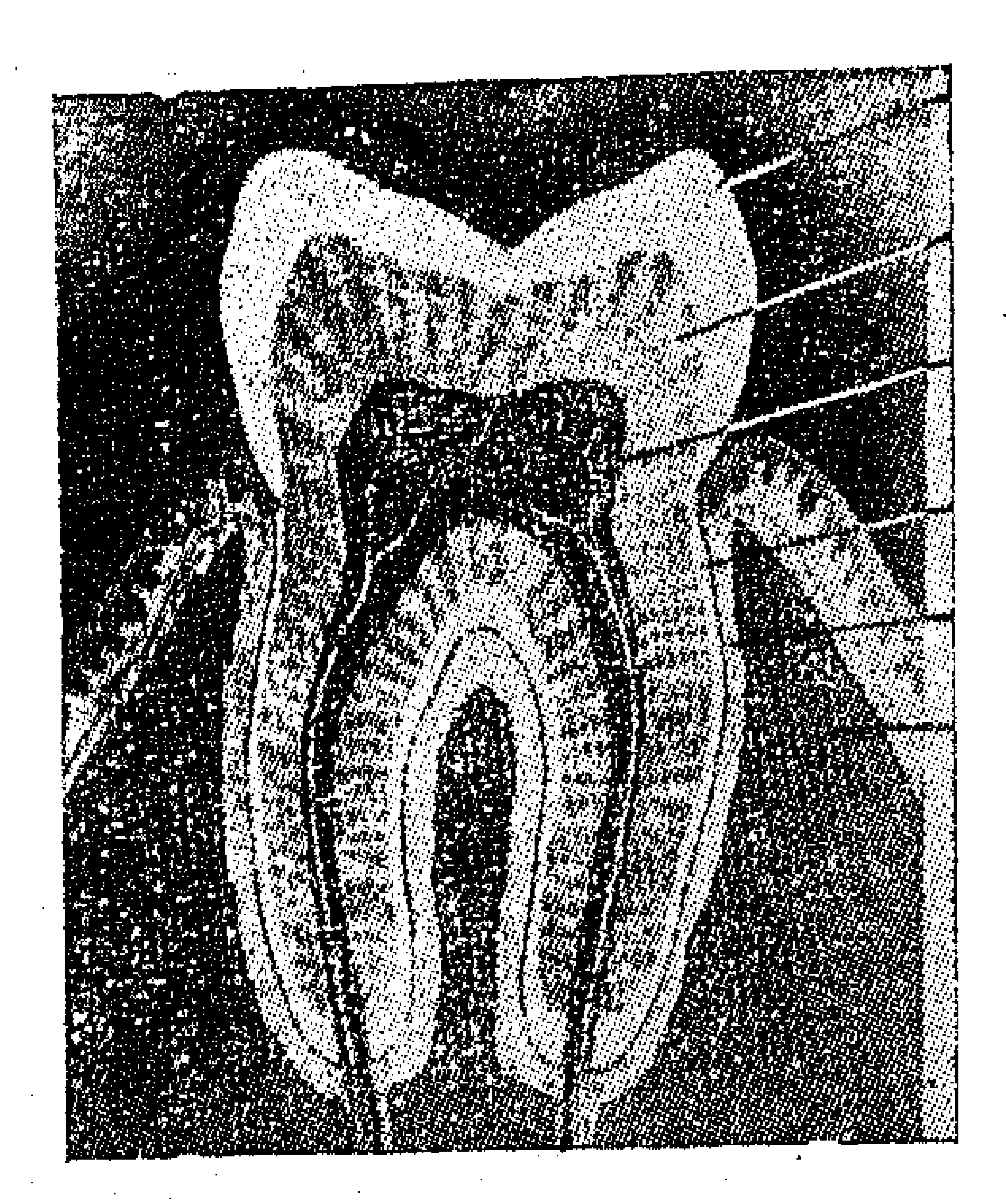
اختلف الأطباء فى تعريفه وإليكم أهم هذه التعاريف .

تعريف ماجيتو :

النخر السنى مرض يمتاز باللين المستمر والتلف المتوالى فى أنسجة السن الصلبة واللينة وهو يبدأ على تاج السن متقدماً من الخارج إلى الداخل متدرجاً فى إتلافه للأنسجة حتى يقضى على جزء كبير من تاج السن أو يأتى عليه بأكمله .

تعريف هربن :

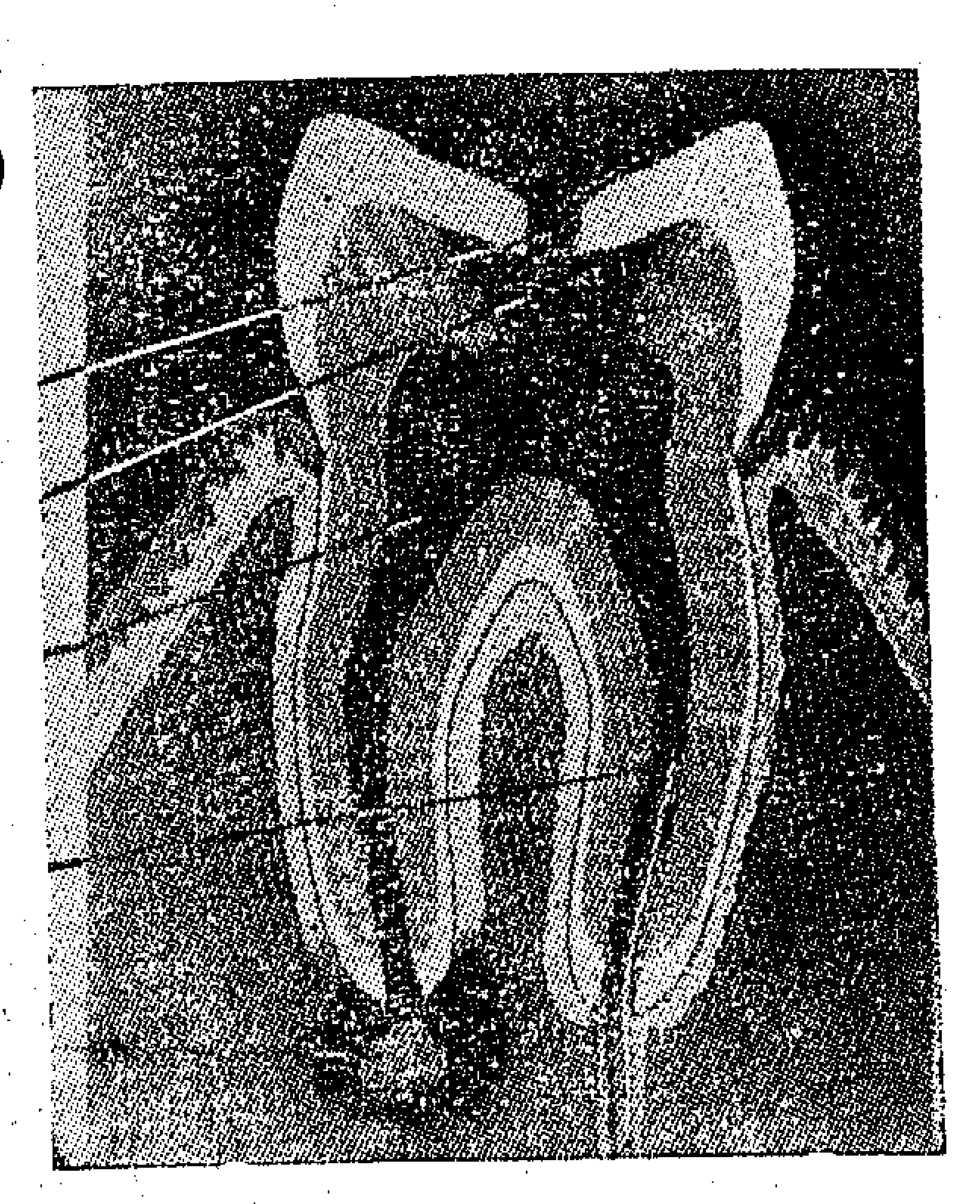
النخر السنى هو التهاب يصيب السن وعند ظهوره تصحبه آفة عملها الإتلاف تظل تعمل فى جميع الأنسجة المكونة للسن حتى تقضى عليها .



(الشكل الثالث)

(مقطع فى ضرس سليم يبين مختلف الطبقات المكونة له)

(الشكل الرابع)



(مقطع فى ضرس يبين النخر فى شتى درجاته)

تعريف فراى :

النخر السنى هو تغيير خاص فى أنسجة السن الصلبة يمتاز بأنه معد وبأنه يتقدم من المحيط الخارجى للسن إلى مركزه وينتهى بإتلاف السن الجزئى أو الكلى .

تعريف ريدير :

النخر السنى مرض يصيب السن فيسبب لين أنسجته وتفتتها وهو يتقدم تدريجياً من الخارج إلى الداخل حافراً فى تاج السن حفرة تتدرج فى العمق حتى تصل عاجلاً أو آجلاً إلى اللب متلفة فى طريقها أنسجة السن المتتالية التى تقابلها .

تاريخه :

يعتبر هذا الداء أكثر الأمراض إصابة للجنس البشرى لا فرق فى ذلك بين أجناسه المتنوعة أو أماكنهم المختلفة أو أزمنتهم المتباينة .

وتاريخه قديم يعود إلى ما قبل عصور المدنيات حينما كان الإنسان يسكن الغابات والكهوف — ويوجد فى المتحف البريطانى مومياء مصرية يرجع تاريخها إلى ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح . وبعض أسنانها نخرة وقد ذكر هذا الداء فى مخطوطات قدماء المصريين واليونان والعرب والرومان فهو إذن يصيب أسنان الإنسان أيا كان وأين كان .

أسبابه المباشرة : يرجع السبب المباشر للتسويس إلى عاملين يشتركان سوياً أولهما الحوامض وثانيهما الجراثيم . أما الحوامض

فتنتج من بقايا الأطعمة التى تتخلف بين الأسنان حيث تتخمر تلك البقايا أو بمعنى آخر تتحمض بفعل الجراثيم الفمية عليها . وأكثر الأطعمة قابلية للتخمر ومساعدة فى تكوين التسويس هى الأطعمة النشوية والسكرية . أما الحموضة المتكونة فتؤثر فى مادة السن السطحية المغطية لتاجه وهى « الميناء » حيث تتفاعل معها محللة إياها ممزقة أنسجتها تاركة بذلك فيها منافذ لدخول الجراثيم الخاصة بتكوين التسويس .

الأسباب المهيئة :

وكما أن للتسويس أسباباً مباشرة فله أيضاً أسباب مهيئة وهى العوامل التى تساعد على تجمع الجراثيم وتراكم بقايا الأطعمة واختمارها وهى إما أسباب مهيئة موضعية أو أسباب مهيئة عامة .

الأسباب المهيئة الموضعية :

١ ـ عدم الاعتناء بصحة الفم :

وهذا السبب هو أكثر الأسباب الموضعية شيوعاً فى تعريض الأسنان للنخر فالسواد الأعظم من الناس لا ينظفون أسنانهم بتاتاً أو ينظفونها بغير عناية وانتظام فيسهل بذلك إصابتها بالتسويس .

٢ ـ نقص التكوين :

من المعلوم أنه توجد وهادٌ وشقوق عميقة على السطوح اللقمية « السطوح الماضغة » والسطوح الحدية للأرحية فتجتمع فيها بقايا الأطعمة ولا يسهل تنظيفها بالوسائل الطبيعية كالمضغ مثلاً فيحدث فيها الاختمار فالتسويس .

ثم إن كيفية تلاصق السطوح المتجاورة للأسنان لها علاقة بتكوين النخر فإذا كانت السطوح مستديرة والأسنان ملتقية كما تلتقى الكرة الواحدة بالأخرى كان حدوث النخر فيها قليلاً أما إذا كان تماس الأسنان سطحاً إلى سطح لا نقطة إلى نقطة فإن حدوث النخر فيها يكون متوقعاً .

٣ ــ ترتيب الأسنان ومراكزها : قد تكون الأسنان مختلة الترتيب بعضها بارز إلى الأمام والبعض الآخر راجع إلى الوراء فلا يعود التماس طبيعياً وتتعرض للنخر فى نقط تماسها غير الطبيعى ثم إنه إذا وجد إلى جانب إحدى الأسنان سن زائدة أو طفيلية فإن ذلك يساعد على تجمع المآكل بينهما وتخمرها وحدوث التسويس فيها .

٤ ــ التيجان السيئة الصنع : إن التيجان المعدنية (الطرابيش) السيئة الصنع قد تكون سبباً يعرض أعناق الأسنان للنخر فإذا كانت حافة طوق التاج ظاهرة غير محكمة الصنع اجتمعت بينها وبين سطح السن بقايا الأطعمة التى تختمر فتساعد على حدوث النخر .

٥ ــ الحشوات السيئة :

لا يكفى أن نحشى السن لنمتنع رجوع النخر بل يجب أن تكون الحشوة مستوفية الشروط الفنية لمنع عودة التسويس .

٦ ــ الأجهزة الميكانيكية :

وهى أجهزة توضع فى الفم لأجل تقويم الأسنان المعوجة . وتتألف من أسلاك وأطواق معدنية تثبت فى الفم على الأسنان

فإذا لم تنظف بصورة متوالية ساعدت على حدوث التسويس للأسباب السالف ذكرها .

الأسباب المهيئة العامة :

وترجع إلى العوامل التى تقلل من مقاومة السن وتنقص من كثافته حيث ثبت أن كثافة الأسنان الدائمة تزيد على التوالى منذ زمن الصبا وأن ما تتعرض له الأسنان من الأمراض يكون سببه الحالة الصحية العامة . وكثافة السن تكون منسوبة عادة إلى مقدار الأملاح الجيرية فيها أو بمعنى آخر إلى حجم القسم المعدنى الذى يكون فى السن وأهم الأسباب المهيئة العامة ما يلى :

١ ـ أحوال ما قبل الولادة :

تعنى بذلك الأحوال التى تتعرض لها الأم الحامل فتؤثر فى جنينها . فإذا كانت الأم جيدة الصحة كان جنينها كذلك وتكون هيكله العظمى وأسنانه تكوناً سليماً طبيعيا والعكس بالعكس .

٢ ـ الوراثة :

قد يرث الإنسان قوة أسنانه ومناعتها من أسلافه ولذلك نجد بعض الشعوب أقوياء الأسنان كالزنوج والعرب وبعضها ضعيفها .

٣ ـ أحوال ما بعد الولادة :

لهذه الأحوال أهمية كبرى تتوقف عليها سلامة الأسنان من النخر فإذا نشأ الصغير متعوداً نظافة فمه وأسنانه ، وكانت صحته قوية ومآكله مغذية محتوية على أملاح الجير والفيتامينات فلا بد

أن تكون أسنانه قوية . وقد لاحظ البعض أن البيئة التى يعيش فيها الصغير تؤثر مياهها وأثمارها وبقولها التى تنمو فى أرضها فى هيكله العظمى وأسنانه . فإذا كانت الأرض غنية بمادة كربونات الكالسيوم « الجير » فلا بد أن تكون المياه والخضروات والنباتات والأثمار غنية بالجير أيضاً وتنتقل هذه إلى الأشخاص حين شربهم للمياه وأكلهم للثمار فينتفعون بها .

٤ ــ العمر :

يظهر النخر فى كل الأعمار ولكنه عند الصغار أكثر منه عند الشباب ويقل عند الكهول والشيوخ وقد قيل إن الذى يبلغ الثلاثين من العمر وأسنانه خالية من التسويس تستمر على هذه الحالة إلى أجل غير مسمى بشرط أن يداوم على العناية بها .

٥ ــ الجنس :

تتعرض أسنان الإناث للنخر أكثر من أسنان الذكور ويعود سبب ذلك فى الغالب إلى التطورات الخاصة التى تحدث للمرأة ولا تحدث للرجل كالحيض والحمل مثلاً فالمرأة الحامل يكثر عندها القىء الذى يخرج من المعدة حامضياً فيجعل وسط الفم حامضيا أيضا وفضلاً عن ذلك فإن الأم فى أثناء الحمل والولادة والرضاعة كثيرا ما تهمل العناية بأسنانها ولهذا جاء القول المأثور « إن الأم تدفع الثمن لكل ولد من أولادها سنا من أسنانها » .

الفصل الثانى

إصابة الأسنان بالتسويس (النخر)

خطوات النخر – كيف يغزو النخر الميناء والعاج والملاط وكيف تدافع هذه الطبقات ضد غزوه – إصابة اللب بالنخر ومضاعفاتها .

خطوات النخر :

علمنا من تعاريف النخر أنه يبدأ بإصابة السطح الخارجي لتاج السن كما عرفنا العوامل المسببة له وبقى علينا بعد ذلك أن نبحث فى سير النخر وتقدمه فى أنسجة السن الصلبة منها والرخوة ثم مقاومة هذه الأنسجة ضد هذا التقدم .

تبدأ الجراثيم بالبحث لها عن مدخل تدخل به إلى أنسجة السن لتتلفها وأول ما تصطدم به الجراثيم هو نسيج الميناء التى يغطيها من الخارج طبقة معروفة باسم « غشاء نزميت » فإذا ما تمزقت هذه الطبقة أصبحت الجراثيم على اتصال مباشر بسطح الميناء المكشوف .

كيف يصيب النخر الميناء :

عندما يصاب أحد سطوح السن بالتشقق لأى سبب من الأسباب كتناول المشروبات الساخنة عقب تعاطى شىء بارد أو لحدوث رض ما أو صدمة تسبب تمزق « غشاء نزميت » وتفقد مناشير الميناء قوة تماسكها مما يسمح للجراثيم بالتخلل بين هذه

المناشير حيث تتوالد وتتزايد ويزداد تبعاً لذلك كمية إفرازاتها التى تؤثر على ذلك السطح محدثة فجوة أو شقاً واضحاً يصل حتى سطح العاج أى إلى الطبقة التى تلى الميناء فينكشف العاج ويأتى دوره فى الإصابة وتدافع الميناء ضد هذا الغزو الجرثومى إلا أن دفاعها ضعيف فى الغالب .

كيف يصيب النخر العاج :

عندما تصل الجراثيم إلى العاج تجد أمامها منطقة سهلة الغزو لا صلابة فيها تأخذ فى الانهيار أمام إفرازات الجراثيم ولكن كثيراً ما تتكون منطقة دفاع تكون أكثر شفافية وبريقاً من غيرها من الطبقات المجاورة إلا أن هذه المنطقة لا تلبث أن تزول فيصبح هجوم الجراثيم عاماً فى جميع جهات العاج ثم لا تلبث أن تفقد طبقات الميناء المغطية لهذا العاج توازنها وتصبح لا دعامة لها بعد تفتيت العاج الذى تحتها والذى كان يسندها فتنهدم الميناء كاشفة عن حفرة تختلف حجماً وعمقاً وهى حفرة النخر بشكلها المعروف ومنظرها المألوف .

إصابة الملاط :

يندر إصابة الملاط بالنخر غير أن الخلايا المكونة له تكون ملأى بالجراثيم وكثيراً ما نلاحظ دفاعاً من الملاط بما يظهر عليه من تضخم فى حجمه ولو أن بعض الباحثين يرى أن هذا التضخم لا دخل له بالدفاع وينسبه إلى أورام عظمية .

إصابة اللب بالنخر ومضاعفاته :

بعد أن تعبر الجراثيم القنوات العاجية تصل إلى حجرة اللب حيث تهاجمه فتبدأ التهاباته وهى إما التهابات حادة أو التهابات مزمنة .

١ ـ التهابات اللب الحادة :

تنقسم إلى قسمين : التهابات لبية حادة بسيطة ، والتهابات لبية حادة متقيحة .

التهابات اللب الحادة البسيطة : وهى التى تبتدئ مظاهرها باحتقان فى اللب وقد تستمر الحالة الالتهابية فى التقدم حتى تصل إلى الحالة الثانية وهى حالة الالتهاب اللبى الحاد المتقيح .

التهابات اللب الحادة المتقيحة : تتميز بإفراز بعض الصديد من بعض مواضع اللب ويكون مصحوباً بآلام شديدة وإذا استمرت حالة الالتهاب فى التقدم يأخذ اللب فى التحلل حيث ينحسر الدم فى الأوعية الدموية التى يتكون منها اللب فتنعدم بذلك تغذيته ويحدث له اختناق ينتهى بموته ويصحب كل هذه الأطوار آلام شديدة مبرحة .

٢ ـ التهابات اللب المزمنة :

تظهر التهابات اللب المزمنة فى أربعة مظاهر هى :

(ا) ضمور اللب. (ب) تضخم اللب .

(جـ) غنغرينا اللب (ء) انحلال اللب .

(ا) ضمور اللب :

فى هذه الحالة تكون طبقة العاج الثانوى آخذة فى التكون فتأخذ أنسجة اللب تبعاً لذلك فى الضمور والتحول إلى أنسجة ليفية.

(ب) تضخم اللب :

كثرة تهيج اللب والتهاباته تسبب تضخمه ويدخل هذا التضخم فى باب الأورام ويسمى «التهاب اللب المزمن المتضخم» ويكون على شكلين شكل الورم الحبيبى وشكل الورم الليفى .

(ح) غنغرينا اللب :

إذا مات اللب انتهت بموته الآلام المسببة عنه ولكن أنسجته الميتة، المحصورة فى حجرته تصبح منبعا عفنيا وبؤرة نتنة وهذا ما يدعى غنغرينا اللب .

(د) انحلال اللب :

إن بعض الآفات والأمراض العامة التى تصيب جسم الإنسان قد تسبب تحلل اللب وينقسم هذا التحلل إلى :

(ا) تحلل ليفى (ب) تحلل كلسى (ح) تحلل شحمى .

(ا) التحلل الليفى :

هو أكثر التحللات الثلاثة حدوثاً وفيه يتحلل اللب بأكمله إلى كتلة ليفية ويلاحظ هذا كثيراً فى أسنان الشيوخ .

(ب) التحلل الكلسى :

نلاحظ أحياناً كتل كلسية ومواد صلبة فى حجرة اللب الممتلئة بخلايا اللب الميته وما هذه الكتل إلا رواسب كلسية تعددت أشكالها وتعددت تبعاً لذلك أسماؤها بواسطة الباحثين فمنهم من دعاها اللب المتحجر ومنهم من دعاها اللب المتبلور وآخرين سموها اللب اللؤلؤى . . . إلخ .

أما هذه الرواسب فإنها تأخذ فى التضخم حتى تملأ فراغ الحجرة اللبية تقريبا .

(حـ) التحلل الشحمى :

تترسب على اللب كريات شحمية لونها أصفر شاحب وهذه تسبب ضمور اللب ونقص حجمه وانفصال حوافه عن الأجزاء المثبتة فيها :

الفصل الثالث

النخر البسيط

المظاهر الالتهابية لنخر الميناء – تشخيصه – علاجه – نخر الميناء والعاج – المنطقة المتلينة – منطقة الغزو – منطقة الدفاع – الأعراض – التشخيص – العلاج – الحساسية السنية وعلاجها – تطهير العاج .

المظاهر الالتهابية لنخر الميناء :

يصيب النخر الميناء فى أحد سطوحها الخارجية وغالباً ما يكون السطح اللقمى ويأخذ شكل بقعة لونها بنى ضارب إلى السمرة أو بقعة بيضاء . وإذا ما مررنا بالمسبر على الجزء المصاب لا يحدث أى ألم . كما أن ملامسة الأجسام الخارجية صلبة كانت أو لينة لهذا الجزء المصاب وشرب المشروبات الساخنة أو الباردة لا يسبب أى حساسية شاذة – وقد تتقدم الإصابة فتظهر بشكل خدش قليل العمق يعوق المسبر عند إمراره عليه كما أنه كثيراً ما يقف تقدمها فتستمر البقعة السالفة الذكر كما هى عليه لمدة سنين أما إذا تقدمت الإصابة فإننا نصبح أمام حالتين هما :

١ – الحالة الأولى :

وهى التى تنتج من البقعة البنية السمراء .

يقابل النخر العاج الذى يكون على استعداد للدفاع عن

نفسه ويصبح شديد المقاومة فيوقف تقدم النخر إما نهائيا أو إلى حين وهذا هو ما يسمى بالنخر البطىء .

٢ ــ الحالة الثانية :

وهى التى تنتج من البقعة البيضاء السالفة الذكر .

يعبر النخر الميناء بسرعة غريبة ويهاجم العاج الذى يؤخذ على غرة فلا يجد أمامه متسعاً من الوقت لصد الهجوم ويكون مصحوباً بحساسية واضحة للمؤثرات الخارجية لا سيما الاختلافات الحرارية « البرودة والسخونة » وذلك على نقيض نخر الحالة الأولى تماماً وتعلل هذه الحساسية بأن النخر أصاب منطقة تلاقى الألياف العصبية بعضها ببعض وهذه منطقة حساسة .

وهذه الحساسية تعتبر أول مرشد إلى هذا النخر .

من هاتين الحالتين يمكن إيضاح كيف أن بعض أنواع النخر لا يكون ظاهراً فى بدايته ولا واضحاً فى تقدمه ولكن آلامه التى تحدث عنه شديدة مقلقة بينما البعض الآخر يكون واضحاً ظاهراً وغير مصحوب بأى ألم .

تشخيصه :

فى بدايته لا يصحبه أى ألم أو أى إحساس بشىء غير عادى لذلك يحتاج كشفه إلى قوة الملاحظة والدقة والمران لا سيما للتفريق بين البقعة السمراء والبيضاء أو بين النخر البطىء السير والنخر السريع السير .

ويجب الحذر من الخلط بين هذه الحالة وبين رواسب القلح التى تكون على الأسنان ويماثل لونها لون البقعة السمراء

ويكفى للتمييز بينهما أن يؤتى بآلة حادة من آلات إزالة القلح ويعمل بها على هذه البقعة السوداء فإن زالت كانت قلحا وإلا فإنها نخر .

العلاج :

يتلخص فى إزالة طبقة الميناء المتلونة بواسطة الآلات الخاصة أو الأحجار الدقيقة أو أقراص كاربوراندوم أو ببردها بالمبارد الخاصة .

البرد :

كان البرد شائع الاستعمال قديماً ولكن قامت اعتراضات كثيرة ضد استعماله فى أيامنا هذه ولذا فقد اعتبره الطب الحديث من الطرق القديمة الواجب عدم اتباعها — كذلك لا نشير ببرد الميناء بالآلات الخاصة عند الأشخاص الذين لم يتجاوزوا سن الشباب ولا بأس من اتباعه فى حالات تآكل الأسنان أو تشققها الخفيف الذى يكون على حدودها القاطعة .

ومن الضرورى صقل سطوح الأسنان عقب عملية البرد ويحسن أن يعقبه كى بالمكواة الحرارية أو الكهربائية . ويقول بعض من المعضدين لنظرية البرد متسائلين لماذا يبرد زنوج الحبشة وبراهمة الهند أسنانهم ويجعلونها بشكل المنشار وتستمر أسنانهم سليمة قوية إن لم يكن البرد مفيداً مقوياً للأسنان ؟ ؟

نخر الميناء والعاج :

هذا هو ثانى درجات النخر البسيط وفيه يتعدى النخر

الميناء إلى العاج دون الوصول إلى اللب إلا أن اللب يتنبه للخطر فيعمل على الدفاع مكوناً منطقة كثيفة تحيط بمنطقة الغزو .

وتكون فتحة النخر فى البداية ضعيفة تشمل سمك الميناء ثم تأخذ فى الاتساع بانهيار طبقة الميناء المكونة لحوافها فتنكشف عن اتصالها بحفرة أخرى كروية الشكل على العاج لأن النخر يتقدم بنسبة واحدة فى كل الجهات المحيطة به عند إصابته للعاج . ويمكننا فى هذه الحالة تمييز ثلاث مناطق .

١ ـ المنطقة المتلينة ٢ ـ منطقة الغزو ٣ ـ منطقة الدفاع .

١ ـ المنطقة المتلينة :

تشمل كل حواف الحفرة وجزءاً من داخلها أيضاً ويكون بهذه المنطقة بقايا الأطعمة ومناشير الميناء المتفتتة وبعض الجراثيم وكمية كبيرة من العاج النخر ذات اللون الأسمر إذا كان النخر قديماً أو اللون البنى أو الرمادى إذا كان النخر من الصنف السريع التقدم .

٢ ـ منطقة الغزو :

لونها بنى تقل فيها مياه المادة الكلسية عما هى عليه فى العاج السليم وتظهر قنيوات العاج واضحة ويتسع نصف قطرها ولا يظهر داخلها أى أثر « لألياف تومس » التى كانت تسكنها ولكنها تكون ملأى بالخلايا المتضخمة التى تسمى بالخلايا مخربة العاج وهى عبارة عن خلايا كبيرة ذات محيط غير منظم لها حفر خاصة بها وينسبون إليها أنها تخرب العاج وتساعد العدو «الجراثيم والحوامض » فى تقدمه .

٣ ـ منطقة الدفاع :

فى هذه المنطقة لا ترى أثراً للجراثيم بل نلاحظ وجود حبيبات كلسية فى داخل القنيوات اكتشفها « تومس » وسماها « العاج الثانوى » وهى نتيجة العمل المتواصل لاستطالات الخلايا مكونة العاج « ألياف تومس » ومن العاج الثانوى تتكون منطقة الدفاع فى داخل السن .

وفى النخر ذات السير البطىء يمكننا ملاحظة عملية دفاع أخرى خلاف هذه العملية ومضافة إليها ونسميها عملية تكون العاج الإضافى لأنه يتكون على السطح الداخلى للحفرة اللبية وعلى السطوح الظاهرة للخلايا مكونة العاج التى تبطن الحفرة اللبية . وهذا التكون ينقص حجم حفرة اللب ويشوه منظرها وقد يزداد الإنتاج لدرجة أنه يسبب التحلل الكلسى فى اللب .

الأعراض :

من أهم مميزات هذه الحالة عدم وجود ألم ذاتى بالمرة فإن كل الآلام التى تنشأ تأتى من تأثيرات خارجية كالتقلبات الحرارية أو الرضوض الآلية . ويشبه العاج فى هذه الحالة الجلد الذى انتزعت منه الطبقة البشرية . وتصبح ألياف تومس « أطراف العصب » مكشوفة إذ قد زالت عنها طبقة الميناء التى كانت تقيها فتتعرض للتأثر بالمؤثرات الخارجية ـ ومن ضمن هذه المؤثرات الفعالة السكر والأحماض فهى تسبب آلاماً واضحة شديدة تكون غالباً منبت الفزع والقلق . كما أن لمس أى آلة أو بقايا المآكل الصلبة للسن يسبب نفس هذه الآلام . وتتوقف

شدة الألم على كثافة المنطقة الدفاعية فيكون الألم ظاهراً مثلاً في ناحية عنق السن حيث تقل تلك المنطقة الدفاعية ويشتد الألم أيضاً فى النخر الأبيض ذى السير السريع عنه فى النخر الأسمر ذى السير البطىء لأن فى النخر الأول لا يوجد متسع من الوقت يكفى لتكون منطقة الدفاع وقد يحدث أن تختفى ظواهر الألم بتاتاً عندما يتكون العاج الثانوى الذى يحمى اللب من تقدم النخر والوصول إليه — وقد يقف فى هذه الحالة سير النخر فيصبح مستكنا ويسمى حينئذ بالنخر الجاف إلا أن هذه الحالة قد لا تدوم فيبتدئ النخر فى سيره وتقدمه من جديد ويصبح نخرا ليناً بعد أن كان جافاً وتعود الحيوية والنشاط للعوامل المرضية مرة أخرى .

التشخيص :

بين نخر الدرجة الأولى (نخر الميناء) ونخر اللب توجد جميع أطوار النخر الذى نسميه نخر الدرجة الثانية . وسبق أن أوضحنا أن جميع الآلام الناشئة عن هذا النوع من النخر ليست ذاتية بل تتسبب من مؤثرات خارجية لذلك يلزم قبل أن نحاول الكشف عن حفرة النخر أن نسأل المريض عن طبيعة الآلام التى يشعر بها وهل هى ذاتية أو مسببة عن مؤثرات خارجية ثم نبحث عن حفرة النخر بعد ذلك وتشخيص الأعراض الأخرى كما يأتى :—

١ — التلون :

إذا كان لون السن طبيعيا كان الأمل قويا فى أن اللب لا زال حيا يقوم بوظائفه كالمعتاد .

٢ ــ حالة الأنسجة التى حول السن :

يستحسن الوقوف على حالة الأنسجة التى حول السن إما بإجراء الطرق على نفس السن أو بجس منطقة الجذر بالأصبع .

٣ ــ الفحص بالمسبر :

هذا الفحص يبين لنا حفرة النخر وما تحتويه من مواد متفتتة وما هى عليه أجزاء تلك الحفرة من ليونة أو صلابة . وإذا ما ضغطنا بالمسبر فى داخل الحفرة فإنه يقابل أولا طبقة لينة تحتها طبقة أكثر صلابة منها وتزداد صلابة الطبقات كلما تعمقنا بدخول المسبر إلى أن نصل إلى منطقة يكون فيها العاج سليما . ويسبب إمرار المسبر على هذه الطبقة السليمة من العاج صوتاً خاصاً يعرفه طبيب الأسنان جيداً ويسمى « الصوت العاجى » ويجب عند الضغط على المسبر فى داخل الحفرة أن نحترس من كشف اللب عند أحد أطرافه داخل حجرته .

العلاج :

يجب قبل كل شىء نزع جميع الطبقات المصابة والمواد المتفتتة بواسطة المجارف أو السنابل « آلات يعرفها طبيب الأسنان » الخاصة المختلفة التى تركب على آلة الحفر وتزال أيضاً الحواف السائبة فى الحفرة التى تكون قد فقدت دعامتها بفقد طبقات العاج التى كانت تسندها وبإزالة هذه الحواف تفتح الحفرة ويسهل بعد ذلك تخليتها من كل ما تحتويه من مواد متفتتة مصبوغة باللون الأسمر وتكون إزالة تلك المواد بدقة وبخفة حتى

تظهر الطبقات السليمة .

وكثير من الأطباء من يفضل ترك بعض طبقات العاج المصابة الموجودة فى قاع الحفرة خوفاً من انكشاف اللب .

ويجب أن نذكر هنا أنه كثيراً ما نضطر إلى توسيع الحفرة وتمديدها على السطوح السليمة من السن لتأخذ شكلاً هندسيا منتظماً يمنع عودة النخر إليها مرة أخرى لا سيما إذا كانت إصابة النخر على السطوح المتجاورة للأسنان أو على الشقوق والميازيب التى على السطوح اللقمية مما لا مجال لتفصيله هنا فى بحث أمراض الأسنان لأنه خاص بترميم الأسنان .

الحساسية السنية وعلاجها :

كثيرا ما نلاقى صعوبة كبيرة فى إجراء العمليات السالفة الذكر نظراً لإصابة العاج بالحساسية الشديدة التى لا يحتمل معها حتى مجرد اللمس البسيط فيجب قبل كل شىء علاج هذه الحالة .

علاج شدة حساسية العاج :

١ — التجفيف :

يعزل السن عن باقى الأسنان الأخرى بآلات خاصة بذلك « كحاجز المطاط مثلاً » ثم يجفف جيدا وتدهن الحفرة بقطعة من القطن مغموسة فى الكحول ٩٠° ثم تجفف بالهواء الحار ثم تكرر هذه العملية مع استعمال كحول أقوى فى هذه المرة أى قوة ٩٥° ثم مع استعمال الكحول المطلق مع تكرار تجفيفها

فى كل مرة . وهكذا عدة مرات فلا تلبث الحساسية أن تزول ونتمكن بعد ذلك من إجراء العمليات السالفة الذكر فى الحفرة باطمئنان ولتعليل مفعول الكحول فى إزالة الحساسية نقول إن البرودة الناتجة من الكحول بتكرارها تعمل على تقليل الحساسية فى أطراف « ألياف تومس » وتجعلها موصلة رديئة للحساسية .

٢ ـ استعمال الأدوية موضعيا :

تستعمل الأدوية الآتية بشرط أن تجفف الحفرة قبل استعمالها لتساعد تلك الأدوية على تخللها فى قنوات العاج .

(ا) حمض الكربوليك :

يوضع على العاج مباشرة بعد تجفيفه ثم ينفخ داخل الحفرة بالهواء الساخن بعد وضع الدواء مدة وجيزة .

(ب) الكوكايين وسائل بونان :

الكوكايين بمفرده لا يفيد إطلاقاً فى هذه الحالة أما المركب الذى يسمى سائل بونان فهو عظيم الفائدة .

(ح) كلورور الزنك :

لتفاعله المخثر على المواد الزلالية يفيد فى إزالة الحساسية ويجب حماية الأنسجة المجاورة للسن عند استعمال هذا الدواء .

(د) نترات الفضة :

يمكن استعمالها فى محلول قوى ٣٠ أو ٤٠٪ أو حتى فى الحالة البلورية ويتلخص مفعولها فى أنها تتحد مع المادة الزلالية فتكون كلورور الفضة وهذه تصبغ الأنسجة باللون الأسود .

فإذا فضلنا استعمال المحلول القوى فتمرر قطعة من القطن مشبعة بهذا المحلول على العاج الذى يكون قد سبق تجفيفه ثم تغسل الحفرة بالماء الفاتر .

(هـ) حمض الزرنيخ :

يجب عدم استعماله فى هذه الحالة نظراً إلى قوة تسلله إلى داخل الأنسجة وإصابة اللب وإتلافه .

٣ — الحشوات المؤقتة :

وضع الحشوة المؤقتة فى مكانها مدة ما يعمل على إزالة إحساس العاج وأحسن هذه الحشوات هى التى تعمل من جوتابركا « هل » حيث يكون فيها أكسيد الزنك بنسبة ٧ : ١٠ أو حشوة السمنت بالأكسيكلورور أو الأكسيفوسفات الزنك أو حشوة أكسيد الزنك مع الإيجونول .

٤ — التبريد :

له جهاز خاص اسمه « الجازوتيرم » أو يمكن الحصول عليه بواسطة الكلورور الأتيلى .

٥ — التخلل الكهربائى :

وهو الاستعانة بالكهرباء لإدخال دواء مخدر فى طبقات العاج وانتشاره فيها .

٦ — التخدير الموضعى والتخدير الناحيوى :

من أهم ما يشار به فى مثل هذه الحالة لا سيما التخدير الناحيوى حيث يعتبره الطب الحديث أقوى ما يتخذ للتغلب

على شدة إحساس العاج .

تطهير العاج :

يجب تعقيم حفرة النخر قبل حشوها وللتعقيم طرق عديدة نكتفى منها بما يلى :

الطريقة الأولى :

خطواتها كما يلى :

تجفيف الحفرة بالكحول المطلق ثم تجفف بعدها بالهواء الحار .

الطريقة الثانية :

تجفف الحفرة كما سبق بالكحول والهواء الساخن ثم تدهن بمحلول قوى من حمض الفينيك أو محلول الكريوزوت أو محلول اليودوفور أو الأريستول ثم تحشى بعد ذلك .

الطريقة الثالثة :

تكون بوضع دواء مطهر فى الحفرة تحت حشوة من أكسيد الزنك والإيجونول وتركه لمدة ٢٤ ساعة أو ٤٨ ساعة ويجب أن لا يكون الدواء المختار كاو قوى حتى لا يؤثر على اللب ، ويحسن الابتعاد عن جميع الأدوية التى يدخلها الفورمول أو أكسيد الميتيلين الثلاثى فيستعمل مثلاً حمض الفينيك أو الكريوزوت فى محلول مخفف أو فى الجليسرين ويستحسن استعمال عجينة من أكسيد الزنك والإيجونول فقط إذ أنها مطهرة ومسكنة .

الفصل الرابع

النخر الثاقب (١)

أولا : النخر ثاقب ولكن اللب حي ولا يزال يؤدى وظيفته .

التشريح المرضى – الأعراض – العلامات – الآلام –
التشخيص – العلاج الوقائى .

التشريح المرضى :

فى النخر الثاقب الذى يكون فيه اللب لا يزال حيا نجد فى حفرة النخر جميع الأوصاف والمتخلفات التى كانت موجودة فى حفرة النخر البسيط مضافاً إليها فتحة بسيطة توصلها بحجرة اللب وهى ترى بالعين المجردة بمساعدة المرآة الفاحصة كنقطة محتقنة فى وسط الحفرة لونها أحمر تدمى عند لمسها بالمسبر .

ومن الوجهه النسجية لا يوجد شيء شاذ إلا بعض تمدد فى الأوعية ثم تسلل الكريات البيضاء التى توجد بكثرة حينئذ ملتصقة على الحواف كما يوجد عدد كبير من الخلايا الجنينية بين الأوعية وطبقة النسيج الضام .

الأعراض : حجرة اللب مفتوحة . فإذا فرضنا من الوجهة النظرية أن اللب لا يزال على حالته الطبيعية يؤدى وظيفته مع أن هذا نادر جدا وجدنا ما يأتى :

حفرة النخر شديدة العمق تصل إلى اللب والفتحة الموصلة بينها وبين حجرة اللب تنتهى إلى قرب وسط اللب عادة فى

الأسنان وحيدة الجذر أو إلى أحد القرون اللبية فى الأسنان كثيرة الجذور ويكون شكل اللب ظاهراً من هذه الفتحة كنقطة صغيرة لونها وردى تدمى بسهولة إذا ما لمستها أى آلة كالمسبر مثلاً .

وجميع الآلام التى تحدث فى النخر البسيط تحدث هنا أيضاً فى هذا النوع من النخر الثاقب ويزيد عليها آلام أخرى ذاتية أى تحدث من تلقاء نفسها دون أى سبب خارجى .

الآلام :

تكون أشد من ألم تسويس الميناء والعاج « النخر البسيط » وذلك لأن المؤثرات الخارجية كالتقلبات الحرارية والأشياء المهيجة يقع تأثيرها على اللب مباشرة لأنه مكشوف لذا كانت البرودة والحرارة والمأكولات السكرية والمأكولات الملحية ولمس الآلات كالمسبر مثلاً وضغط بقايا المأكولات التى تملأ الحفرة بعد المضغ تسبب آلاماً شديدة مبرحة تستمر زمناً وهى تتزايد محدثة أزمات عصبية .

ويوجد نوع آخر من الألم مميز لهذه الحالة المرضية ويكاد يكون قاصراً عليها وهو الألم الذى ينتج من عملية المص لأن المص يسبب احتقان اللب بضغطه على الألياف العصبية وقد يزداد هذا الاحتقان فيمزق الأوعية وينزف الدم ويصحب كل هذا ألم لا يطاق .

وقد يتسبب الألم للمريض من أشياء يأتيها هو عن غير تعمد كالسعال مثلاً أو العطس أو من الحيض عند النساء ... إلخ . فيحتقن اللب ويتضخم وتضيق حجرته عن أن تسعه .

ويتسبب عن ذلك ألم شديد وهذا الألم هو ما يدعوه العامة عادة (نزلة الأسنان) فإذا كانت حجرة اللب متسعة ساعد ذلك على التخفيف من حدة الألم وربما أدى إلى عدم ظهوره إطلاقا . وفى حالة النزلة السنية يكون الألم شديدا مستمرا موضعيا فى ناحية السن النخرة فقط واستمراره يكون من بضع دقائق إلى بضع ساعات يتخللها فترات راحة ، وهذا هو التهاب اللب دون الحاد .

فإذا استمرت المهيجات والمؤثرات وتكررت . انتقلت الحالة إلى الالتهاب اللبي الحاد الذى تزداد فيه الأعراض السابقة قوة وشدة . ويحسن بنا هنا أن نصف ما يقاسيه المريض فى هذه الحالة عن لسانه هو .

يقول المريض إنه يشكو نوبة آلام شديدة الوطأة من بضع أيام ويعين موضع الألم بالضبط مشيراً إلى السن المصابة — وهذه الآلام تكون نتيجة لضغط الدم عند دفعه فى أوعيته أثناء انقباض القلب وتكون نوبات الألم متقطعة موافقة لضربات القلب ولا يوجد مؤثر خارجى يسبب هذا الألم إلا فى بعض الحالات النادرة التى يجهد فيها المريض نفسه عن غير قصد على أثر عطسة أو كحة شديدة كما أن بقايا الطعام بتراكمها وضغطها على اللب تسبب هذه الآلام وشرب المشروبات الساخنة أو الطعام الذى تكثر فيه التوابل أو المآكل الشديدة الحموضة أو شفط الهواء بطريق المص يدعو لظهور الألم .

أما نوبات الألم فلا حد معين لبقائها فقد تمكث ساعة كما قد تستمر طول الليل .

التشخيص :

بمساعدة الأعراض المذكورة نتمكن من التحقق من تشخيص هذه الحالة والتأكد من أنها التهاب اللب الحاد ويلاحظ أن نوبات الألم بدل أن تزول بزوال العامل المؤثر كما فى حالات النخر البسيط تستمر هنا مدة تتراوح بين الطول والقصر وإذا كان المؤثر من ضغط بقايا الأطعمة على قاع الحفرة طالت مدة الآلام .

وأهم مميزات أعراض التشخيص هو حالة مص الهواء والألم الناتج عنها لأن الآلام الذاتية الناتجة من تلقاء نفسها لا رابط لها فهى قد تختفى بعد بضع لحظات أو قد تستمر فتسبب نزلة الأسنان .

وعند فحص الطبيب لحفرة النخر يجب مراعاة الحذر وخفة اليد حتى لا يكون هو سبباً فى خلق آلام شديدة أشد من الأولى .

ويندر جدا أن يصادف لب فى مثل هذه الحالات حافظاً لكيانه الطبيعى قائماً بوظيفته الحيوية ويكون اللب فى حالته الطبيعية فى حادثة واحدة فقط هى حادثة كشفه خطأ بواسطة آلات الطبيب أثناء مداواة السن لذلك يقتصر وصف علاج حالة اللب الذى لا زال قائماً بوظيفته الحيوية على اللب المنكشف من الحادثة السالفة الذكر ويكون العلاج فى هذه الحالة وقائى .

الفصل الخامس

النخر الثاقب (٢)

التهاب اللب الحاد العام مع تلف جزء منه

التشخيص : التشريح المرضى – تضخم اللب – ضمور اللب – العلاج حامض الزرنيخ وكيفية استعماله – خطوات العمل به . مفعول حامض الزرنيخ – حوادث حامض الزرنيخ – استئصال الأنسجة التى أماتها حامض الزرنيخ – التخدير اللثوى – التخدير الناحيوى – بتر اللب – طريقة العلاج .

الالتهاب اللبى الحاد :

يكون فيه اللب قد أصيب بأجمعه بالتهاب مع تغيير فى لون السن إذ يصبح بياضه مائلا إلى الزرقة التى تعلل بتكون بعض الأصباغ الدموية فى السن . وتكون الآلام هى نفسها التى كانت فى الحالة السالفة ، كذلك الآلام الذاتية التى لا تنتج من مؤثرات خارجية إلا أنها فى هذه الحالة تمتاز بتعديها منطقة الإصابة إلى المناطق المجاورة فينتشر الألم إلى مسافات تصيب بعض المناطق المتقاربة المحيطة بالسن .

أما الآلام المتقطعة فيختلط على المريض تعيين موضعها حتى إنه قد يتهم سنا آخر غير السن المصابة وفى هذه الحالة المرضية نكون أمام مشهدين للألم :

١ – النزلة السنية ٢ – آلام العصب الوجهى المسببة عن

إصابة سنية . وتكون الآلام العصبية الوجهية فى هذه الحالة راجعة إلى التهاب عصبى ويشعر فيه المريض بالآلام فى كل ناحية الوجه التى فيها السن المصابة ويبدأ الألم عادة عند حلول الليل ويكون مصحوباً بآلام موضعية فى مناطق معينة فلو كانت الإصابة مثلاً فى رحى سفلية فإن الألم الموضعى يحدث فى موازاة الثقبة الذقنية عند العصب الداخل فيها . وإذا كانت الإصابة فى سن علوى فإن الألم الموضعى يكون فى الثقبة تحت العينية فى العصب الداخل فيها أيضاً وقد يمتد الألم وينتشر حتى إنه فى بعض الأحيان يصيب الأذن .

التشخيص : تتشابه الأوصاف هنا مع أوصاف الإصابة بالصداع الناتج من الالتهابات العصبية الوجهية — ولذا كثيراً ما يخلط بين تشخيص الحالتين ولكن هناك أعراض مميزة توضح الإصابة السنية وهى :

١ — أغلب الآلام الناتجة فى مثل هذه الحالة يكون مرجعها إلى أصل سنى ظاهر وقلما ترجع إلى أسباب أخرى .

٢ — تفحص مناطق العين والأنف والأذن بدقة وأعراض أمراض هذه الأعضاء سهلة الكشف ويختلف تأثيرها وأوصافها بحيث يسهل تمييزها عن بعضها .

٣ — لآلام العصب الوجهى خطوات خاصة ومميزات تميزها عن الآلام الناتجة من أصل سنى يسهل على الطبيب معرفتها .

٤ — لقد ثبت أن آلام العصب الوجهى التى كثيراً ما تحدث

على أثر الأمراض العامة الحادة كالأنفلونزا والتيفود والسل وفقر الدم — يرجع سببها إلى أصل سنى تكون قد أحدثتها هذه الأمراض فى الأسنان . لذلك وجب الاهتمام فى حالة الشكوى من آلام العصب الوجهى بالكشف على سبب سنى أولاً .

٥ — وأكثر من ذلك قد ينتشر الألم فى داخل الفم بحيث يصعب على المريض تحديد مناطقه فتتعقد فى هذه الحالة مهمة الطبيب إذ يتحتم عليه فحص جميع الأسنان بدقة فإذا شكا المريض ألماً فى الناحية اليمنى فهذا لا يمنع الطبيب من فحص أسنان الجهة اليسرى فإذا شكا المريض آلاماً فى الأذن تصل إلى ناحية الأرحية السفلية فقد تكون هذه الآلام ناتجة من إصابة أضراس العقل العليا إذ أنها هى التى تسبب مثل هذه الآلام .

وإذا شكا المريض آلاماً فى الناحية الذقنية تفحص أسنان الفك الأسفل الأمامية وإذا انتشر الألم فوق أو تحت منطقة العين تفحص أسنان الفك العلوى — فإذا ظهرت أسنان الناحية التى فحصت بأنها سليمة بنظرة سطحية فيجب التفكير فى الحال فى نخر على السطوح المتجاورة للأسنان أو نخر فى أعناق الأسنان.

ففى مثل هذه الإصابات المختفية قد يتهم المريض خطأ جزءاً من سن مكسور موجود فى الناحية المتألمة أو سن أخرى مصابة بنخر جاف ظاهر للعين بأنه السبب فى آلامه .

التشريح المرضى : فى حالة النخر الثاقب الثانية أى التى يكون اللب فيها ملتهباً وجزء منه تالفاً تظهر جميع أعراض

إصابة اللب المذكورة فى الفصل السابق مع اختلاف قليل ويزداد هذا الاختلاف كلما ازداد التهاب اللب فيتغير لونه إلى ما يقرب من اللون الرمادى ويصبح متقرحاً متقيحاً .

تضخم اللب : يتضخم اللب وينتفخ قرب ثقب الحفرة ويكون سهل الإدماء لأقل سبب ويصحب الإدماء آلام خفيفة .

الضمور اللبي : يشمل الضمور اللبي ما يأتى :

١ ــ التفتت الليفى : الذى كثيراً ما يحدث عقب عملية تسقيف خاطئة .

٢ ــ التفتت الشحمى : ٣ ــ التفتت الكلسى :

وهو عبارة عن حبيبات كلسية تنشأ وتنتشر فى وسط الكتلة اللبية يتحول اللب فيها إلى قطعة كلسية صغيرة تسد حجرته .

العلاج : أحسنه ما كان خاصا بالمحافظة على اللب غير أنه لسوء الحظ قلما تنجح طرقه .

حامض الزرنيخ :

مسحوق أبيض بلورى قليل الذوبان فى الماء إذا وضع على الأنسجة الحية تسبب عنه آلاماً شديدة مع احتقان وإماتة فى الأنسجة التى يوضع عليها ــ على أن تماوت الأنسجة هذا لايكون سببه من فعل الدواء الكاوى الكيماوى لأن المعروف عن الزرنيخ أنه لا يتعرض لبنية الأنسجة أما عمله فنصب على موارد تغذيتها وتغذية خلاياها لذلك كان من أهم عوامل نجاح فعل حمض الزرنيخ أن تكون الأنسجة التى يعمل فيها حية . أما إذا وضع الحمض على أنسجة ميتة فإنه يكون عديم التأثير وحمض

الزرنيخ يسد الأوعية التى تغذى النسج الحية فيجمد الدم الذى يجرى فيها ولا يصل إلى النسج لتغذيتها فتختنق تلك النسج ويسير فيها الموت .

كيفية العمل : يستعمل حامض الزرنيخ مسحوقاً كما هو أو ضمن تركيبات بشكل معاجين ولا يجب أن يتعدى حجم الجزء المستعمل منه على حجم رأس الدبوس .

خطوات العمل :

يحسن وضع حمض الزرنيخ بقدر المستطاع على العاج بعيداً عن اللب ويغطى بالحشوة وإذا كان النخر على السطوح المتجاورة يفضل استعمال الدواء ويغطى بقطنة مغموسة فى السندراك أما فى نخر عنق الأسنان فتكون الحشوة من الجوتا بركا أو السمنت المؤقت وكذلك فى النخر المركب الذى يكون على سطحين من سطوح الضرس وعلى العموم يجب الاحتراس فى كل هذه الحالات من عدم انتشار حمض الزرنيخ وسريانه فى غير الموضع الذى وضع فيه ويكون العمل على خطوتين فى حالات النخر الصعبة فيجب أن تحشى الحفرة أولا ثم تعمل فتحة فى هذه الحشوة مناسبة لوضع الزرنيخ فيها .

المدة التى يمكثها الدواء فى موضعه :

لا يجب أن تزيد المدة التى يمكثها هذا الدواء فى موضعه عن ٢٤ ــ ٤٨ ساعة عند البالغين أما عند الأطفال فتكون من ١٢ ــ ٢٤ ساعة هذا إذا كان الزرنيخ فوق اللب مباشرة أما إذا كان فوق العاج فقد تزيد المدة من يومين إلى أربعة أيام وأحيانا

ثمانية أيام — وإذا استعمل الدواء على أسنان الفك الأسفل فيحسن أن لا تزيد المدة عن ٤٨ ساعة أما على أسنان الفك الأعلى فلا بأس من زيادة المدة عن ذلك حسب ما تقتضيه الظروف مع مراعاة الاشتراطات السابقة الذكر .

مفعول حامض الزرنيخ :

يصحب استعمال حامض الزرنيخ عادة آلام عصبية تظهر عقب وضعه بساعتين وهذه الآلام تتفاوت من حيث شدتها وقوة وقعها على المريض ومن الملاحظ أن حمض الزرنيخ إذا وضع على لب مدمم خفت نوبة آلامه أو حتى اختفت بتاتاً وفى بعض الحالات الخاصة يستدعى أن يسبق استعمال حمض الزرنيخ وضع أدوية ملطفة أخرى كحمض الفينيك المركز أو الكريوزوت لتخفيف آلام حمض الزرنيخ .

ويجب على الطبيب أن ينذر المريض بحدوث تلك الآلام قبل وقوعها حتى يستعد لها ولا يتضايق من حدوثها وليعلم أن السن سيموت لبها وما الآلام التى تحدث إلا آلام الاحتضار فتغمس قطعة صغيرة من القطن فى حجم رأس الدبوس فى الكريوزوت ثم تمر على غطاء زجاجة حمض الزرنيخ من الداخل طبعاً فيعلق عليها من الحمض مقداراً يناسب المطلوب منه ثم توضع فى حفرة النخر وتسد الحفرة سدا لا يسمح بوقوع ضغط على قطعة القطن بأن تحشى بالسمنت المؤقت ولا بأس من أن يوصف للمريض تعاطى الأدوية المضادة للآلام العصبية .

حوادث حمض الزرنيخ :

هذا الدواء يستعمل من زمن طويل فى أمريكا وينحصر خطره فى أنه كاو وهذه الخاصية تؤثر فى الأنسجة التى حول السن — فإذا وجدت فى السن قناة شاذة زائدة فلا يلبث أن ينتشر حمض الزرنيخ ويؤثر فى الرباط السنى السنخى إلا أن وقوع ذلك نادر ولتجنبه يجب مراعاة عدم وضع حمض الزرنيخ فوق القنوات مباشرة بداعى قوة التأثير وشدة المفعول وكثيرا ما تصاب اللثة المحيطة بالسن من مفعول حمض الزرنيخ وفى هذه الحالة يغلب أن يكون الرباط السنى السنخى قد أصيب أيضاً فتحدث من ذلك آلام شديدة غير محتملة ومستمرة وتصاب السن بهزة وتصير شديدة الحساسية لأقل لمس بسيط وتتأثر تبعاً لذلك حالة الجسم عامة إذ قد تصيبه نوبات تشنجية مع ارتفاع فى درجة الحرارة ويكون لون الجزء المصاب بنى ضارب إلى السمرة ويتآكل الغشاء المخاطى ويظهر العظم الذى تحته منزوعاً عنه سمحاقه ويكون يابسا ولونه رمادياً ثم لا تلبث هذه الظواهر أن تزول تدريجيا بعد تفتت العظم وتحوله إلى شظايا عظمية وانفصالها عن باقى عظام الفلك ودفعها إلى الخارج ثم يأخذ العظم المصاب بعد ذلك فى الشفاء والالتئام .

وتعتبر هذه أخطر حوادث حمض الزرنيخ بل أخطر الحوادث التى تأتى عن الطبيب لذلك يجب الاحتراس منها والعمل على تلافيها .

استئصال الأنسجة التى أماتها حمض الزرنيخ :

بعد موت اللب يجب العمل على استئصاله ونزعه من مكانه كما يجب أن تنظف الحفرة من جميع المواد المتخلفة فيها مع مراعاة شكل السن التشريحى عند إجراء هذه العملية فبعد العثور على فتحات القنوات داخل السن تنزع ما تحويه كل قناة من شعب اللب باستعمال الإبر الشائكة الخاصة بهذه العملية والإبر الملساء التى تفيد فى توسيع فتحات القنوات ولسهولة العثور على فتحات القنوات توضع فى الحفرة قطعة من القطن مغموسة فى حمض الكبريتيك الذى قوته ٤٠٪ بعد أن تكون قد غسلت وجففت جيداً ثم ترفع هذه القطعة بعد برهة وجيزة فنرى أن الحفرة قد لونت باللون الأبيض وظهرت فتحات فى وسطها على شكل نقط سوداء وتصبح الفتحات واضحة ظاهرة فإذا ظهرت أنها ضيقة وجب توسيعها . ويستعمل حمض الكبريتيك قوة ٥٠٪ لتوسيع فتحات القنوات ويلاحظ تعديل كميات الحمض التى تزيد عن الحاجة بواسطة الغسيل المتكرر بمحلول بكربونات الصودا « القلوى » ثم تنتهى العملية بأن تترك فى كل قناة فتيلة من القطن مغموسة فى الكريوزوت أو الفورمول وتترك لعدة أيام فإذا لم تظهر أى أعراض شاذة رفعت الفتايل وحشيت القنوات .

التخدير بطريق اللثة :

تختلف طريقة تخدير اللثة عنها فى حالة تخديرها عند خلع الأسنان . فى هذه الحالة الأخيرة نستعمل محلولاً مخدراً بنسبة ١٪ ويجرى حقن المخدر تحت الغشاء المخاطى أما فى حالة

تخدير اللثة لنزع اللب فتستعمل محلولاً مركزاً محتوياً على ٤ ــ ٥ سنتيجرام من المخدر فى كل ٣ سم ويحقن المخدر فى موازاة ذروة السن من ناحية اللسان فى الأسنان السفلية وسقف الحلق فى الأسنان العلوية ومن الناحية الأخرى المقابلة حسب وضع السن من الفم ويكون الحقن فيما تحت السمحاق كذلك يكون وقت الانتظار هنا بعد الحقن أطول منه فى الحالة السالفة فلا تقل عن ١٥ دقيقة وبذا نصل إلى تخدير اللب ونزعه وتنظيف الحفرة ووضع فتيلة مغموسة فى الماء الأكسجينى .

التخدير الناحيوى :

يجرى التخدير الناحيوى عند مدخل العصب السنى السفلى فإنه بحسب الظاهر ينظر إليه بأنه الطريقة المثلى لنزع اللب إلا أن التخدير بهذه الطريقة كثيراً ما ينتج عنه نزيف شديد قد ينتهى بأوخم العواقب .

بتر اللب :

هو نزع جزء اللب الموجود فى حجرته وترك شعبه الجذرية الموجودة فى القنوات ولهذه الطريقة مؤيدون عديدون يحبذونها بآرائهم وتعليلاتهم التى أهمها :

إن اللب يختلف فى وظيفته عن وظيفة شعبه فإذا ما نزع اللب بطل عمل شعبه فى الحال إلا أن هذا الرأى ما زال يحتاج إلى إثبات وتأييد فنى . وعندى أن ما ألجأ الأطباء إلى مثل هذا القول إنما هو الصعوبات التى يلاقونها عند القيام بعملية نزع شعب اللب من قنواتها لا سيما إذا تصادف وجود شذوذ تشريحى فى

جذور السن وتشعب فى نهايتها فى بعض الأحايين أو وجود شعب أخرى زائدة عن المألوف مما يضطرنا إلى التمشى مع هذه الآراء والعمل على مداواة هذه الشعب وتطهيرها مع بقائها . ولو تمكنا من حماية هذه الشعب من إصابتها بالمضاعفات التى أهمها الورم الحبيبي لكانت هذه الطريقة هى المفضلة على غيرها ولكن هذا السبب وحده يجبرنا على استئصال هذه الشعب والتأكد ما أمكن من إزاحتها .

طريقة العلاج :

ينزع اللب من حجرته وتنزع شعبه من قنواتها ثم تحشى حجرة اللب بمركب يتكون من بودرة أكسيد الزنك مع أكسيد الميتيلين الثلاثى مع روح القرنفل فإذا لم يحدث ما يشعر المريض بالألم لمدة ثمانية أيام تحشى السن نهائيا .

الفصل السادس

النخر الثاقب (٣)

اللب الميت

التشريح المرضى – الأعراض – العلامات – تأثير الجراثيم على محتويات القناة والعاج والملاط وما حول ذروة السن – العلاج– توسيع القنوات آلياً وكيماوياً – تطهير القنوات – طريقة باكلى وطرق أخر– حشو القنوات – علاج ما حول الذروة – إعادة حشو القنوات – ثقب القناة أثناء المداواة وعلاجه .

التشريح المرضى :

يكون اللب كله ميتا . فإذا كانت الحفرة النخرية مفتوحة لا يصحب الإصابة أى ألم ألبتة . أما إذا سدت القنوات وحشيت بمخلفات النخر فيتعرض السد لحدوث مضاعفات مرضية وساحة المرض فى هذه الحالة تكون مليئة بالعاج النخر وتكون القنوات متسعة واللون الغالب عليها رمادى مائل إلى السمرة والرائحة المنبعثة منها عفنة ذات طابع خاص تتميز بها هذه الحالة .

الأعراض :

ليس لهذه الحالة أعراض خاصة .

العلامات :

بإدخال المسبر إلى الداخل فى القنوات ثم شمه بالأنف

نجده حاملاً الرائحة العفنة الخاصة السالفة الذكر التى تشير إلى موت اللب أما الجس بالأصبع والطرق على السن فلا يسببان أى ألم فإذا أردنا المحافظة على السن فى مثل هذه الحالة وجب اتباع الطريقة الهامة الآتية فى المداواة : وهى أن نبدأ أولا بنزع كل الطبقات اللينة والأنسجة الميتة وتوسع فتحة حجرة اللب ولو استدعى الأمر التضحية ببعض طبقات العاج السليمة حتى يصبح الوصول إلى القنوات سهلا ميسراً بلا مانع فتظهر بذلك مدى الإصابة ماثلا أمام أعيننا وقد يتصادف أن تكون أحد شعب اللب فى إحدى القنوات لا تزال حية حساسة فتعوق بحساسيتها هذه مواصلة العلاج بالكامل ويلاحظ عدم استخدام الزرنيخ فى مثل هذه الحالة لأنه سرعان ما يتسرب إلى الذروة ويسبب التهاباً فى الرباط السنى يسمى الالتهاب الزرنيخى ويكون خطراً جدا على السن كما لا يمكننا استعمال طريقة التخدير بالضغط لأننا بها نساعد على دفع الجراثيم إلى الداخل مع السائل المخدر فنعمل بذلك على امتداد الإصابة .

وأسهل هذه الطرق وأحسنها هى :

نزع الشعب اللبية بإبرة العصب الشائكة فإذا كانت شعب العصب شديدة الحساسية نزيلها بوضع فتيلة مغموسة فى سائل بونان وفى كل هذه العمليات يجب الحذر من الخطر الذى ينتج من إصابة الرباط السنى السنخى الذى حول ذروة السن . ويجب فى علاج هذه الحالة الاعتناء الزائد بتطهير الحفرة النخرية والتأنى والدقة المتناهية فى إتيان هذا التطهير عند علاج الحالات

النخرية السالفة لأن فى هذه الحالة توجد أنواع عديدة من الجراثيم الكامنة . منها ما هو هوائى ومنها ما هو غير هوائى .

وفيما يختص بالعاج والملاط :

تتصل « الخلايا المكونة للملاط » بالقنيوات التى يوجد منها من ١٥ — ٢٠ ألف فى كل مم٢ فيحدث بينهما دورة بطيئة بواسطة الضغط الأوزموزى فتفتت الإصابة العفنية المواد العضوية وتتلف الجراثيم العاج وتوسع القنيوات فتتمكن من الوصول إلى الملاط الذى يبدأ الدفاع عن نفسه ضد الإصابة .

وفيما يختص بما حول الذروة :

فتوجد هناك فسحة بلاك وهى فقيرة فى الأنسجة الضامة عن باقى الرباط السنى إلا أنها غنية عنه بالأوعية الدموية فإذا وصلت الإصابة إلى فسحة بلاك وألهبتها يتكون فيها برعم من نسيج ضام يسمى الورم الحبيبى (الجرانيولوما) فإذا كانت الإصابة شديدة تتضخم « الجرانيولوما » متلفة بتضخمها هذا الصفيحة الخارجية للفك التى تتقرح ويحدث فيها خراج ينتهى بحدوث الناسور .

العلاج :

رأينا إذن كيف تعقد الداء بعد إصابة هذه المناطق فالأنسجة الصلبة محتاجة إلى مطهرات قوية وشديدة التخلل والانتشار إلا أن هذه المطهرات لا يجب أن تصل إلى الخلايا الحية الموجودة فى منطقة ما حول الذروة حتى لا تعرضها للتلف . فينتزع العاج النخر من الحفرة وبقايا اللب من حجرته على شرط أن لا نمس

القنوات ثم نغمس قطعة من القطن فى معجون روبان ونضعها فى حجرة اللب وبعد ٤٨ ساعة من وضع هذه القطعة نتمكن من الولوج فى القنوات ومعالجتها . وعلاج القنوات فى هذه الحالة متعباً شاقاً وترجع معظم صعوبته إلى الانحناءات الموجودة فى القنوات وإلى دقتها وشذوذها فى كثير من الأحايين .

تطهير القنوات :

بعد توسيع القنوات تنظف وتطهر ويعتبر تطهير القنوات من الحالات التى استعمل فيها الأطباء معظم المطهرات المعروفة . أما أهم الصفات التى يجب أن يتميز بها المطهر المختار فهى ما يأتى :

يجب أن يكون قاتلا للجراثيم قويا شديد التخلل حتى يسهل انتشاره بين طبقات العاج . وحيث إن قوة المطهر فى قتله للجراثيم تتناسب مع قوته ككاو فهذا يجعلنا نلجأ إلى استعمال دوائين أو أكثر يعدل أحدهما قوة الآخر (كالكريزوت والفينول) مثلاً وترجع قوة تخلل الأدوية المطهرة فى طبقات العاج إلى نظرية الضغط الأوزموزى والشعيرات — ولكى تتحقق هذه النظرية وجب أن يكون الدواء المستعمل قابلاً للذوبان فى الماء وطيار إذ أن هذه الصفة تساعد الدواء على الانتشار والتخلل فى الطبقات الموضوع عليها .

طريقة باكلى :

اكتشف باكلى دواء يتفاعل مع المواد المتخمرة المتراكمة

فى حفرة النخر فيكون منها مركبات كيمائية من خصائصها أنها غير سامة وقاتلة للجرائيم . وهذا الدواء هو من الألداهيد فورميك، المذابة فى الماء بنسبة ٤٠٪ واسمها الفورمول إلا أنه وجد أن الفورمول لا يكون قوى التأثير فزوده بالكريزول والكريزول من مشتقات حمض الفنيك وقد استعمل باكلى الاورتوكريزول والباراكريزول والميتاكريزول تحت اسم الكريزول الثلاثى أو التريكويزول ،والتريكروزول عبارة عن سائل أصفر اللون يعطى رائحة الكريزول ويذوب فى الماء بنسبة ٢٪ وهو يختلط مع المواد المتخمرة المتعفنة فيكون منها مواداً مطهرة فيتحد الأموبناك المنبعث من تلك المواد المتعفنة مع الفورمول ويكونان الأتروبين « وهذا مطهر » ثم يتحد الفورمول أيضا مع الهيدروجين المكبرت مكونا الكبريت وهو جسم صلب والذى ساعد باكلى على خلط التريكروزول بالفورمول هى المزايا الآتية :

١ — يختلط التريكروزول بالفورمول فى جميع النسب .

٢ — للتريكروزول قوة توازى ثلاثة أمثال قوة حمض الفينيك .

٣ — يتحد التريكروزول مع المواد الشحمية مكونا الليزول الذى يعتبر من أقوى المطهرات ويجب أن يستعمل هذا الدواء المسمى : «دواء باكلى» نسبة إلى واضعه تحت حشوة مسدودة سداً محكما . والخلاصة يجب الالتجاء إلى استعمال الأدوية المطهرة وتكرار هذا الاستعمال حتى يتم الشفاء والتأكد منه .

ومن علامات حدوث الشفاء اختفاء الآلام بعد آخر دواء

وضع بثمانية أيام على الأقل كما أن الفتيلة التى تدخل القنوات تخرج بدون رائحة كريهة .

حشو القنوات :

يجب أن تحشى القنوات بأكملها أى حتى ذروتها وحشو القنوات حتى الذروة يصعب تحقيقه إما لعدم التأكد من شكل الجذر أو لوجود شذوذ فى نفس القنوات أو لتشعبها زيادة عن الشكل التشريحى ويجب أن تكون مادة الحشو متينة ذات قوام ثابت معتمة للأشعة .

خطوات الحشو :

١ ــ التجفيف بالكحول والهواء الساخن .

٢ ــ وضع معجون رويان مع مخروط من الجوتابركا « يباع فى مخازن الأسنان » .

علاج ما حول الذروة :

هذه المنطقة يصعب تطهيرها ويشمل علاجها استعمال مطهرات خاصة . وتحتوى هذه المنطقة على أنسجة حية لذا كان الواجب يقضى بعدم التأثير عليها وإتلافها بل مداواتها بطريقة تساعد خلاياها على الدفاع والمقاومة ضد غزو الجراثيم فوضع أدوية مهيجة لا يطابق ما نريده لها ويعرضها لحدوث التهابات متنوعة ويكفى فى معظم أطوار هذه الحالة أن يطهر الجذر لتطهر معه الأنسجة التى حول الذروة لأن أبخرة المطهرات التى توضع

فى الجذر تكفى للتأثير على هذه الأنسجة وتطهيرها كما أن تطهير الجذر يحول دون امتداد الإصابة إلى الأنسجة التى حوله . ومن المطهرات المفيدة لهذه الحالة « الديكلورامين آ » الذى يشبه فى تركيبه «سائل داكان» حيث ينبعث منه أبخرة الكلور المطهرة .

إعادة حشو القناة :

إذا احتاج الأمر إلى نزع حشو القناة لإعادته من جديد فيجب فى هذه الحالة اتخاذ طريقة تتفق وطبيعة الحشوة الموجودة فإذا كانت الحشوة من الجوتابركا فيستعمل لإذابتها واستخراجها الكلوروفورم والكحول وإذا كانت من السمنت يستعمل لها الأتير أو حمض الكبريتيلك وإذا كانت من المعدن نستعمل لإزالتها المثاقب الخاصة .

ثقب القناة أثناء المداواة ومعالجته :

يحدث عادة عند توسيع القناة آليا أن تثقب فإذا تأكدنا أن الثقب الحادث لم يتلوث بالجراثيم حشونا فى الحال بعجينة أكسيد الزنك والإيجونول . أما إذا كان قد تلوث وهذا هو الغالب فيجب الالتجاء إلى تطهيره بمطهرات غير مهيجة وغير كاوية كالإيجونول والكريوزوت والماء الأكسجينى ثم حشوها بعجينة أكسيد الزنك والإيجونول ويجب أن نتجنب جميع المطهرات القوية .

الفصل السابع

موت اللب بدون نخر (غنغرينا اللب)

وصفها : الأسباب : (ا) اضطراب الدورة الدموية (ب) إصابة عامة أو موضعية (ﺟ) آفات عصبية – التشريح المرضى – الأعراض والعلامات – المضاعفات .

وصفها :

قد يموت اللب بدون أن تصاب السن بالنخر فيسمى هذا طبياً غنغرينا اللب ولا يصيب هذا المرض عادة إلا الأسنان وحيدة الجذر وغنغرينا اللب معروفة من قديم الزمن .

أسبابها :

(ا) اضطرابات الدورة الدموية :

يحدث التماوت فى اللب على أثر صدمة قوية للسن تقلقله فى مفصله فتنقطع الحزمة الوعائية العصبية الداخلة إلى القناة الجذرية من الذروة فينقطع الدوران الدموى بانقطاع الحزمة الوعائية كذلك قد تنقطع الحزمة الوعائية على أثر معالجة التهابات الجيوب الفكية من ناحية الأسنان بواسطة المجارف الخاصة المعدة لذلك . كما أن قلقلة الأسنان من إصابتها بمرض البيوريا تكون سببا فى قطع الحزمة الوعائية وتماوت اللب . وفى رضوض أخرى أخف وطأة من المتقدمة لا تنقطع الحزمة الذروية المذكورة

بل يحدث التهاب مفصلى مزمن تتولد على أثره أنسجة ليفية تخنق الحزمة الوعائية بما يشبه حالة الفتق المختنق .

ومن الرضوض ما هو عرضى كما يحدث فى كسور الفكين ثم إن الآفات المرضية كالأورام قد تسبب الضغط على الحزمة الوعائية وموت اللب .

وقد يصاب الشريان بالالتهاب فينسد أو تحدث جلطة فى الأوعية فتسدها وفى كلتا الحالتين يموت اللب .

إصابة عامة أو موضعية :

إن كل العلل العامة التى تتمكن من أى عضو من أعضاء الجسم تستطيع أن تسبب غنغرينا اللب وذلك ما يحدث أحيانا عن الإصابة بالحمى التيفودية أو الأنفلونزا أو داء السكر أو التسمم الرصاصى أو التسمم الكحولى .

أما الإصابات الموضعية المجاورة للب فيمكنها أن تنتقل إلى الأوعية الذروية. كذلك وجود بؤرة التهابية مفصلية «فى الرباط» تنتقل الإصابة منها إلى الأوعية . أما هذه البؤرة فقد تكون مسببة عن رض سنى أو داء لثوى أو عن التقيح اللثوى السنخى أو عن مرض عظمى أو داء ناشئ فى الجيب الفكى يمتد إلى الأرحية العلوية (الضروس العلوية) .

وفى حالة إصابة الأسنان بالبيوريا ولا سيما الأسنان وحيدة الجذر يغلب أن يصاب لبها بالغنغرينا دون إصابة الأسنان بالنخر — أما فى الأسنان متعددة الجذور فقد تنكشف بعض

جذورها وقد يبلغ الانكشاف فى بعض الأحيان إلى جوار الذروة فى حين أن الجذور الأخرى قد تبقى سليمة أو أن تكون أقل انكشافا — أما غنغرينا اللب فتحدث حين انكشاف الذروة وكثيراً ما نرى خيوط اللب فى الجذور السليمة محتفظة بحيويتها فى حين أن اللب يكون قد مات فى الجذر المنكشف . وحين تنكشف الذروة يكون قد أتلف الرباط فتقع السن من تلقاء نفسها .

وفى هذه الحالة لا بد أن يكون اللب قد مات .

الآفات العصبية :

تسبب آفات الأعصاب واضطرابها غنغرينا اللب لا سيما عند الشيوخ والمصابين بالجذام ويقال إن تقلص الشريان الفجائى (ارتعاشه) قد يؤدى إلى غنغرينا اللب كما يحدث أن يؤدى إلى غنغرينا الأطراف .

التشريح المرضى للغنغرينا :

قد تبقى الغنغرينا فى معزل عن العفن وتستمر كذلك سنوات وفى أحوال أخرى يصيبها العفن على الفور وتكون الأعراض فى هذه الحالة والتغيرات المرضية كما هى فى الغنغرينا الناتجة عن النخر . ويحدث عفن اللب من الشقوق التى تظهر على الأنسجة السنية أثر إصابتها بالغنغرينا الرضية أو عن طريق الذروة فى التقيح اللثوى السنخى العام (البيوريا) أو عن الطريق الدموى فى الغنغرينا الناشئة عن التهاب الشرايين أو وجود جلطة فى ممر الشريان .

العلامات :

إن الأسنان التى تصاب غالباً بهذه الغنغرينا هى وحيدة الجذر أما العلامات الموضحة فأهمها أننا حين ننظر إلى السن فإنها تبدو غير نخرة وسليمة ولكن لونها أسمر ضارب إلى الزرقة وحين نعكس النور من المصباح الكهربى تظهر السن أقل شفافية من الأسنان المجاورة — أما الطرق على السن فلا يأتى بنتيجة ظاهرة إذا طرقت السن وحدها فقط . لذلك ينبغى أن تطرق أيضا الأسنان المجاورة لكى يمكن مقابلة الأصوات التى تحدث حين طرق هذه الأسنان . وفى الغنغرينا المبتدئة ينتج من الطرق عرضا (الطرق اللسانى الخدى) شىء من الإحساس الخفيف .

أما الطرق طولا (فى موازاة الأسنان الأخرى) فلا يحدث أقل تأثير . وفى الطرق عرضا تنتقل الاهتزازات إلى اللب فإذا كان فيه أقل أثر للالتهاب فإن الإحساس الذى يحدث فيه يمكن أن يتحقق وجوده بالمقارنة مع الأسنان المجاورة . أما إذا أحدث الطرق طولا شيئا من الإحساس فذلك يعنى أن الغنغرينا بلغت طوراً متقدماً وأن المفصل السنى السنخى قد أصيب بشىء من الالتهاب أو الاحتقان وفى هذه الحالة وغيرها يحدث الإحساس أيضاً من الطرق العرضى ويكون الصوت حين الطرق أصم غير رنان كما هو الحادث فى الصوت الناشىء حين طرق الأسنان ذات اللب السليم .

الإحساس بالتقلبات الحرارية :

يكون الإحساس بالبرودة شديداً ونحصل عليها بواسطة

استعمال (كلورور الأتيل) ولاسيما إذا ما قورنت بالأسنان المجاورة فلا يحس بالإحساس الشديد غير السن المصابة بالغنغرينا الخالية من النخر .

فإذا لم يتوصل الطبيب إلى معرفة حالة الغنغرينا من كل هذه العلامات السابقة فما عليه إلا الالتجاء إلى ثقب السن بواسطة المثقب الخاص على شرط أن يكون حاداً ومعقماً فإذا اعترض عمله شعور بشدة إحساس العاج من جانب المريض أوقف العمل فى الحال وحشى السن .

الأعراض :

يتألم المريض والألم هو الذى يدعوه إلى الاشتباه بأن سنه مصابة ويمكنه تعيين موقع الألم بوضوح . ففى بعض الأحيان عندما يتناول أطعمة أو مشروبات باردة يشعر بالألم كما أن هذا الألم قد يحدث أحياناً عند اختلاف الحرارة من بارد إلى ساخن أو من ساخن إلى بارد ويعقب هذا الألم المعروف مكانه آلام منتشرة فى جانب الوجه تصيب المريض ليلا ونهارا بدون أن يكون لظهورها سبب واضح كما أن المضغ لا يزيد هذه الآلام العميقة التى يشعر المريض معها أن السن تكاد تنشق .

المضاعفات :

إن مضاعفات الغنغرينا اللبية هى مضاعفات نخر الدرجة الرابعة التى سيأتى ذكرها فى الفصل التالى كما أن المداواة واحدة فى الحالتين .

الفصل الثامن

المضاعفات العامة للنخر (١)

الالتهاب المفصلى السنى السنخى :

تعريفه وأوصافه . الالتهاب المفصلى السنى السنخى الحاد : علاماته وأعراضه – الخراج : تشخيصه ، سيره ، علاجه .

تعريفه وأوصافه :

علمنا أن النخر إذا ما استمر تقدمه يكشف اللب فتبتدئ الجراثيم فى غزوه ولكن قد يتصادف أن تتجمع بقايا الأطعمة أو قطعة من العاج المتفتت فوق حجرة اللب وتغطيها وتحولها إلى ما يشبه الحفرة المقفولة . فى هذه الحالة يتعرض ما فى داخل الحجرة إلى التأثيرات الناتجة من إفرازات الجراثيم التى لوثتها ومن تكاثر هذه الجراثيم وتوالدها فهذه الجراثيم بتكاثرها وتوالدها تضطر إلى الاندفاع إلى داخل حجرة اللب حتى تصل إلى ثقبة الذروة الجذرية فتغزوها وتتعداها إلى المفصل السنى السنخى فتهاجمه ولا تجد صعوبة فى غزوه لأن الرباط السنى السنخى الذى يحيط بالسن فى هذه المنطقة يسهل على الجراثيم إصابته نظراً لأنه يتكون من ألياف رقيقة لا تجد الجراثيم فى غزوها مقاومة تذكر . فيتكون عندئذ الالتهاب المفصلى السنى السنخى . فإذا لم يحدث ما يسبب تعطيل غزو الجراثيم وتقدمها تطورت

الحالة إذ تهاجم الجراثيم بعد ذلك جوانب الفك العظمية وتصيب نسيجها الإسفنجي وتتقدم فى هجومها إلى طبقة العظم الجانبية وهى شديدة المقاومة إذ أن النسيج العظمى فيها متماسك ولكنها لا تلبث أن تهزمها وتتعداها إلى السمحاق الذى يعلوها فإذا بالالتهاب المفصلى السنى السنخي يتطور إلى التهاب السمحاق وقد ينتهى الأمر عند هذا الحد كما أنه قد تتقدم الإصابة أيضاً فيتكون الخراج السنى الذى هو فى الحقيقة التهاب السمحاق المتقيح على أنه يجب أن لا ننسى أن المرض هنا يتخذ خط سير جميع الأمراض الأخرى أى أنه عند هجومه على الأنسجة المختلفة التى فى طريقه تعترضه مقاومات مختلفة من جانب هذه الأنسجة التى إما أن تتغلب فيقف تقدم الداء وإما أن تنهزم فتتعداها الإصابة إلى غيرها . وهذا الغزو من جانب المرض وهذه المقاومة من جانب الأنسجة تستغرقان مدة من الزمن تطول أو تقصر حسب قوتهما فإن طالت هذه المدة ساعدت المرض على التطور والانتقال من حالته الحادة إلى الحالة المزمنة .

الالتهاب المفصلى السنخي الحاد :

يبتدئ هذا المرض بأعراض واضحة فتتألم السن المصابة لأقل لمس أو صدمة ثم يتخيل للمريض أن السن أطول من باقى الأسنان ويشعر فى ناحيتها بنوبات ألمية وتكون اللثة التى تحيط بها حمراء محتقنة وبجسها يتضح أن بها بعض الأورام .

ويسبب هذا الجس بعض الألم . وهذا الشعور بالألم عند الجس فى منطقة الجذر هو من أهم العلامات التى تساعد على

تشخيص هذه الحالة لاسيما إذا ما جاور هذه السن أسنان أنخرى نخرة يشتبه فى أنها هى منبع الألم .

العلامات :

تكون اللثة حمراء محتقنة على طول منطقة جذر السن المصابة ويتضح من الجس أن السن مقلقلة ويسبب الجس ألماً لاسيما عند ناحية جذر السن ويعطى الطرق على السن صوتاً أصم يتضح جليًّا إذا ما قورن بالأسنان المجاورة كما أن هذا الطرق يكون شديد الألم إذا ما أجرى على أى ناحية من نواحى السن المصابة .

الأعراض :

يكون الألم متواصلاً منتشراً نابضا وهو فى الليل أكثر منه فى النهار وتزيد الحرارة من شدته . ويظهر السن للمريض أنه أكثر طولاً من غيره من الأسنان وحين يطبق المريض أسنانه على الأسنان المقابلة لها من الفك الآخر تشعر بألم شديد فى السن المصابة .

لذا نجد المريض متجنباً هذا الإطباق ما أمكن ويتعذر عليه النوم كما تضعف قابليته للأكل وحين الكلام يحترس من لمس سنه للأسنان المقابلة .

ومن الطريف أن المريض يرتاح لوضع الماء البارد فى فمه حيث يهدأ الألم قليلاً ولكن بصورة مؤقتة على أن يعود أشد مما كان عليه بعد إزالة برودة الماء .

وقد يحدث فى هذا الطور أن يلتبس التهاب المفصل السنى السنخي الحاد بالتهاب اللب غير أنه لا يشعر فى التهاب اللب باستطالة السن وكذلك فإن الضغط والطرق لا يؤلمان المريض .

والفرق الثالث هو أن المص مؤلم فى التهاب اللب ولا يسبب أقل ألم فى التهاب المفصل .

وينتهى التهاب المفصل السنى السنخي الحاد إما بالشفاء أو بتكوين خراج سنى أو ينتقل إلى الحالة المزمنة .

الخراج السنى :

إذا لم يحدث الالتهاب المفصلى الحاد ما يسبب له الشفاء فإنه يتطور ويكون الخراج السنى . ويمتاز الخراج السنى بظهور ورم يحدث عدم تماثل فى وجه المريض ويحدث الورم فى أنسجة الخد المقابل لهذه السن وتفسيره هو أن النخر يتقدم فى إصابته حتى يصل إلى عظم الفك فالسمحاق ثم ينتشر بحالته العفنية فيكون ما يسمى بالخراج الذى يتميز بالورم المذكور فإذا كان الالتهاب المفصلى ناتجا عن ضاحك أو عن رحى علوية فإن الأورام تنتشر فى الناحية الصدغية . وإذا كان ناتجاً عن ناب أو عن ثنية علوية فإن منطقة الناب بما فيها نواحى الأنف والشفة العليا هى التى تصاب بالأورام وإذا كان الالتهاب ناتجاً عن أسنان سفلية ظهرت الأورام فى المنطقة تحت اللسانية . وحتى يتم تكوين الخراج تكون الآلام الذاتية فى غاية من الشدة ومقتصرة على المناطق التى سيحدث فيها الورم وتكون مصحوبة بالام

عصبية (الصداع) فإذا تطور الالتهاب السمحاقى إلى تكوين خراج خف الألم الناتج من الضغط والطرق وخفت الأورام وإذا ما تكونت المجموعة الصديدية تحت السمحاق خفت جميع آلام السن وازداد تقلقلها وهذه الأعراض مما يساعد على تشخيص الحالة فإذا تكون الخراج يسهل التأكد منه بالجس الذى يبين أنه عبارة عن ورم تكون منطقته المتوسطة أكثر ليونة عن باقى المناطق إذ أنها هى التى يبدأ فيها تكون الصديد وهى المنطقة التى عند جسها تظهر أنها متماوجة وتزداد هذه الخاصة « خاصة التماوج » كلما تقدمت الإصابة . ويندر أن تتعدى هذه المنطقة ناحية الجذر المصابة لذلك إذا ما أردنا علاج الحالة بطريقة جراحية وجب أن تشق الأنسجة التى فى منطقة جذر السن المصابة .

ويتكون الخراج السنى عادة فى الناحية الخدية أى فى ناحية دهليز الفم ويندر جداً تكونه فى الناحية المقابلة أى ناحية سقف الحنك فى الأسنان العلوية أو الناحية اللسانية فى الأسنان السفلية على أنه إذا تكون الخراج السنى فى الفك الأسفل فى ناحية اللسان ثم تطور إلى الحالة المنتشرة فإنه يصيب المنطقة تحت اللامية ويتحول إلى ما يسمى « خناق لدويج » وهو من أخطر الأمراض وينتهى عادة بالوفاة إذا لم يعتنى العناية الكافية فى علاجه .

وأحياناً تتعدى المجموعة الصديدية الحاجز السمحاقى وتعبر ما يصادفها من المناطق العضلية فى الوجه أو العنق ثم تنتهى بأن تجد لها منفذاً تحت الجلد فتخرج منه — على أن هذه الحالة

نادرة وإذا حصلت كان سببها إهمال المريض فى الإسراع بعرض نفسه على الطبيب ليبادر بما يلزمه من علاج .

التشخيص :

يكون المريض مذعوراً متهيبًا وعندما يقص على طبيبه تاريخ الحالة يبدى دهشته كيف أن هذا التطور حدث بسرعة عجيبة وظهرت الأورام فى مدة قصيرة وإذا كان المريض متعلمًا أظهر خوفه من أن تكون الإصابة من الإصابات الجلدية الخطيرة كالحمرة الوجهية مثلاً .

وقد نتمشى مع من يعتبرون أن هذه الإصابة بسيطة ولكن لا يمكن إنكار خطورة مضاعفاتها .

سير المرض :

إن التهاب المفصل السنى السنخى الحاد قد تكفى فيه مقاومة الأنسجة لزواله بدون أى تدخل علاجى من جانب الطبيب فإذا تقدمت الإصابة كونت الخراج السنى وكثيراً ما يشفى هذا الخراج بدون تدخل علاجى أيضاً إذا ما وجدت المجموعة الصديدية التى يحتويها منفذاً لنفسها وتخرج المجموعة الصديدية بإحدى الطرق الآتية :

١ — الطريق السنخى حيث يخرج الصديد منه إذ ذاك قرب حافة اللثة .

٢ — يخرج الصديد بثقبه الرباط السنى ونفوذه إلى السمحاق.

٣ — يخرج الصديد من القناة الجذرية للسن .

٤ — يخرج الصديد من الحافة السنخية ويستقر تحت السمحاق ثم ينفذ منه ومن اللثة المغطية له من دهليز الفم أو من الناحية اللسانية من الأسنان حسب موقع الخراج .

وإذا لم تجد المجموعة الصديدية لنفسها مخرجاً تطورت الحالة إلى التهاب فوق الحاد يؤدى إلى تكوين شظايا عظمية . وفى هذه الحالة لا يكفى فتح الخراج لإزالة الصديد واختفائه كما فى الحالة السابقة بل إن الصديد يستمر إلى أن تزال تلك الشظايا العظمية من مكانها .

العلاج :

فى حالة الالتهاب المفصلى السنى السنخى الحاد يجب تنظيف حجرة اللب والقنوات اللبية من كل ما يملؤها حتى ذروتها مع الاحتراس من عدم دفعها حتى لا تنفذ من ثقب الذروة إلى الداخل فتصبح الحجرة والقنوات بعد تنظيفها سالكة بحيث يسهل إمرار المطهرات والمضامض المضادة للعفونة منها إلى الداخل . ثم نحارب المظاهر الالتهابية كالأورام وغيرها بوضع الأدوية الخاصة والغسل بالمضامض الساخنة . وفى نفس الوقت تعمل فتحة صغيرة بمشرط دقيق نغرزه بعمق داخل الغشاء المخاطى اللثوى فتدمى اللثة ويخرج مع الدم بعض الإفرازات الأخرى التى تخفف وطأة الإصابة والمظاهر الالتهابية وشدة الآلام . ولا يجب خلع السن المصابة إلا بعد زوال كل هذه الظواهر .

وبعد إجراء العلاج التحفظى المتقدم أولا لاسيما فى الأسنان

السفلية حيث لا يسهل تصفية الصديد فالخلع لا يفيد فى استعجال الشفاء وعلاج الحالة وزوال الألم كما أن التخدير بالنوفوكاتين الأدرينالينى لا يؤثر بالمرة فى الأنسجة الملتهبة لذلك وجب عدم الالتجاء إليه فى هذه الحالة .

فإذا ما تكون الخراج السنى تجرى عمل فتحة لتفريغ الصديد قبل كل شىء ثم يعطى المريض حوالى مليون وحدة بنسلين على يومين فهذا يعتبر أفضل ما سيتخذ من علاج لذلك . إذ كثيراً ما نتمكن من المحافظة على السن وإبقائه بعد هذا العلاج ولا نحتاج إلى خلعه . ويجب أن تكون الفتحة فى الموضع الذى يكون فيه التماوج عند الضغط عليه بالأصبع وعادة يكون هذا الموضع هو أكثر المواضع ألماً عند الضغط بالأصبع . وتعمل الفتحة إما بالمشرط أو بالمكواة وتفضل المكواة حيث تستمر فتحتها بغير التئام مدة أكثر من فتحة المشرط فتساعد على تصفية الصديد ثم نجرى عمل الغسيل بالماء الساخن المضاف إليه الماء الأكسجينى بقوة ١ : ١٠ والمعدل ببكربونات الصودا ثم ننصح المريض باستعمال المضامض الفمية الساخنة والكمادات الباردة التى تتغير كل عشر دقائق طول النهار حتى يتم زوال مظاهر الالتهاب .

أما إذا ظهر التجمع الصديدى بارزاً تحت الجلد فالأفضل خلع السن المصابة خوفاً من أن تتطور الحالة إلى حدوث ناسور جلدى يصعب شفاؤه .

الفصل التاسع

المضاعفات العامة للنخر (٢)

الالتهاب المفصلى السنى السنخى المزمن .

أسبابه – التشخيص بالأشعة – الأعراض – الناسور السنى – التشريح المرضى – الناسور الشكى وأقسامه – تقسيم الناسور سريريا : الناسور المخاطى – الناسور الجلدى – الأعراض – سير المرض – تشخيص الناسور المخاطى – تشخيص الناسور الجلدى . العلاج .

١ – بالوسائل الآلية . ٢ – بالوسائل المطهرة .

أسبابه :

هى نفس أسباب الالتهاب السابق فتستقر الإصابة على الذروة وتصاب بالعفن والإنتان عن طريق القناة أو طريق ما حول الجذر .

التشخيص بالأشعة :

تظهر قمة الذروة سمراء مجوفة من تأثير امتصاص الملاط ويكون السن محاطاً عند جذره بالرباط الذى يظهر بشكل بروز أحمر دام . وعند الذروة وفى موازاتها تظهر نقطة من الصديد . وفى بعض الأحيان يظهر أيضاً زيادة فى حجم الملاط عن الحالة

الطبيعية فيتضخم الجذر ويكون تضخمه إما جزئيا أى واقعاً فى جانب واحد من الجذر أو يكون فى طرف الجذر فقط . أو أن يكون التضخم بشكل تجاعيد فى طرف الجذر وقد يكون التضخم منتشراً فيصبح الجذر كتلة مستديرة يعوق السن عند خلعه وغير ذلك من الأشكال التى سيأتى ذكرها فى حينها .

الأعراض :

لا ألم مطلقاً إلا إذا أصيب الشخص بنوبة التهاب المفاصل . كذلك لا يوجد بالسن أى قلقلة أو إن وجدت فهى بسيطة جداً يصعب الشعور بها ويسبب الضغط ألماً حاداً عند الذروة والطرق هو الذى يكشف وجوده قلقلة بالسن وذلك بأن يوضع الأصبع على اللثة ثم يجرى الطرق فوق السن فيشعر الأصبع بهزة السن إلا أن هذه الأعراض ليست قاصرة على الالتهاب المزمن لأنها تلاحظ أيضاً فى حالة تكوين الكيس « الجذرى » وتدل إما على تآكل الحواف السنخية أو على امتصاصها واختفائها كلية فى منطقة الجذر .

الناسور السنى :

الخراج المزمن والناسور السنى اسمان لمدلول واحد والناسور السنى آفة التهابية تفرز صديداً ويكون لهذا الصديد طريق واحد أو طرق عديدة هى المجارى التى يسير فيها — ويبتدئ مجرى الناسور السنى من إحدى الأسنان عابراً الفك حتى يصب من فتحة طبيعية على الغشاء الفمى .

التشريح المرضى :

العفن الذى يستقر على منطقة ما حول الذروة ينتهى بتكوين كمية من الصديد تتخذ لها إحدى ثلاث مسالك هى :

١ ــ القناة الجذرية للسن ٢ ــ سنخ السن نفسه وتخرج قرب حافة اللثة ٣ ــ بطريق الفك ــ ولترتيب هذه المسالك حسب أغلبية حدوثها نقول إن أولها هو الطريق الفكى ثم يتلوه طريق القناة الجذرية ثم يأتى بعد ذلك الطريق السنخى وهو نادر .

الناسور الفكى :

ينقسم الناسور الفكى إلى ناسور فمى وناسور خارج الفم ففى حالة ناسور الفك العلوى يصب الصديد غالباً فى دهليز الفم أى فى الناحية الخدية الشفهية ونادراً فى ناحية سقف الحلق . وفى ناسور الفك السفلى يصب الصديد غالباً أيضاً فى دهليز الفم ويندر فى الناحية اللسانية .

ويشاهد فى بعض الأحايين انصباب الصديد فى تجويف طبيعى كالجيوب الفكية مثلاً وحفرة الأنف وحفرة العين ولو أن هذه الأخيرة نادرة جداً .

أما إذا كان الناسور جلديا أى خارج الفم فإن مكان فتحته يختلف بحسب موضع السن المسببة . فناسور الضواحك والأرحية السفلية يفتح على الحافة السفلية للفك الأسفل وناسور ضرس العقل السفلى يبتدئ من سنخ الثنايا والأنياب السفلية حتى يصل إلى قرب الذقن . أما فى الفك العلوى فناسور القواطع والأنياب العلوية يفتح عند جناح الأنف والأرحية العلوية عند

الحفرة النابية وكثيراً ما يحدث الناسور السنى عقب آلام مفصلية سنخية بسيطة جدا لا يلتفت إليها حتى إنه قد يتكون دون أن ينذر المريض بأى إنذار .

الناسور وتقسيمه سريريا :

يكون للناسور مظهران سريريان فهو إما ناسور مخاطى أو ناسور جلدى .

الناسور المخاطى :

تكون فتحته ضيقة صغيرة بحواف مبططة وبارزة ذات قمة لا تتعدى من حجم رأس الدبوس إلى حجم حبة الأرز . ويخرج الصديد منها أولا بأول فى اللعاب فلا يشاهد عند فحصها صديد متجمع . ولكن قد يحدث أن تسد فتحة الناسور فيتجمع الصديد فى موازاتها ويكون انتفاخاً صغيراً ينفجر من نفسه من ضغط الصديد المتجمع فيتصفى الصديد ويزول ما كان قد نتج من أثر للالتهاب . ويجب أن يعرف أن فتحة الناسور المخاطى تحدث عادة فى جوار السن المسببة له .

الناسور الجلدى :

تكون تطوراته محسوسة يشعر بها المريض . فيصحبه تغيير فى الجلد إذ يتصلب قليلا ويلتصق بالعظم ويبدى انخفاضاً بسيطاً وفى وسطه تظهر فتحة الناسور . وتحت تأثير خروج الصديد المتوالى تتكون حلقة صغيرة حول فتحة الناسور تغير شكلها الأول قليلاً وينطوى السطح الداخلى للجلد على عظم

الفك بواسطة الخيط الناسورى أو المجرى الناسورى الذى يمكن تتبعه بإدخال سلك رفيع جداً من الفضة داخل الفتحة .

والناسور الجلدى نادر الحدوث في الفك العلوى وقلما يلاحظ إلا فى موازاة منطقة الحفرة النابية . أما فى الفك السفلى فكثير الحدوث . ويلاحظ دائماً أن الناسور الجلدى يتخذ لمسيره أقصر الاتجاهات وتكون فتحته فى موازاة السن المسببة وقليلا ما يشذ عن هذه القاعدة .

الأعراض :

بسيطة جداً وغير واضحة فمجرى الناسور غير مؤلم وتصاب السن المسببة بالتهاب مفصلى من وقت لآخر وترجع هذه الإصابة إلى انسداد مجرى الناسور وعدم تصريف الصديد .

سير المرض :

الناسور السنى لا شفاء له من نفسه فاتصال حجرة اللب العفنة بفتحة الناسور الخارجية تساعد الإصابة على بقائها .

التشخيص :

١ ـــ الناسور المخاطى :

يسهل تشخيصه فلا يشتبه مع أى مرض آخر إلا مع الكيس السنى الناسورى فيفرق بينهما بتتبع مجراهما بواسطة السلك الفضى الدقيق فى الكيس السنى الناسورى ينتهى تتبع المجرى إلى حفرة واسعة أما فى حالة الناسور الحقيقى فينتهى مجراه إلى ذروة الجذر وهى تختلف كل الاختلاف عن الحفرة الواسعة السابقة .

وقليل من التدريب والخبرة كافية للشعور بالفارق بينهما وإذا كان الناسور مصحوباً بشظايا عظمية كثر خروج الصديد وانتهى تتبع المجرى باصطدام السلك بعظم عار يتحرك عند محاولة تحريكه ويختلف كل الاختلاف عن تلاقى السلك بذروة الجذر وعلى هذا يقتصر التشخيص المميز للحالتين .

وبهذه الطريقة أيضاً يمكننا الاهتداء إلى السن المسببة لذلك إذا ما جاورتها أسنان أخرى يشتبه فى أن تكون سبباً للناسور أيضاً . ويجب العناية بأسنان المنطقة بأجمعها سليمة كانت أو مصابة . إذ أن الناسور قد يتكون كما أسلفنا من سن تظهر للعيان سليمة . فإذا قصرت العلامات السريرية عن الهداية إلى السن المسببة للناسور وجب الالتجاء إلى الطريقة الآتية : وهى أن تحقن السن المشتبهة فى جذورها بالماء الأكسجينى فإذا ظهرت عدة فاقيع من الغاز عند فتحة الناسور كانت السن المحقونة هى السن المسببة .

الناسور الجلدى :

تتعدد النواسير الجلدية التى تصيب الوجه أو العنق لذلك يصعب التفريق بينها وبين الناسور الجلدى السنى ونخص بالذكر من هذه النواسير الناسور اللعابى والناسور الناتج من التهاب القناة الدمعية والناسور الجيبى ولكن أكثر النواسير اشتباهاً بالناسور السنى هو الناسور الأكتنوموكوزى الذى يختار نفس مواضع الناسور السنى الجلدى . ولكنه يختلف عن سيره ومجراه ففى الأول الأكتنوموكوزى يكون نزول الصديد أكثر من

الثانى كذلك تتعدد فى الأول المجارى والطرقات أما فى الثانى فقد عرف بأنه وحيد المجرى قليل نزول الصديد لدرجة أنه كثيراً ما يختلط مع اللعاب فلاتسهل رؤياه كما أن الفحص الميكروسكوبى يبين وجود الفطريات الأكتنوموكوزية فى الأول دون الثانى . كذلك يختلط الناسور السنى الجلدى مع التقيح الغدى المزمن البسيط أو الناتج من العصيات وهو المرض الذى يصيب الغدد الصغيرة المنتشرة فى الغشاء المخاطى والغدد الذقنية ويشابه الناسور السنى فى كثير من الأوصاف ولكنه يختلف عنه فى كثرة إفراز الصديد وعدم وضوح المجرى الذى يكون واضحاً فى الناسور السنى الجلدى .

وطريقة حقن السن بالماء الأكسجينى نتبع كالآتى :

تملأ حقنة التخدير بالماء الأكسجينى ثم تدخل الإبرة فى القناة السنية المراد حقنها وتسد الحفرة بعد ذلك حول الإبرة بقطعة من القطن ويحقن الماء الأكسجينى فيخرج من فتحة الناسور بشكل فقاعات غازية . كذلك يمكننا أن نضع فى فتحة الناسور خيطاً دقيقاً من الفضة وندفعه حتى يصطدم ثم نأخذ للناحية صورة بالأشعة فيظهر الخيط بوضوح واصل لجذر السن وكل هذه التشخيصات مميزة تساعد على التأكد من الحالة .

العلاج :

لعلاج هذه الحالة طريقتين : الطريقة الأولى طريقة جراحية وتشمل إما خلع السن المسببة أو إجراء الكحت المفصلى مع

ترك ذروة السن أو إجراء الكحت المفصلى مع استئصال ذروة الجذر .

والطريقة الثانية هى باستعمال الأدوية المطهرة للقناة الجذرية وغسل جميع مجارى الناسور بالمطهرات والكاويات كما سيبين بعد .

العلاج بالطرق الجراحية :

الخلع : لا يصح إجراؤه إلا إذا كان المسبب للناسور هو جذر من الجذور أو بعد أن تكون المداواة قد عجزت عن الشفاء . والخلع فى هذه الحالة كثيراً ما يصحبه حدوث التهاب سنخى الذى هو إحدى مضاعفات الالتهاب المفصل المزمن ولكى نتجنب حدوث هذه المضاعفات يحسن أن يكحت السنخ الملتهب عقب هذا الخلع بواسطة إحدى المجارف الحادة المناسبة على أن تكون معقمة جيداً وذلك لأن كحت السنخ يساعد على سرعة التئام الجرح إذا ما مس بعدها بصبغة اليود واستمر غسله بمضامض ساخنة .

كحت السنخ :

يكون بطريقتين إما مع قطع ذروة السن أو بدون قطع الذروة وبإعادة السن إلى ما كانت عليه فى موضعها الأصلى .

كحت السنخ مع قطع الذروة :

يجب تعقيم الفم بالمطهرات القوية وتنظيف الأسنان من القلح « الجير » قبل إجراء هذه العملية فيترك المريض ليستعمل المضامض المطهرة من ٢٤ — ٤٨ ساعة قبل إجراء العملية .

طريقة العمل :

يجب معرفة طول الجذر واتجاهاته من تصويره بالأشعة ثم يخدر السن بحقنة من ناحيتى الفك ومتى حصل التخدير تشق اللثة بالمشرط بفتحة طولها حوالى ١,٥ سم وتكون الفتحة أفقية يمر وسطها بأسفل منطقة الذروة قليلا ثم ترفع اللثة والسمحاق اللذين فى الفتحة بعد إبعاد جوانبها عن بعضها فيظهر من تحتها عظم الفك فى مساحة صغيرة ويحدث نزيف دموى كثير كما هو المعتاد فى جروح اللثة . وعند جس عظم الفك بمسبر نجد فيه إحدى النقط أقل مقاومة وأضعف من غيرها وتكون هذه النقطة عادة هى المختارة للتدخل منها والوصول إلى ذروة الجذر فيثقب فيها العظم ويوسع الثقب بالمثاقب الخاصة ومتى وصل إلى ذروة الجذر تقطع هذه الذروة مع مراعاة مواصلة الغسيل أثناء العملية حتى لا تتلوث ساحة العمل وتظل واضحة فيسهل العمل فيها ثم توسع القناة بالموسعات الآلية وتحشى بقمع من الجوتا بركا ثم تغسل الفتحة وتترك لتلتئم . وتعالج الآلام التى تنتج عن هذه العملية فى مدة ٢٤ الساعة التالية بواسطة المضامض الساخنة والكمادات الساخنة وتعاطى أقراص السلفاناميد أو البنسلين وتعاطى البرشام المسكن للآلام .

العلاج بالمطهرات والكاويات :

تحقق هذه الطريقة شفاء الناسور فى كثير من حالاته يكفى أن يوضع فى قناة السن المسببة دواء مطهر فعال قوى

كمركبات الفورمول (ترى أكسى مينلين) تحت حشوة من السمنت لسد الحفرة سدا محكما حتى لا تجد أبخرة الفورمول منفذا إلا من ناحية القناة . وبعد المداواة بمركبات الفورمول تحشو القنوات بعجينة خاصة . ويجب أن يؤثر المطهر فى جميع مجارى الناسور إذا كان متشعباً وتعددت مسالكه .

إمرار المطهرات والكاويات فى جميع مسالك الناسور :

نتوصل إلى ذلك بطرق عدة نذكر منها ما يأتى :

١ ــ طريقة الضغط : تملأ الحفرة وحجرة اللب والقنوات الجذرية بقطعة من القطن مشبعة بالمخلوط : الفورمول والكيرزوت ثم يضغط عليها ضغطاً خفيفاً متواليا بمساعدة قطعة من المطاط أو الجوتابركا فكمية المخلوط التى تندفع إلى الذروة تكفى لتصل إلى فتحة الناسور .

طريقة التبخر :

تملأ القناة الجذرية وحجرة اللب بمعجون خاص من الفورمول والكيروزوت وأكسيد الزنك . ثم تسد الحفرة بحشوة سداً محكما .

الجزء الثانى

أمراض الأسنان الجراحية

الفصل العاشر

السحل والكسر والقلقلة

تصاب السن بإصابات رضية متنوعة ينتج عنها سحل السن أو كسره أو قلقلته وكثيراً ما شوهدت مثل هذه الحالات فى الحروب الماضية فوجهت الأنظار إليها وإلى المضاعفات الناتجة عنها التى أهمها كسور الفك .

سحل الأسنان : تتعرض الأسنان للسحل فى كثير من الأحوال — والعوامل التى تسبب ذلك هى :

ا — عوامل مرضية : من الأمراض العصبية ما يضطر معها المريض إلى الكز على أسنانه عند حدوث نوباتها فتحتك سطوح الأسنان ببعضها وبتوالى هذا الاحتكاك يحدث السحل .

ب — عوامل فسيولوجية : إن تقدم الإنسان فى العمر يسبب سحلا فسيولوجيا فى أسنانه كما أن خشونة المآكل عند بعض الجماعات الغير متمدينة يحدثه أيضا ، والسحل فى هذه الأحوال يكون على درجات تتفاوت بين سحل يزيل حدبات الأسنان إلى سحل يكشف اللب ويستدعى استئصاله .

حـ — العوامل الآلية : إن استعمال المساحيق السنية الخشنة عند تنظيف الأسنان بالفرشاة يسبب سحلها لاسيما فى سطوحها

الشفوية والحدية لذلك وجب اختيار المساحيق الناعمة أو المعاجين التي لا يضر الأسنان طول استعمالها .

(د) العوامل الصناعية : إن تثبيت الأسنان المستعارة على أسنان طبيعية موجودة فى الفم يقتضى استخدام مشابك معدنية وهذه إن لم تكن حسنة الوضع فنية الصنع ولم تكن الصفيحة التى تحمل الأسنان المستعارة متقنة العمل فإن حركة المشابك على سطوح الأسنان تسحلها .

(هـ) العوامل الإطباقية : إن لكيفية الإطباق تأثير كبير فى إحداث السحل كما أن حركة الفلك وحركة اللقمة الفكية فى جوفها الخاص (المفصل الفكى) لهما تأثير أيضاً فى حدوثه.

موضع السحل :

يتكون السحل أولا على السطوح اللقمية «الماضغة» حيث تتماس الأسنان حين الأطباق ويتكون أيضا على السطوح التى تصيبها فرشاة الأسنان ولاسيما إذا استعملت معها المساحيق الخشنة ثم إن السطوح المتجاورة للأسنان قد يصيبها السحل بدرجة قليلة وذلك بسبب حركتها وحك بعضها ببعض حين المضغ .

داء المفاصل وعلاقته بالأسنان :

من الأمراض العديدة ما يرجع سببه إلى اضطراب مستمر فى التحولات الغذائية ويسمى هـذا الاضطراب « داء المفاصل » لأن أعراضه تظهر فى المفاصل وهذا الداء مختلف الأعراض والمظاهر غير أن ما يتعلق بطبيب الأسنان منها يمكن أن يقسم إلى قسمين هما :

١ ــ تآكل الأسنان الكيماوى .

٢ ــ التقيح اللثوى السنخى (البيوريا) وسنوضحه فى بابه الخاص .

١ ــ التآكل الكيماوى :

هو تلف يصيب الأسنان لأسباب آلية كيمائية تفقد بواسطتها الأسنان شئ من نسجها الصلبة لاسيما على سطوحها الدهليزية قرب اللثة ويتكون من ذلك وهاد خاصة تختلف كل الاختلاف عن حفر النخر .

نظرة عامة :

يشاهد أن الأسنان عامة ومنها الأسنان الكبيرة الحجم الناصعة البياض فى لونها تفقد طبقة من مينائها قرب العنق فى بقعة صغيرة محدودة لا تكاد ترى ثم تأخذ فى الازدياد والاتساع والعمق وأكثر ما تظهر هذه الانخفاضات على السطح الشفوى تحت اللثة مباشرة وفى النادر على السطوح اللسانية ويشاهد أحياناً أن التآكل يحدث على سن واحد وفى أحوال أخرى يشاهد على عدد من الأسنان على الأخص على الأنياب والضواحك والغريب أن الأسنان المتآكلة تكون فى أغلب الأحيان خالية من النخر وتكون الحافة السفلية للبقعة المتآكلة واضحة حادة أما الحافة العلوية فأقل وضوحاً والصفة الخاصة لبقع التآكل هى لمعانها وصقلها وهذا ما يفرقها عن حفر النخر ثم إن لونها يكون بلون الأسنان غالباً أو يتغير إلى لون أصفر أو بنى ضارب إلى السمرة ويكون سطح هذه البقع المتآكلة أملساً صلباً إذا لمس

بالآلة وتكون بقع التآكل حساسة بالاختلافات الحرارية والمواد السكرية والمآكل الملحية والحوامض وحين لمسها بآلة أو فرشة أسنان . أما اللثة فتكون فى الغالب متراجعة فى هذه المنطقة ونادراً ما تكون ملتهبة والتهابها واضح —وعلى العموم يكون الفم (اللثة والأسنان) ذات شكل خاص يختلف كل الاختلاف عن الأفواه ذوات الأسنان السليمة ولاحظ البعض أن التآكل قد يحدث فى الأفواه المعتنى بها كما يحدث فى الأفواه غير النظيفة كما أن الأسنان المتآكلة تكون خالية من القلح (الجير) .

سير الداء : إن سير هذا الداء بطىء غير أنه يزيد فى العمق تدريجيا رغم مقاومة العاج السنى الثانوى ويستمر كذلك إلى أن يزول التاج ويبقى الجذر الذى يكون شديد الاتصال بجدران السنخ . وكثيرا ما يحدث فى نهاية سنتين إلى ثلاثة إلى عشر سنوات أن يقف التآكل ويزول إحساسه وفى كثير من الأحيان يموت اللب الذى لا يتمكن من مقاومة الإصابة .

حدوث الداء : لحدوث الداء آراء مختلفة متعددة نلخصها فيما يأتى :

(١) النظرية الآلية :

يقول أصحاب هذه النظرية إن التآكل هو نتيجة السحل الدائم الناتج من دوام استعمال فرشاة الأسنان والمساحيق غير الناعمة والذى أيد هذا الرأى ملاحظة التآكل عند الأشخاص الذين يبالغون كثيراً فى تنظيف أسنانهم بهذه الوسائل ولكن هذه رالنظرية تجمد ولا يمكنها أن تفسر وجود التآكل على السطوح

التى لا يصيبها احتكاك الفرشاة .

(ب) النظرية الكيماوية الآلية :

لهذه النظرية أنصار عديدون فإنه تحت تأثير عوامل كيمائية حامضية تفقد طبقة رقيقة من الأملاح صلابتها وتصبح لينة سهلة الذوبان وبتنظيف الأسنان آليا بحركات الخدين واللسان حين المضغ تكون سطوح البقع المتآكلة براقة صلبة إذ أن الطبقات اللينة يزيلها الاحتكاك أولاً بأول — على أن هذه النظرية لا تفسر وجود التآكل الكيماوى فى أفواه الحيوانات كالثيران والخيل التى يكون لعابها قلوى التفاعل دائماً كما أنها لا تفسر لنا سبب وجود التآكل على الأسنان النابتة بصورة شاذة فى الأكياس المبيضية « سيأتى وصفها فى فصل شذوذ الأسنان » . حيث تكون الإفرازات قلوية .

(ح) النظرية الكيماوية فقط :

يعلق البعض أهمية كبرى على عمل الحوامض ولا يعيرون العامل الآلى أية أهمية . وينسب هذا التأثير الكيماوى إلى اللعاب المرضى ولاسيما اللعاب الذى تفرزه الغدد الشفهية الواقعة بين عضلات الشفة والغشاء المخاطى . ويدعى الآخرون أن السلفوسيانور الموجود فى اللعاب هو العنصر المرضى الذى يتمكن من حل ميناء السن ويسبب التآكل غير أن هذه النظرية بحثت كثيراً فى الزمن الأخير وأنكرها البعض بعد اختبارات وتجارب لم تقو على تفسيرها .

(د) النظرية الحيوية الآلية :

يزعم أصحاب هذه النظرية أن طبقات العاج التى لا تسترها الميناء تموت وتقع من السن بالاحتكاك .

(هـ) النظرية العاجية :

يزعم أصحاب هذه النظرية أن المادة العضوية فى العاج التى تسمى « العاجين » حين فقدانها تزول معها العناصر العضوية للكريات الكلسية التى يتركب منها العاج وقد أحدث أصحاب هذه النظرية تآكلاً فى أسنان عند غليها فى وسط حامضى — وقد تمكنوا من تفسير التآكل الذى يحدث فى الأسنان التى شذت فنبتت فى أكياس المبيض كذلك فسروا التآكل فى أنياب الأفيال خارج الفم وغير ذلك مما عجزت النظريات السالفة عن تفسيره إلا أن فقدان المادة العضوية المذكورة غير مؤكد ولم تؤيده الأدلة بعد .

(و) نظرية نقص التكلس :

مبنية على أن اضمحلال أو ضعف المادة العضوية فى السن ليس هو السبب فى التآكل على ما زعم أصحاب النظرية السالفة بل إن التآكل هنا سببه عدم انتظام فى تكوين الكريات الكلسية لسبب سوء التكلس غير الطبيعى وسبب ذلك يرجع إلى حالة عامة هى التهاب المفاصل كما قلنا التى لا يتمكن المريض معها من أن تتكلس أسنانه تكلساً طبيعيا . فإذا كان القسم غير العضوى فى السن ناقص التكلس أو سيئه فإن المادة العضوية لا تتمكن من المحافظة عليه فيزيله الاحتكاك

بالفرشاة وغيره وتحدث بقع التآكل .

الأسباب الأصلية للسحل :

إن التآكل الكيماوى يصادف فى كل الأعمار بعد سن العشرين ويستمر ظهوره إلى الخمسين ويصاب به الرجل أكثر من المرأة ولوحظ أن الأقاليم الحارة الرطبة تعرض أسنان ساكنيها للتآكل . غير أن الأسباب التى تسبب الاستعداد للتآكل هى فى الحقيقة داء المفاصل الذى ذكرناه سابقاً لاسيما إذا كان مصحوباً بمضاعفاته التقرحية . ومن الغريب أنه إذا وجدت علة التآكل وعلة التقيح اللثوى السنخى فى شخص واحد فإن التآكل يسبق التقيح ويظهر أنه يوجد تناقض جلى بين وجود التآكل والنخر فإذا وجد الواحد اختفى الآخر .

الأعراض : غير واضحة بالنسبة للمريض حيث إن اللب يكوّن طبقة العاج الثانوى وقد يشعر المريض بالحرارة الزائدة وبالأطعمة الحلوة والمالحة والحوامض

أما الألم الذى يحدث من تلقاء نفسه أى الألم الذاتى فليس له وجود فى هذه الحالة إلا إذا أصيب اللب وعندها يتغير لون السن وقد يحدث أن تكسر التاج عند عنق السن .

التشخيص : ليس فيه أى صعوبة ويمكن تمييزه عن نخر العنق إذ أن التآكل يصيب عدة أسنان وتكون متشابهة فى الإصابة . وقد يصيب نخر العنق عدة أسنان أيضاً إلا أن أشكال الحفر تختلف فى العمق والاتساع والترتيب وغيره ... إلخ .

العلاج : هو العمل على تقوية السن وتعويضه مافقده فإذا كان حساساً حاربنا شدة الإحساس بمسح السطح بمحلول مركز بنسبة ٢٠٪ من نترات الفضة ثم تعادله فى الحال بمحلول مركز من كلورور الصوديوم أو بمسه بمكواة ذات نار حمراء خافتة . وعند الأشخاص المهيئين لحدوث التآكل يجب عدم استعمال الفرشاة الصلبة أو المساحيق الخشنة الذرات .

كسر الأسنان : تسبق كسر الأسنان عادة حدوث شقوق فى الميناء . وتنشأ هذه الشقوق عن رضوض خفيفة أثناء المضغ أو عن تغيرات فجائية وليس لهذه الشقوق أهمية من الوجهة المرضية سوى أنها قد تكون سبباً لحدوث النخر عند الأشخاص المعرضين له . ويجب أن يذكر فى هذا البحث الكسور الجزئية والكسور الكاملة التى تصيب الأسنان النخرة لا فرق أكان ذلك فى أثناء علاجها أو فى أثناء المضغ وتنقسم الكسور إلى : —

١ — الكسور الجزئية : تصيب هذه الكسور فى الغالب الأسنان الأمامية وعلى الأخص الثنايا العلوية ويظهر أن الأولاد يتعرضون لها أكثر من سواهم لكثرة حدوث الرضوض عندهم فى هذا العمر وأغلب ما تحدث هذه الكسور على أثر السقوط فوق شىء صلب يتسبب عنه الكسر وتكون أهمية النتيجة منسوبة إلى اقتراب العاج المنكشف إلى اللب أو بعده عنه . فإذا كان الكسر سطحيا فلا يحدث فى السن غير زيادة فى الإحساس تؤلم المريض لدى اللمس وهذا الإحساس لا يطول أمده إذ يزول بالتدريج لدى تكون العاج الثانوى فى حجرة اللب . غير أن الكسر فى بعض

الأحيان قد يبلغ اللب فيلتهب ويعقب ذلك ما يصيب اللب من الأعراض التى تسبق موته أو التهابه المزمن .

٢ ــ الكسور الكاملة :

تكون هذه الكسور متجاوزة حجرة اللب أو قد تبلغ الجذر فتقسم السن إلى أكثر من قسم واحد . ويعقب ذلك بدون شك آفات فى اللب والرباط وقد تحدث هذه الكسور فى الأسنان الأمامية أكثر من الأسنان الخلفية . ويظهر أن الضواحك العلوية تتعرض كثيراً لهذه الكسور إما لشكل سطحها اللقمى أو لصغرها بالنسبة للأرحية . وهذه الكسور كما يظهر أعمق من الكسور المتقادمة وتكون عمودية أو عرضية أو منحرفة ويصحب الكسر الكامل دائماً ألم شديد سببه بلوغ الرض إلى اللب كما قد يشاهد كثيراً نزفا دموياً من اللب أو اللثة أو الرباط أومنها جميعاً ــ وأخيراً نذكر الكسور الفجائية التى هى فى الحقيقة كسور جزئية تحدث فى أثناء مضغ أشياء صلبة ولاسيما عند الشيوخ الذين تكون أسنانهم فى الغالب عرضة للكسر أكثر من الأحداث .

٣ ــ الكسور الساحقة :

هذه الكسور عبارة عن سحق يصيب السن فيقسمها إلى عدة أقسام ويشق نسجها الصلبة ويمزق لبها . وبما أن هذه الكسور لا تحدث إلا بعد صدمة شديدة فالغالب أن تصاب به عدة أسنان فى وقت واحد وشوهد فى زمن الحروب كسور سنية ساحقة تتطاير فيها شظايا السن إلى الخد أو اللسان وتسبب هذه الشظايا التهابات موضعية فى الأنسجة الرخوة التى تنغرز فيها .

علاج الكسور : إذا كان الكسر جزئيا لتاج سن سليمة . يبرد بالأحجار الناعمة الجزء البارز من الكسر ثم يصقل بحجر اركنساس.

وإذا كان الكسر مصحوباً بتقلقل السن فيحسن الانتظار عدة أيام قبل أى تدخل علاجى وإذا كان الكسر عميقاً يحسن خلع السن .

أما من جهة التحام الأجزاء المكسورة فلا يجب أن نعمل لهاأى حساب فى علاجنا ولو أن أندريه الفرنسى يقول إنه شاهد التحاماً فى بعض أجزاء العاج المكسورة لبعض حالات خاصة بواسطة طبقات دقيقة تكونت من مادة العاج .

الآفات الرضية وأثرها فى الرباط السنى السنخى :

تصحب هذه الآفات عادة كسور الأسنان وقدتصادف على أثر صدمة أصيبت فيها السن وتكون هذه الصدمة غير كافية للكسر وهذه الآفات متنوعة فى طبيعتها وخطورتها فتتفاوت بين المرض البسيط فى المفصل إلى قلقلة قليلة يصاب بها المفصل أو قلقلة شديدة يتسبب عنها فقدان السن .

رض المفصل البسيط :

إذا حدث التقلقل فيكون سببه تمزق قليل فى الرباط أو تغير فى وضع الجذر أى أن الجذر تتحرك من مكانها فى السنخ وتغير موضعها فيه فيشاهد لدى الفحص حركة غير عادية فى السن .

وكثيراً مايشاهد أيضاً نزف حول العنق فيجبر المريض فى مثل هذه الحالة على إبقاء فمه مفتوحاً لكى لا يتصادم سنه المقلقلة بالسن المقابلة فيحدث الألم الشديد ولا بد فى أغلب الأحيان من انقطاع الأوعية والأعصاب الداخلة فى السن فتكون النتيجة

موت اللب ولا يكون هذا الموت مرضياً إلا أنه يكون عرضة للتحول إلى موت مرضى . وهذه الإصابة لابد من انتقالها إلى السنخ .

القلقة الشديدة :

تكون نتيجة هذه القلقلة خروج السن من سنخها ومن النادر أن تحدث هذه القلقلة فى إحدى الأسنان بدون أن تصاب الأسنان المجاورة فلابد إذاً فى هذه الحالة من أن تصاب عدة أسنان فى آن واحد غير أنها تتفاوت فيما أصيبت به من الرضوض أو الكسور أو القلقلة .

العلاج : فى حالة التقلقل الخفيف يتلخص العلاج فى عمل مضامض مطهرة ساخنة للفم ثم وضع الجزء المصاب فى راحة تامة مطلقة .

فإذا كانت السن شديدة الاهتزاز تثبت فى مكانها الطبيعى بواسطة الأربطة الخاصة المعروفة فإذا كانت القلقلة مسببة من استطالة السن وإطباقها على السن المقابلة لها نلجأ إلى الورق الأزرق لنعلم منه مواضع الارتفاع أو المواضع التى تتقابل مع السن المقابل قبل غيرها ثم نزيلها بالبرد فإذا تمزقت الحزمة الوعائية يمكننا فى هذه الحالة خلع السن ثم نعمل على غرسها فى سنخها من جديد وذلك بأن نضع السن بعد خلعها فى محلول « فسيولوجى مطهر » ثم نعالج السن بثقبها ونزع لبها وحشوها بالطرق المعروفة . ثم تعاد السن إلى المحلول الفسيولوجى ونغسل السنخ بالمحلول أيضا ثم نضع السن فى السنخ ونربطها بما جاورها لتثبت فى مكانها وهذه الطريقة تنجح بنسبة ٥٠٪ ولكنها لا تزاول كثيرا فى الحياة العملية .

الفصل الحادى عشر

شذوذ الأسنان

التعريف – التصنيف – الشذوذ فى الشكل وأقسامه . الشذوذ فى العدد – الشذوذ فى التكوين وأقسامه .

التعريف :

السن الطبيعية هى التى ينطبق عليها الأوصاف التشريحية وأى اختلاف فى الشكل التشريحى للسن يجعلها سنا شاذة .

التصنيف :

لشذوذ الأسنان عدة أصناف نذكر منها هنا ما نراه هاماً :

(١) الشذوذ فى الشكل :

- (ا) شذوذ فى الحجم
  - تضخم
  - ضمور
- (ب) شذوذ فى المظهر
  - التاج
  - الجذر
- (حـ) شذوذ فى البنيان
  - (١) تورم
    - تورم العاج
    - تورم الميناء
    - تورم الملاط
  - (٢) آفات ولادية فى العاج والميناء
    - الاصباغ
    - التشوه
    - التآكل

(٢) الشذوذ فى العدد :

(٣) الشذوذ فى التكون :

(ا) شذوذ زمن النمو	متعجل	
	متأخر	
(ب) شذوذ الموضع	شذوذ الاتجاه	
	شذوذ الاستقرار	
	شذوذ المكان	

(١) الشذوذ فى الشكل :

(ا) شذوذ فى الحجم :

١ — التضخم :

إذا كانت الأسنان متضخمة كبر تبعاً لذلك حجم الفك، وتضخم الأسنان مع كبر حجم الفك يتوقفان على الجنس البشرى فنجد فى الجنس الأفريقى والاسترالى وفى الجنس الأسود والأصفر تضخم ظاهر فى الأرحية الثلاثة وبالعكس عند الجنس الأبيض .

٢ — الضمور :

لا يتوقف ضمور الأسنان على الجنس البشرى كما فى حالة التضخم ولعل أكثر الأسنان إصابة بالضمور هى التى تكون زائدة عن القوس الفكى ثم تليها الرباعيات العلوية ثم تلى ذلك كله الرحى الثانية والرحى الثالثة .

العلاج :

لا يهتم بعلاج هذا النوع من الشذوذ فى حالة تضخم الأسنان

قد نلجأ إلى بردها وفى حالة ضمورها نستعين بعمليات طب تقويم الأسنان .

(ب) شذوذ فى المظهر :

أغلب ما يكون هذا النوع من الشذوذ وراثيا وقد يصيب سنا واحدة فى أحد الجانبين أو يصيب الأسنان المتماثلة على كلا الجانبين وهو إما :

١ – شذوذ فى مظهر الجذر :

فى الأسنان وحيدة الجذر يكون طرف الجذر عند الذروة مائلا قليلا إلى الجهة الوحشية فإذا ازداد هذا الميل تدريجيا أخذ الجذر شكل مشابك الأسنان الصناعية أو شكل الحربة أو شكل البريمة . ويلاحظ فيما يختص بالرحى الأولى السفلية ازدواج فى الجذر الأمامى (الأنسى) وفيما يختص بضرس العقل قد تتعدد الجذور . أما الشذوذ الكثير الحدوث فهو اندماج كثير من الجذور فى بعضها وظهورها بشكل كتلة واحدة متحدة حتى أنه قد يصعب تمييزها من الجذر الواحد .

٢ – شذوذ فى مظهر التاج :

فى القواطع وعلى سطحها اللسانى كثيرا ما نجد بروزات صغيرة زائدة على زواياها . وعند ملتقى هذه البروزات توجد منخفضات هى التى تبدأ فيها الإصابة بالنخر . وفى الضواحك والأرحية يكون شذوذ تاجها غالباً فى وجود حدبة زائدة تفصل عن باقى الحدبات بمنخفضات ولهذه الحدبة مثيل فى الأسنان المشابهة لها عند بعض الحيوانات الثديية وقد اكتشف كارابللى

حدبة خامسة على بعض الأرحية الأولى (سن الست سنوات) وعلى سطحها اللسانى إلى الداخل قليلا بالنسبة للحدبة الأنسية اللسانية واستشهد بها كثير من المؤلفين على أنها توجد عند المصابين بالزهرى الوراثى كما أنكر أهميتها من هذه الناحية كثير منهم وتسمى هذه الحدبة (بحدبة كارابللى) . كما شوهد أيضاً بروز آخر سمى « حدبة داكورت » غير مغطى بالميناء وموجود على القوس السنى بجوار إحدى الأسنان الطبيعية وتكون غالباً فى موازاة الرحى الأولى اليمنى العلوية واعتبرها داكورت ضاحكا ثالثا .

وقد تلتحم الأسنان المتجاورة بعضها فى بعض عند تيجانها وفى بعض الأحيان يمتد الالتحام على طول السن وقد يتصادف أن تلتحم سن طبيعية عند جذورها لسن أخرى مختفية كما تلتحم سن طبيعية مع سن زائدة أخرى أو تلتحم سنان عند الملاط أو عند العاج .

(ج) الشذوذ فى البنيان :

(ا) تورم الميناء : وتسمى أيضاً خرزات الميناء أو حبيبات الميناء وهى عبارة عن أجسام صغيرة مستديرة وملساء تنبت عند عنق السن أو فى موازاة العنق وتكون ملتصقة بالميناء . وأغلب ما تظهر هذه الأجسام على الأرحية حيث تتكون عند مبدأ انفراج الجذور وتشعبها ثم تلتصق بالميناء وبتجمعها تظهر بشكل برعم زائد على الميناء ويعتبرها «مالاسيه» الفرنسى كحدبة زائدة .

(ب) تورم العاج :

هى زيادات تظهر فى سمك الفك وتكون كتلة ليفية أو كتلة

تحتوى على عدة أنسجة سنية مختلفة وأعراضها هى اختفاء سن أو عدة أسنان من مكانها الطبيعى وظهور كتلة لا شكل لها .

(ج) تورم الملاط :

وتسمى تضخم الملاط أو حبات الملاط سببه التهاب فى الملاط يزيد فى حجمه عن المعتاد ويكون التهيج والالتهاب الذى يسبب ذلك ضعيفاً مستمراً ولا يلتصق الملاط الجديد بجدار السنخ والتضخم إما أن يكون جزئيا أى واقعاً فى جانب واحد من الجذر أو أن يكون فى طرف الجذر فقط فيصبح الجذر هناك بشكل حرف (ا) أو أن يكون التضخم بشكل تجاعيد واقعة فى طرف الجذر وقد يكون التضخم منتشراً فيصبح الجذر كتلة مستديرة كبيرة ويشعر المريض المصاب بتضخم الملاط ببعض الألم فى السن المصابة ويكون إلى جانب الجذر ارتفاع قليل مؤلم لدى الضغط إلا أن هذا الارتفاع لا يهبط لدى الضغط بالأصبع كما هى الحالة فى الأكياس السنية ويدل القرع أو الهز أن السن متينة فى سنخها وفى الوقت نفسه يزداد رنينها عن السابق .

الآفات الولادية للعاج والميناء :

(ا) الأصباغ (ب) التشوه : وهو يصيب الميناء بأن تظهر غير كاملة أى يغطى جزء من السن بالميناء والجزء الآخر يكون معرى .

(ج) التآكل : تصيب هذه الآفة عادة الأسنان الدائمة كما قد تصيب الأسنان اللبنية ويصفها « ماجيتو » بأنها آفة تمتاز بأنها لا تختص بسن دون غيره ولكنها تصيب دائما المكان

الذى تحل عليه وبدرجة متعادلة فى الأسنان المتماثلة على الفك الواحد أو على الفكين معاً وأكثر الأسنان إصابة بهذا السحل أو التآكل هى الأرحية الأولى ثم تليها الثنايا ثم الرباعيات فالأنياب

سن هاتشنسون :

الأسنان التى يطلق عليها هذا الاسم هى الثنايا العلوية وتمتاز أولا بشكلها الذى يشبه البريمة وبتآكل حدها القاطع بشكل هلالى وتكون سن هاتشنسون عند مبدأ ظهورها منقسمة إلى قسمين بواسطة ميزاب . أحد القسمين يحتوى على جزء من الحد القاطع متآكل بشكل غير منتظم والثانى يمثل $\frac{٤}{٥}$ التاج ويحتوى على أنسجة سليمة ويكون بشكل بيضاوى مبطط .

ويتآكل الحد القاطع تدريجيا حتى يختفى فلا يبقى إذن إلا الشكل البيضاوى المبطط وبه فتحة صغيرة هلالية الشكل . وسن هاتشينسون يدل على أن صاحبه مصاب بإصابة عامة أصابت برعم السن فى المدة ما بين الشهر السادس إلى الشهر الثامن من العمر فشوهت نموه ونحن نعلم أن الزهرى الوراثى تبتدئ اعراضه فى الظهور فى المدة ما بين الشهر الثانى إلى الشهر الثامن من العمر وفى هذه المدة عينها يتكون الحد القاطع للثنية العليا لذلك كانت سن هاتشينسون تلعب دوراً هاماً فى تشخيص هذا المرض ويزداد التشخيص تأكيدا إذا ما اتفق وجود حدبة كارابللى على الرحى الأولى التى سبق الكلام عنها — أو إذا ما اقترنت سن هاتشنيسون بإصابات فى القرنية العينية أو إصابات أذنية كالصمم .

٢ ــ الشذوذ العددى :

يتلخص فى زيادة عدد الأسنان عن العدد الطبيعى أو نقصها عنه ويحدث ذلك كثيراً فى القواطع وفى الأرحية ولا يحدث أبدا فى الأنياب وقد لوحظ اختفاء جميع الأسنان فى بعض الحالات وأكثر الأسنان ظهوراً وأكثرها اختفاء هو ضرس العقل ثم الضواحك ويندر جداً الأنياب والثنايا ولقد شوهد كثيرا اختفاء الرباعيات بالوراثة أما عن زيادة العدد فهو لا يتعدى ظهور سن أو اثنين فقط . وقد شاهدنا عند بعض السود وجود ٣٩ سنا والزيادة فى العدد تلاحظ فى القواطع والأرحية والضواحك وتظهر فى التسنين الأول والثانى وتلعب الوراثة دورا هاماً فى أسباب هذا الشذوذ .

٣ ــ الشذوذ فى التكون :

(ا) شذوذ زمن النمو :

إذا ظهرت السن قبل أو بعد ميعادها المألوف لظهورها كان فيها شذوذ فى زمن ظهورها . ولكى نعرف إذا كان الظهور متعجلاً أو متأخرا وجب معرفة التاريخ المعين لكل سن بالضبط سواء فى التسنين الأول أو الثانى وإليك جدول بمواعيد ظهور الأسنان حسب أحدث الأبحاث :

الأسنان اللبنية

			المتوسط
الثنية السفلى	من ٦ — ٨	شهور	الشهر الثامن
الثنية العليا	« ٧ — ١٠	«	« العاشر

الرباعية السفلية	من	٨ — ١٦	شهراً	الشهر الثانى عشر
الرباعية العلوية	«	١٠ — ١٨	«	« الرابع عشر
الرحى الأولى السفلية	«	٢٢ — ٢٤	«	« السادس عشر
الرحى الأولى العلوية	«	٢٤ — ٢٦	«	« الثامن عشر
الناب السفلى	«	٢٨ — ٣٠	«	« العشرين
الناب العلوى	«	٣٠ — ٣٤	«	« الثانى والعشرين
الرحى الثانية السفلية	«	٣٢ — ٣٦	«	« الرابع والعشرين
الرحى الثانية العلوية	«			« السادس والعشرين

الأسنان الدائمة

الرحى الأولى	من	٥ — ٧	سنوات	السنة السادسة
الثنايا	«	٦ — ٨	«	« السابعة
الرباعيات	«	٨ — ٩	«	« الثامنة
الضواحك الأولى	«	١١ — ١٢	«	« التاسعة
الضواحك الثانية	«	١١ — ١٢	«	« العاشرة
الأنياب	«	١٠ — ١٢	«	« الحادية عشر
الأرحية الثانية	«	١٢ — ١٤	«	« الثانية عشر
الأرضية الثالثة «ضرس العقل»	«	١٩ — ٣٠	«	« الثامنة عشر

ولا يسمى الظهور متعجلاً إلا إذا ظهرت السن قبل ميعادها بثلاثة أو أربعة أشهر على الأقل ولاسيما فى التسنين اللبنى حيث يكثر هذا التعجل . وكثيرا ما صادفنا حالات أطفال نزلوا إلى العالم وفى فمهم سن أو أكثر وكان لهم حظ سعيد فى الدنيا مثل « لويس السادس عشر وميرابو » .

أما فى التسنين الدائم فقد يكون الظهور متعجلاً ولكنه

لايعتبر شذوذا لعدم تجاوزه المدة المحدودة والمعتبرة مقياساً لهذا الظهور

أما الظهور المتأخر فهو أكثر شيوعاً عن الظهور المتعجل فإذا بلغ الطفل الشهر العاشر من عمره ولم تظهر أسنانه كان ذلك شذوذاً ينتج بعده الظهور المتأخر ولقد شاهدنا ثلاث حالات للظهور المتأخر أحدهما فى سن الحادية عشر والثانية فى سن الثالثة عشر والثالثة فى سن ٢٣ سنة .

وإذا استمر التأخر لمدة كبيرة فتكون الأسنان مدفونه فى الفك وكثيراً ما تكون هذه الحالة مع الرحى الثالثة (ضرس العقل) .

(ب) شذوذ الموضع :

كثيراً ما نجد السن وقد نمت مائلة أو منحرفة الاتجاه كما أننا نلاحظ أن الأسنان الزائدة عن العدد تكون خارجة عن القوس السنى وليست فى موازاة باقى الأسنان والمعلوم أن الأسنان اللبنية تسبق الأسنان الدائمة وهى التى تحدد لها أمكنتها من الفك . فهل مقاومة الأسنان اللبنية هى السبب فى ميل الأسنان الدائمة ؟ أم سوء اتجاه الأسنان الدائمة هو الذى يسبب مقاومة الأسنان اللبنية وطول مدة بقائها فى الفك ؟

هذان الفرضان صحيحان ولكل منهما مؤيدون عديدون . وقد يتصادف أن تغير السن مكانها الطبيعى تغييراً تاماً وتظهر فى مكان آخر غيره يكون مكانا لسن أخرى فكثيراً ما نرى ناباً قد تبادل مع رباعية أو نابا مع ضاحك أول .

التشتيت :

هو ظهور سن فى أى عضو من أعضاء الجسم . فإما أن

يكون في الفوهة الفمية أو فى ملحقاتها أو فى عضو من أعضاء الجسم المختلفة . فقد صودفت حالات نبتت فيها السن فى شراع الحنك وفى قاع الفم وفى الحفرة النابية وقد شوهدت سن نابتة فى الحاجز الأنفى وفى قاع عظم الأنف وفى الجيب الفكى وفى العظم الغربالى . ويرجع السبب فى هذا كله إلى مضايقات وموانع تقابل السن أثناء ظهوره وتقاومه وتظل تطارده حتى تجبره على الرحيل بعيدا عن أمكنة المقاومة . وقد تضطر هذه الموانع السن إلى عدم الظهور بتاتا ويسمى حينئذ « بالسن المخبوء » أو « السن المطوى » وإذا قاومت السن الموانع التى تعوقها فى أغلب الأحيان يصحب ظهورها أعراض وحوادث فعالة تصيب الأنسجة المحيطة بها أو تصيب الجسم عامة .

ومن الأشياء التى يقرؤها المرء بكثير من الدهشة والغرابة ظهور أسنان فى الخصيتين وفى الأمعاء وفى المهبل و . . . إلخ .

غير أن الأسنان التى تظهر بهذا الشكل لا تشبه فى تكوينها الأسنان العادية بل تختلف عنها

شذوذ الاتجاه :

هو تغيير لاتجاه السن الطبيعي وقد يكون مصحوبا بتغيير فى مظهر الكتلة الفكية وهذا الشذوذ يلعب دورا هاماً فى مظهر الأنسان نفسه ولذا يحتاج لمهارة فى العلاج كما أن المريض من ناحيته يهتم به اهتماماً كبيراً وقد يؤثر فى الأطباق السنى فيغير من حركات المضغ الطبيعية .

دوران السن :

قد يحدث أن نرى السن لافا حول نفسه ويبتدئ الدوران من درجة الصفر إلى درجة ١٨٠ حسب مقدار حركة السن الدائرية .

تغيير شكل الفك الطبيعى :

إن شذوذ شكل الفك عن الشكل الطبيعى يؤدى إلى سوء الإطباق ويكون شذوذ الشكل الفكى على أنواع .

١ — عدم التماثل :

من المعلوم أن أحد نصفى الفك لا يماثل النصف الآخر تمام التماثل بل يكون هناك اختلافاً بسيطا . فإذا زاد هذا الاختلاف عن المألوف نتج عدم تماثل ظاهر فى شكل الإنسان ومظهره ولا يعتبر عدم التشابه شذوذ إلا إذا كان ظاهرا ملحوظاً .

٢ — بروز الفك :

يصيب الفك العلوى كما يصيب الفك السفلى وقد يصيب الفكين معا فى آن واحد ويكون البروز فى الفك الأعلى متى قابلت الثنايا السفلية الثنايا العلوية فى نقطة ترتفع عن ثلث طولها . ويكون البروز فى الفك الأسفل متى تقابلت الثنايا السفلية حدا إلى حد مع الثنايا العلوية ويكون البروز فيه كبيرا متى ظهرت الثنايا السفلية أمام الثنايا العلوية عند الإطباق . وهذا الشذوذ يكون فى الغالب وراثيا .

ولا يجب الخلط بين بروز الفك السفلى وبين وقف نمو الفك العلوى فقد يكون الفك الأسفل طبيعيا والفك الأعلى هو الضامر.

٣ — تراجع الفك :

يختلط غالبا مع البروز السفلى إلا أنه يكون مصحوباً دائما بانزلاق اللقمة الفكية إلى الأمام مما يحد من تشوهاته ويكون التراجع إما علويا أو سفليا أو مزدوجاً .

والتراجع العلوى وراثى فى الغالب ويرجع ظهوره إلى اتباع عادة سيئة كمص الإبهام أو اللسان أو الشفة السفلى وينتج عنه ما يسمى « الأطباق المنخفض » .

٤ — الانخفاض أو الهبوط :

ينشأ من زيادة نصف القطر المستعرض ويظهر غالباً عند الجنس الأصفر والأسود فإذا حدث فى الفكين معا لا يسبب أى مضايقة وتوجد بين الأسنان فى هذه الحالة مسافات وتفقد نقط الاتص ال بينها .

٥ — التحدب :

يتشوه سقف الحنك ويتمادى فى الارتفاع فيأخذ شكلا بيضاوياً ويصبح شكل القوس السنى كشكل الرقم ٨ وينشأ عن ذلك اضطرابات تنفسية حيث يقل حجم العظم الأنفى .

٦ — سوق الأطباق المفتوح :

هو خلل فى أطباق الأسنان الأمامية يتكون نتيجة عادة مص الأصبع واللسان ولا تتقابل فيه الأسنان الأمامية العلوية بالسفلية عند الأطباق .

الفصل الثانى عشر

حوادث التسنين

تكون حوادث التسنين عموماً إما موضعية أو عامة وهى تظهر بظهور الأسنان وتقسم حوادث التسنين إلى خمسة أقسام بالنسبة لنمو الأسنان أو سقوطها .

١ — ظهور الأسنان اللبنية .

٢ — ظهور الأرحية الأولى العلوية وعددها ٤ .

٣ — سقوط عشرين سنا لبنياً واستبدالها بالأسنان الدائمة .

٤ — ظهور أسنان الإثنى عشر عاماً وعددها ٤ وهى الأرحية الثانية علوية وسفلية .

٥ — ظهور ضرس العقل .

وسنقتصر على شرح الحوادث التى تنتج من ظهور الأسنان اللبنية والتى تنتج من ظهور ضرس العقل . أما الثلاثة أقسام الباقية فلا يحدث عنها إلا بعض الحوادث الطفيفة الغير الظاهرة .

حوادث التسنين المؤقت :

اعتبر التسنين الأول فى كل الأزمنة والعهود أنه يسبب معظم المتاعب والآلام موضعية كانت أو عامة التى تصيب الطفل فى السنة الثانية أو الثالثة من عمره وهذا الاعتبار حقيقى إلى حد كبير .

الحوادث الموضعية :

احمرار فى اللثة مصحوب بأورام وفى بعض الأحيان حكه وأكلان من تأثير آلام تظهر واضحة من صراخ الطفل المتواصل

وبكائه وأرقه الدائم وتهيجه الواضح . وفى درجات متقدمة من الإصابة يصحب هذه الأعراض تقرحات فمية تزداد أو تنقص حسب الحالة مع وجود التهابات غددية وهذه الأعراض جميعها تختفى عندما تبرز السن إلى الوجود مقتحمة طبقات اللثة التى تكتنفها .

الحوادث العامة :

هذه الحوادث كثيرة ومختلفة منها الحمى التى تسمى حمى التسنين والتشنجات «وهذه تكون عند ظهور الأرحية والأنياب» والإسهال والقىء وإصابة الجهاز التنفسى كالسعال والتهابات الحنجرة واللوزتين والإصابات الجلدية كالأكزيما (وما يسمى هيجان التسنين) .

الأسباب :

يرجع الفضل فى إظهار أسباب الحوادث الموضعية إلى « ريدير » وغيره من المؤلفين الذين يعتمدون على النظرية العفنية ولا يجب أن نغفل العوائق الآلية إلا أنه يجب اعتبارها خطوة تالية للخطوة الأولى وهى النظرية العفنية . أما النظرية العفنية فتتلخص فى أنه عند ابتداء مقاومة الأسنان للظهور يرق الغشاء المخاطى للفم فتتمكن الجراثيم من الدخول إليه ومهاجمته وتسبب عدة خراجات صغيرة متجمعة يظهر أثرها بما نراه من الاحمرار الذى يصيبه وقد تتقيح هذه الخراجات وينتج من هذا الصديد اختلالات عامة وموضعية فمتى قاوم السن وتغلب وظهر فإنه بظهوره يثقب الغشاء المخاطى ويشقه فينتج بذلك مخرجاً للصديد المتجمع وتختفى كل الأعراض من عامة وموضعية .

التشريح المرضى :

إذا فحصنا السن عندما يكون آخذا فى ثقب اللثة لظهوره نجد فجوة حول تاجه مبطنة بنسيج بشرى رصفى وهذه الفجوة تسمى فجوة ما حول التاج وليس بينها وبين محفظة السن أى شبه أو تماثل . ويكون سطحها من النسيج الصام « نسيج اللثة » وفى هذه الفجوة تتركز قوة عمل الجراثيم التى تصل إليها من الثقوب الدقيقة التى تحدث عندما يرق الغشاء المخاطى كلما قارب السن من الظهور ومن هذه الجراثيم وتأثيرها تنتج الحوادث التى قد تنتهى بالموت

العلاج :

العلاج الوافى يتضمن اختيار مرضعة سليمة صحيحة البنية وهذا هو أول احتياط يجب مراعاته أما تشريط اللثة كعلاج واق فإننى من الأطباء الذين يشيرون بتجنبه بتاتاً .

والعلاج الشافى يتضمن محاربة الالتهابات اللثوية عند ابتداء ظهورها موضعيا وذلك باستعمال الدهانات المطهرة والمسكنة فى آن واحد وهى كافية جداً للمداواة كما يحسن تعاطى البنسلين عند بدء الالتهاب لمدة ثلاثة أيام متوالية على أن يؤخذ من ١٠٠ إلى ٢٠٠ ألف وحدة كل ٢٤ ساعة مع بعض الدهانات المسكنة المطهرة .

ومجرد استعمال صبغة اليود كدهان للثة كاف جداً كدواء شاف موضعى لهذه الحالة على أن تكون ٣ ٪ .

الفصل الثالث عشر

حوادث ظهور ضرس العقل

وصفه . الأسباب . النظرية الآلية . النظرية البشرية . النظرية العفنية . الأعراض . الحوادث الغشائية المخاطية . الحالة العامة . الحوادث العظمية . التشخيص فى حالات الغشاء المخاطى . فى الحالات العظمية . الإنذارات فى حالات الغشاء المخاطى . الإنذار فى حالات العظم . العلاج فى حالات الغشاء المخاطى والحالات العظمية .

يقول هايدينريخ أن حوادث ضرس العقل تحدث بنسبة ٢ : ٢٠ وتكون فى الجهة اليسرى أكثر منها فى الجهة اليمنى وفى الفك الأسفل أكثر من الفك الأعلى .

وحوادث ضرس العقل ظلت مجهولة لدى الأطباء زمنا طويلا وأول من كتب عنها منهم هو « أربان همارد » سنة ١٨٨١ فى مؤلفه « تشريح الأسنان الوصفى » ثم طرق الموضوع بعد ذلك كثير من المؤلفين .

الأسباب :

كثرت النظريات التى وضعت لتعليل حوادث ضرس العقل نذكر منها الثلاث الآتية على اعتبار أنها أهمها وأكثرها قبولا .

١ ـ النظرية الآلية :

تتلخص فى سمك اللثة ومقاومتها الشديدة وعدم وجود مكان

كاف يسع ضرس العقل عند نموه وظهوره فى موضعه الطبيعى الذى هو بين الرحى الثانية والنتوء الصاعد للفك الأسفل . ومع أن هذه النظرية لم تكن كافية لتعليل كل الحقائق إلا أنها أفادت فى تفسير جانب كبير منها إذ أن العوائق الآلية تساعد فى تهيئة العضوية لحدوث حوادث ضرس العقل .

٢ ــ النظرية البشرية :

يقول دعاة هذه النظرية أن بقايا الطبقة البشرية التى حول الأسنان تهيج فى أثناء نمو السن وتتقيح إلا أن هذه البقايا البشرية غير قاصرة على ضرس العقل فحسب بل تكون فى باقى الأسنان .

٣ ــ النظرية العفنية الموضعية :

يرجع أصحاب هذه النظرية جميع حوادث ضرس العقل إلى إصابات عفنية موضعية تصيب الغشاء المخاطى عندما يأخذ الضرس فى ثقبه وشقه تمهيداً لظهوره لاسيما إذا أصبح الغشاء المخاطى بشكل غلاف يحيط بالسن ويصلح مأوى للجراثيم المتعددة وتكاثرها ونموها وهناك قول بأن الإصابة العفنية قد تصيب برعم السن عن الطريق الدموى ولكن «كادبوت» اكتشف سنة ١٩١٠ حالات تشريحية تحيط بالسن فتساعد على إصابة المحفظة السنية بالجراثيم العفنية فقد أثبت وجود تجويف حول السن وأن هذا التجويف يأوى الجراثيم التى تؤثر إفرازاتها فى داخله فتساعد على حدوث الالتهابات كما أثبت أيضاً أن السن ينمو مائلا ويكون اتجاهه من الأمام إلى الخلف ومن الأعلى إلى الأسفل

منحنياً من زاويته الأنسية الاقمية مع السطح الوحشى لضرس الـ ١٢ سنة « الرحى الثانية » وبالإجمال يجب مراعاة ثلاث حقائق تشريحية وهى :

١ — يوجد خلف الرحى الثانية تجويف طبيعى حادث من الغشاء المخاطى الذى يكون كثيفا فى هذه الناحية .

٢ — يكون ضرس العقل عند ظهوره مائلا إلى الأعلى والأمام .

٣ — تحاط تاج السن بمحفظة تلازمه أثناء نموه وهذه المحفظة تكون ملتصقة عند عنق السن وتحيط به محدثة بينها وبين تاجه فجوة تسمى « الفجوة ما حول التاج » .

وبعد معرفة ما تقدم يبقى أن نتتبع خطوات ظهور السن فنرى أنه تحت تأثير قوة دفعه للظهور تحتك حدباته الأمامية بالرحى الثانية فتنشق لذلك محفظته المحيطة بتاجه ويبدأ ظهوره . ويحدث بعد ذلك أن هذه الفتحة توصل الفجوة ما حول التاج بالوسط الفمى الذى يكون ملوثاً بالجراثيم فتدخل هذه إليه وتهاجمه بإفرازاتها وسمومها كما تهاجم أيضاً النسج العظمية التى حوله وتبتدئ تبعاً لذلك حوادث التهابات العظم فى الوضوح .

وفى بعض الحالات المتقدمة فى الإصابة تبرز الحدبات وينغمس التاج فى سائل ملوث بالجراثيم فتقتصر الإصابة عندئذ على الغشاء المخاطى وتسمى الحوادث بحوادث الغشاء المخاطى .

الأعراض :

حوادث الغشاء المخاطى : نقتصر على التهابات الغشاء المخاطى

واحتقاناته وتسبب المضايقات والمتاعب ويصحبها أورام خفيفة تزول فى بضع أيام إلا أنه قد تصاب المحفظة المحيطة بالضرس باحمرار وتورم وتنزف لأقل لمس بسيط وتصاب أيضاً المناطق المجاورة لها بالتهابات فمية متنوعة التى منها «التهاب الفم الغشائى المتقرح» كما قد تصاب جيوب اللوزتين والسطح الداخلى للخد عند ملتقاه بالغشاء المخاطى اللثوى وتكون رائحة الفم نتنة ويكثر إفراز اللعاب ويصعب البلع ويؤلم ثم يصحب هذا كله كزاز حيث يصعب فتح الفم لتقلص العضلات الماضغة إلا أن الكزاز الناتج من هذه الحالة أضعف منه فى حالة الحوادث العظمية وقد تحدث نوبات عصبية متشعبة وأهم الآلام الحادثة هى آلام الأذن .

حالة الجسم عموماً : تتمشى مع شدة الإصابة ولا يبعد أن تصل الحرارة إلى ٣٩° أو ٤٠° ويصحب الإصابات الغشائية المخاطية دائما التهاب الغدد تحت الفكية التى قد يشتد الالتهاب فى إحداها فيتكون فيها « فلغمون غدى » .

الحوادث العظمية : تكون عظام تلك الناحية محاطة بالالتهابات العديدة المذكورة آنفا التى أصابت الغشاء المخاطى الذى يغطيها ويعتبر الكزاز من أهم أعراض الإصابات العظمية وهو دائم الحدوث فى هذه الإصابات وإليه ينسب معظم المؤلفين أغلب المضاعفات التى تنشأ من ظهور ضرس العقل .

وفى الحوادث العظمية المتقدمة الإصابة يبلغ الكزاز من الشدة درجة تعوق حركة الفك السفلى بالكلية . فيتعذر تبعاً لذلك

تناول أى طعام يحتاج إلى أى مضغ فيضطر المريض إلى التغذية بالسوائل إذ تلتهب العضلات الرئيسية التى تحرك الفك وأثناء حدوث الكزاز يتغير مظهر المنطقة الفكية المصابة وذلك من حدوث أورام فى زاوية الفك تكون متصلبة وتؤلم ألماً خفيفاً عند الضغط عليها فإذا جسسنا منطقة هذا الورم من الناحية الداخلية أى من ناحية دهليز الفم يتبين لنا بوضوح أنه ورم عظمى . ويؤكد لنا ذلك عمل مقارنة بين الناحية المصابة والناحية السليمة المقابلة لها ويصحب هذه الحوادث العظمية آلام مختلفة تارة تؤثر فى ناحية الزاوية الفكية وطورا فى ناحية العين والذقن ويجب أن لا ننسى أن القناة السنية تخترق الفك السفلى من «شوك سبكس» إلى «الثقبة الذقنية» وتحتوى فى داخلها على العصب السنى السفلى الذى تؤثر عليه كل الالتهابات الفكية . الخطيرة وتسبب أعراضاً متباينة بشكل أزمات عصبية فى أغلب الأحايين ولكنها قد تتطور فتصيب العصب فى صميمه فتسبب شالا أو تخديراً عاماً فى المنطقة الذقنية .

وعند حدوث هذه الحالة يصعب جداً رؤية الفوهة الفمية لوجود الكزاز الشديد فيستعان بمسبر يدخل إلى الفم من دهليزه حتى ما بعد الرحى الثانية فإذا اصطدم بجزء صلب عرف أنه تاج ضرس العقل أو جزء منه قد ظهر .

وبالعلاج المناسب قد تختفى هذه الحوادث والأعراض إلا أنه قد تنقلب الآية فيتأثر الجسم كله وتصاب الحالة العامة بالحمى وتتفاقم الأعراض الموضعية ويزداد الورم ويصبح الضغط

عليه أشد ألماً من قبل ويكون هذا الضغط أكثر إيلاما فى منطقة معينة عنه فى غيرها مما يشير إلى تكوين صديد فى تلك المنطقة فإذا تأخر المريض عن علاج نفسه حاول هذا الصديد أن يجد له منفذا فيثقب الجلد عند الحافة الفكية فى زاوية الفك ومن هذا الثقب يبدأ تفريغه وخروجه ويندر جداً أن يخرج الصديد من داخل الفوهة الفمية ومهما كان منفذه فإن حالة الكزاز تخف وطأتها بعد خروج الصديد والحالة العامة تأخذ فى التحسن وفى بعض الأحايين يشفى الناسور الجلدى من تلقاء نفسه تدريجيا وأحياناً يكون مصحوبا بشظايا عظمية من ناحية زاوية الفك . ويستمر الكزاز ملازماً جميع أطوار هذه الحالة مهما طالت فيتعذر تناول الأطعمة التى تحتاج إلى مضغ ويحرم الفم من عملية التنظيف الآلية ويغطى اللسان والأسنان تبعاً لذلك بطبقة لزجة عفنة نتنة تصبح تبعاً لها رائحة الفم غير مقبولة . وهذه الحالة إذا طالت عرضت الجسم بأجمعه إلى تطورات مرضية . فيتغير منظر المريض ويشحب لونه وينحف ويصبح هزيلا ولا يبعد أن يصاب المريض بالأعراض الموضعية أو العامة أثناء تطورات هذه الإصابة كالأوديما والحرارة المرتفعة واحتباس البول والإسهال وما شابه ذلك من علامات التسمم الخطير . وهذه الأعراض إذا ظهرت كانت نتيجة التهاب الخلايا أو (خناق لدويج) الذى يعتبر من الأمراض الخطيرة التى قد تنتهى بالموت .

ومن المضاعفات التي تتسبب عن ظهور ضرس العقل ولو

أن حدوثها نادر (الالتهاب المفصلى الصدغى الفكى) وانسداد الأوعية الجيبية وخراج المخ ويجب أن نذكر هنا أنه قد يتصادف حدوث إصابات الغشاء المخاطى مع الإصابات العظمية فى آن واحد .

التشخيص :

١ ـ حالات الغشاء المخاطى :

تشخيص هذه الحالات سهل غالباً. فوجود تقرحات فى الفم فى ناحية الأرحية يدعو دائماً إلى التفكير فى حوادث ظهور ضرس العقل (لاسيما إذا كان سن المريض مناسبا أى يتراوح من ١٨ ـ ٢٥ سنة) .

٢ ـ الحالات العظمية :

أما تشخيص هذه الحالات فمن الصعب تحقيقه لأن أعراضها تشبه إلى حد كبير أعراض الالتهاب العظمى السمحاقى لناحية الزاوية الفكية إلا أنه فى هذه الحالة الأخيرة إذا فحصنا بالمسبر وجدنا حفرة يختلف اتساعها وعمقها حسب الحالة وهى تبين أن هناك سنا ناخرة وأن النخر يصحبه التهاب مفصلى سنخى وإذا جسسنا باصبعنا من ناحية دهليز الفم وجدنا ورماً وفى وسط هذا الورم نقطة يشتد ألم الضغط فيها عن غيرها وهى تعين المكان الذى بدأ منه الالتهاب كما تشير إلى منطفة جذر السن وذروته المسببان لهذا الالتهاب وكل هذا يؤكد وجود الالتهاب العظمى السمحاقى وينفى وجود حالات ضرس العقل ويحسن بعد كل هذا الالتجاء إلى التصوير بالأشعة للتأكد من الحالة .

الإنذارات :

١ ـ حالات الغشاء المخاطي :

تكون هذه الحالات عادة أبسط من غيرها وتنتهي بالشفاء إذا ما اعتنى بها .

٢ ـ حالات العظم :

هي أكثر خطورة لاسيما إذا تقيحت وتكون الصديد حيث قد تنتهي بحدوث « خناق لدويج » الوخيم العواقب .

العلاج :

العلاج الوقائي : يحبذ البعض خلع الرحى الأولى أو الرحى الثانية كعلاج واق من الإصابة بحالات ضرس العقل لاسيما إذا كانت السن ناخرة وكانت المسافة التي ستظهر فيها الرحى الثالثة (ضرس العقل) غير كافية وضعيفة ونحن نؤيد هذا الرأي على شرط أن تكون السن ناخرة أما إذا كانت سليمة فلا نرى معنى لخلعها ــ على أن إجراء هذا العلاج كعلاج واق لحوادث ضرس العقل لا يحدث إلا نادراً لأن المريض قلما يقصد الطبيب إلا بعد ظهور أعراض ضرس العقل فيصبح العلاج شفائياً لا واقياً لذا وجب اتباع ما يأتي في المعالجة :

ا ــ حالات الغشاء المخاطي :

أول ما يجب عمله هو محاربة أعراض التقرحات الفمية الحادة ثم العمل على التخلص من الفجوة ما حول التاج التي

تحيط بتاج السن والتى سبق وصفها (على أن تزال بقطع المحفظة اللثوية التى تضم الضرس) ثم يعتنى بعد ذلك بإجراء الغسيل والمضامض الساخنة المضادة للعفونة مرة كل ساعتين بمقدار لا يقل عن ٣ أو أربع لترات فى كل مرة فلا تلبث عوارض الكزاز أن تقل تدريجياً ومتى خفت إلى درجة يمكن معها المريض من تنظيف أسنانه بالفرشاة يبتدئ المريض فى القيام بهذا التنظيف مع المضامض والمعاجين المطهرة فهذه كلها تساعد على سرعة الشفاء فإذا كان التهاب الغشاء المخاطى فى درجته الأولى فيكفى مسه بصبغة اليود الكلوروفورميه حسب الوصفة التالية حول المحفظة وعلى اللثة المحتقنة .

صبغة اليود	$\frac{1}{10}$	١ جم
كلوروفورم } صبغة الأكونيت		٥ جم
يودور الوتاسيوم	:	يضاف إلى أن يصفى المحلول

وإذا كانت الإصابة متقرحة فالأفضل استعمال الفورمول ٤٠ ٪ أو أزرق الميتيل كما أن استعمال النيوسلفرسان أو الأدوية الأرسينيكية الأخرى يفيد أيضاً ويجب الاهتمام بتعاطى البنسلين مليون وحدة كل ٢٤ ساعة إلى أن تخف حدة المرض ولا يجب قطع المحفظة اللثوية المحاطة بالضرس إلا بعد زوال الأعراض الحادة وإليك بيان العمل .

تحقن المحفظة بمقدار ½ سم٣ من النوفوكائين ٢ ٪ ثم يقبض على الطرف الزائد للمحفظة بمقبض وتقطع عن آخرها بالمشرط ويكون القطع بشكل الرقم ٧ وتكوى حوافه بالمكواة ويتبع ذلك استعمال المضامض المضادة للعفونة .

(ب) الحالات العظمية :

١ – التى لا صديد فيها : توقف مظاهر الالتهابات بالحمامات الساخنة الفمية المتكررة ثم تخلع السن المسببة .

٢ – التى فيها صديد :

إذا كان الصديد قد تجمع إما تحت الجلد أو تحت الغشاء المخاطى وكانت الحالة العامة تساعد على التدخل السريع فيعمل للصديد فتحة فى الجلد والغشاء المخاطى لتفريغه ثم يتلو ذلك استعمال المضامض والغسولات الساخنة عدة مرات لتخفيف الكزاز وحالات الالتهاب العظمى السمحاقى وبعدها يمكن خلع الضرس المسبب . وإذا كانت الحالة العامة سيئة فيجب إجراء الخلع تحت التخدير العام الذى يعتبر ضروريا فى هذه الحالة .

الفصل الرابع عشر

الالتهاب المفصلى السنى السنخى «البيوريا»

أسماؤه وأوصافه — تاريخ المرض — أسبابه — النظرية القلحية — النظرية العفنية — النظرية الأطباقية — وقوع الأسنان من الالتهابات المفصلية — المهيئات — التشريح المرضى — الإصابات المختلفة للأنسجة — الأعراض — مدة بداية المرض — مدة المرض — التشخيص ، أشكال البيوريا السريرية (النوع المحيطى والنوع المركزى) العوامل المساعدة على ظهور البيوريا — العلاج — العلاج بالوسائل الطبيعية — العلاج بالوسائل الدوائية — العلاج الجراحى وخطواته .

* * *

هذا مرض أطلقت عليه أسماء عدة منها « مرض فوشار » « والتهاب اللثة المنتشر » « والالتهاب المفصلى السنى السنخى » والتهاب اللثة المفصلى السنى . والبيوريا و . و . و . . . إلخ .

ويحسن بنا أن نلفت الأنظار قبل الخوض فى وصف هذا المرض أن نزول الصديد من اللثة ليس هو الدلالة على وجود المرض وإنما الدليل القوى هو قلقلة الأسنان أو سقوطها وقد يعتبر نزول الصديد من ضمن مضاعفات هذا المرض .

تعريفه : هو مرض يصيب اللثةوالسنخ ويسبب قلقلة الأسنان وسقوطها وقد يكون مصحوباً بصديد .

تاريخ المرض :

إذا رجعنا إلى القرن الثامن عشر وبحثنا فى بعض ما كتبه أطباء ذلك العصر وجدنا أن بعضهم يشير فى مؤلفاته إلى بعض أوصاف البيوريا وأعراضها فى سنة ١٧٤٦ ذكرها « بيير فوشارد » فى الطبعة الأولى من مؤلفه عن مرض الأسقربوط الذى كان كثير الانتشار فى ذلك العهد وقد كان عظيما فى وصفه لها مما اضطر بعض المؤلفين إلى إطلاق اسمه عليها اعترافاً بفضله فسميت مرض فوشارد ثم أعطيت اسم البيوريا فى مبدأ القرن التاسع عشر وكان أول من أطلق هذا الاسم هو « ثوارالك » وفى سنة ١٨٣٥ أثبت « أوديت » أن إصابة المرض للجسم قاصرة على الرباط السنى السنخى وفى سنة ١٨٥٠ وصفها توماس تحت اسم التهاب اللثة المزمن وكان وصفه لها أكثر إتقانا من سابقيه ثم تكرر البحث من كثير من العلماء وشغل هذا المرض وأعراضه أذهانهم حتى جاءت سنة ١٨٧٥ التى قام فيها بعض الباحثون فأثبتوا تأثر السمحاق السنى السنخى من مرض البيوريا .

سبب المرض :

من تاريخ المرض السالف الذكر نعلم أن النظريات التى وضعت لتعليله عديدة والأبحاث التى عملت فى سبيله كثيرة إلا أننا اختصارا للبحث مع عدم الإخلال بالفائدة سنذكر هنا أهمها :

١ ـــ النظرية القلحية :

إن القلح هو السبب الرئيسى الفعال فى الإصابة بالبيوريا

حيث يترسب على عنق الأسنان فيسبب ضعف مقاومتها ويفتح بابا ،وصلا إلى المفصل السنى السنخى. والقلح على نوعين « مصلى » وهو الذى يترسب من مصل الدم و « لعابى » وهو الذى يترسب من « اللعاب » وليس هنا مجال وصفها بالتفصيل إلا أن الاعتراض على هذه النظرية يأتى من أنه قد يتصادف أحيانا كثيرة سقوط أسنان ليس عليها أى أثر للقلح . لكن الذى لا يمكن إنكاره هو أن القلح ولو أنه لا يسبب البيوريا أولا يعتبر وحده سبب وجودها إلا أنه يلعب دوراً هاماً فى ظهورها إذا ما ترسب على الأسنان عند أعناقها وما يسببه من الالتهابات الموضعية التى هى فى الحقيقة أول أدوار البيوريا ووجود القلح أكبر دليل على ميل الفم لإفراز رواسب جيرية وبوجوده فى مناطق معينة من الفم دون غيرها يجعل عادة هذه المناطق عرضة للإصابات بالبيوريا عن غيرها لأنه فوق مايسببه من التهابات يساعد على تخزين بقايا الأطعمة وإيجاد بؤر عفنية .

٢ ــ النظرية العفنية :

هذه هى النظرية السائدة وهى ترتكز على أن هناك جراثيم مرضية خاصة تسبب هذا المرض إلا أن تحديد هذه الجراثيم غير متفق عليه فقد نسبت الإصابة إلى نوع من المتمعجات والبريميات ومنهم من أسندها إلى نوع خاص من الأميبا ومنهم من أرجعها إلى اشتراك عدة أنواع مختلفة من الجراثيم وقد أدى تباين الآراء وتشعبها إلى تعدد وسائل العلاج الذى سيأتى وصفه

فى حينه إلا أن هناك اعتراضات على أصحاب هذه النظرية نلخصها فيما يلى :

(ا) قد تحدث القلقلة فى الأسنان بدون وجود الإصابة العفنية .

(ب) عدم الاقتصار على نوع واحد من الجراثيم يكون هو سبب الإصابة .

(حـ) شفاء المرض يكون فى معظم الحالات مؤقتا وإلى حين .

(د) ثبت أن البيوريا ليست مرضا معديا رغم ما يذهب إليه البعض خلافاً لهذا الرأى .

(هـ) إن حقن الحيوان بصديد البيوريا فى لثته لا يسبب إلا بعض الخراجات الموضعية البسيطة دون إصابة الأسنان بأى عارض يستدعى قلقلتها وسقوطها أو بمعنى آخر بالبيوريا من ذلك كله كانت النظرية العفنية ليست هى العامل الوحيد فى الإصابة بالبيوريا فاعتبرت كأحد العوامل المساعدة على الإصابة .

٣ — النظرية الأطباقية :

ويقصد بها أن سوء الأطباق هو سبب الإصابة بالبيوريا وسوء الأطباق عامل آلى لا جراثيمى ويفسر أصحاب هذا الرأى أن سوء الأطباق يؤثر فى الرباط السنى ويلهبه فيكون مدعاة للإصابة بالمرض ولكن هناك أشخاص عندهم سوء أطباق فى عدد من أسنانهم وهذه الأسنان بالذات غير مصابة بالبيوريا بينما تصاب أسنان أخرى حسنة الأطباق بها .

٤ ــ وقوع الأسنان من مرض التهاب المفاصل :

لوحظ إصابة الأسنان بالبيوريا أثناء إصابة الجسم بداء التهاب المفاصل وهذا الداء يرجح وجوده غالباً لسوء التغذية لذلك اتجه التفكير إلى أن البيوريا قد تكون إحدى مضاعفات بعض الأمراض العامة ولكن اعترض على هذا الرأى بأنه كثيرا ما تحدث البيوريا فى أجسام سليمة خالية من أى مرض حتى أن بعض المؤلفين قال فى تعريف البيوريا أنها مرض يظهر فى كل الأجسام فكما يصيب الجسم المريض فهو يصيب الأشخاص الأصحاء المعافين . من ذلك نرى أن جميع النظريات السالفة وإن لم تكن قد حققت أسباب المرض كل بمفردها إلا أنها فى مجموعها أنارت الطريق وكشفت عن خصائص هذا المرض .

وهناك نوع آخر من البيوريا هو « بيوريا الشيوخ » ومن اسمها نعرف أنها لا تصيب إلا كبار السن بسبب ما ينشأ عنها من ضمور فى السنخ نظراً إلى ما يظهر من اضطرابات حيوية هامة فى مثل هذا الدور من العمر .

المهيئات :

الأسباب المهيئة الواجب توافرها لحدوث البيوريا هى الآتية :

١ ــ وجود إحدى العوامل المساعدة التى ذكرت فيما سبق حيث تهيئ العضوية لقبول الإصابة كالرضوض والقلح والتسممات المختلفة إلخ .

٢ ــ إصابة العضوية بأحد الأمراض العامة الناتجة من سوء التغذية والحالات النفسية كالتهاب المفاصل والسكر وزيادة

الحموضة و . . . إلخ .

التشريح المرضى :

إصابة أنسجة السن الصلبة : يوجد فى موازاة السن تضخم كلسى يكثف العاج ويقلل حجم حجرة اللب . فإذا فحص السن وجد أنه سليم خال من النخر وقد لوحظ أن البيوريا والنخر لا يجتمعان فى سن واحدة .

الإصابات اللبية : يحدث ضمور فى الخلايا مكونة العاج ويمر على اللب تطورات تحلله إلى مواد ليفية وكلسية .

إصابات السمنت : يحدث امتصاص وتآكل فى السمنت

إصابات الرباط : يتضخم الرباط الذى حول السن ويحدث ضمور فى الألياف المتكونة من النسيج الضام وبعد ذلك مباشرة تبتدئ أول درجات البيوريا وتظهر حبيبات أسفنجية يقال أنها وسائل الدفاع ضد المرض .

إصابات جوانب السنخ : تصاب جوانب السنخ بإصابات عظمية يحدث بعدها امتصاص السنخ حيث تبتدئ ثانى درجات البيوريا بظهور الخلايا مخربة العظم واختفاء الخلايا العظمية .

إصابات اللثة : تصاب اللثة بإصابات خاصة هى الإصابات العفنية الموضعية التى تبتدئ على انخفاضات حواف اللثة . ثم تأخذ فى التعمق إلى الداخل فاصلة اللثة عن السن مكونة بابا لدخول الجراثيم واستقرارها وتقدمها حتى تصيب الرباط السنى السنخى . ثم تختفى طبقة النسيج الضام لتحل محلها طبقة ابتليالية ومن أهم المظاهر التى تشاهد فى البيوريا أنه فى حالة

خاع السن المصابة تعود كل الأنسجة إلى حالتها الطبيعية وتختفى جميع أعراض المرض بسرعة غريبة .

الأعراض :

المدة السابقة للمرض : تتراوح هذه المدة من شهرين إلى عدة سنوات قبل أن يبتدئ المرض فى الظهور ويبدو على المريض فيها أعراض تسمى الأعراض الخفيفة للالتهابات السنخية وهذه الإعراض هى :

١ ـ شعور بأزمنة ونوبات المضايقة .

٢ ـ شعور بأجسام غريبة فى الفسحات السنية .

٣ ـ لثة متهيجة محتقنة .

٤ ـ شعور بأن السن لينة ويظهر على المريض ميل إلى إطباق الفكين وضغطهما ليبرهن على هذه الليونة .

أما السن فمظهرها يدل على أنها سليمة واللثة شامرة بنظام وترتيب بدون انفصال عن السن وهذه هى البيوريا الجافة .

مدة بداية المرض : يزداد الشعور بالمضايقة لدرجة الشعور بالألم . وقد يصحب ذلك شعور بأن السن طويلة عن العادة ومهتزة ويميل المريض فى هذه الحالة إلى كثرة استعمال النكاشات السنية ـ والضغط على اللثة عند عنق السن يؤدى إلى خروج الصديد ويصبح نفس المريض ساخنا وذو رائحة كريهة .

وتبتدئ الإصابة فى موازاة ثلاث مجموعات من الأسنان وهى الثنايا السفلية والأرحية الكبرى العلوية على الجانبين .

مدة المرض : يزداد الشعور بالألم ويكون فى مواعيد ونوبات

لاسيما إذا أصيبت الأسنان بصدمة أو إذا ارتفعت درجة الحرارة ويصبح المضغ مؤلما وتستطيل الأسنان وتتعرى أعناقها ويحمر لون اللثة وتظهر غير ملتصقة بالأسنان أى سائبة ويتكون بينها وبين جذر من جذور الأسنان ما يشبه الأكياس التى تصير مستودعا صالحا لإيواء الجراثيم .

ختام المرض : يمتص السنخ ويكون اللب قد مر على أطوار استحالته إلى مواد كلسية أو صديدية ثم يسقط السن ويبطل إذ ذاك الصديد . وتلتئم اللثة فى ظرف ٤٨ ساعة ولقد لوحظ أن السن المنزوع لبها تقاوم فى السقوط وسبب ذلك يرجع إلى أن نزع اللب يساعد على عدم استحالته إلى مواد كلسية فإذا نزعنا لب السن قبل ابتداء ظهور أول أعراض المرض منعنا بذلك إصابته بالتضخم الكلسى .

وعلى ذلك تختفى إحدى العوامل الهامة التى تساعد على سقوط السن .

التشخيص : المدة التى تسبق إصابة السن بالبيوريا والتى يتهيأ السن فيها للإصابة بالمرض مدة صعبة التشخيص لأن السن يظهر فيها سليما ولايوجد فيه أى اشتباه بالإصابة بالنخر إلا أن لونه يصبح مائلا للصفرة وتكون اللثة محتقنة وتظهر فيها بعض الآلام الخفيفة وتدمى اللثة عند استعمال الفرشاة وتتوضع عليها بعض الرواسب القلحية التى عندما يشرع فى إزالتها تدمى اللثة أيضا إلا أن الفسحة بين اللثة والجذر لا توجد — وإذا أجرينا ثقب السن يحصل ترشيح دموى قليل ونتحقق أثناء إجراء هذا

الثقب أن عاج السن حساس وحساسيته أشد من الحساسية الطبيعية و يعقب هذه الخطوة الرضية حدوث حالة ضمور تسبب انفصال اللثة عن السن – نطلب من المريض أن يقوم بحركات مضغية و بواسطة الورق الأزرق نتمكن من مشاهدة نقط الاتصال بين الأسنان عند المضغ ثم نفحص حالة قلقلة الأسنان وحالة لبها وتكون التجربة بواسطة الاختبارات الحرارية والمآكل الحلوة وتشخص حالات الالتهابات اللبية الحادة من أعراضها المعروفة ونستعين أيضاً بآ لة اختبار اللب .

فإذا كان اللب ميتاً وجدنا بقعه معتمة و إذا كان السن مصاباً بالبيوريا نلجأ إلى رسمه بالأشعة التى تبين لنا مقدار الامتصاص الكائن فى السنخ وحدود امتداد طبقات القلح . ثم نجرى الفحص الجراثيمى للصديد فنعمل مزارع لهذه الجراثيم فنجد أن أهم الجراثيم المرضية الموجودة هى البريميات والمكورات العقدية ثم يأتى بعدها المكورات العنقودية والمكورات الرئوية والعصيات الدفترية . . . إلخ .

الأشكال السريرية للبيوريا : يمكننا تمييز شكلين سريرين للبيوريا .

١ – النوع المحيطى . وتتغلب فيه العوامل الموضعية التى تتجسم فى وجود كتل قلحية عند الحواف اللثوية وبؤر صديدية وتسبب سقوط الأسنان وتكون تطوراتها سريعة للغاية وقد يقل تأثيرها بالمداواة الموضعية الفنية .

٢ – النوع المركزى : وتتغلب فيه العوامل العامة وتقل

العوامل الموضعية فتظهر اللثة كأنها طبيعية ويوجد قليل من القلح وقليل من المضاعفات ويشاهد فيها غالباً شدة إحساس العاج ويصيب هذا النوع النساء أكثر من الرجال وتكون تطوراته سريعة ولا يظهر أى ميل للتحسن عند مداواته موضعياً وهذه هى البيوريا الحقيقية كما يدعوها الأمريكيون — فلا يكفى إذن مجرد التشخيص فى الفم بل يجب فحص المريض والوقوف على ما بجسمه من أمراض عامة .

العوامل المساعدة على ظهور البيوريا : من ضمن الأسباب التى تساعد على ظهور البيوريا ما يأتى :

١ — الوراثة : نتيجة ضعف عام آت من تشوشات داخلية تنتقل من السلف إلى الخلف .

٢ — السوابق المرضية : كالتيفود والأنفلونزا والملاريا .. إلخ.

٣ — التسممات الحادة أو المزمنة : كالتهابات الفم الزئبقية . والغنغرينا الفسفورية .

٤ — نقص الفيتامينات : كما يظهر فى أمراض البلاجرا والأسكربوط والحمل والبرى برى و . . . إلخ .

٥ — نقص العوامل الحيوية الطبيعية : كالضوء والحركة والهواء ونقص الرياضة .

٦ — التخمة والإكثار : فى التغذية وفى غيرها كالإكثار من حرارة الشمس الذى يسبب ضربة الشمس وقد وجد بعض الباحثين ارتباط بين البيوريا وسرطان المجرى التنفسى الهضمى العلوى.

ويجب ملاحظة أنه فى حالة التسممات الداخلية الناتجة

من إفرازات الأمراض أن كثرة الإفرازات فى حالة التيفوئيد تنتج نقصانى الأملاح الكلسية فنخراً فى الأسنان بينما نقص إفراز الغدة الدرقية يسبب سقوط الأسنان العاجل ــ كذلك نقص الوظائف الكلوية تلعب دورا فى جدوث النخر الحاد .

العلاج : حيث أننا لم نتمكن من استخلاص أسباب معينة للمرض لذلك يصعب علينا إيجاد علاج واحد خاص بالبيوريا .

١ ــ العلاج بالعوامل الطبيعية :

(ا) التدليك : يطرد الصديد وينشط الدورة الدموية ويمكن إجراؤه بواسطة الأصبع أو بواسطة آلات خاصة به وبحركاته ويحسن استعمال التدليك يوميا ابتداء من سن ٣٥ سنة كعلاج واق ضد البيوريا وحبذا لو حقن المعجون البزموتى فى البؤر الصديدية بعد التدليك .

٢ ــ الرش الكهربائى :

يتضمن إدخال أدوية بمساعدة آلات كهربائية داخل الأنسجة السنية واالدواء المستعمل عادة هو كلورور الزنك ولا تزيد مدة كل تدخل علاجى عن دقيقتين لكل سن .

٣ ــ الراديوم :

لهجهاز خاص يساعد على دخول الشعاع وقد استعمل فى ألمانيا ماء الراديوم كحمامات فمية وحقن .

٤ ــ أشعة X : هناك قول بأن نسبة خفيفة من أشعة X والأشعة فوق البنفسجية يعطى نتيجة لا بأس بها .

٥ ـ الكى بالنار :

مفيد جدا فى إزالة الاحتقان اللثوى وبؤر الصديد وله جهاز حرارى أو كهربائى خاص لدى جراح الأسنان .

٦ ـ التشريط :

علاج قديم ويكتفى الطب الحديث بكمية الدم التى تنزل عند إجراء عمليتى التقليح « إزالة القلح » وصقل الأسنان وتنظيفها .

(ب) الوسائل الدوائية :

يجب أولا إزالة جميع العوامل المساعدة على التهيج اللثوى والالتهاب كعمل التقليح الدقيق للأسنان وللجذور حيث يساعد ذلك على سهولة نزول الصديد ثم يؤمر المريض باتباع قواعد صحية فمية دقيقة منظمة وفيما يتعلق بالتنظيف يجب استعمال دواء مذيب للقلح كفلورير الامنيوم أوحمض الكلوريدريك بنسبة ٢ : ٣ . أما المطهرات فهى عديدة ولكننا لا ننصح باستعمال الهيبركلوريت الكلسى أوالصودى ولإتلاف البؤر الصديدية تستعمل الكاويات الكيماوية كحمض الكروميك وحمض اللبن وحمض الكبريتيك و . . . إلخ وليست الطريقة الدوائية هى أفضل الطرق كما يعتقد البعض .

استعمال الأدوية اللقاحية :

اعتبر كريتشوسكى وسيجوين البيوريا كمرض الزهرى واستدعى اعتبارهما للمرض بهذا الشكل أن يستعملا لعلاجه أدوية الأرسينوبانزول موضعيا وفضلا حقنها فى الوريد .

وحيث أن حقن هذا الدواء فى الوريد له خطورته فقد اكتفيا باستعماله موضعيا فأعطى نتيجة مضطربة وغير ثابتة مما أدى إلى عدم الاعتماد عليه كدواء لهذا المرض وقد نتج عن استعماله موضعيا بعض التحسن فى بعض الحالات ولم يكن استعماله فى الوريد بأحسن من استعماله موضعيا ولم يكتفى بذلك بل استخدم جميع مشتقات الأرسيسينيك التى يداوى بها الزهرى كالسلفرسان والنيوسلفرسان والسلفارسينول والستوفارسول (الذى لوحظ أنه أتى بنتائج إيجابية قوية) . . . إلخ فكانت النتائج مضطربة وغير مشجعة — لأنه إذا كانت الأدوية شافية كما يقولون عن مرض البيوريا فلماذا يصاب بها مرضى الزهرى الذين يعالجون بهذه الأدوية ؟ ؟

ثم استعمل البزموت على أساس أن البيوريا مرض خاص كالزهرى فلم يكن بأسعد حظاً فى النتائج المتحصلة .

على أن تحمس هؤلاء الباحثين فى استعمال هذه الأدوية السابقة كان أغلبه منصبا على استعمالها كلقاح لاسيما مشتقات الأرسينوبانزول فقامت معامل أوربا وأمريكا باستخراج لقاحات متعددة من هذه المشتقات نذكر منها « لقاح ستوك » لجولدنبرج ويلاحظ فى المداواة بهذه اللقاحات أنه يصحبها دائما صداع شديد وارتفاع فى درجة الحرارة وهبوط عام فى الجسم وهى أعراض تلازم المداواة بهذه اللقاحات . أما النتيجة فكانت عظيمة جداً فى حالة البيوريا المتوسطة أى التى بين البيوريا الصديدية والبيوريا الآكلة .

وقد نال بعضهم ٨٥٪ شفاء لهذا المرض من استخدام المداواة باللقاح إلا أن فوائد هذه الطريقة لا زالت قيد البحث ويشك فيها بعض الباحثين .

العلاج الجراحى :

لا تتبع طريقة العلاج الجراحى إلا فى حالة البيوريا التى حدث فيها امتصاص فى الحواف العظمية السنخية الذى لم يصحبه انكماش أو تراجع فى اللثة وتكون اللثة بينها وبين السن فى هذه الحالة بؤرا تكون مستودعاً صالحاً لكثير من المتخلفات . ويقول «كروبت» وهوأول من استخدام هذه الطريقة أنه يجب نزع جميع الأنسجة المصابة بالكي بالنار نزعاً كلياً وهذه العملية يحصل فيها إدماء كثير وتسبب ضعفاً عاماً وكثيرا ما يقوم بها أطباء البلاد الأجنبية وأكثر ما تستعمل فى ؛أمريكا حيث يوجد أطباء اختصوا لها فقط والعملية عبارة عن قطع كل الأنسجة المصابة وأجزاء اللثةالمنفصلة . وقبل إجرائها يجب عمل تنظيف دقيق للفم والأسنان ويحسن إجراء هذه العملية تحت التخدير الموضعى مع مراعاة حقن المخدر بعمق حتى يصل تحت السمحاق ويعمل فى منتصف كل فك مرة كل أسبوع فتنتهى كلها فى شهر واحد وإليك الطريقة المتبعة فنيا :

يحدد عمق البؤر الصديدية . ثم يقطع الغشاء المخاطى اللثوى حتى يصل للعظم ويكون القطع موازياً للسينات السنية فوق الخط الوهمى الذى يحدد عمق البؤر ثم نفصل الشرحة المقطوعة فينزع الغشاء المخاطى من ناحية سقف الحنك ومن ناحية دهليز

الفم « الشفويه » وعندما يظهر العظم وينكشف نزيل أجزاؤه المصابة ثم تنظف جذور الأسنان من الرواسب القلحية التى تكون مترسبة عليها . ثم نجرى بعد ذلك عمل حقن للغسيل بماء ساخن جداً مضافاً إليه ملح الطعام . وعندما نطمئن إلى أن الفم وساحة العملية قد نظفا تماماً تترك الحالة لمدة ٤٨ ساعة ينصح فيها المريض باستعمال المضامض وغسولات الفم المطهرة باعتناء وكثرة وأحسن هذه المضامض فى هذه الحالة ما كانت بالماء الأكسجينى المعدل ببيكربونات الصودا . فإذا حدث للمريض آلام من تعرية بعض الجذور السنية فتمس هذه الجذور بمحلول نترات الفضة نسبة (١٠ — ٣٠ ٪) وتوجد طريقة أخرى يقتصر فيها على قطع اللسينات اللثوية ونزعها من كلا الجانبين ثم تجرى على الحواف السنخية وعلى الجذور ما سبق وصفه فى الطريقة السابقة .

ولهذه الطريقة نتائج عظيمة ولو أن المريض لا يفضلها حيث يتوهم سقوط أسنانه من إجرائها وما عدا ذلك هى أمثل الطرق لحفظ الأسنان المصابة بالبيوريا أطول مدة ممكنة .

وهناك طريقة أخرى وهى معالجة الأسنان المهتزة بتثبيتها بواسطة كوبرى وقد أجرى هذه الطريقة « بيليارد » فكان لها نتائج مرضية — ويجب أن يستند الكوبرى فى هذه الحالة على ثلاث دعائم على الأقل ويكون كله قطعة واحدة لا قطعاً منفصلة . وأى كوبرى يقام على ثلاث أسنان مهتزة يكسب قوة وثباتاً عظيمين .

والاسنان الاصطناعية فى هذه الحالة تعتبر واقة وشافية فى آن واحد . وبالإجمال . أمام مريض البيوريا يجب أن نحاول كل المحاولات مستعينين بكل ما هو معروف من الأدوية أو ما هو تحت الاختبار منها على أن نبتدئ بالطرق السهلة البسيطة ونصح المريض باتباع القواعد الصحيحة الفمية بنظام وعناية والقواعد الصحية العامة بدقة — والمعالجة بالعوامل الكماوية والدوائية القاتلة للجراثيم تفيد فى إزالة الصديد موضعياً ولكنها لن تفيد فى إزالة أسباب المرض أى أنها لا تسبب الشفاء التام .

والطريقة الجراحية تعطى نتائج مرضية كما سبق وتمد فى عمر الأسنان مدة طويلة ولكن عملها مقتصر فى الحقيقة على نقل المرض من حالته الصديدية إلى حالته الجافة .

وطريقة الأسنان الاصطناعية هى أهم الطرق على الإطلاق التى عملت حتى الآن فهى توقف تطورات المرض إلى مدة أطول من أى مدة أخرى أتى بها علاج آخر فقط نكرر مراعاة جعل الجسم عموماً يقوم بوظائفه المعتادة على الوجه الأكمل قدر المستطاع . أما العلاج الكهربائى للبيوريا فلا زال تحت البحث لذلك لا يمكننا الخوض فيه وفى نتائجه الآن .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١

أغسطس ١٩٦١

الثمن ٣٠ مليماً
٣٠ قرشاً سورياً

اقرأ

محمود الشرقاوي

المجتمع العربي

دار المعارف بمصر

المجتمع العربي

محمود الشرقاوى

المجتمع العربى

اقرأ ٢٢٥

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٢٥ — سبتمبر ١٩٦١

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج.ع.م.

الفصل الأول

الأسس الجغرافية البشرية للمجتمع العربى

١ – وطن المجتمع العربى

يمتد العالم العربى ، وطن المجتمع العربى ، بين غرب آسيا وشمالى أفريقية من خليج البصرة شرقاً إلى ساحل المحيط الأطلسى غرباً ؛ ومن جبال طوروس شمالا إلى حدود المنطقة الاستوائية جنوباً . وتقدر مساحته بنحو عشرة ملايين من الكيلومترات المربعة [١] .

وينقسم العالم العربى جغرافياً إلى قسمين : قسم فى غرب آسيا ، وقسم آخر فى شمال أفريقية . يشمل القسم الأول جزيرة العرب (نجد – الحجاز – اليمن – سلطنة لحج وعدن – حضرموت – عمان – مسقط – ساحل الصلح – قطر – البحرين – الكويت) والعراق والشام (إقليم سوريا – لبنان – فلسطين – الأردن) .

ويشمل القسم الثانى : إقليم مصر – السودان – ليبيا – تونس – الجزائر – مراكش . ويشغل العالم العربى مركزاً

---

(١) « جغرافية البلاد العربية » للأستاذ بسام كرد على .

ذا خطورة بينة فى جغرافية العالم ، فهو ملتقى القارات الكبرى للعالم القديم « آسيا وأوربة وأفريقية » ؛ وتسكنه عدة أقوام لعبت أدواراً هامة فى تاريخ البشرية ، وهو مهد الحضارات، ومهبط الوحى ؛ وأقاليم الوطن العربى وإن كانت متنوعة فى المناخ والطبيعة كما هى متنوعة فى الإمكانيات ، إلا أن ما ينقص من أحدها يتوافر فى الآخر بحيث يمكن أن يقال إنها يكمل بعضها بعضاً وتكون وحدة جغرافية واقتصادية وطبيعية تامة . ففيها المناطق الحارة والمناطق الباردة ، وفيها ما يصلح ليكون أحسن المصايف وما يصلح ليكون من أحسن المشاتى ، وفيها ما يصلح للاستغلال الزراعى الخاص بالبلاد الحارة كما فيها ما يصلح للاستغلال الخاص بالبلاد المعتدلة والباردة . وفيها الغابات التى تشغل فى بعضها قسماً كبيراً من مساحتها كما هو الشأن فى بلاد الشام والسودان ، وفيها الأنهار العظمى كنهر النيل ونهر الدجلة ونهر الفرات . وفيها السهول الواسعة الخصبة . وفيها الجبال المرتفعة ، وفيها المنخفضات والأغوار ويتخلل صحاريها وبواديها الواحات التى تتفجر فيها الينابيع وتكون الحياة فيها صالحة والاستغلال الزراعى ممكناً . وهى تشغل جميع سواحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبية وجزءاً مهماً من سواحله الشرقية كما تشغل القسم الأكبر من سواحل البحر الأحمر الغربية وجميع سواحله الشرقية . ثم جميع سواحل خليج البصرة الغربية ، وتطل على المحيط الهندى

من جنوب جزيرة العرب ، كما تطل عليه من شرقها وتطل على المحيط الأطلسى من غرب مراكش . وفيها الخلجان الكبيرة والصغيرة التى يصلح بعضها لإقامة أعظم الموانئ . ويوجد فيها عدد من البحيرات الصغيرة والمتوسطة والحلوة والمالحة وفى بعضها من الأملاح والذرات المعدنية ما يعادل ثروات هائلة ، وفيها مغاصات اللؤلؤ والمرجان ومصايد الأسماك[1] .

ويوجد فى الوطن العربى ثروات ضخمة ، إذ تحتوى أرضه على ٦٠ فى المائة من احتياطى البترول والغاز الطبيعى فى العالم . كما توجد معادن أخرى كالحديد والفوسفات والنحاس والمنجنيز والرصاص والزنك والفضة والزئبق وغيرها .

والزراعة وصناعاتها من أهم موارد الوطن العربى . وتقوم نهضة صناعية ضخمة فى الجمهورية العربية المتحدة لتحقيق الاكتفاء الذاتى ، والتوسع فى الصناعات التى يمكن أن تجد سوقاً للتصدير إلى الخارج بغية زيادة حصيلة البلاد من النقد الأجنبى ، فقد وجهت عناية لتحقيق هذا الهدف عن طريق المشروعات ذات الأهمية الاستراتيجية ، خصوصاً تلك التى تعمل على توفير القوة الكهربائية لخدمة الزراعة والصناعة

---

(١) الوحدة العربية للأستاذ محمد عزة دروزة .

والنقل وكذلك طرق المواصلات مع إتمام مسح مناطق الثروة المعدنية وإقامة طائفة من الصناعات الأساسية مثل صناعة الحديد والصلب وصناعة الأسمدة وصناعة تكرير البترول .

وتدل الإحصاءات الأخيرة على أن عدد سكان الوطن العربى يقرب من ثمانين مليوناً . ويتكلم ٧٥ مليوناً منهم أى ٩٤ فى المائة العربية الصريحة . ويعيش منهم ٢٥ فى المائة عيشة البدو فى الخيام وعرائش القش فى جزيرة العرب وبوادى الشام والعراق وإقليم مصر والسودان وليبيا والمغرب ، ويعيش الباقون عيشة حضرية بدرجات مختلفة فى المدن والقرى ، منها ما يصل إلى الدرجات العلى ، ومنها ما هو فى الدرجات الأولى .

٢ — من هم العرب

العرب هم الأقوام التى تنطق باللغة العربية ، وهى إحدى اللغات الشرقية والسامية القديمة ويقال العرب العاربة ، والعرب العرباء ، وهم من ليسوا عجماً ، ورجل عربى أى ثابت النسب فى العرب وإن كان غير فصيح[١] . وقال صاحب اللسان « والعرب هذا الجيل لا واحد له من لفظه ، وسواء أقام بالبادية أو بالمدن . والنسبة إليها أعرابى وعربى . والعرب

---

(١) فاتحة الدراسات العربية للأستاذ عبد الله حسين .

منهم أهل الأمصار والأعراب منهم سكان البادية خاصة » .

وقد كانت جزيرة العرب مأهولة بجماعات متشابهة فى الملامح والطبائع تتكلم لغة واحدة ، وإن تعددت لهجاتها . وإن الأقوام التى سميت خطأ بالأقوام السامية ، وسجلت نشاطها السياسى والحربى والاجتماعى والعمرانى والفكرى العظيم فى جنوب الجزيرة وشمالها ثم فى البلاد المجاورة للجزيرة أى بلاد العراق والشام ووادى النيل هم من هذه الجماعات .

وإن تسمية الأقوام التى كانت تعيش فى جزيرة العرب بالأقوام السامية ابتكرها المستشرق النمساوى شلوزر سنة ١٧٨١ استناداً إلى الأنساب الواردة فى سفر التكوين وليس لها سند من تاريخ وعلم وآثار . والتسمية الصحيحة التى لها سند من كل ذلك هى «الأقوام العربية » فإن جزيرة العرب هى مقر هذه الأقوام تذكر باسم العروبة فى كتب اليونان والرومان القديمة منذ ألفين وخمسمائة سنة . واسم العرب الصريح أخذ يطلق على أهلها المستقرين فى داخلها أو على تخومها الشمالية جزئياً أو كلياً منذ ألفين وخمسمائة سنة كذلك على ما تدل عليه النقوش الأشورية ونصوص أسفار «العهد القديم[١]» .

واللغة التى يتكلم بها سكان الجزيرة والبلاد المتاخمة لها منذ ألفين وخمسمائة سنة هى اللغة العربية بغض النظر عن

---

(١) الوحدة العربية للأستاذ محمد دروزة .

تعدد اللهجات . فإطلاق تعبير الأقوام العربية على سكان جزيرة العرب والبلاد المجاورة لها أصح علمياً وتاريخياً وواقعياً من تعبير الأقوام السامية ، لأنه يمتد فى سنده إلى حقبه سحيقة فى القدم ويتصل بالواقع الراهن[١] .

وقد حدت العوامل الطبيعية والاجتماعية مثل الجفاف والقحط وقلة الكلأ والمنازعات القبلية إلى الهجرة من الجزيرة العربية ، فانساح إلى الأقطار المجاورة جنوباً وشمالا عدد كبير من السكان . ثم ظلت هذه العوامل تعمل عملها قبل الإسلام وبعده ، فيكون فى هذا التلاحق المتواصل المتحد فى طبيعته ودوافعه الدليل على وحدة الأصل والجنس والمنشأ بين سكان الجزيرة والأقطار المجاورة لها ، ويكون فيه وسيلة مستمرة إلى توثيق الصلات والروابط والوحدة بين القلب والأطراف وتجديد دم الجنسية العربية وحيويتها وطابعها مما لا يكاد يوجد له مثيل فى العالم[٢] .

وقد أخذت بلاد الشام منذ خمسة آلاف سنة تعمر بالموجات الكبرى التى جاءت إليها من الجزيرة العربية رأساً أو بطريق

---

(١) من هذا الرأى أيضاً الدكتور جواد على فى كتابه « تاريخ العرب قبل الإسلام » . والأستاذ عطية الإبراشى وزملاؤه فى كتاب « الأمم السامية ولغاتها » .

(٢) المرجع السابق .

العراق والتى عرفت بأسماء الكنعانيين والفينيقيون فرع منهم — والعموريين والآراميين ، وبالموجات الصغرى التى كانت تنساح من وقت إلى آخر كنتيجة لهذه الموجات الكبرى وتابعة لها والتى لم تذكر باسم خاص فى الأسفار والآثار ، ثم بالثموديين والنبطيين والتدمريين والعبابيد والمرسمان وأخذ السابقون واللاحقون ينصهرون فى بوتقة العروبة بسهولة ويسر وتذوب الشخصيات واللهجات غير الصريحة فى عروبتها ، حتى إذا جاءت موجة الفتح الإسلامى الكبرى قويت عملية الانصهار وتكاملت حتى غدت العروبة طابع هذه البلاد الخالد .

ومنذ أكثر من خمسين قرناً أخذ العراق يعمر بالموجات الكبرى التى كانت تنساح إليه من جزيرة العرب رأساً أو عن طريق الشام والتى عرفت بالكلدانيين والأكاديين والعموريين والآشوريين والآراميين وبالكثير من الموجات الصغرى التى كانت تلحق بهذه الموجات وتندمج فيها ، ثم بالتنوخيين واللخميين والشيبانيين والتغلبيين والأسديين وغيرهم من الذين كانوا يملأون جنبات العراق . وقد أخذت أنسال هذه الموجات تنصهر فى بوتقة العروبة فى سهولة ويسر وتذوب الشخصيات واللهجات غير الصريحة فى عروبتها حتى إذا جاءت موجة الفتح الإسلامى الكبرى قويت عملية الانصهار وتكاملت حتى غدت العروبة طابع هذه البلاد الخالد .

وكذلك كان شأن وادى النيل حيث أخذ يعمر بالموجات

التى كانت تنساح إليه من جزيرة العرب عن طريق سيناء وبرزخ السويس تارة وعن طريق باب المندب تارة أخرى ، حتى إذا جاءت موجة الفتح الإسلامى الكبرى أخذت أنسال الموجات الأولى تنصهر فى بوتقة العروبة الصريحة التى كانت طابع هذه الموجة فلم تمض بضعة أجيال حتى تكامل الانصهار وغدت العروبة طابع هذه البلاد الخالد أيضاً .

وكان المغرب مهجر موجة عربية وهى الموجة الكنعانية الفينيقية التى قدمت إلى سواحل بلاد الشام ، حيث مارست الملاحة والتجارة . وكان البحر الأبيض المتوسط ميدان نشاطها ، وأنشئت عدة مراكز ملاحية وتجارية . وفى القرن العاشر قبل الميلاد تأسست الدولة التجارية البحرية الكبرى ، المعروفة بدولة قرطاجنة .

ومن هذه الحقائق التاريخية يتضح لنا حقيقة تسرب الدماء العربية إلى بلاد المغرب قبل ظهور الإسلام بقرون عديدة ، ثم أصبحت مهجراً للموجات العربية الصريحة فى عهد مبكر من ظروف الفتح الإسلامى ، حيث سير عمرو بن العاص حملة عربية إلى ليبيا ، ثم سير عبد الله بن سعد فى عهد عثمان بن عفان حملة عربية إلى تونس ، ثم أخذت الموجات العربية تترى إلى بلاد المغرب فى عهد الأمويين حيث أتمت توطيد السلطان العربى فى جميع أنحائها قبل انتهاء القرن الأول الهجرى ، ولم تنقطع الموجات العربية عن الانسياح فى بقية

عهد الدولة الأموية ، ثم فى عهد الدولة العباسية والفاطمية حيث ظلت تتلاحق وتملأ جنبات بلاد المغرب حتى أصبح طابع العروبة بارزاً عليها[١] .

ومما سبق يتضح لنا أن الوحدة الجنسية متوفرة بعمق وقوة فى الوطن العربى الكبير منذ أقدم أزمنة التاريخ إلى الآ ن . وقد أصبحت العروبة الصريحة طابعه الخالد منذ الفتح الإسلامى بفضل الإسلام العربى والقرآن العربى ، ثم بما ظل ينساح من الجزيرة العربية إلى بقية أنحاء هذا الوطن من موجات متوالية فى مختلف الأوقات .

ولا يدحض هذه الحقائق القول بأن فى مختلف أنحاء الوطن العربى جماعات تمت إلى غير الجنس العربى ، وأن دماء غير عربية تجرى فى عروق بعض سكانه ، فمنهم من يتصل وجوده فيه بالأحقاب القديمة حيث كانت موجات وغزوات أسيوية وأفريقية وأوربية تطرأ على بعض أجزائه وتستقر فيه ، ومنهم من يتصل وجوده بالأحقاب الحديثة . ونحن نرد على هذه الاعتراضات بقولنا إن الذين يتصل وجودهم فى هذا الوطن بالأحقاب القديمة من الأسيويين والأفريقيين والأوربيين قبل الإسلام وبعده ، قد امتزجوا بالعرب والبيئة العربية وانطبعوا بالطابع العربى . ومر على ذلك أزمان طويلة

---

(١) المرجع السابق .

ولم يعد لهم لغة غير اللغة العربية ووطن غير الوطن العربى وقد وحدت أحداث التاريخ وأحقاب الزمن بينهم وبين الجنس العربى فى الوطن والمصلحة واللغة والعادات فصاروا عرباً تاريخياً ووطنياً ولولم يكونوا عرباً جنساً .

والوطن العربى وحدة تاريخية ، ووحدة ثقافية ، ووحدة دينية ، ووحدة اجتماعية .

١ — الوطن العربى وحدة تاريخية :

عند ما قام حكم الفراعنة فى مصر ، لم يقتصر نطاق هذا الحكم على الأرض المصرية فحسب، بل امتد فى الأرض العربية حتى وصل إلى أرض ما بين النهرين فى العراق .

وحينما انهار حكم السومريين قبل ذلك فى بلاد ما بين النهرين « العراق » انهار على يد القبائل السامية التى جاءت من جزيرة العرب ، واستوطنت ما بين النهرين بعد السومريين .

وحين خرج البابليون والكلدانيون والأشوريون من جزيرة العرب واستوطنوا ما بين النهرين فى العراق لم ينعزلوا هناك ، بل مدوا سلطانهم إلى أرض وادى النيل ، وأسسوا دولا ضمت قسماً كبيراً من الوطن العربى .

وأسس الفينيقيون الذين هاجروا من جزيرة العرب ، واستوطنوا ساحل البحر الأبيض المتوسط ، « ولا سيما لبنان » دولة قرطاجنة قرب تونس اليوم .

وهذه الأقوام التى كانت تسكن الوطن العربى قبل الفتح الإسلامى والتى جاء معظمها من جزيرة العرب ، لم تكن معزولة تماماً عن بعضها كما يظن الكثيرون ، بل كانت تجاور بعضها البعض ، وتمتد إلى حدود بعضها البعض[١] .

وعند ما بزغ نور الإسلام فى جزيرة العرب ، لم ينعزل العرب أبداً فى الجزيرة العربية ، بل انطلقوا ينشرون الدين الإسلامى ، فى جميع أرجاء الوطن العربى ، وتمت فى ذلك العهد الوحدة العربية . وعاش العرب فى الجزيرة العربية والعراق والشام ووادى النيل والمغرب العربى فى دولة واحدة ، يخضعون لأنظمة واحدة ، وقيم واحدة ، واستمرت هذه الوحدة منذ عهد الخلفاء الراشدين إلى عهد الأمويين ثم عهد العباسيين .

ولما ضعفت الدولة العباسية ، بدأت التجزئة تتسرب إلى الوحدة العربية . بظهور دول عربية انفصالية فى أجزاء مختلفة من الوطن العربى ، ولكن هذه التجزئة لم تكن شاملة .

وذلك لأن الدول الانفصالية التى قامت لم تكن دائماً تنعزل فى حدود الإقليم الذى قامت فيه ، كما لم يكن لكل منها تاريخ خاص منفصل ، وبناء على ذلك بقيت الوحدة هى الطابع العام من حيث أساس الوجود القومى العربى ، ومن حيث وحدة الظروف والأحداث والنتائج التى مرت على الأمة العربية

---

(١) مع القومية العربية للأستاذين الحكم دروزة — حامد الجبورى .

وهذه الدول الانفصالية رغم تعددها كانت تخضع – ولو اسمياً – لدولة واحدة وخليفة واحد ، كما لم يكن فى حركتها معنى من معانى التخلى عن فكرة قيام دولة عربية متحدة ، الفاطميون مثلا الذين جاءوا من المغرب العربى ، وأقاموا الدولة الفاطمية فى مصر ، لم ينعزلوا داخل حدود مصر ، بل امتدوا فى الأرض العربية حتى شملوا المغرب العربى ومصر وسورية والحجاز واليمن .

والطولونيون والأخشيديون والأيوبيون الذين أقاموا حكمهم فى مصر ، لم ينعزلوا أيضاً داخل حدود مصر ، بل امتدوا حتى شملوا قسماً كبيراً من سورية إلى جانب مصر [١] .

ولما قامت دولة المماليك فى مصر سنة ٦٥٠ ، كان وادى النيل وليبيا وبلاد الشام والحجاز واليمن موحدة تحت سلطانها فى وحدة متينة شاملة عسكرية وسياسية وإدارية واقتصادية . وجاء الاستعمار العثمانى ، فلم ينحصر فى جزء دون آخر ، بل امتد حتى بسط سلطانه على كل الوطن العربى .

ولما اضمحل الاستعمار العثمانى بعد الحرب العالمية الأولى[٢]

---

(١) المرجع السابق .

(٢) كان قد اضمحل قبل ذلك فى مصر والمغرب العربى .

وجاء الاستعمار البريطانى والفرنسى امتد هذا الاستعمار حتى شمل كل الوطن العربى كوحدة من جزيرة العرب والعراق وبلاد الشام إلى وادى النيل والمغرب العربى .

وهكذا نرى الوطن العربى قد خضع لظروف تاريخية واحدة ، فلما جاء الإسلام ، وقامت النهضة العربية فيما بعد ، شملت هذه النهضة كل الأمة العربية ، وكل مرافق الحياة العربية ، وتجسدت هذه الوحدة فى الظروف الحياتية كأبرز ما يكون فى الفترة الممتدة ما بين صدر الإسلام حتى العصر العباسى ، ولما اضمحلت الدولة العباسية وبدأت عصور الانحطاط ، امتد هذا الانحطاط حتى شمل كل الأمة العربية ، وكل مرافق الحياة العربية .

ولما جاء الاستعمار العثمانى ، بسط سيطرته على كل الوطن العربى ، وتأثرت به الأمة العربية بكل مجموعها وكوحدة ، فرأينا الأقطاع يسود فى مصر ، كما يسود فى سورية وفلسطين ولبنان والعراق . ورأينا نظام الالتزام فى جباية الضرائب يتبع فى مصر كما يتبع فى بلاد الشام وباقى أجزاء الوطن العربى ، وخيم الجهل والظلم الاجتماعى والتأخر على الأمة العربية كمجموع .

ولما جاء الاستعمار البريطانى والفرنسى ، شمل كل الوطن العربى ، وتأثرت به الأمة العربية كوحدة أيضاً ، ورأينا

الاستعمار ينظر إلى الوطن العربى كوحدة لا تتجزأ فحين احتلت فرنسا الجزائر سارعت فيما بعد لاحتلال تونس ومراكش لكى تضمن سيطرتها على الجزائر ، ثم عمدت إلى احتلال سورية ولبنان فى المشرق العربى لتضمن سيطرتها على المغرب العربى .

ولما احتلت بريطانيا عدن عمدت إلى بسط نفوذها على الشاطئ الجنوبى لجزيرة العرب لتضمن مراكزها الاستراتيجية هناك . كما بدأت تتحين الفرصة لاحتلال العراق لتضمن سيطرتها على جنوب الجزيرة العربية .

ولما احتلت بريطانيا مصر ، بدأت تعمل على احتلال فلسطين لضمان سيطرتها على مصر وقناة السويس وعند ما قامت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل بالعدوان الثلاثى على مصر فى سنة ١٩٥٦ ، كان هذا العدوان يستهدف إعادة السيطرة الاستعمارية إلى كل الوطن العربى ، كما كان من أهم دوافعه الرئيسية ، العمل على إيقاف التيار القومى العربى ، ومنع اتحاد سورية ومصر فى جمهورية عربية متحدة .

فتاريخ الوطن العربى وحدة واحدة ، نذكره لنستفيد من عبرته ونكون أقدر على حل مشاكلنا ، وندرك أن هذا التاريخ قد حملنا رسالة خيرة لبناء الإنسانية .

٢ ـ الوطن العربى وحدة ثقافية :

كان لموقع العالم العربى بين الشرق والغرب أثر كبير فى تطوره الثقافى ؛ إذ تأثر بحكم هذا الموقع بالعالم الأسيوى والعالم الأفريقى ، كما تأثر إلى حد بعيد بعالم البحر الأبيض المتوسط ومن أجل ذلك كان للمجتمع العربى خصائص ثقافية معينة تميزه عن الأقاليم المجاورة ، وهذه الوحدة الثقافية دعمتها فى النهاية عناصر الحضارة التى نشأت مع الإسلام وازدهرت فى خلال عصوره ، مما قرب البلدان العربية بعضها مع بعض فى العادات والتقاليد ، وساعد الإسلام على إبراز الوحدة الثقافية فى المجتمع العربى [١].

وقد كانت اللغة العربية وما تزال أعظم العوامل الفعالة فى توحيد العرب ، فالكتاب الذى يؤلف فى لبنان أو المغرب الأقصى أو العراق أو غيرها من الأقطار . يقرأ فى جميع أنحاء الوطن العربى . وأساليب النظم والنثر وفنون الكتابة كانت وما تزال واحدة . وطراز البناء والفنون الجميلة متشاركة فى كل بلد عربى.

---

(١) المجتمع العربى دكتور على حسنى الخربوطلى .

٣ ـ الوطن العربي وحدة دينية :

الوحدة الدينية متوفرة فى الوطن العربى بأقوى مظاهرها ، وأوسع مداها ، حيث يدخل فى نطاقها معظم سكان الوطن العربى « ٩٣ فى المائة منهم » . وقد كانت هذه الوحدة وما تزال من أهم مظاهر حياة سكان هذا الوطن فى مختلف أجزائه منذ قرون عديدة . فى المجتمع العربى أقليات مسيحية ويهودية ، بيد أنها قليلة العدد بالنسبة للسكان المسلمين . وليس هناك أى داع حقيقى لتدابر روحى بين المسيحيين والمسلمين العرب بسبب اختلاف الدين ، فالمسيحية والإسلام نابعان من نبع واحد . والإسلام يعترف بقداسة المسيح ونبوته وإنجيله ، كما أنه ليس هناك أى تباين بين المسيحيين والمسلمين فى المصالح العامة سواء أكان فى مجال السياسة والحكم والتنظيم والتشريع ، أم فى مجال الحقوق والواجبات ، أم فى مجال الاقتصاد والاجتماع أم فى مفهوم وأهداف الفكرة العربية وما يعود على المسيحيين والمسلمين من منافع وعز وسؤدد من تحققها. أما اليهود فأغلبهم فى فلسطين . وقد سمح الأتراك لجماعات منهم بالاستيطان فى تلك البلاد فى أوائل القرن العشرين ، ثم زادت بالتدريج هجرتهم وزاد طمعهم فى فلسطين ، وهم يغتصبون الآن جزءاً كبيراً منها وتوجد كذلك أقليات يهودية فى سائر أقطار الوطن العربى .

٤ ـ الوطن العربى وحدة اجتماعية :

الوطن العربى وحده اجتماعية متماسكة، تشترك في العقلية والروح والتقاليد والعادات . والنظم الاجتماعية المختلفة . ومن الجدير بالذكر أن شيئاً من هذا التشارك يمتد إلى ما كان جارياً من عادات وتقاليد ومواسم قبل الإسلام أيضاً . لأن أسبابه قائمة فيما اجتمع فيه أبناء الوطن العربى من وحدة تاريخية ولغوية وجنسية . وستتضح هذه الوحدة عند دراستنا للأسس الاجتماعية للمجتمع العربى ، ومظاهر الحياة الاجتماعية لهذا المجتمع .

الفصل الثانى

الأسس التاريخية للمجتمع العربى

١ ــ المجتمع العربى قبل الإسلام

كان عرب الجزيرة قبل الإسلام على منزلة عالية من ذكاء الفطرة ، وقوة الفراسة وسداد التفكير وإن لم يكونوا أهل علم ودرس ، كما كانوا أصحاب إباء وشمم ومروءة ومكارم ، يبذلون الأرواح والأموال فى سبيل ما يعتقدون أنه شرف ومروءة ، وقد يغالون فى اندفاعهم فى سبيل الغايات المثالية حتى يقعوا فى إسراف يدفعهم إلى المساوئ ،

فالعرب قبل الإسلام قوة لم توضع فى موضعها ، قوة فى العقل ، وقوة فى الخلق ، بيد أنها ضلت سبيلها ، وانحرفت عن الوجهة المثلى . وبناء على ذلك فتكون « الجاهلية » التى اتصف بها العصر الجاهلى ، بمعنى وضع الأشياء فى غير مواضعها ، وعدم مراعاة ما تقتضيه الحكمة وليس معناه نفى العلم . وعلى هذا الأساس فليس معنى الجاهلية الانحطاط والوحشية كما يظن بعض الكتاب ، كما أن إطلاقها على ذلك العهد صحيح لا غبار عليه .

ولقد صنع العرب قبل الإسلام حضارات فى أجزاء مختلفة من أرضهم ، ولكنها كانت كلها إقليمية غير شاملة للعرب ولا عامة فى جميع بلادهم ، وكانت مقتصرة على ناحية من نواحى الحياة كالصناعة والزراعة والتجارة . فلم تكن ذات فكرة أو رسالة . وكانت متأثرة بغيرهم من الأمم كالروم وفارس (١)

ونحن إذا قلبنا صفحات التاريخ نجد أنه كان للعرب أربعة أو خمسة مراكز يؤلفون فى كل منها بيئة خاصة لها مميزاتها :

١ ــ فى الشام عرب الغساسنة وهم أهل حضارة ومتأثرون فى الكثير من أحوالهم بالبيزنطيين .

٢ ــ فى العراق عرب الحيرة أو المناذرة وهم متأثرون بعض التأثر بالفرس .

٣ ــ فى الجنوب فى اليمن مملكة صغيرة مستقلة كانت لها مدنية قديمة ولكنها تعرضت لهجوم الحبشة وتأثير نفوذ الفرس فضعف شأنها .

٤ ــ وأما الحجاز فكان يتألف من مدن تحضرت فيها بعض القبائل البدوية حتى أصبحت مركزاً تجارياً دينياً

---

(١) الأمة العربية فى معركة تحقيق الذات الأستاذ محمد المبارك .

ويجرى بين هذه المراكز والبيئات العربية مادة سيالة متحركة ، هى القبائل البدوية المنتشرة من أقصى الجزيرة فى جهة الجنوب إلى أقصى الشمال والشمال الشرقى منها .

وكان للحجاز فى البلاد العربية موقع خطير ، ذلك أنه البوتقة التى كانت تنصهر فيها القبائل العربية ، فتنحصر وهى همزة الوصل بين الحياة العربية البدوية والحياة الحضرية ، وهى بذلك تجمع إلى محاسن حياة البدو ، من قوة ونشاط وحركة وتضحية وأخلاق قويمة ، محاسن حياة الحضر من تنظيم وحياة نامية بعض النمو فى الناحيتين الاقتصادية والدينية ، وتتجنب مساوئ البداوة من الفوضى والإمعان فى القتل واستمرار حياة الغزو ، بما وجد فيها من أنظمة دينية تقتضى السلم كنظام الحرم والأشهر الحرام ، وأنظمة اقتصادية وقضائية وإن تكن بسيطة ، وتتجنب مساوئ الحضارة فى الاستسلام إلى الرفاهية والدعة[١] . وتجمع إلى ذلك مزية خاصة بها وهى أنها أقل البلاد العربية تأثراً بالمؤثرات الأجنبية ، بل هى يومئذ أصفى البيئات العربية الحضرية جميعاً .

وخلاصة القول أنه لم تنشئ وحدة عامة تشعر العرب قبل الإسلام شعوراً قويًّا بأنهم أمة واحدة ، ولم يظهر الشعور

---

(١) المرجع السابق .

المشترك العام الذى يشملهم جميعاً ، فكانت مدنياتهم موضعية خاصة ، وفى كثير من الأحيان ولا سيما قبل الإسلام . متأثرة بتأثيرات أجنبية : فارسية أو بيزنطية وبمعنى أوضح لم تظهر بعد رسالتهم الكبرى التى تحتاج قبل كل شىء إلى جسم حى متصل الأجزاء منسجم الأعمال والوجهات ؛ وذلك أمر لم يتم إلا بالإسلام .

٢ ــ أثر الإسلام فى المجتمع العربى

جاء محمد عليه السلام والعرب موزعون من أقصى اليمن إلى بلاد الشام والعراق ، وكانت هذه الكتل العربية فى أمس الحاجة إلى من يجمعها ويقطع عنها التأثيرات الأجنبية التى تحيط بها ، ويفرض عليها نظاماً يوحد بينها من اختلاف فى النظم والتفكير والعادات وقد كان أثر الإسلام وصاحب الدعوة أكثر من ذلك كله ، إذ أنه ما اقتصر على هذا الجمع والتوحيد بل تجاوزهما إلى مرحلة التوسع الحيوى، إلى مرحله جعل فيها من العرب قواداً ومشرعين عالميين[1] .

وباعتناق الإسلام تولد بين العرب شعور بالتضامن سما على المنازعات القبلية والعصبيات العشائرية ، وكان نتاج

---

(١) المرجع السابق

ذلك مولد الأمة العربية التى منحها الدين الجديد هدفاً هو أبعد وأسمى من العرب أنفسهم ، ودلهم على غاية رفيعة من شأنها أن تخلق العالم خلقاً جديداً فانفتحت مواهبهم وانطلقت قواهم المكبوته من عقالها ، ووجدت حيويتهم الحبيسة منذ قرون منفذاً لها فى أداء رسالة رفعت الأمة إلى مقام الخلود ودفعت العالم خطوة كبيرة إلى الأمام[1] .

وإذ كان مطلع القرن السابع يشهد توحيد شعب عظيم فى الجزيرة العربية ، كان يشهد أيضاً الانحلال فى العالم المحيط به ، فى ذلك الوقت ، كانت دولتا الفرس والروم أعظم دول العالم ، وكانتا وما تزالان محافظتين على مظاهر الهيبة عندما جاء العرب يقرعون عليهما الباب . وكانت أراضيهما شاسعة ، وجيوشهما مدربة ، ووواردهما المادية أكثر بكثير مما كان يملكه العرب .

وفوجئ الفرس والروم بأخبار الغزوات العربية الأولى ، إلا أنهم لم يذعروا لها لاستخفافهم بقوة العرب . بيد أنه عندما تكللت هذه الغزوات بالنجاح زادت مخاوفهم غير أنهم اعتقدوا بأن إظهار القوة من جانبهم كفيل بإلقاء الخوف فى قلوب العرب ، ولكن القوة العربية النامية حطمت هاتين الدولتين

---

(١) العالم العربى : نجلاء عز الدين .

ومضت فى طريقها تنشر كلمة الله فى الأرض .

وخلاصة القول أن الإسلام بعث العرب كأمة وكأفراد بعثاً جديداً . إذ وحد الإسلام القبائل فى مجتمع كبير ، وألف بين قلوب العرب ، وقضى على العصبية الجاهلية ، وخضعوا لحكم الرسول الكريم وأوامر القرآن بعد أن كانوا يدينون بالطاعة والولاء لرؤساء متفرقين . وبذلك قامت فى الجزيرة العربية حكومة مركزية مرهوبة الجانب وسما الإسلام بالإنسانية وارتفع بكرامة الفرد والمجتمع ، وقضى على الفردية والفساد الاجتماعى . وقد دعا الإسلام الناس إلى أن يكونوا إخوة متحابين متعاونين على الحياة وساوى بينهم فى الحقوق والواجبات وشرع كثيراً من الشرائع الاجتماعية التى تزيد من قوة المجتمع وتماسكه كالزكاة والحج وصلاة الجمعة والجماعة والإحسان . وأزال الفوارق الاجتماعية بين الناس والشعوب .

« فحيث حل الإسلام تأكدت قيمة الفرد ، ونهض الناس معتزين بكرامة لا تقهر » [١].

قبل الفتوح الإسلامية ، لم يكن العرب هم سكان الجزيرة العربية فحسب ، بل كان هناك أعضاء فى المجتمع العربى يعيشون خارج الجزيرة العربية ، فقد أخذت الموجات العربية

---

(١) Harrison-The Arab at Home P.250

تنساح إلى الأقطار المجاورة كالعراق والشام ومصر وغيرها . ولكن الموجة العربية الجارفة التى جاءت عقب الإسلام ، شملت جميع أرض الوطن العربى الذى انتشرت فيه الموجات العربية السابقة ، بيد أنها تميزت بثلاث مميزات أساسية ؛ جعلتها تختلف اختلافاً نوعياً لا كمياً فقط عن الموجات العربية السابقة ، مما كان له أثر كبير فى حياة الأمة العربية .

أولا : أن الموجة العربية التى جاءت مع الإسلام لم تكن فى خروجها كمعظم الموجات السابقة ، تستبدل أرضاً بأرض ، لضيق العيش ، أو هرباً من خطر معين . . . إلخ . وإنما كانت امتداداً منظماً ، وفيضاً هادفاً ، خرجت تستبدل قيماً ومقاييس بأخرى ، وعادات وتقاليد بأخرى ، ونظماً ومفاهيم بأخرى ، وكانت فيضاً تحركه دوافع روحية عميقة أمدتها بقوة كبيرة لم تتوفر لأى من الموجات السابقة .

ثانياً : أن الموجة العربية التى اندفعت مع الإسلام كانت موجة عامة شاملة للوطن العربى بحدوده الحالية ، ولم تكن موجة جزئية كالموجات السابقة تتركز فى وادى النيل أو على أطراف العراق أو الشام ، ولذلك كان تأثيرها شاملا لكل الوطن العربى ، وانعكس كوحدة فى كل الأرض العربية وفى كل الأقوام التى كانت تسكن الأرض العربية .

ثالثاً : أن الموجة العربية التى جاءت مع الإسلام ، أثرت فى الأقوام التى كانت تسكن الوطن العربى تأثيراً قومياً عميقاً لا تأثيراً سياسياً فحسب فتمثلت اللغة العربية اللغات اليونانية واللاتينية والآرامية التى كانت تتكلمها تلك الأقوام تمثلا تاماً ، واندثرت تلك اللغات المتفرقة لتحل محلها اللغة العربية الواحدة وامتصت الموجة العربية الجديدة بقايا الموجات العربية القديمة ، والتى كانت أقواماً غير متماسكة ذائبة فى الحضارة اليونانية والرومانية فصهرتها فى البوتقة العربية ، وطبعتها بالطابع العربى الأصيل .

وهكذا كان تأثير الموجة العربية التى جاءت مع الإسلام تأثيراً قومياً ، قام على تفاعل عميق مع مختلف مظاهر حياة الأقوام التى كانت تسكن الوطن العربى وغيرها تغييراً جذرياً .

وقد اقتصر تأثير العرب القومى على الأقوام الذين يسكنون الوطن العربى فقط ، أما تأثيرهم على الأقوام خارج الوطن العربى فقد اقتصر على إعطاء تعاليم الإسلام ، ولم يكن تأثيراً قومياً .

فلم يستطع العرب أن يذيبوا فى البوتقة العربية سكان أسبانيا مثلا ، مع أن الحكم العربى دام هناك سبعة قرون . وقد انحسرت الموجة العربية عن الأراضى التى امتدت إليها خارج حدود الوطن العربى ، وانحصرت فى الأرض العربية . والسبب

فى ذلك واضح ، فإن الأقوام التى كانت تسكن فى الأرض الخارجة عن الوطن العربى ، كانت غريبة تماماً عن الطابع العربى والشخصية العربية ، وكان لها طابعاً آخر خاصاً بها ، فكان من الطبيعى أن تقاوم أية محاولة تقوم بها الموجة العربية للتأثير فيها قومياً وإذابتها ، ولذلك فإن هذه الأقوام حاربت الحكم العربى، وانفصلت عنه عندما سنحت لها الفرصة . أما الأقوام التى كانت تسكن الوطن العربى . فلم تكن الموجة العربية غريبة عنها كل الغرابة فى جوهرها ، وقد رأينا كيف كان الوطن العربى مصب الموجات العربية المتلاحقة قبل الفتح العربى بزمن طويل ، مما جعل هذه الأقوام مهيأة لأن تمتص امتصاصاً قومياً كاملا من قبل الموجة العربية الجارفة .

ومما لا شك فيه أن الموجة العربية التى جاءت مع الإسلام ، تمثل نقطة تحول كبيرة فى تاريخ تطور القومية العربية ، ذلك لأن هذه الموجة عملت على مد الشخصية الجماعية للأمة العربية من نطاق جزيرة العرب حتى شملت كل الوطن العربى بحدوده الحالية .

وهكذا حملت هذه الموجة العربية معها فى خروجها معالم قوميتها العربية التى تحددت فى جزيرة العرب وطبعت بها كل الأقوام التى كانت تسكن الوطن العربى ، بحيث أصبحت القومية تشمل سكان المغرب العربى ووادى النيل والعراق وبلاد

الشام إلى جانب سكان جزيرة العرب ، وتبلورت الروابط القومية التى كانت تجمع قبائل الجزيرة العربية ، كما امتدت هذه الروابط القومية العربية بحيث أصبح يتشارك بها كل سكان الوطن العربى ، ويؤلفون بموجبها وحدة اجتماعية متميزة[1] .

* * *

وكانت الميزة الأولى لعصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموى من زاوية تطور القومية العربية، أنهما وفرا — عن طريق وحدة الحكم والتشريع — الجو اللازم ، لكى يأخذ التأثير القومى للموجة العربية الذى ابتدأ بالإسلام مداه الواسع الفعال فى حياة سكان هذه البلاد فى ذلك الوقت .

وعند ما جاء الحكم العباسى ، كانت الشخصية العربية قد نضجت ، وبدأت البذور التى رويت فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين تعطى ثمارها ، فإذا القوى العربية الزاخرة التى حملت رسالة الإسلام قبل بضعة قرون تتفجر مرة أخرى بشكل جديد ، بشكل نتاج حضارى ضخم وصل بالحضارات الأولى التى قامت على ضفاف النيل وما بين النهرين وجنوب جزيرة العرب ، بالحضارات اليونانية والهندية والفارسية بالحضارة العربية فى العصر العباسى ، كما مهد لقيام النهضة الأوربية فيما بعد .

---

(١) « مع القومية العربية » للأستاذين : الحكم دروزه حامد الجبورى .

٣ – فضل العرب على الحضارة الغربية

لم تكد تمضى مئة سنة على خروج العرب من الجزيرة العربية ، أى فى القرن الثامن للميلاد ، حتى أصبح العراق مركزاً لأعظم نشاط فكرى فى ذلك العصر ، إذ أنه بالنظر إلى ما اتصف به المجتمع العربى الجديد من قوة وعزم متقد ؛ تقاطر أهل العلم والمعرفة من مختلف البلدان إلى مدن العراق الحديثة : البصرة والكوفة وبغداد . والنصف الثانى من هذا القرن هو عصر جابر بن حيان المعروف عند الأوربيين فى العصور الوسطى ، وهو من أعظم رجال العلم فى تلك العصور ، وقد دون آراء جد صائبة فى أساليب البحث الكيميائى ، وتأثير جابر واضح فى تاريخ الكيمياء . كما كان للعرب دور كبير فى الأمور الكيميائية النظرية ، والعمليات والتطبيقات والتحليل ، وكانوا فى الكثير منها معبرين عن إبداع عبقرى فقد عرفوا التقطير والترشيح والتصعيد والتذويب والبلورة والتكليس [١] .

---

(١) مراجع هذا البحث : العلوم عند العرب – الدكتور قدرى حافظ طوقان والعالم العربى – نجلاء عز الدين Out lines of History-Wells و « تاريخ الأدب العربى » للكاتب الألمانى بروكلمان .

والنصف الأول من القرن التاسع يعرف بعصر الخوارزمي . وهو من أعظم الرياضيين في كل العصور . وكان أثره في الفكر الرياضي أبعد أثراً من أي كاتب آخر في القرون الوسطى . وأوجد العرب «الصفر» والإحصاء العشري . وهم أول من سمى الجبر « جبراً » . والخوارزمي هو الذي وضع هذا العلم . ولولا العرب لما كان علم المثلثات على ما هو عليه الآن ، ولا يخفى ما لهذا العلم من أثر في الاختراع والاكتشاف وفي تسهيل كثير من البحوث الطبيعية والهندسية والصناعية .

وفي الفلك نهض العرب نهضتهم المعروفة وأحدثوا فيه انقلاباً هائلا ؛ وساعدوا على تقدم الجغرافية وأصلحوا الكثير من أخطاء بطليموس وكشفوا مناطق لم تكن معروفة في بعض القارات ، ووضعوا مؤلفات الجغرافية النفيسة ووضحوها بالخرائط وربطوا الجغرافيا بالفلك وسبقوا بذلك علماء اليوم .

وبين الشخصيات اللامعة التي تزين هذا العصر يبرز الكندي ، الذي ينسب إليه ٢٧٠ مؤلفاً في الرياضيات والفلك والطب والموسيقى والفلسفة والجغرافيا ؛ وقد ترجم جيرار إمام مترجمي العصور الوسطى — عدداً من كتبه إلى اللاتينية .

وقال كاردان — أحد فلاسفة عصر النهضة — إن الكندي أحد العقول الاثني عشر الأشد ذكاء .

ونبغ العرب فى الطب ، وما زال اسم الرازى علماً يرمز إلى تقدم العرب فى هذا المضمار ، ويعد الرازى فى مرتبة كبار الأطباء فى كل العصور لمعرفته الشاملة ودقة ملاحظاته فى الفحص الطبي ، وله موسوعة فى الطب دعاها « الحاوى » وهو كتاب طبع مراراً فى ترجمته اللاتينية وكان له أعظم الأثر فى الطب عند الأوربيين . وتعتبر رسالته فى الجدرى والحصبة أول بحث واضح عن هذين الداءين . وقد ترجمت إلى اللاتينية ثم إلى عدد من اللغات الأخرى بينها الإنجليزية وطبعت نحو ٤٠ مرة بين عامى ١٤٩٨ و ١٨٦٦ .

وما زالت مفكرته السريرية التى دون فيها أحوال مرضاه محفوظة ، وقد طبق أسلوبه الاختبارى هذا على جميع العلوم التى بحث فيها .

ويقول الكاتب البريطانى « ويلز » عن أثر العرب فى الحضارة الأوربية : ظهر فى العالم الإسلامى عدد من الجامعات الكبرى فى مراكز عدة فى البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة وقرطبة . وقد تفرعت هذه الجامعات من مدارس دينية أنشئت فى المساجد أولاً ، وقد أرسلت تلك الجامعات أشعتها الذهبية إلى ما وراء العالم الإسلامى ؛ وقد جذبت أنوارها المتلألئة الطلاب الوافدين إليها من الشرق والغرب ، وكان فى قرطبة على الخصوص عدد لا يستهان به من الطلبة المسيحيين ؛ وكان أثر الفلسفة

العربية الذى فاض من أسبانيا على جامعات باريس وأكسفورد وشمال إيطالية ، وعلى الأفكار فى غرب أوربة . كان هذا الأثر عظيماً حقاً .

وكان اسم ابن رشد فى قرطبة (١١٢٦ – ١١٩٨ م) أعظم من بلغ الذروة فى تأثير الفلسفة العربية على الفكر الأوربى .

وقد انتعشت صناعة نسخ الكتب وازدهرت فى الإسكندرية ودمشق ، والقاهرة ، وبغداد وفى حوالى سنة ٩٧٠ م كان فى قرطبة وحدها سبع وعشرون مدرسة مجانية مفتحة الأبواب لتعليم أبناء الشعب .

وفى الوقت الذى حرمت فيه الكنيسة على الأوربيين احتراف مهنة الطب لاعتقاد رجال الدين أن الشفاء يتم بتعاويذ دينية كانوا يقومون بها فى ذلك العصر المظلم ، كان عند العرب علم حقيقى فى الطب .

وقد فاق العرب العالم فى المصنوعات من حيث التنويع ، وجمال التنسيق ودقة الصنع ، وقد اشتغلوا فى كل المعادن : فى الذهب والفضة والنحاس والبرنز والصلب . ولم يفقهم أحد فى صناعة المنسوجات إلى الآن . وكان الزجاج والخزف اللذان

صنعوهما من أجود الأصناف . وعلموا أسرار الصباغة ، وصنعوا الورق ، وأجروا عمليات كثيرة لدبغ الجلود وكان عملهم ذائع الصيت فى أوربا كلها وصنعوا الروائح والأشربة والسكر من القصب ، وزرعوا أنواعاً بديعة من الكروم ، وفلحوا أرضهم بطريقة علمية وكان نظام الرى عندهم بديعاً ، وعرفوا فضل زراعة الأزهار ، ونوعوا محصولاتهم تبعاً لنوع التربة وبزوا غيرهم فى علم التلقيح فقد عرفوا كيف يحدثون أنواعاً جديدة من الفواكه والأزهار ونقلوا من الشرق إلى الغرب كثيراً من الأشجار والنبات . وصنفوا فى الزراعة كتباً علمية .

والعرب أول من لاحظ أن حوادث التاريخ مقيدة بقوانين طبيعية ثابتة ، وأن باطن التاريخ ليس فى واقع الأمر إلا نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها وعلم فى كيفية حدوث الوقائع وأسبابها .

وابن خلدون العربى ، كان أول من قال بوجوب اتخاذ الاجتماع الإنسانى موضوعاً لعلم مستقل ، وذهب إلى أن الأحوال الاجتماعية تتأتى من علل وأسباب . وقد أدرك هذا العالم العربى الكبير قبل غيره من علماء أوربا بعدة قرون ، أن هذه العلل والأسباب تعود فى الدرجة الأولى إلى طبيعة العمران أو طبيعة الاجتماع . وقد درسها دراسة مستفيضة واعية خرج منها بكشف بعض القوانين المتعلقة بها .

ولم يكن الجهد العلمى سوى ناحية واحدة من حياة الأمة العربية النشيطة ، فالاتصال بالعرب أثر فى حياة أوربا من وجوه عدة ، وتعددت وسائل نقل الثقافة . وكانت الحركة التجارية من أكثر هذه الوسائل استمراراً وأشدها مفعولا . وقد وجد الأوربيون فى الشرق العربى ثقافة أرقى من ثقافتهم . وكانت الحياة هنا أغنى وأكثر إشراقاً من أوربا .

ومن العسير تقدير نصيب الحروب الصليبية فى نقل الثقافة العربية إلى أوربا . فهم دفعوا بالتجارة دفعات قوية إلى الأمام وأنعشوا أوجه النشاط فى مدن إيطاليا التجارية كالبندقية وجنوا وغيرها .

ويظهر أثر الحروب الصليبية فى الحمامات البخارية العامة التى بدأت تنشأ فى أوربا ، وفى تأسيس المستشفيات على غرار تلك التى أنشأها العرب فى بلادهم .

غير أن أكثر وسائل هذا النقل فعالية كانت بوساطة المركزين اللذين أنشأها العرب فى أوربا نفسها : وهما أسبانيا وصقلية .

وهكذا فإن الحضارة الإسلامية العربية التى ظلت مبدعة خلال قرون عديدة ، ساهمت مساهمة أساسية فى الفكر الغربى ، والحياة الأوربية ، وكثرة عدد الكلمات ذات الأصل العربى فى اللغات الأوربية ، كلمات تتعلق بشتى ميادين النشاط

العقلى ، بالفن المعمارى والفنون الأخرى . والزراعة والصناعة والتجارة ، بالحكومة والإدارة وبشئون الحياة اليومية . هذه المصطلحات تدل على الأثر الدائم الذى تركه العرب فى جميع نواحى الحياة . ولكن هل بقى العرب موحدين ذوى حضارة ومدنية ؟

يجيب التاريخ . . لا . .

فقد استعان العباسيون بالفرس لإسقاط الدولة الأموية ، فبدأ المجتمع العربى يدخل فى طور جديد ؛ واعترف الخلفاء العباسيون بفضل الفرس ، وتولى بعض الفرس أرقى مناصب الدولة وخاصة الوزارة ، وانتشرت العادات والتقاليد والثقافة الفارسية فى المجتمع العربى .

غضب العرب لانتصار القومية الفارسية على القومية العربية ، وبدأ صراع جبار بين القوميتين ، ونتج عن هذا الصراع ظهور « الشعوبية » وبذلك انتصر الفرس على العرب سياسياً وإدارياً ولكن العرب انتصروا قومياً واجتماعياً ودينياً ولغوياً فانتصر الإسلام على المجوسية وتغلبت اللغة العربية على اللغة الفارسية .

ولم يكن الشعوبيون مجتمعاً واحداً ، بل كانوا يمثلون مجتمعات صغيرة ذات أجناس مختلفة ، وصبغت شعوبية كل جنس بصبغة وطنية تدعو إلى الاستقلال .

وقد استعان الخليفة العباسي « المعتصم » بالأتراك . بعد أن ضاق ذرعاً بالعرب والفرس . وسرعان – ما زاد عدد الأتراك ، وبدأوا يلعبون دورهم في ميدان الشعوبية أيضاً . وهكذا بدأ المجتمع العربي يدخل في طور جديد . . طور الجمود والتفكك .

٤ ـ المجتمع العربى فى العهد العثمانى

أدى صراع القوميات العربية والفارسية والتركية إلى ضعف الدولة العباسية ، وتفتت المجتمع العربى . وانقسمت الدولة العربية إلى عدة دول : كدولة الأدارسة فى المغرب ، والدولة الفاطمية فى مصر ، وحكم الحمدانيون الموصل وحلب ، ودولة الأغالبة فى ليبيا وتونس . أما العراق فقد حكمها الأتراك باسم الخليفة العباسى ونازعهم السلطان عليها الحمدانيون وهم عرب ثم استولى عليها البويهيون وهم فرس .

ثم جاءت نهاية الدولة العباسية على أيدى المغول ، فقد دخل هولاكو بغداد حاضرة المجتمع العربى ، ودمرها فى العاشر من المحرم سنة ٦٥٦ هـ .

وفى ٢٦ ربيع الأول سنة ٦٥٨ هـ دخل هولاكو دمشق ، وبسط حكمه على شمال الشام كله ، وأراد هولاكو أن يحتل مصر ، فأرسل جيشاً ضخماً يبسط نفوذه عليها ، ولكن الجيش العربى هزمه هزيمة نكراء فى معركة « عين جالوت » فى ٦ سبتمبر سنة ١٢٦٠ وبذلك انحسر التيار المغولى عن الوطن العربى .

وكما تعرض المجتمع العربى لأخطار غزو المغول ، تعرض أيضاً للغزو الاستعمارى الأوربى وقد استعان العرب فى كفاحهم

يومئذ ضد المغول تارة وضد الصليبيين تارة أخرى بطوائف من الأكراد والترك وأخلاط من الأجناس التى أنشأت فيما بعد دولة المماليك ، وترك العرب هذه الأجناس المأجورة والمملوكة تتحكم فيهم فيما بعد ، وقنعوا هم بالعمل فى فلاحة الأرض والصناعة والتجارة . وتركوا شئون الحكم والدفاع لتلك الطوائف التى طرأت على المجتمع العربى منذ العصور الوسطى .

على أن الحضارة العربية الإسلامية بقيت قائمة بحيث استطاعت أن تصهر هذه العناصر الغريبة وتحولها إلى قوة تمثل العروبة والإسلام .

ولم يكد التيار المغولى والخطر الصليبى ينحسران عن الوطن العربى ، حتى دهم العرب خطر جديد أودى بحياتهم الاقتصادية . وحرمهم من أهم مورد كانوا يعتمدون عليه فى تدعيم سلطانهم فقد اكتشف البرتغاليون فى أواخر القرن الخامس عشر طريق رأس الرجاء الصالح وحرموا العرب نصيبهم فى تجارة الهند والشرق الأقصى ، ولم يكتفوا بذلك بل أخذوا يسيطرون على بعض أطراف الوطن العربى ويضعون فيها الحاميات ويحاصرون العرب حصاراً عسكرياً واقتصادياً وفى أوائل القرن السادس عشر قسم الوطن العربى بين دول ثلاث : الدولة الصفوية الإيرانية والدولة العثمانية التركية والدولة المملوكية المصرية .

أما الدولة الصفوية فقد استطاع مؤسسها إسماعيل الصفوى

أن يتجه إلى العراق فيفتحها ويرفع علم الدولة الصفوية على بغداد فى عام ١٥٠٨ .

أما الدولة العثمانية فقد قضت على الدولة المملوكية المصرية فى سنة ١٥١٦ ، ومن ذلك التاريخ انتقل الوطن العربى بكافة بلاده إلى الإمبراطورية العثمانية وانتقلت الخلافة إلى آل عثمان .

وفى سنة ١٥٣٤ احتل السلطان سليمان القانونى بغداد .

وامتد الفتح العثمانى حتى شمل الحجاز واليمن وشمال أفريقية ، وبذلك تم له السيطرة على الوطن العربى كله .

واستمر الحكم العثمانى للعالم العربى أربعة قرون ، منذ أوائل القرن السادس عشر (١٥١٦ م) إلى انهيار الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى حيث اقتسمت دول الحلفاء ممتلكاتها .

وقد استغل العثمانيون الدين الإسلامى ، كوسيلة لتحقيق أهدافهم ، وكانت الخلافة الإسلامية قد انتقلت إلى آل عثمان ، فراحوا يعملون على استقطاب العرب حول شخصية السلطان العثمانى باسم خليفة المسلمين وماله من شخصية روحية معنوية ، كما عمدوا إلى تثبيت ركائز استعمارهم باسم الدين الواحد الذى يجمع غالبية العرب بالعثمانيين .

وساد الظلم الاجتماعى ، وتمثل فى الإقطاع الهائل ، والالتزام

فى جباية الضرائب . إذ منح العثمانيون الإقطاعيات الكبيرة للضباط الذين كانوا يخدمون فى الجيش العثمانى . وللولاة والباشوات الذين يتولون حماية مصالح الإمبراطورية فى الوطن العربى .

وكان من الطبيعى أن ينتشر الفقر ، وتنحط الحياة القومية العربية ، لأن هذه الحياة وحدة متماسكة بأوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ورافق انتشار الإقطاع الكبير والفقر ، نظام الالتزام فى جباية الضرائب ، فكان الوالى أو الحاكم المكلف بالجباية يلتزم بتقديم مبلغ معين للحكومة كضريبة . وكان بدوره يفرض على الشعب ، والفلاحين بصورة خاصة ، الضريبة التى يشاء ، فيعطى ما التزم به للسلطان ويحتفظ لنفسه بالباقى . وكان على الشعب أن يدفع دون أى مناقشة مهما كانت ظروفه . ورافق هذا الظلم الاجتماعى البشع فساد فى الإدارة وفقدان فى الاستقرار ، فقد لجأ العثمانيون لضمان سيطرتهم ، إلى تغيير الولاة والحكام بشكل دائم ومستمر ، ذلك لكى لا يتيحوا لهؤلاء الولاة فرصة تثبيت أقدامهم فى الحكم ويستقلوا عن الباب العالى ، كما عمدوا إلى ترسيخ العادات والتقاليد البالية الجامدة . وفرضوا الحجاب على المرأة ، ورسموا سياسة محكمة لنشر الأمية حتى عم البلاد جهل مطبق . ولم يكتفوا بذلك ، بل بدأوا فى أواخر عهد الإمبراطورية يغزون أسس الوجود القومى العربى ، فقاموا

بحملات واسعة لتتريك العرب بالقوة بمحاولة طمس اللغة العربية ونشر اللغة التركية وإجبار العرب على تعلمها وجعلها اللغة الرسمية فى الوطن العربى . وكبتوا الشعور القومى العربى بقسوة ، وأقاموا المشانق فى الشوارع ، وجندوا الشعب العربى قسراً فى الجيوش التى كانوا يوجهونها لرد الحملات عن الإمبراطورية العثمانية .

ومن الطبيعى أن يرافق كل ذلك الانحطاط الذى امتد إلى مختلف مرافق الحياة العربية ، انحطاط فكرى ، فقد أسدلت هذه القيود التى فرضها العثمانيون على العقل العربى ستاراً كثيفاً من الجمود أفقده حيويته وانطلاقه .

وجاء القرن التاسع عشر ، ورأينا القومية العربية التى حاول العثمانيون محوها بتشويه جوهر الدين الإسلامى ، وتدعيم الظلم الاجتماعى ، وحملات التجهيل والتتريك ، تتململ فى واقعها الفاسد تحاول الانطلاق من حيز الانزواء والجمود إلى حيز التجسيد .

وقام الشعب العربى بمحاولة النهوض لإزاحة الاستعمار العثمانى المتداعى ، وبدأت سلسلة من الحركات الاستقلالية ، كحركات الأمير بشير الشهابى والجزار وضاهر العمر ، ورأينا دولة تحاول أن تنفض عنها جمود الاستعمار العثمانى تقوم فى مصر ، وأخرى فى الجزائر .

وفى نفس الوقت الذى بدأت فيه القومية العربية تصحو وتثور ضد العثمانيين . أخذت قوى استعمارية جديدة تدخل الميدان ، وابتدأت بحملة نابليون على مصر . ومحاولة بريطانيا غزو الشواطئ الجنوبية لجزيرة العرب .

ومضت القوى الثلاث تتصارع ...

الشعب العربى فى جهة .. والاستعمار العثمانى من جهة ثانية . والاستعمار البريطانى الفرنسى من جهة ثالثة ، ولم يستطع الاستعمار العثمانى الصمود فى وجه الاستعمار الغربى ، فبدأ يتراجع تدريجياً ويخلى الميدان للصراع بين الشعب العربى الذى انهك قواه هذا الاستعمار ، وبين الاستعمار الجديد .

وتمكنت فرنسا من احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ . واحتلت بريطانيا عدن وما يجاورها سنة ١٨٣٩ ومصر سنة ١٨٨١ ، والسودان ، وأخذت بريطانيا ترنو ببصرها نحو فلسطين لضمان سيطرتها على مصر ، واحتلال العراق لضمان سيطرتها على جنوب وشرق جزيرة العرب . واحتلت فرنسا تونس سنة ١٨٨٢ ، ومراكش فى سنة ١٩١٢ ، واحتلت إيطاليا ليبيا سنة ١٩١١ . وبعد الحرب العالمية الأولى وانهزام تركيا احتلت بريطانيا فلسطين وشرق الأردن والعراق . واحتلت فرنسا سورية ولبنان . ولم تمض على الحرب العالمية الأولى سنوات معدودة ، إلا وكان الوطن

العربى يرزح تحت عبء الاستعمار عدا الحجاز ونجد واليمن .

وهكذا خرج الاستعمار العثمانى ليحل محله مباشرة الاستعمار الغربى ، فلم تسنح الفرصة للشعب العربى لالتقاط أنفاسه ، وابتدأ الاستعمار الغربى يعمل على دفع الأمة العربية فى طريق الانحطاط من حيث انتهى الاستعمار العثمانى ، بعد أن استفاد من تجارب هذا الأخير وابتكر أساليب جديدة .

وكما استغل العثمانيون الدين الإسلامى لتخدير الشعور القومى العربى ، عمد الاستعمار البريطانى الفرنسى إلى تخدير هذا الشعور بنشر الثقافة الغربية والتربية الغربية ، وكما حاول العثمانيون من قبل تتريك العرب بطمس اللغة العربية ، عمل الاستعمار الفرنسى على فرنسة العرب باحلال اللغة الفرنسية محل العربية ، ومحاولة القضاء على مظاهر العروبة بفرض الطابع الفرنسى ، ويحاول الاستعمار البريطانى مسخ عروبة عدن والبحرين ليصبح العرب فى بلادهم أقلية ، ومن أجل القضاء على القومية العربية هناك .

وأبقى الاستعمار الغربى الأوضاع والأنظمة الاقتصادية على ما كانت عليه من قبل . فاستبدل الفرنسيون فى المغرب والجزائر بصورة خاصة ، الإقطاع العثمانى بالإقطاع الفرنسى كما بقى الإقطاع يسود الأجزاء الأخرى من الوطن العربى .

وحلت الشركات الاستعمارية محل الملتزمين فى جباية الضرائب ، وراحت تستنزف الثروات العربية التى كان يستنزفها الاستعمار العثمانى . ووقفت عقبة كأداء فى وجه كل نهضة صناعية عربية . لكى يظل الوطن العربى مصدر خامات لصناعة الغرب وسوقاً لمنتجاته . وبقيت الأمية هى الطابع العام للمجتمع العربى ، بالرغم من محاولة نشر الثقافة الغربية . كما عمد الاستعمار الغربى إلى ترسيخ العادات والتقاليد البالية ، وطمس القيم العربية الصحيحة وبث روح الانهزامية والتخاذل .

وعمد الاستعمار الغربى ، إلى تجزئة الوطن العربى . ولكن هذه التجزئة الجغرافية التى اصطنعها الاستعمار من أجل مصالحه الذاتية ، لا يمكن أن تثبت أمام الشعور العربى حين يتجه للوحدة بشكل قوى ، وقد عرف الاستعمار هذه الحقيقة ، فعمد إلى تجزئة مظاهر الحياة القومية العربية . فقام بتجزئة اقتصادية حصرت الثروة العربية فى حدود الكيانات القائمة ، ليسهل عليه استغلالها ، وبربط تلك الكيانات باقتصاده . ثم أقدم على أخطر خطوة فى سياسة التجزئة ، وهى التجزئة القومية عن طريق النزعات الإقليمية التى خلقها ، أو التى مهد لوجودها بعمله على كبت الوعى القومى ، كالنزعة الإقليمية الفرعونية فى مصر ، والآشورية فى شمال سورية والعراق ، والنزعة القومية اللبنانية ، والنزعة البربرية فى مراكش .

وبعد أن ضمن الاستعمار الغربى عزل الأجزاء العربية

بعضها عن بعض ، عمد إلى تجزئة هذه الأقطار نفسها ، بالعصبيات الطائفية ، والنعرات المذهبية التى خلقها أو غذاها فى نفوس الشعب عن طريق الإرساليات الدينية التبشيرية والمعاهد الثقافية الأجنبية .

الفصل الثالث

مشكلات الوطن العربى السياسية

١ ـــ فلسطين

لم تكن فلسطين فى عهد العرب دولة منفصلة ، بل كانت جزءاً من وحدة أكبر . وقد كانت كذلك فى عهد الرومان والدول التى سبقتهم ، وعندما انتقلت فلسطين وسائر سورية إلى الحكم العثمانى فى القرن السادس عشر ، ظلت حياة الشعب سائرة على وتيرتها الأولى دون أن تتغير وفقاً للتقاليد الموروثة . فبقيت اللغة العربية والثقافة متماسكتين ، واستمرت وحدة البلاد مع البلدان العربية المحيطة بها ، وعند نشوب الحرب العالمية الأولى لم تكن فلسطين مستعمرة ، بل كانت ولاية تابعة للدولة العثمانية . وفى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ أصدرت الحكومة البريطانية « وعد بلفور » الذى نص على إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين. وكان وعد بلفور بداية مأساة فلسطين . وقيل فى تعليل حرص بريطانيا على تحقيق أطماع الصهيونية فى فلسطين أنها كانت فى حاجة إلى تعضيد الصهيونية العالمية لقضية الحلفاء إبان الحرب العالمية الأولى ، واعتراف الساسة البريطانيين بالجميل للدكتور

« وايزمن » لخدماته العلمية فى تحضير الذخيرة ، والنزعة الدينية عند بعض هؤلاء الساسة ، وما لاقته فكرة عودة اليهود من تحمس عاطفى . ولكن التعليل الصحيح ، هو اتجاه بريطانيا إلى خلق مركز استعمارى لها فى شرقى البحر الأبيض المتوسط ، ذلك أن وجود عدد كبير من السكان اليهود فى فلسطين تحت إشراف بريطانيا وحمايتها يجعلهم يعترفون بالولاء لها وذلك من شأنه تأمين مصالح الاستعمار البريطانى فى المنطقة .

وقد استخلص الانجليز فلسطين من أيدى الدولة العثمانية بمساعدة العرب ، ولم يكونوا أحراراً فى التصرف بالبلاد ، فإلى جانب العهود التى قطعها الإنجليز على أنفسهم بتحقيق استقلال العرب ، برز إلى الوجود نظام الانتداب ، وكانت مصلحة السكان وتحسين أحوالهم الهدف الأول لهذا النظام . وقد وكل إلى بريطانيا الانتداب على فلسطين ، والعهود التى قطعتها بريطانيا لليهود كانت مخالفة لروح الانتداب وغايته ؛ كما أنها انتهكت حرمة ميثاق عصبة الأمم الذى استمد منه الانتداب صفته الشرعية . وفتحت بريطانيا أبواب فلسطين على مصراعيها أمام الهجرة اليهودية ، وسمحت بإنشاء الوكالة اليهودية لتسدى الرأى للحكومة وتتعاون معها فى كل الأمور التى تتعلق (بإقامة الوطن القومى اليهودى ، وبمصالح السكان اليهود فى فلسطين) وقد أدى اعتراف الحكومة البريطانية بالوكالة اليهودية إلى تغلغل نفوذ الصهاينة ، ورقابتهم فى دوائر الحكومة المختلفة ، مما فتح المجال

أمام التدخل الصهيونى فى جميع شئون البلاد . واعتبرت اللغة العبرية . التى لم تكن الجالية اليهودية الصغيرة تتكلمها يومئذ لغة رسمية . ووضعت على قدم المساواة إلى جانب اللغة العربية لغة الأكثرية الساحقة من السكان .

وقد أعلن العرب معارضتهم لمطامع الصهيونية منذ البداية . وفى يوليو سنة ١٩١٩ أصدر المؤتمر السورى الذى عقد فى دمشق وشهده مندوبون عن فلسطين وغيرها من أجزاء سورية القرار التالى بالإجماع (نرفض مطامع الصهيونيين فى إقامة دولة يهودية فى ذلك الجزء من جنوب سورية الذى يعرف بفلسطين ، ونعارض الهجرة اليهودية إلى أى جزء من هذه البلاد . ولا نعترف بحقهم فى ذلك ونعتبر مطامعهم هذه تهديداً خطيراً لحياتنا القومية والسياسية والاقتصادية ؛ أما مواطنونا اليهود ، فسيظلون متمتعين بما نتمتع به من حقوق ، ناهضين بما ننهض به من مسئوليات) .

وكانت لجنة كنج – كرين التى أرسلها الرئيس الأمريكى ولسن فى سورية يومئذ ، وبناء على ما وصلت إليه من تحرياتها – التى تؤيد قرار المؤتمر تأييداً تاماً – أوصت بإجراء (تعديل أساسى فى البرنامج الصهيونى المتطرف الذى يطالب بهجرة اليهود إلى فلسطين دون قيد تمهيداً لجعل فلسطين فى النهاية دولة يهودية صريحة) .

وقد كان الانتداب البريطانى بالنسبة للعرب ، فترة توتر وعدم طمأنينة ، تخللها عدد من الثورات العنيفة ، وكان يعقب كل ثورة ، إرسال لجنة ملكية للتحقيق ، وكانت تحريات هذه اللجان التى بدأت سنة ١٩٢٠ وانتهت بلجنة بيل سنة ١٩٣٦ ، تدل على أن أسباب كل ثورة واحدة لا تتغير وهى « رغبة العرب فى الاستقلال » وامتعاضهم وخوفهم من تأسيس الوطن القومى اليهودى » . وجاء فى تقرير لجنة « بيل » (إن هذين السببين كانا دوماً مرتبطين . فوعد بلفور والانتداب الذى سيتم تحقيق هذا الوعد فى ظلمه ، ينكران مبدأ الاستقلال أصلا ، ثم إن تكوُن الوطن القومى خلق عقبة — بل هو العقبة الكأداء الوحيدة — فى سبيل نيل الاستقلال) .

وفى سنة ١٩٣٦ قامت الثورة فى فلسطين ، وعمدت بريطانيا إلى تخدير الشعور القومى العربى فأرسلت لجنة ملكية للتحقيق وبعد مضى بضعة أشهر من البحث ، قررت اللجنة أن الانتداب لم يعد صالحاً ، ولذا اقترحت تقسيم فلسطين إلى دولتين : إحداهما عربية والأخرى يهودية ، والإبقاء على مقاطعة تظل تحت إدارة الانتداب البريطانى . وكان جواب العرب على هذه المقترحات استئناف الثورة بعزم جديد . وشملت الثورة جميع أنحاء البلاد ، وأطاحت بسلطة الحكومة فى جزء كبير منها ، واستمرت من سنة ١٩٣٧ إلى سنة ١٩٣٩ . وقد كانت هذه

الثورة ثورة الفلاحين على تلك القوى التى جندت لنزع أراضيهم من أيديهم ، ولتجريدهم من تربة أوطانهم ومن تراثهم وتقاليدهم التى خالطت تلك التربة .

وفى سنة ١٩٣٩ عقد مؤتمر فى لندن شهده العرب واليهود . وأصدر المؤتمر كتاباً أبيض يوضح سياسة الحكومة . وهى إنشاء دولة فلسطينية مشتركة خلال عشرة أعوام . ذلك بشرط ثبوت التمازج والتواثق بين العرب واليهود . وأباحت بريطانيا الهجرة اليهودية إلى فلسطين خمس سنوات أخرى ، وعدوا بتنظيم انتقال الأراضى ، مع أن منع الهجرة وانتقال الأراضى كانا مطلبين أساسيين وحيويين للعرب .

وفى سنة ١٩٤٠ ، أرسلت الحكومة البريطانية الكولونيل « نيوكومب » إلى العراق حيث كان يقيم عدد من زعماء فلسطين وفوضته الوصول إلى تفاهم مع العرب على أساس الكتاب الأبيض الصادر سنة ١٩٣٩ . وقد تم الاتفاق ووقع . وأجريت المفاوضات ووقع الاتفاق بعلم مندوبين عن الحكومتين العراقية والسعودية وبموافقتهم ، ولما كانت تلك الأسس التى تمت عليها التسوية حائزة على موافقة عرب فلسطين ، أعلنت الحكومة العراقية استعدادها لدخول الحرب ووضع الجيش العراقى تحت إمرة القائد العام لمنطقة الشرق الأوسط . وآزر العرب بريطانيا فى

أدق الظروف التى مرت بها فى الحرب ولكن بريطانيا لم تتقيد باتفاقية بغداد ، وظلت قضية فلسطين مصدر ثورة وقلق فى نفوس العرب ، أثناء فترة الحرب ، وأدت إلى نفور العرب من بريطانيا وحلفائها .

وفى أثناء الحرب ، نقل الصهاينة مركز نشاطهم السياسى من بريطانيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية لأنها الفريق الأقوى سياسياً واقتصادياً . وأعلن الصهيونيون الأمريكيون عزمهم على إقامة دولة يهودية لأول مرة فى تصريح أصدروه سنة ١٩٤٢ يعرف بقرار « بلتيمور » .

وفى سنة ١٩٤٤ قدم اقتراح إلى الكونجرس الأمريكى بطلب إباحة الهجرة اليهودية إلى فلسطين دون قيد أو شرط ، وإقامة دولة يهودية فيها . وسحب هذا الاقتراح بناء على توصيات وزارة الحربية ووزارة الخارجية ، اللتين خشيتا أن يحدث أثراً سيئاً فى الشرق الأوسط فى الوقت الذى كانت فيه الحرب قائمة ؛ وعند ما أوقفت العمليات الحربية ، صودق على الاقتراح ، بعد تعديل طفيف فى مجلس الشيوخ والنواب . وفى الوقت نفسه كان الصهاينة يقومون بحملة قوية منظمة للتأثير على الرأى العام الأمريكى .

ونتيجة للضغط الصهيونى أخذت الحكومة الأمريكية تضغط

على الحكومة البريطانية للإسراع فى تنفيذ البرنامج الصهيونى . وتألفت لجنة تحقيق أنجلو أمريكية ، وسافرت إلى فلسطين فى سنة ١٩٤٦ ورأت اللجنة أن لا تكون فلسطين دولة عربية أو يهودية . ونصحت بدخول مائة ألف مهاجر يهودى فوراً إلى فلسطين ، وتركت الباب مفتوحاً أمام هجرة واسعة فى المستقبل . ومعنى هذا أنها جعلت قيام الدولة اليهودية أمراً مؤكداً ، وذلك بتيسير تفوق اليهود العددى ، بوساطة سيل الهجرة المتدفق المستمر ..

وفى خريف سنة ١٩٤٦ دعت الحكومة البريطانية الحكومات العربية إلى مؤتمر خاص بفلسطين يعقد فى لندن . وتقدم العرب باقتراحات بشأن تأسيس دولة موحدة مستقلة فى فلسطين ، تسير على النظام الديمقراطى وتراعى فيها حقوق الأقليات . ومع أن المؤتمر امتد حتى شتاء ١٩٤٦ — ١٩٤٧ ، فإنه لم يصل إلى اتفاق ما ، ولهذا قررت الحكومة البريطانية عرض قضية فلسطين على الأمم المتحدة .

وفى أبريل سنة ١٩٤٧ عقدت دورة خاصة للأمم المتحدة ، وقررت إرسال لجنة تحقيق ، وانقسمت الهيئة إلى أكثرية وأقلية واقترحت الأولى تقسيم فلسطين إلى دولتين : عربية ويهودية ، وظهرت أصابع المؤامرة الاستعمارية ضد العرب فى هذا التقسيم ، حيث خص اليهود بمميزات كبيرة من حيث المساحة وإمكانيات

النمو فى المستقبل ، واقترحت الأكثرية أيضاً جعل منطقة القدس دولية . وقيام اتحاد اقتصادى بين الدولتين العربية واليهودية .

أما الأقلية فاقترحت أن يقو م فى فلسطين حكومتان مستقلتان ذاتياً واحدة عربية وأخرى يهودية يجمعهما اتحاد برئاسة واحدة ودستور واحد . ووقفت الولايات المتحدة الأمريكية إلى جانب الصهيونية تشد أزرها ، حتى ضمنت لها موافقة أغلبية أعضاء الأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ على قرار التقسيم . واشتمل القسم اليهودى على منطقة النقب التى تنتهى إلى خليج العقبة فكان ذلك مؤذناً بانقطاع الصلة الأرضية بين شمال إفريقية العربى وبين آسيا العربية مما جاء محققاً للأخطار التى انطوت عليها الأهداف الصهيونية والبريطانية معاً .

وقد رفض العرب إقرار هذا التقسيم . وشعر الصهاينة بالأرض تميد تحت أقدامهم نتيجة لمقاومة العرب الهائلة ، فأسرعت الولايات المتحدة وغيرها تعلن سحبها لتأييد قرار التقسيم وجعل مجلس الأمن يعيد القضية إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة لإعادة النظر فيها . بيد أن الموقف تطور لصالح الصهيونية ، منذ أواخر شهر مارس سنة ١٩٤٨ إذ راحت بريطانيا تمد الصهاينة بالعتاد الحربى . وفى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ أعلن الصهاينة مولد « إسرائيل » وفى نفس الليلة دخلت الجيوش العربية أرض

فلسطين لتخلصها من الصهاينة . . ولكن . . الخيانة والمؤامرات الاستعمارية عملت على أن تتم المأساة فصولها . . ووجدت إسرائيل كرأس جسر للاستعمار فى الوطن العربى .

٢ — الجزائر

كان احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠ أول ثغرة فتحها الاستعمار فى الوطن العربى ، فلم تستطع الدول العربية أن تحرك ساكناً إزاء هذا الحادث الجلل . فالدولة العثمانية صاحبة السيادة الإسمية على الجزائر إذ ذاك ، كانت « الرجل المريض » ، ثم إن تحطيم الأساطيل الثلاثة المصرى والعثمانى والجزائرى فى معركة « نافارين » كان ضربة قاصمة للدولة العثمانية .

أما مصر فكانت تجرب يومئذ مغامرات الحاكم الألبانى محمد على ، وكانت سياستها تقوم على مجاملة فرنسا ، نكاية فى بريطانيا .

أما تونس والمغرب الأقصى . فكان ضعف الدولتين الحسينية والشريفية يكاد يعوقهما عن حفظ الأمن الداخلى فيهما فكيف تمدّ يد العون لقطر آخر كالجزائر . أما الدول الأوربية ، فقد اكتفى بعضها بالاحتجاج وإثارة المصاعب فى وجه فرنسا ،

بطريقة غير جدية ، كبريطانيا ، بينما أبدى أكثرها ابتهاجه بهذا النصر الأوربى فى بلاد الجزائر العربية[١].

وكانت نتيجة هذه الظروف والملابسات ما يلى :

١ — أخذت فرنسا تكيد لتونس ، وتثير فيها القلاقل إلى أن تمكنت من احتلالها سنة ١٨٨١ .

٢ — الاتفاق الذى عقد بين فرنسا وبريطانيا ، وسمح باحتلال تونس ، هو الذى مكن بريطانيا من أن تستبد بشئون مصر وتتآمر على استقلالها ، إلى أن تم لها احتلالها فى سنة ١٨٨١ .

٣ — توغلت فرنسا فى صحراء أفريقية ، وحطمت الممالك الإسلامية المستقلة فيها ، وحاولت احتلال جنوب وادى النيل .

٤ — ضاع القسم الأوربى للدولة العثمانية فى حرب البلقان . ثم انهارت هذه الدولة نهائياً على أثر انتهاء الحرب العالمية الأولى . وسقوط العراق تحت الانتداب البريطانى وسورية ولبنان تحت انتداب فرنسا ووقوع نكبة فلسطين .

ولم يستسلم الشعب الجزائرى لقوات الاستعمار الفرنسى ،

---

(١) المشكلات العالمية المعاصرة : المؤلف .

فقد هب الشعب بقيادة الأمير عبد القادر محى الدين الهاشمى فى سنة ١٨٣٢ بالثورة العارمة ضد الجيش الفرنسى . واستمرت المقاومة تكلف فرنسا الكثير من الرجال والمال .

. . . وأخيراً . . اضطر الأمير عبد القادر إلى إلقاء السلاح . ومع ذلك ظلت المقاومة الشعبية على أشدها . . . واستمرت قوات الشعب صامدة ، فى الوقت الذى ظلت فيه حملات الإبادة مستمرة بين عامى ١٨٤٩ و ١٨٥٣ من قبل فرنسا حتى أبادت فى سنة ١٨٥٢ ثلثمائة قرية ! ! .

وقامت إذ ذاك عدة ثورات شعبية : ثورة فى سنة ١٨٥٧ ، وانتهت بهزيمة الثوار ودفع غرامة قدرها مليونا فرنك . وفى سنة ١٨٥٩ نشبت ثورة سناش وفى سنة ١٨٦٤ هبت ثورة بنى سيف ثم اندلعت بعد ذلك ثورة مارس الكبرى سنة ١٨٧١ وخسر فيها الفرنسيون ٢٠ ألف جندى وقضى الاستعمار الفرنسى على الشعب الجزائرى بالأحكام الآتية :

١ ــ حكم باعدام ٦ آلاف شخص .

٢ ــ غرامة ٣٦ مليون فرنك .

٣ ــ مصادرة نصف مليون هكتار (الهكتار نحو فدانين ونصف فدان) .

وساد إذ ذاك الهدوء الجزائر . . ولكن إلى حين . . !

وقد عمد الاستعمار الفرنسى إلى سرقة الأرض الجزائرية ، وذلك بتكوين طبقة إقطاعية جديدة وترتبط مصالح هذه الطبقة ارتباطاً وثيقاً ببقاء الاستعمار لأنه هو خالقها وكانت هذه الطبقة الإقطاعية تعرف باسم « الكولون » وبدأ اغتصاب الفرنسيين للأرض بقرار ٨ سبتمبر سنة ١٨٣٠ ، فصادر لحساب الدولة الجديدة ملكية الأتراك وملكية الأوقاف . ويبدو مدى خطورة هذا القرار إذا عرفنا أن جزءاً كبيراً من الملكية العقارية كان موقوفاً ، فمصادرته حققت للاستعمار الفرنسى هدفين : أولهما أنه استولى على جانب كبير من الأرض . والثانى أنه حرم الخدمات الدينية والخيرية من مصادرها وأخضعها لسيطرته المباشرة.

وكانت الخطوة الثانية هى إصدار قانون فى أول أكتوبر سنة ١٨٤٤ ويقضى بمصادرة أراضى العرش لصالح الدولة . وتوالت القوانين التى تزيد ملكية الدولة توسعاً ، فصدر قرار يقضى بأن تؤول للدولة كل أرض لا يستطيع صاحبها أن يثبت أنه مالك لها بعقد .

وفى أوائل القرن العشرين ازداد النظام الرأسمالى ضراوة فكثرت رءوس الأموال المستثمرة فى الجزائر ، وبدأت الملكيات الكبيرة إنتاجها الزراعى الآلى . كما بدأت عملية تركيز الملكيات الزراعية

والقضاء تدريجياً على صغار الملاك ومتوسطيهم حتى من الكولون . وتم تحويل الإنتاج الزراعى فى أراضى الكولون إلى إنتاج تجارى فامتدت زراعات قصب السكر ، والقطن ، والزيتون والألفا والتمباك .

وقد حاولت فرنسا فرنسة الجزائر العربية ، وذلك بالقضاء على اللغة العربية وإحلال الفرنسية محلها[1] ، والضغط على الجزائريين بالتهديد والترغيب فى التجنس بالجنسية الفرنسية . ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل .

وتستميت فرنسا وحلفاؤها فى التمسك بالجزائر . . والسر يكمن فى البترول الذى يفيض من أرض الجزائر العربية . ويقول ساسة فرنسا : إنها لو تمكنت من الحصول على بترول الجزائر لاستغنت عن البترول من الخارج ووفرت نقدها النادر لصرفه على مشاريعها الاقتصادية والعمرانية . وبلغ الإنتاج ١٣ مليون طن فى سنة ١٩٦٠ يصل إلى ٢٥ مليون طن فى سنة ١٩٧٠ أى ما يوازى استهلاك فرنسا السنوى . وتستهدف فرنسا من وراء استغلال بترول الجزائر ضمان استقلالها فى ميدان الطاقة الصناعية وبالتالى استقلالها فى العملة الصعبة ، وحاجتها السنوية إلى الطاقة البترولية تبلغ ٢٥ مليون طن ، وإذن فى الإمكان أن تسد

---

(١) الجزائر مشكلة دولية : المؤلف .

حاجتها بنقل بترول الصحراء فى سنة ١٩٧٠ ، وتتضح لنا الأهمية التى تعلقها فرنسا على بترول الجزائر إذا عرفنا أنها تشترى اليوم البترول من الخارج ، وأن ذلك يكلفها ٥٠٠ مليون دولار ومن أجل ذلك تبذل فرنسا جميع الوسائل لكى تضمن امتياز استقلال بترول الجزائر ، فهى أولا تقرر أن الصحراء أرض فرنسية ، وتضاعف وسائل الحرب لتضمن طرق نقل البترول ، وتحل الشركات التابعة للولاية العامة بالجزائر وتلحقها بالحكومة الفرنسية أو بشركات فرنسية خاصة . وهى ثانياً تسرع فى الأعمال الفنية (منح امتيازات جديدة للبحث عن البترول — مد خطوط الأنابيب ، تجهيز الموانى) .

وليست فرنسا هى الوحيدة المهتمة ببترول الجزائر ، فإن دول أوربا الغربية تهتم هى أيضاً ببترول الجزائر لأنها تستمد ثلثى طاقتها الصناعية من بترول الشرق الأوسط . وقد ذاقت الأمرين على أثر العدوان الثلاثى الغادر على مصر فى سنة ١٩٥٦ وامتناع وصول بترول الشرق الأوسط إليها . ومن هنا يقوم سباق بين شركات البترول البريطانية والأمريكية والفرنسية على الاستحواذ على بترول الجزائر . والاندفاع اليوم وراء البترول الجزائرى يعد من أعجب ما شهده التاريخ البترولى فى العالم كله فلم يحدث فى أى مكان آخر أن قامت فرق التنقيب والبحث فى مثل تلك الأماكن النائية أو فى منطقة تجتاحها الثورة العارمة.

وبديهى أن فرنسا تبغى من وراء استدراج الحكومتين

الأمريكية والبريطانية إلى المساهمة معها فى الحرب الوحشية التى تخوضها ضد الشعب الجزائرى . ولهذا فإن فرنسا تعرض على الشركات الأمريكية والبريطانية شروطاً مغرية — لاشتراكها فى استغلال بترول الجزائر .

وفى أول نوفمبر سنة ١٩٥٤ قامت الثورة الجزائرية الكبرى ، وتألفت جبهة التحرير الوطنى الجزائرى ، وجيش التحرير الوطنى على أساس عضوية كل جزائرى يرتبط بمبادئ الجبهة بصرف النظر عن مبادئه السابقة .

ومبادىء الجبهة تتلخص فيما يلى :

١ — استقلال الدولة الجزائرية لتكون ذات سيادة ونظام ديمقراطى اشتراكى فى إطار المبادئ الإسلامية .

٢ — احترام الحريات الأساسية دون تمييز بسبب الدين أو الجنس ه

٣ — تطهير الحركة الوطنية الجزائرية من الفساد واتجاهات المساومات وبرامج الإصلاحات وتجميع الشعب الجزائرى فى معركة ضد الاستعمار .

٤ — تحقيق وحدة شمال أفريقية فى إطارها العربى الطبيعى

٥ — القيام فوراً بالإصلاح الزراعى .

وقد حاولت فرنسا إخماد الثورة ، بشن حرب إبادة على الشعب العربى فى الجزائر . بيد أنها فشلت .

وفى نوفمبر سنة ١٩٥٦ تقرر عقد اجتماع يحضره زعماء

الجزائر وفرنسا وممثلو الحكومتين التونسية والمغربية ولكن زعماء الجزائر الخمسة « بن بلا وزملاءه » دبرت فرنسا اختطافهم بحادث الطائرة المعروف .

وقد كان من نتيجة فشل فرنسا فى إخماد الثورة الجزائرية ، ووقوعها فى الضائقة المالية التى لحقت بها ، وانهيار الاقتصاد الفرنسى بسبب نفقات الحرب ، أن قامت فى الجزائر لجان الأمن العام باشتراك الكولون مع بعض قيادات الجيش فى ١٣ مايو سنة ١٩٥٨ — بالثورة على الحكومة الفرنسية ، وأسفرت هذه الحركة عن تولى الجنرال ديجول ، وسقطت الجمهورية الرابعة وصدر دستور الجمهورية الخامسة .

ولم يقبل الشعب الجزائرى أية مساومة فى حقه فى الحرية والحياة الكريمة ، وأصر على أن كل مفاوضات مع فرنسا يجب أن يسبقها اعتراف فرنسى باستقلال الجزائر وكيانها المستقل عن فرنسا ، وأن تتم المفاوضات فى بلد محايد .

وفى ١٩ سبتمبر سنة ١٩٥٨ تألفت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية .

ومستقبل الجزائر الآن فى يد الجيش الوطنى الجزائرى ، فبقوة نضاله . . يرسم طريق النصر . . وتقوم الجمهورية الجزائرية المستقلة كجزأ لا يتجزأ من الوطن العربى .

٣ – جنوب الجزيرة العربية

احتلت بريطانيا عدن سنة ١٨٣٠ ثم أخذت تغرى سلاطين المناطق المجاورة لعدن بالمال والهدايا ، ثم تسلبهم توقيعاتهم أو بصماتهم على « سندات التكريم والترحيب » وهى فى الحقيقة تعهدات ومبيعات لملكية هؤلاء الشيوخ والسلاطين لكل ما يملكون لحكومة الملكة فكتوريا . وفى سنة ١٨٣٢ تقدمت القوات التركية فى جنوب اليمن حتى حدود لحج شمال عدن ، بسبب استغاثة بعض السلاطين بالسلطات التركية . وبدأت بريطانيا ترسل قوات من الهند ، لتهديد السلاطين الثائرين والأتراك المجاورين للمحميات . واستمر هذا النضال السياسى حتى سنة ١٨٧٨ عند ما تم للسلطات البريطانية شراء الأراضى المشرفة على خليج عدن ، والمعروفة باسم « أراضى الشيخ عثمان» وذلك لتأمين منطقة عدن ضد أى هجوم قد يقوم به الأتراك أو الشيوخ الأحرار . وفى سنة ١٨٨٢ تم توقيع عقد بيع هذه المناطق ومساحتها ٣٥ ميلاً مربعاً إلى بريطانيا ، وفى نفس السنة احتلت بريطانيا مصر . وبدأت تضع خطتها للتوسع الأفريقى فأعدت مشروع حملة السودان ، ودفعت بأبناء مصر وقوداً لهذه الحرب . وكانت الخطة تستهدف إقامة إمبراطورية بريطانية

جديدة على حساب وادى النيل وجنوب الجزيرة العربية ، بجعل البحر الأحمر بحيرة بريطانية تتحكم فيه بريطانيا بالقواعد التى تقيمها على مداخله ، سواء فى عدن أو فى السويس أو فى السودان . وهكذا بدأ الأخطبوط البريطانى يبسط نفوذه على هذه المنطقة العربية ، بينما ترك المغرب العربى لفرنسا .

وعقب انتهاء الحرب العالمية الأولى ، طالبت بريطانيا من اليمن تسليم الأتراك فى أراضيها ، ولكن الإمام رفض هذا الطلب طبقاً لتقاليد العروبة ، على الرغم مما فعله الأتراك ضد مصالح اليمن والعرب جميعاً . وانتهى الخلاف بدخول القوات البريطانية كل المناطق المحيطة بعدن ، وهى المناطق التى عرفت باسم « المحميات » . والتى كانت بريطانيا قد تسللت إلى بعضها بطريق الغش والخداع . ونتيجة حتمية لاستسلام الأتراك لبريطانيا ، ودخول القوات البريطانية المناطق اليمنية أعلن الإمام يحيى مطالبته بحقوقه فى هذه المناطق ، وعدم تقيده بنتائج تصرفات الأتراك بتنازلهم عن هذه المناطق لبريطانيا ، إذ ليس من حقهم التنازل عن شىء لا يملكونه . ولكن بريطانيا لم تعبأ بهذا الإعلان ، بل نزلت فى ميناء « الحديدة » اليمنية .

وفى سنة ١٩١٩ دارت مباحثات مباشرة بين اليمن وبريطانيا حول هذا الموضوع . بيد أن هذه المباحثات لم تسفر عن نتيجة إيجابية . كما لم تسفر المفاوضات التى دارت بعد ذلك عن أية نتائج محددة إلى أن عقدت معاهدة الصداقة والتعاون بين اليمن

وبريطانيا فى ١١ فبراير سنة ١٩٣٤ وقد نص فيها على تأجيل البت فى مسألة الحدود إلى موعد يحدد فيما بعد ! !

ولما قامت الحرب العالمية الثانية ، زاد اهتمام بريطانيا لاسترضاء اليمن ، خوفاً من استمالة إيطاليا ، ولا سيما بعد إنشاء قاعدة بحرية لها فى مصوع وعصب . ولما نجح البريطانيون فى شرق أفريقية ضد إيطاليا فى سنتى ١٩٤٠ و ١٩٤١ زال قلق بريطانيا حول مستقبل البحر الأحمر ، ووعدوا الإمام يحيى بتصفية كل المشاكل المعلقة حينما تضع الحرب أوزارها ، وفعلاً تظاهرت بريطانيا بمؤازرة اليمن لقبولها عضواً فى الأمم المتحدة ، بيد أنها اكتفت بذلك ، فلم تحاول حل مشكلة الحدود والمحميات حتى سنة ١٩٥٠ عند ما عقد مؤتمر لندن لتصفية المشاكل المعلقة بين اليمن وبريطانيا ، فقد أغفل ذكر منطقتى نجد مرقد وشجرة . وأعقب مؤتمر لندن ، توقيع معاهدة جديدة بين اليمن وبريطانيا فى سنة ١٩٥١ وتنص على تأليف لجنة لبحث المشكلات ، على أن تبقى الحالة كما هى عليه طبقاً لمعاهدة سنة ١٩٣٤ !

وفى ٨ يناير سنة ١٩٥٤ أرادت بريطانيا إقامة اتحاد فيدرالى بين المحميات ، ولكن الشعب رفض إقامة هذا الاتحاد الزائف . وفى سنة ١٩٥٨ فرضت بريطانيا اتحادها الزائف على بعض إمارات الجنوب العربى .

ولكن . . ما هي أهداف بريطانيا فى الجنوب العربى ؟

تهتم بريطانيا اهتماماً كبيراً بالجنوب العربى [١]، لأسباب عدة ، أهمها أن أعمال التنقيب والبحث الجيولوجى فى هذه المنطقة قد دلت على وجود آبار من البترول ، تجعله فى الرعيل الأول من البلاد التى تنتج البترول فى العالم . ويكاد البترول يطفو على سطح الأرض فى منطقة شبوه ، وهناك أيضاً خمسة حقول غنية بالبترول فى مناطق ثمود ، وحيروت ، وزمخ ، وبالساحل فى منطقة حجر .

وتقوم بالبحث فى هذه المناطق شركة البترول والتنقيب المحدودة وهى شركة أمريكية — بريطانية . وقد أدركت بريطانيا أهمية هذا العامل الجديد ، فأقامت معملاً لتكرير البترول فى عدن . ويقوم بتكرير فائض البترول الإيرانى وبترول المملكة العربية السعودية والكويت وقطر والبحرين . وعند ما تتم أعمال التنقيب فى الجنوب العربى سيقتصر عمله على تكرير بتروله فقط .

أما السبب الثانى الذى يدفع بريطانيا إلى الاهتمام بالمنطقة فهو تطور أهميتها الاستراتيجية بالنسبة إلى الاستراتيجية البريطانية

---

(١) « جنوب الجزيرة العربية » : محمود الشرقاوى .

أولا والاستراتيجية الغربية ثانياً . فعدن وإمارات الجنوب العربي ، هي القاعدة الأمامية للدفاع عن الإمبراطورية البريطانية في أفريقية .

أما بالنسبة للاستراتيجية الغربية ، فإن عدن وإمارات الجنوب العربي تبدو أهميتها في أنه إذا حدث هجوم من الشمال فسيكون الخليج العربي أحد أهدافه ومنه يمكن النزول إلى شواطىء شبه الجزيرة العربية وعزلها والالتفاف حولها وجعلها قاعدة للهجوم على أفريقية .

والسبب الثالث الذى يدفع بريطانيا إلى الاهتمام بالمنطقة هو الرغبة في احتكار السيطرة على الأسواق ، لتعوض ما قد تتعرض له التجارة البريطانية من خسارة نتيجة حتمية لمنافسة اليابان والهند .

أما السبب الرابع والأخير فهو وجود المعادن كالعقيق في منطقة صنعاء والميكا في مأرب والملح الحجرى في الصليف والفحم في آب والحديد في الصعدا واستغلال هذه المنطقة في زراعة الحبوب كالقمح والذرة والقطن .

الحركات التحررية :

لم يكن جنوب الجزيرة العربية مسرحاً للحركات السياسية

قبل سنة ١٩٥٠ ، إذ كان الاستعمار البريطانى يلقى ستاراً كثيفاً على الشعب هناك ، ليحجب عنه التطورات التى تجرى فى العالم ، ومن أجل هذا الهدف عمد الاستعمار إلى ترك أبناء الجنوب فى جهل مطبق . ولكن هذه السياسة لم يقدر لها النجاح ، إذ نزح فريق من أبناء الجنوب إلى أندونيسيا وإلى الاقليم الجنوبى من الجمهورية العربية المتحدة لكى يتعلموا فى مدارسها وجامعاتها ثم عادوا إلى بلادهم يحملون الشعلة المقدسة . . شعلة العلم والحرية .

ومن هذا التاريخ (١٩٥٠) قامت حركات سياسية ، وإن كانت لم تعمر طويلاً ، كحركة نادى الشعب فى سلطنة لحج ، وكانت أهدافه النهوض بالزراعة . والحزب الوطنى فى السلطنة القعيطية ، ولجنة العمل لوحدة حضرموت فى السلطنة الكثيرية . وقبل هذا التاريخ (١٩٥٠) بدأ نوع من النشاط الاجتماعى فى عدن ممثلاً فى نادى الأدب العربى الذى يرأسه السيد عبد الله علوى الجفرى . ونادى الإصلاح . ولكن هذا النشاط خمد فى أثناء الحرب العالمية الثانية .

وفى سنة ١٩٤٩ — ألف الشيخ محمد عبد الله المحامى — الجمعية الإسلامية فى عدن ، وانضم اليها عدد كبير من المواطنين هناك ، وكان برنامجها إسلامياً اجتماعياً ثقافياً ، ولاتزال الجمعية قائمة حتى اليوم ، وإن كانت قد فقدت أهميتها عقب وفاة الشيخ عبد الله فى سنة ١٩٥٤ .

وفى سنة ١٩٥٠ تأسست « الجمعية العدنية » وكان لا يزال القائمون عليها محمد على لقمان وأولاده وهم فى الأصل « بهرة » ولفيف من المتصلين بهم . وكانت نشأة هذه الجمعية معارضة لقيام الجمعية الإسلامية . لعدم الانسجام بين القائمين بالجمعيتين ولأن القائمين بالجمعية الأخيرة لا يؤمنون بالمبدأ الإسلامى العام . ويريدونها جمعية محلية . ولأن الشيخ محمد عبد الله المحامى كان مكروهاً من حكومة عدن البريطانية لنزعته التحررية .

ونحن نلاحظ على هذه الحركات ، أن حركة نادى الشعب فى لحج حركة جزئية محلية ، وأن لجنة العمل لوحدة حضرموت قد قصرت اهتمامها على وحدة حضرموت ، وأن الجمعية الإسلامية ذات أهداف اجتماعية إسلامية كبيرة ، ولكنها بحكم تكوينها وتعدد مشاعر أعضائها وأنصارها فى عدن واتجاهها الإسلامى العام لا يمكن أن تحمل الفكرة الوطنية لتحرير الجنوب العربى من الاستعمار البريطانى .

وأخيراً فإن الجمعية العدنية قامت نتيجة لقيام الجمعية الإسلامية تؤازرها الشعوبية والاستعمار . وأن الجمعية تدعو إلى العدنية الضيقة أى إلى فكرة مواليد عدن : بمعنى أن كل مولود فى عدن مهما كان جنسه فهو عدنى ،، فيدخل فى ذلك الأوربى والهندوكى والفارسى واليهودى . وأن كل مقيم فى عدن من أبناء العروبة وحتى من أبناء اليمن وما يسميه البريطانيون

« المحميات » أجانب لا يحق لهم التمتع بالحقوق التى يتمتع بها مواليد عدن . والجمعية العدنية تؤمن بأبناء الكومنولث البريطانى ، فإذا أقاموا فى عدن فيكون لهم كافة الحقوق التى لأبناء عدن مهما كانت أجناسهم وبلادهم ، ولذلك فقد نصت هذه الجمعية فى دستورها على المطالبة بالحكم الذاتى ضمن رابطة الشعوب البريطانية « الكومنولث البريطانى » .

وفى سنة ١٩٥٠ تأسست رابطة أبناء الجنوب العربى برياسة محمد على الجفرى وأمينها العام شيخان عبد الله الحبشى ومن أهدافها :

أولا : وحدة شعب الجنوب العربى الكبير — تحت حكومة واحدة مستقلة تقوم بدورها الفعال فى بناء الكيان العربى الواحد .

ثانياً : الأمة العربية لها قومية واحدة فقط هى القومية العربية . وأن أى طريق يسلكه أى شعب عربى وأى كفاح يكافحه أى جزء من الأرض العربية يجب أن يتوخى مبادئ القومية العربية وأن يكون هذا الطريق أو ذاك الكفاح على أسس عربية .

ثالثاً : معاهدات الحماية والاستشارة التى عقدتها بريطانيا مع السلاطين باطلة .

وأن الرابطة بحركتها الوطنية فى جنوب الجزيرة العربية قد استكملت حلقات الكفاح العربى الذى كان يفتقده هذا الجزء من وطن العروبة فى كافة مجالات الكفاح من أجل تحرير الوطن العربى الكبير .

وفى ١٩ إبريل سنة ١٩٥٨ . . اندلعت الثورة فى الجنوب العربى ، ضد الاستعمار البريطانى ، ولجأت بريطانيا إلى سياسة التخدير . . تخدير الشعب . . فأعلنت أنها ستمنح عدن حكماً ذاتياً . . ورفض الشعب هذا المشروع .

ثم أعلنت مشروع الاتحاد الفدرالى بين إمارات الجنوب العربى . . ورفض الشعب أن يصبح عبداً للاستعمار .

فلم تجد بريطانيا . . وسيلة أخرى . . تخدر بها العملاق الكبير . . فعمدت إلى الحديد والنار . . وقابل الشعب هذه السياسة الرعناء بالثورة العارمة .

ومن أجل مسخ عروبة عدن والجنوب العربى وضعت بريطانيا عدة مشاريع هى :

١ — قانون الهجرة .

٢ — مشروع التعدين .

٣ ـ قانون الصحافة .

٤ ـ قانون منع التبرعات .

وسنتكلم فيما يلي عن هذه المشاريع الاستعمارية التي تستهدف القضاء على القومية العربية في الجنوب العربي .

١ ـ قانون الهجرة :

يستهدف هذا القانون جلب جموع من أبناء الكومنولث البريطاني ومنحهم الجنسية العدنية ، وذلك لإذابة عروبة الشعب العربي في عدن ، كما حدث في فلسطين . إذ جاءت شرازم الصهيونية من كل حدب وصوب إلى فلسطين[1] تمهيداً لقيام إسرائيل . ولكي يكون العرب غرباء في ديارهم . وتعمد السلطات الاستعمارية في عدن إلى تشغيل أبناء الكومنولث البريطاني ، حتى يكونوا دعامة للاستعمار يرتكز عليهم للبقاء في عدن .

٢ ـ مشروع التعدين :

وضعت السلطات البريطانية عند تقديمها هذا المشروع أسساً ومبادىء ما يسيره الوجهة المرسومة له مقدماً ، والتي لا

---

(١) المرجع السابق .

تختلف عن أهداف قانون الهجرة .

فالمواطن العدنى فى هذا المشروع هو :

١ — إذا كان قد قضى عشر سنوات فى خدمة الحكومة .

٢ — الرعوى البريطانى المولود فى عدن .

٣ — أو الرعوى البريطانى المولود خارج عدن والذى ولد أبوه فى عدن .

٤ — فى حالة ضباط الخدمة الآخرين وجميع الأشخاص الصالحين للتوظف .

(ا) الرعوى البريطانى المولود فى عدن والذى ولد أبوه أيضاً فى عدن .

(ب) الرعوى البريطانى المولود خارج عدن والمولود أبوه فى عدن والذى عاش بنفسه فى عدن خمس سنوات خلال السنوات العشر السابقة . ومن هذا المشروع يتضح أن تعريف المواطن أساسه الرعوية البريطانية لا عروبة الشخص . وقد ثار الشعب فى عدن على هذا المشروع . ووضعت الهيئات الوطنية مشروعاً مضاداً لمشروع السلطات الاستعمارية يعرف المواطن العربى بأنه :

١ — كل شخص عربى ولد فى عدن .

٢ — جميع أبناء الجنوب القاطنون فى عدن .

٣ — كل شخص من أصل غير عربى ولد فى عدن وانقطعت صلته بوطنه الأصلى .

ولكن السلطات البريطانية لم تصغ السمع لهذه الاعتراضات وصممت على المضى فى تنفيذ مشروعها الاستعمارى .

٣ — قانون الصحافة :

يستهدف قانون المطبوعات خنق حرية إبداء الرأى ، أو النقد النزيه . ومنح ضباط البوليس سلطة مصادرة أى جريدة ومصادرة المطبعة أيضاً . وبهذا القانون الجائر كممت الأفواه ، وأغلقت دور الصحف الوطنية .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا القانون التعسفى صدر فى الوقت الذى كانت فيه المفاوضات دائرة بين وزارة المستعمرات البريطانية وبعض السلاطين والمشايخ من أجل تنفيذ مشروع الاتحاد الفدرالى بين إمارات الجنوب العربى . وفى ظل هذا القانون الجائر عطلت صحف العروبة : النهضة ، الفصول ، الجنوب العربى التى نفت السلطات البريطانية رئيس تحريرها أحمد عمر بافقيه .

٤ — قانون منع جمع التبرعات :

ويستهدف هذا القانون قطع الصلات السياسية والقومية بين شعب الجنوب العربى وبين إخوانهم العرب فى الوطن العربى والسبب فى إصدار هذا القانون أنه فى سنة ١٩٥٦ جمعت تبرعات لبورسعيد ، وفى سنة ١٩٥٧ جمعت تبرعات للجزائر . وصدر هذا القانون سنة ١٩٥٨ ليعزل الجنوب عن كل ما هو عربى .

٤ ـ عُمان

تقع عمان فى الجنوب الشرقى من شبه جزيرة العرب . وتمتد من حدود قطر فى الشمال ، حتى حدود حضرموت فى الجنوب ، ويحدها من الشمال المملكة العربية السعودية ومن الشرق خليج عمان . ومن الجنوب البحر العربى ومن الغرب حضرموت والربع الخالى .

وعمان ذات أهمية جغرافية خاصة من حيث اعتبارها الركن الرئيسى الذى تأتى على حدوده مصالح بريطانيا ومطامعها الاستعمارية فى كل من حضرموت وجنوب الجزيرة وفى مسقط وباقى الإمارات فى شرق الجزيرة . وعمان فضلاً عن ذلك ذات موقع بحرى ممتاز يمكنها من الاتصال المباشر السريع مع الهند وإيران وجنوب الجزيرة وشرقها وجنوب أفريقية وشرقها واندونيسيا وكل الشرق الأقصى [١] .

وتتألف أرض عمان من مناطق ثلاث :

١ ـ الجبل الأخضر .

٢ ـ عمان الوسطى .

٣ ـ الشرقية .

---

(١) الشرق الأوسط فى الميزان الاستراتيجى : العميد ا. ح. كمال عبد الحميد .

وتعتبر عمان من أغنى البلاد العربية ثروة ، وأكثرها خصباً ، فبعض سهولها و وديانها لا تقل خصوبة عن سهول الإقليم الشمالى من الجمهورية العربية المتحدة . ولا يعرف العالم العربى — مع الأسف — عن أهمية اقتصاديات عمان شيئاً يذكر . وتوجد المعادن التالية فى عمان : الذهب بالجبل الأخضر ، الفحم الحجرى فى مسقط ومنطقة رأس الخيمة وجعلان وغيرها والنحاس والرصاص والكبريت والقصدير والحديد والبترول و يوجد فى الطريف التابعة لمشيخة أبى ظبى وأكسيد الحديد الأحمر فى الجزر التابعة لمشيخة الشارقة على الساحل المهادن حيث تحتكر استثماره شركة بريطانية هى شركة ألوان الوادى الذهبى . والسماد الطبيعى واللؤلؤ والأصداف . ويوجد فى جزائر كوريا موريا . والصناعة فى عمان صناعة يدوية بدائية بسيطة ، ومعنى هذا أن المصانع الحديثة لم تعرف فى إمامة عمان بعد .

وتعتبر إمارة عمان مستقلة استقلالاً كاملاً فلها علم خاص وأنظمة خاصة وتطبق الشريعة الإسلامية فى أحكامها . وينتخب حكامها بالمبايعة . فعمان دولة ديمقراطية جمهورية أساس الحكم فيها يقوم على الشورى .

ظلت إمارة عمان مستقلة منذ نحو ١٢٠٠ سنة ، وكانت هى أكبر قوة فى الجزيرة العربية وبسطت نفوذها على مسقط ،

وعلى كل الساحل العربى تقريباً حتى بعد خضوع مسقط لبريطانيا . واعترفت بريطانيا باستقلال عمان فى معاهدة السيب سنة ١٩٢٠ .

وقد اعترف المؤرخون الغربيون باستقلال عمان . ولم يجد البريطانيون أنفسهم بداً من التسليم بهذه الحقائق :

جاء فى كتاب المعهد الملكى البريطانى عن الشرق الأوسط فى نهاية الفصل الذى عقده لمسقط وعمان (. . . والحق أنه منذ نهاية القرن التاسع عشر لم يتجاوز نفوذ سلاطين مسقط المناطق الساحلية وظفار إلى قبائل داخلية عمان . وفى سنة ١٩١٣ ثارت هذه القبائل وانتخبت لها إماماً كان خلفه فى سنة ١٩٢٠ الإمام محمد بن عبد الله الخايلى ، وهو فى الواقع صاحب السلطان على القبائل التى تقيم فى منطقة تمتد نحو مائتى ميل إلى الشمال الغربى والجنوب الشرقى من مقر إمامته نزوى الواقعة إلى الجنوب من الجبل الأخضر . فهذه القبائل البدوية الداخلية تدين له بالولاء) .

وقد بدأت بريطانيا عدوانها الأخير منذ سنة ١٩٥٤ وهو نفس الوقت الذى وجهت فيه نشاطها فى كل هذه المنطقة شرقها وغربها أى فى البوريمى وفى عدن وحضرموت . وافتعلت بريطانيا الأسباب للضغط على إمام عمان ، وبررت به عدوانها على الشعب العربى فى عمان . وقد أوعزت بريطانيا لسلطان

مسقط باحتلال نزوى عاصمة عمان ، وكان رد بريطانيا على اتهامها بهذه السياسة العدوانية بأن مسقط هى التى اتخذت هذا الإجراء وليس بريطانيا فلا موجب لاتهامها فى هذا الشأن .

وتتمسك بريطانيا بهذه المنطقة العربية من أجل البترول الذى يفيض من أرضها . وتحت عنوان « حرب الذهب الأسود » كتبت صحيفة « كومبا » الفرنسية مقالاً فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٤ جاء فيه « إن الثروة البترولية فى صحارى هذه المنطقة هى سبب الأحداث الأخيرة .

وكانت بريطانيا قبل الحرب العالمية الثانية تملك امتياز البترول فى المنطقة كلها تقريباً ، ولكنها فقدت هذه المكانة بعد الحرب واضطرت إلى التنقيب عن أرض جديدة وكانت هذه الأرض . . هى عمان .

٥ — البوريمى

تقع واحة البوريمى شمالى شرق الجزيرة العربية على الخليج العربى . وتتألف البوريمى من تسع قرى أهمها البوريمى وحماسا وصعرا . وهى ملتقى كثير من طرق المواصلات فى شرق جزيرة العرب . وهى ذات موضع استراتيجى هام .

وما كاد الملك عبد العزيز آل سعود يمنح شركة الزيت الأمريكية امتياز استغلال البترول السعودى فى سنة ١٩٣٣ ؛ حتى بدأت فى هذه المنطقة الادعاءات البريطانية باسم مسقط والمشيخات . والحقيقة أن النزاع السعودى البريطانى وإن كان معروفاً بمشكلة البوريمى إلا أنه يشمل منطقة أكبر منها تبلغ مساحتها ٧٣ ألف ميل مربع .

وفى فبراير سنة ١٩٣٨ ذهب الأمير فيصل آل سعود إلى لندن وقدم للحكومة البريطانية مذكرة هامة ، لأنها تبنى حق الدولة على أسس وراثة هذه المناطق تاريخياً . ولكن رحلة الأمير فيصل لم تؤد إلى نتائج إيجابية . ولم يمض وقت طويل حتى قامت الحرب العالمية الثانية فطوى الطرفان هذه المشكلة مؤقتاً .

ووقعت معاهدة صداقة مع بريطانيا والسعودية فى إبريل سنة ١٩٤٢ بشأن إمارة الكويت ، ورفعت بمقتضاها السعودية الحصار الاقتصادى الذى ضربته على الإمارة منذ سنة ١٩١٩ ، وحددت القبائل التابعة لها .

وفى سنة ١٩٤٩ عادت مشكلة الحدود إلى الظهور عند ما بدأت الشركات البريطانية التنقيب عن البترول بادعاء أن البوريمى فى حدود ما يدعى بالمحميات التى تفرض بريطانيا عليها سيطرتها[1] .

---

(١) « مشكلات عربية » : المؤلف .

وفى ٥ يناير سنة ١٩٥٣ قدمت الحكومة البريطانية اقتراحاً لحل المشكلة ، ويتضمن إجراء تحكيم دولى بين الطرفين ، وبالرغم من وجود إجحاف فى مثل هذا الاقتراح قبلته الحكومة السعودية ، حفظاً للسلام والأمن بشبه الجزيرة العربية . وفى ٢٢ يناير بدأت اللجنة عملها وعند ما أصبح من المؤكد أن تصدر لجنة التحكيم قرارها فى صالح السعودية ، أوعزت الحكومة البريطانية إلى مندوبها فى اللجنة بالانسحاب تفادياً من صدور الحكم عليها ، مما أدى إلى شل أعمال اللجنة . وجاء فى مذكرة رسمية لوزارة الخارجية السعودية : (إن المملكة العربية السعودية تعتبر منطقة البوريمى جزءاً لا يتجزأ منها ، واقليماً من أقاليمها . يدين سكانه بالولاء لصاحب الجلالة الملك سعود المعظم . ولآبائه وأجداده من قبل ، وكما تثبت ذلك الوثائق التاريخية والصلات الجغرافية والعنصرية واللغوية والدينية) .

وإن النزاع على منطقة البوريمى ليس إلا لوناً من ألوان الصراع المحتدم فى الشرق الأوسط حول البترول ، ومناطق إنتاجه . فقد دلت أعمال البحث والتنقيب على وفرة البترول فى البوريمى ، هذا فضلاً عن أهميتها الاستراتيجية التى بدأت تسترعى أنظار بريطانيا أكثر من ذى قبل ، وذلك لأنها — أى بريطانيا — تعمد إلى تقوية نفوذها ودعمه فى إمارات الجنوب ومشيخات الخليج العربى . لأن البترول هو الدعامة الأولى

للاقتصاد البريطانى ومن المعروف أن قواعدها العسكرية فى هذه المناطق . هى مراكز حراسة هذا البترول . ولأن هذه المنطقة تعتبر خط الدفاع الأمامى لأفريقيا الشرقية . ومن أجل هذا تعمل بريطانيا جاهدة لإقامة اتحاد فيدرالى بين إمارات الجنوب العربى من ناحية وتقوية سلطنة مسقط من ناحية أخرى لكى تتمكن من السيطرة على الجنوب والخليج العربى واستغلال بتروله وثرواته .

٦ ـ أفنى

تمتد منطقة أفنى على طول ساحل أفريقيا الغربية أمام جزر الكنارى ابتداء من نهر درعه إلى الرأس الأبيض . وتبلغ مساحتها ٢٨٥ كيلومتراً مربعاً . وهى من الأراضى الصحراوية ويبلغ عدد سكانها ثلاثين ألف نسمة .

وقد ادعت أسبانيا أن أفنى المنطقة المغربية من ممتلكاتها[١] وفى سنة ١٩٣٤ نزلت الجيوش الأسبانية فى هذه المنطقة واحتلتها على الرغم من احتجاج حكومة المغرب . أما السبب الذى حدا بأسبانيا إلى احتلال منطقة أفنى ، فهو أنها ــ أى أسبانيا ــ ادعت العثور على وثيقة باع ملك البرتغال بمقتضاها منطقة « سانت كروز » الواقعة جنوبى المغرب إلى ملك أسبانيا ، فى القرن السادس عشر ، وطالبت أسبانيا بضم هذه المنطقة المجهولة إليها . ولكن سانت كروز المزعومة ، لم تكن معروفة لدى أحد ، وفشلت بعثتان أرسلتا إلى جنوب المغرب للتعرف عليها . وأخيراً ادعت أسبانيا أن منطقة « أفنى » المغربية هى منطقة سانت كروز التى تبحث عنها .

وقد حاولت أسبانيا القضاء على القومية العربية فى المناطق

---

(١) المغرب الأقصى : المؤلف .

الواقعة تحت سيطرتها ، ولا سيما فى أفنى ، فعملت الحكومة الأسبانية إلى تحويلها إلى إقليم لاتينى بحت . ولذلك أصدرت فى سنة ١٩٤٧ . أمراً بضم هذه المنطقة إلى الممتلكات الأسبانية ، وتجريد أهلها من جنسيتهم المغربية .

ومن الغريب أن أسبانيا اعترفت باستقلال المغرب فى وثيقة رسمية بتاريخ ٧ أبريل سنة ١٩٥٦ ، وأكدت فيها اعترافها بوحدة الأراضى المغربية . ولوحظ أن أسبانيا أخذت تحاول أن تملى شروطاً تتنافى مع سيادة البلاد ، أثناء نقل السلطات إلى الحكومة المغربية ، فقد سلمت أسبانيا السلطات إلى المغرب فى المنطقة الشمالية ، وماطلت فى تسليم المنطقة الجنوبية إلى شهر أكتوبر سنة ١٩٥٧ ، حيث أعلنت لسفير المغرب الأقصى فى مدريد عن عزمها على تسلم منطقة طرفاية « أى منطقة الحماية الجنوبية » إلى السلطات المغربية . واستبشر شعب المغرب خيراً بإعلان جلاء أسبانيا عن أراضيهم حتى « ايت باعمران » سكان منطقة افنى الذين يدخل بعضهم فى نطاق الحماية ، بعد أن أرسلوا الوفود إلى الرباط ليلتمسوا من الحكومة المغربية مطالبة أسبانيا بالجلاء عن أراضيهم ، وما إن رجعوا إلى ديارهم حتى أخذت السلطات الأسبانية تنكل بهم وتسومهم العذاب لسبب واحد هو أنهم يحرصون كل الحرص على اعتبار أنفسهم من المواطنين المغاربة ، وأن مقاطعتهم التى يعيشون فيها لم تكن الأجزاء من أجزاء الوطن المغربى .

وفى سنة ١٩٥٨ أعلنت أسبانيا أنها قررت ضم « افنى » إلى جزر الخالدات الأسبانية ! !

وهكذا أعادت حالة التوتر فى هذه المنطقة من جديد .

الفصل الرابع

مشكلات المجتمع العربى الاجتماعية

الأقطار العربية فى جملتها بلاد زراعية . إذ أن الزراعة عماد الاقتصاد العربى . وتقوم الزراعة فى معظم الأقطار العربية على الأساليب البدائية القديمة . وقد عمد الاستعمار منذ جاء إلى الوطن العربى إلى إقامة النظام الإقطاعى ، ليخلق طبقة جديدة ترتبط مصالحها ببقاء الاستعمار . وأدى النظام الإقطاعى إلى انخفاض مستوى الإنتاج الفردى والعام وبالتالى إلى انخفاض الدخل القومى .

وقد ترتب على وجود الإقطاع انقسام المجتمع العربى ، وتباعد الأفكار العربية ، إذ أن ضعف القوة الشرائية عند الفلاحين العرب ، وهم أغلبية السكان يقف عقبة كأداء فى سبيل التقدم الصناعى ، وبالتالى يحول دون قيام التبادل التجارى كما أن الإقطاع يحول الفلاحين إلى أقنان تهدر كرامتها من أجل الرغيف . وتسيرها الزعماء كما يريدون قطيعاً بشرياً فاقد الحرية والإرادة والتفكير .

ومن المشكلات الاجتماعية التى يعانى منها المجتمع العربى « مشكلة الأقليات » سواء أكانت أقليات دينية أم أقليات

قومية . فى الوطن العربى أقليات دينية أهمها المسيحيون واليهود . . وأقليات قومية مثل الأكراد والأتراك . . ومشكلة الأقليات القومية والدينية لا تظهر بصورة واحدة فى جميع البلدان العربية ، فهناك بلدان عربية لا تكاد تعرف هذه المشكلة مثل الإقليم المصرى والمملكة السعودية واليمن وبلاد الخليج العربى . وقد تأثرت هذه الأقليات بالثقافة العربية ، وتأثرت بالإسلام من الناحية الخلقية حتى أصبح أبناء هذه الطوائف لا يختلفون كثيراً عن المسلمين المحيطين بهم .

والتاريخ العربى لم يفصل أبداً بين العرب المسلمين والمسيحيين إلا حينما بدأ الاستعمار يستغل الشعور الدينى لتفرقة الأمة العربية الواحدة .

فحين خرج العرب من الجزيرة العربية يحملون رسالة الإسلام ، حارب عرب الحيرة المسيحيون إلى جانب عرب الجزيرة المسلمين ضد الإمبراطورية الفارسية .

وقاتل العرب الغساسنة النصارى جنباً إلى جنب مع عرب الجزيرة المسلمين ضد الامبراطورية البيزنطية[١] .

وحين غزا الاستعمار الأوربى الأراضى العربية ، متستراً

---

(١) « العروبة أولا » : الأستاذ ساطع الحصرى .

باسم « الصليب » حارب العرب المسلمون والمسيحيون إلى جانب بعض ضد الصليبيين .

ولما قامت ثورة سنة ١٩١٩ فى مصر ، قامت على اشتراك جميع المواطنين العرب ، مسلمين ومسيحيين ، حيث قاموا سويا يطالبون بالاستقلال .

ولما بدأت المراسلات بين الشريف حسين وبين بريطانيا للاتفاق على حدود الدول العربية قبل قيام ثورة سنة ١٩١٦ ، رفض العرب التخلى عن ولاية بيروت التى أرادت بريطانيا فصلها عن الدولة بحجة أن معظم سكانها مسيحيون ، واستند العرب فى ذلك ، إلى أن سكان الولاية عرب لا يفرق بينهم الدين ما دامت تجمعهم القومية العربية الواحدة . والقومية العربية وحدت بين أفراد الأمة العربية الواحدة ، مهما اختلفت طوائفهم حين وحدت تاريخهم الطويل ولغتهم وثقافتهم وأهدافهم .

ومن مشكلات المجتمع العربى أيضاً « الإقليمية » وقد أوجدها الاستعمار وغذاها أعوانه لتكون بمثابة حواجز فكرية ونفسية تدعم الحواجز الجغرافية السياسية وتثبت التجزئة فى الوطن العربى ولكن الإقليمية تعبير شاذ عن وضع شاذ ، وترجع فى أساسها إلى ضعف الوعى القومى العربى . ولذلك فلا بد من زوالها حين يشتد تبلور هذا الوعى ، وتزداد معرفة الإنسان العربى لحقيقته .

وأبرز مشكلات المجتمع العربى « الفقر » . ويقول « توماس بين » : « إن الفقر ليتحدى كل فضيلة وسلام ، لأنه يورث صاحبه درجة من الانحطاط والتذمر تكتسح أمامها كل شيء.. ولا يبقى قائماً غير هذا المبدأ : كن . . أو لا تكن . . » .

أما مشكلة الجهل فتبدو واضحة جلية وحتى يمضى المجتمع العربى مع موكب المجتمعات الراقية المتمدنة يجب أن يزول الجهل ، وذلك برنامج ينفذ على عدة سنوات لتعليم جميع الأميين القراءة والكتابة ، تشرف عليه الدولة ويقوم بتنفيذه كل مواطن قادر بأن يفرض عليه تعليم ثلاثة من الأميين ، أو يدفع نفقات تعليمهم . وتفتح مدارس ليلية ومكتبات عامة فى كل مدينة وقرية . وتفرض غرامة على كل من تتاح له فرصة التعليم ويرفضه . على أن محو الأمية لا يكفى ، بل يجب بذل الجهود لنشر الثقافة العامة التى تفتح منافذ فى أدمغة الناس وتعودهم على التعاون ، وتربى فيهم ملكة الذوق .

ويعانى المجتمع العربى فى بعض الأقطار العربية من ، « مشكلة البدو » وتبدو هذه المشكلة واضحة فى الجزيرة العربية وبعض أجزاء العراق والمناطق الداخلية فى المغرب العربى وهؤلاء البدو لا يعتبرون أنفسهم جزءاً من أى المجتمع ، لشعورهم باستقلالهم فى معظم الأحيان ، فلهم شرائعهم وتقاليدهم الخاصة. ووسائل معيشتهم محصورة فى الإبل والماشية ، ولهم مشكلاتهم

الاجتماعية الخاصة . وهم محرومون من كل شيء الغذاء ، والعلم ، والخدمات الصحية والاجتماعية ، وعلى الرغم من وجود إمكانيات كبيرة من الأيدى العاملة فيهم ، إلا أن المجتمع العربى لايستفيد من وجودهم شيئاً رغم أن عددهم يبلغ نحو ربع عدد العرب .

ولذلك فمن المحتم على الحكومات العربية أن تعمل على توطين هؤلاء البدو الرحل ، وذلك لأن البداوة تتنافر بطبيعتها مع فكرة الأمة والقومية والدولة .

ومما لا شك فيه أن الأسرة هى دعامة المجتمع . . ويجب أن يقوم كيان الأسرة على المساواة بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات . ولا يحق للمجتمع أن يتدخل فى كيان الأسرة إلا إذا كان ذلك لضرورة قصوى حين يقع الضرر على أحد أعضاء الأسرة وخاصة الأطفال . أو إذا ثبت أن فى قيام هذا الكيان أو بقائه إساءة للمجتمع والكرامة الإنسانية[١] .

وقد أهمل المجتمع العربى المرأة فى الأزمان القديمة . فبقيت جاهلة ، مهدورة الكرامة ، حتى جاء الإسلام فاعتبر المرأة كائناً مستقلاً لا مجرد تبع للرجل . وأعطتها الشريعة الإسلامية شخصية قانونية كاملة وأمنت لها الاستقلال العادى .

---

(١) المجتمع العربى : دكتور على حسن الخربوطلى .

ويتحدث القرآن الكريم عن علاقة الرجل بالمرأة باعتبارها علاقة ثقة متبادلة ومودة ورحمة . وفى أول عهد الإسلام كان وضع المرأة وموقف الرجل تجاهها مقرراً على ضوء تعاليم القرآن والسنة . ولم يكن النساء فى تلك الأيام يعزلن أو يتحجبن بل كن يشاركن الرجال ويظهرن معهم فى المناسبات العامة .

وكان وضع المرأة العربية يعكس أحوال مجتمعها ، فعند ما كان المجتمع العربى منتجاً ومبدعاً ، ساهمت النساء فى أوجه نشاطه وشاركن فى قوته وفى رفاهته . وعند ما انحسرت حيويته ودب الانحلال فى أوصاله تأذت المرأة بجانب مجتمعها . وبنشوء الحياة الجديدة فى المجتمع العربى استعادت المرأة وعيها لتراثها وأخذت تدرك حاجاتها ومتطلبات العالم الحديث الذى تعيش فيه . وهى اليوم تساهم فى بناء مجتمع عربى جديد .

ومن أهم المشكلات التى تتعرض لها الأسرة العربية مشكلة « النسل » فالطفل هو أقوى صلة بين الزوجين ، وهو إذا لم يجد البيئة الصالحة لنموه ونشأته أصبح مشكلة كبرى . ومن الضرورى لمصلحة الطفل والأبوين والمجتمع ، أن ينظم النسل بالشكل الذى يتيح لكل مواطن أن ينعم بما منحته الطبيعة من قدرة على التناسل ، وأن يرى منها خير متنفس لعواطفه وغرائزه ، كما يجد فيها أحسن طريقة لحفظ نوعه .

وتنظيم النسل يعنى أولاً تنسيق الحمل ، فيجعل الأبوان بين كل طفل وأخيه ثلاث أو أربع سنوات . تستطيع الأم خلالها أن تعنى بطفلها وترعاه الرعاية الكاملة ، وتستريح خلالها من أعباء الحمل والرضاعة ، وتستعد لمرحلة جديدة . وعلى الأبوين أن يقنعا بثلاثة أو أربعة أولاد . ويبذلا الجهد الكبير فى سبيل تربيتهم تربية صالحة . وتعليمهم وتثقيفهم ثقافة واعية ، وإنه لخير للأبوين أن يقدما للوطن فرداً صالحاً نافعاً ، من أن يقدما عشرة أفراد لا جدوى من ورائهم .

ونحن نعلم أن منشأ هذه الفوضى التناسلية ، راجع إلى سوء فهم الدين والقدر والتوكل . والإسلام يبيح التحكم فى النسل لصالح المجتمع ولصالح الفرد ، ويعد الإسراف فيه — مع وجود الخصاصة والضيق — ضرباً من البلاء لا يطاق .

فى حديث شريف أن النبى عليه السلام ، كان يكثر من هذا الدعاء :

« اللهم إنى أعوذ بك من جهد البلاء » .

قيل : وما جهد البلاء يا رسول الله ؟

قال : قلة المال ، وكثرة العيال .

وسئل عن العزل . . فقال . . لا عليكم ألا تعزلوا »

والعزل يومذاك كان الوسيلة الوحيدة التى يمكن بها التحكم فى النسل وضبطه ، وقد أباحه الرسول بلا قيد كما رأينا فى الحديث السابق .

ولا بد مع تحديد النسل من تنظيمه ، والفرق بين الاثنين واضح : فالأول يعنى الكم ، والثانى يعنى الكيف ، كلاهما ضروريان لسلام المجتمع وأمته(١) .

والمواطن الصالح لا يقبل أن يكون أباً وزوجاً وهو يحمل مجموعة من الأمراض والأوبئة ، يعلم أنه سيورثها لعقبه وذريته . ومن الواجب أن يتوجه كل مواطن ومواطنة إلى مكاتب الكشف الطبى فى غبطة وشجاعة قبلما يحاولون أن يكونوا أزواجاً أو زوجات .

والمواطنية لم تعد تعنى موقف الحياد السلبى والعزلة أمام الواجبات ، بل هى أن يؤدى كل فرد التزاماته ، كمواطن ، وتحمل تبعة الرشد كأنسان .

إذا نظرنا إلى المواطنية نظرة صحيحة — وجب أن تشمل جميع أعمال الإنسان التى تمس بنى جلدته ، وتؤثر فى سلامة الدولة ورخائها — وتكاد تكون صنواً لواجباته نحو جاره ، وتتضمن هذه المواطنية كل شىء تقتضيه شرائع الدولة ويتطلبه

---

(١) من هنا . . . نبدأ : الأستاذ خالد محمد خالد .

الضمير الإنسانى .

وليست المواطنية شيئاً سلبياً — أى مجرد امتناع المرء عن التصرفات غير الوطنية ؛ بل هى عمل إيجابى . وفى هذا يقول « بركليس » — إننا لا نعد الرجل الذى يقف موقف العزلة أمام الواجبات العامة ، رجلا هادئاً ؛ بل نعده رجلاً لا خير فيه . . ويقول « بيرك » الحياة العامة مركز للسلطات والنشاط . والرجل الذى ينام أثناء نوبة حراسته يذنب فى حق الدولة عليه ، شأنه فى ذلك شأن من ينضم إلى أعداء بلاده .

. . والدولة المثلى هى التى يعقد كل مواطن من مواطنيها العزم على أن يكون جزءاً من المجتمع الذى يعيش فيه ، ويساهم فى أعبائه ويضع مصلحة المجتمع قبل مصلحته الخاصة.

وهذه الدولة آلة لا نجد فيها جزءاً واحداً من أجزائها معطلاً أو خاملاً ، أو صادئاً ، أو مكسوراً ، أو موضوعاً فى غير موضعه . . وفيها يساهم كل ترس بقسطه الكامل من العمل فى سرعة وتناسق .

فالرجل الذى يتملص من أداء الضريبة المفروضة عليه — مواطن ردىء ، ومثله أيضاً الرجل الذى لا يفكر حين يدلى بصوته فى الانتخابات البرلمانية إلا فى مصالحه الخاصة ، أو يهمل الاقتراع — وتلك أيضاً حال صاحب العمل الذى يضاعف مشاكل وطنه بسوء معاملة عماله . . ومثل هؤلاء أيضاً

أرباب المكاسب الفاحشة ، وتجار السوق السوداء وعملاؤها ، والذين يؤثرون مصالحهم الخاصة حينما تكون مصائر بلادهم فى كفة الأقدار » (١) .

فالمواطنية ، دين يدعو المواطن إلى بذل الواجب من أجل الوطن . . ويدعو الوطن إلى تمكين الفرد من أداء الواجب .

فالمواطنية تحتم على الفرد أن يحافظ على استقلال بلده وحريته ، وأن يعمل جاهداً فى سبيل رقيه ، وأن يحترم القانون والنظام ، وأن يرشد غيره إلى الصراط المستقيم ويؤدى الضرائب ويقوم بعمله خير قيام مستهدفاً الصالح العام للمجتمع .

والمواطنية تحتم نشر العلم ، فالعلم هو النافذة التى نطل منها على الحضارة والمدنية ، وتفتح آفاقاً جديدة للشعوب . والعلم ضرورى لبناء المجتمع العربى الجديد الذى ننشده فهو الذى يزودنا بالفنيين والمهندسين والصناع المهرة وغير ذلك مما هو ضرورى لقيام الصناعات المختلفة . ومن أهم واجبات المجتمع وتحسين أحوال أفراده ، وتوفير حياة كريمة لهم .

(١) « التربية لعالم حائر » تأليف سبر وتشرد لفنجستون ترجمة الأستاذ وديع الضبع .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١

دار المعارف بمصر

مجموعة "أولادنا"

- مجموعة اشترك فى تحريرها أعلام القصة فى الشرق والغرب وازدانت بصفاء لغتها وقوة أسلوبها وأناقة رسومها وجمال إخراجها .

- مجموعة مفيدة لا غنى عنها لأولاد العروبة لما تقدمه لهم من قصص عالمية تنعم بمطالعتها الناشئة الحديثة فى أقطار العالم .

- مجموعة طريفة يختص كل كتاب منها بقصة واحدة تفيض بالمغامرات والحوادث العجيبة المملوءة بآيات البطولة والشجاعة والإقدام .

صدر منها ٢٢ كتاباً   ثمن الكتاب   ١٥ قرشاً

دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع

سبتمبر ١٩٦١

الثمن ٣٠ مليماً
٣٠ قرشاً سورياً

